

أرنولد توينبي
مختصر
دراسة للتاريخ

الجزء الثالث

ترجمة: فؤاد محمد شبل
مراجعة: محمد شفيق غربال
أحمد عزت عبد الكريم
تقديم هذه الطبعة: عبادة كحيلة

ميراث الترجمة

1716

مختصر دراسة للتاريخ

(الجزء الثالث)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بأشراف: جابر سمور

إشراف: فببصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1716
- محمدر دراسة للتاريخ (الجزء الثالث)
- أرنولد توينبى
- فزاد محمد شبل
- محمد شفيق غربال، وأحمد عزت عبد الكريم
- عيادة كحيلة
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. III)

By: Arnold J. Toynbee

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالازوير - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثالث)

تأليف : أرنولد توينبي

ترجمة : فؤاد محمد شبل

مراجعة : محمد شفيق غربال

وأحمد عزت عبد الكريم

تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيلة



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الثالث) / تأليف: أرنولد توينبى،
ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال، أحمد عزت
عبد الكريم.

القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٤٨٤ ص، ٢٤ سم

١- التاريخ

(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)

(ب) غربال، محمد شفيق، ١٨٩٤ - ١٩٦١ (مراجع)

(ج) عبد الكريم، أحمد عزت (مراجع مشارك)

(د) العنوان

٩٠٧، ٢

رقم الإيداع ٢٠١١ / ٤٩٧١

الترقيم الدولى : 978-977-704-487-5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

للمترجم

- ١ - تقرير غرفة الإسكندرية التجارية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧
- ٢ - النظام المالى فى الإسلام
- ٣ - عصب الحرب
- ٤ - الدستور السوفيتى - دراسة تحليلية انتقادية (رسالة جامعية)
- ٥ - المدينة الفاضلة - بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين
- ٦ - السياسات الاقتصادية الدولية
- ٧ - دراسات فى اقتصاديات القارة الإفريقية
- ٨ - مختصر دراسة للتاريخ للأستاذ توينبى - ترجمة (أربعة أجزاء)

تقديم

انجى الأستاذ العلامة أرنولد توينبى خلال الجزئين الماضيين من هذه الدراسة ، إلى البحث عن ميادين للدراسة التاريخية قابلة للفهم بدواتها فى نطاق حدودها المكانية والزمنية المعينة . فقاده البحث إلى العثور عن هذه الميادين فى مجتمعات دعاها بـ « الحضارات » . فكان أن عمل على إثبات شخصية أكبر قدر ممكن من الحضارات . ووجد خلال بحثه ، أدلة العلاقة بين الحضارات ؛ فى طائفة من المظاهر الاجتماعية المميزة تتمثل فى :

أقلية مهيمنة - بروليتاريا داخلية - بروليتاريا خارجية .

فأما الأقليات المسيطرة ؛ فإنها هى الطبقات المبدعة فى المجتمع التى أنجبت المدارس الفلسفية التى ألهمت وقتاً ما إنشاء الدول العالمية .

وأما البروليتاريات الداخلية ؛ فعن طريقها نشأت الأديان السامية التى تطورت إلى عقائد دينية عالمية .

وتولدت عن البروليتاريات الخارجية : عضور البطولة ؛ التى تنبعث عنها الملاحم الشعرية .

وتتولى الدول العالمية والأديان العالمية وعضور البطولة ، ربط الحضارات بعضها إلى البعض الآخر . وهذا ما يبحثه الأستاذ توينبى فى هذا الجزء من الدراسة .

ثم ينتقل من هذا البحث إلى دراسة الاتصال بين الحضارات فى المكان . فالحضارات تتلاقى وتتصادم ويؤثر بعضها فى البعض الآخر . ويتناول الجزء الحالى من الدراسة بحث التلاقى والتصادم بين الحضارة الغربية من ناحية

«وكل من : روسيا ، الإمبراطورية العثمانية ، الهند ، الصين واليابان ،
العالم الإسلامي ، اليهود ، من الناحية الأخرى .

ثم يُلقى المؤلف بعد ذلك نظرة على الاتصالات التي جرت بين
حضارات الجبل الأول : السندية ، الصينية ، المصرية ، السومرية .

ويطيب لي أن أزجي خالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور
أحمد عزت عبد الكريم أستاذ التاريخ الحديث وعميد كلية آداب عين شمس
على تفضله باستكمال مراجعة هذا الجزء . ولقد كانت لإرشاداته القيمة
وتوجيهاته السديدة أثر عظيم في استكمال ترجمة هذه الدراسة التاريخية
الفلسفية ، بعد وفاة الأستاذ المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال رحمه الله الذي
تولى مراجعة الجزءين الأول والثاني وبعض فصول هذا الجزء .

والله تعالى أسأله التوفيق والسداد .

فؤاد محمد سبيل

القاهرة في ١٤ يوليو ١٩٦٤

الباب السادس

الدول العالمية

الفصل الثالث والعشرون

غايات أم ذرائع ؟

انحصرت نقطة بداية هذا الكتاب ؛ في البحث عن ميادين للدراسة التاريخية ؛ قابلة للفهم بذاتها ، في نطاق حدودها المكانية والزمنية المعينة ؛ وذلك مع إغفال الإشارة إلى الوقائع التاريخية الدخيلة .

وقادنا البحث عن هذه الوحدات المستقلة بذواتها ؛ إلى العثور عليها في مجتمعات من الأنواع التي دعوناها بـ « الحضارات » .

وما برحنا نعمل وفقاً للافتراض القائل بأن الدراسة المقارنة لمبادئ الواحد والعشرين حضارة التي وفقنا في إثبات شخصيتها ، وفي بحث ارتقائها وانهارها وتحللها ؛ تضم بين طياتها كل شيء ذي مغزى في التاريخ البشري ؛ منذ أن انبعثت الحضارات الأولى إلى الوجود من بين ثنايا المجتمعات البدائية . على أننا قد عثرنا ، بين الفينة والفينة ، على دلائل تُنبئ بأن مفتاحنا الرئيسي الأول ، قد لا يكفي لفتح جميع تلك الأبواب التي علينا اجتيازها لبلوغ نهاية رحلتنا الذهنية .

وفي غضون مرحلة لإثبات شخصية أكبر قدر ممكن من الحضارات التي تبين وجودها ؛ ألفينا — في بداية البحث — أن بعضها يتصل ببعض الآخر في وضع دعواناه بـ « الأبوة والبنوة » . ووجدنا كذلك ، أدلة هذه العلاقة في طائفة من المظاهر الاجتماعية المميزة تتمثل في :

أقلية سيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية ؛

وينشق المجتمع الثابت النسب في سياق مرحلة تحلله إلى تلك المظاهر ؛

وظاهر أن الأقليات المسيطرة ، هي التي أنجبت الفلسفات التي أهتمت

إنشاء الدول العالمية وقتنا ما .

ونشأت عن البروليتاريات الداخلية ؛ الأديان السامية التي رنت إلى التطور إلى عقائد دينية عالمية .

وتولدت عن البروليتاريات الخارجية ؛ عصور البطولة التي هي ملاحم عصابات الحرب من المتبرزين .

وظاهر أن هذه المراحل والنظم تؤلف بوجه الإجمال رباط الأبوة والبنوة بين حضارتين ؛

وليس هذا الرباط بين حضارتين غير معاصرتين (في قياس الزمن) ؛ هو نوع العلاقة الوحيدة بين الحضارات التي تُضفي عليها من ضوئها ، الدراسة المقارنة للدول العالمية والأديان العالمية وعصور البطولة . ذلك لأن قوام هذه الشظايا ، عناصر دخيلة تنأثرت عن حضارات أخرى تُعاصر الحضارات التي انهارت ثم تحللت . فكان أن توافرت لها حرية الامتزاج بها ، اجتماعياً وثقافياً . ويُنبئنا التاريخ أن بعض الدول العالمية ، ثمرة جهد أجناب من بناء الامبراطوريات ؛ وأن بعض الأديان السامية قد بثت فيها الحياة ، إلهامات أجنبية الأصل ؛ وأن بعض عصابات الحرب من المتبرزين ، قد تشرب صبغة من ثقافة دخيلة عليه .

وهكذا ؛ تتولّى الدول والأديان العالمية وعصور البطولة ، ربط الحضارات بعضها إلى البعض الآخر ؛ سواء المعاصرة لها أم غير المعاصرة . ويُشير هذا سؤالاً مداره فيما إن كنا مُحَقِّقِينَ في بحث مظاهر فرعية ترتبت عن تحليل إحدى الحضارات ؛ أفلا يجدر بنا السعى لدراستها ، الدراسة التي تستحقها ؟

ولن نتأكد من استيعابنا تاريخ البشرية بأسره (بعد مرحلتها البدائية) ، إلا ببحثنا الشروط اللازمة لكل نوع من النظم الثلاثة ليُصبح ميداناً للدراسة قابلاً للفهم بذاته . وأن نأخذ في الحسبان كذلك ؛ البديل القائل بأنها تكون أجزاءً من كُـلٍّ أعظم ، يضمها بين طياته هي والحضارات على السواء ،

ولقد اقتضى منا ذلك البحث ؛ تكريس نهاية الباب الخامس من هذه الدراسة ، وسنبرئ ذمتنا منه في الأبواب السادس والسابع والثامن .

على أننا سنعنى في الوقت الحاضر ؛ بدراسة موضوع الدول العالمية ؛ وعسانا نبدأ بالتساؤل فيما إذا كانت غايات أم ذرائع لتحقيق شيء أعلى منها . ولعل خير سبيل لمعالجة الموضوع ، تذكير أنفسنا بطائفة من المظاهر البارزة للدول العلمية ؛ وهى مظاهر سبق أن تأكدنا منها فعلا :

المظهر الأول - تنبعث الدول العالمية بعد انهيار الحضارة ، لا قبله ؛ وتتولى هذه الدول تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعى ؛ ولا يعتبر قيامها صيفا حقيقياً ، لكنه « صيف هندي »^(١) يُخفى وراءه الخريف ويُندر بالشتاء .

المظهر الثانى - تنبعث الدول العالمية عن الأقليات المسيطرة . وهى أقليات فقدت طاقتها الابداعية السابقة . وهذه السلبية ؛ هى دمغة سلطانها الأساسية ؛ وهى الوضع الرئيسى لقيامها ، والمحافظة على كيانها .

المظهر الثالث - يعتبر انبعاث الدول العالمية . تعبيراً (وهو هنا تعبير واضح) عن « لمّ الشعث » ، إبان عملية التحلل التى تمارس فعلها فى صورة خفقات من « كسرة ونهضة ثم كسرة »^(٢) . وتسترعى هذه الظاهرة الأخيرة بالذات . مُخيلة المرء وتستثير امتنان الجيل الذى يعيش ليرى تشييداً موفقاً لدولة عالمية ؛ تضع حدا لعصر اضطرابات .

فإن أخذت هذه المظاهر معاً ؛ تعرض صورة للدول العالمية تبدو للوهلة الأولى مبهمة . فبينما هى ظواهر تحلل اجتماعى ؛ إذا بها فى نفس الوقت

(١) الصيف الهندى : صيف يأتى فى غير وقته ، فهو صيف كاذب ، إذ ينشئ الهند فى الخريف ثم يعقبه الشتاء . (المترجم)

(٢) راجع تفصيل ذلك الفصل الحادى والنشرين « إيقاع التحلل » الوارد بالجزء الثانى من هذه الدراسة . (المترجم)

محاوالت لكبح جماح هذا التحلل ومناوئته . وما تشبث الدول العالمية بأسباب الحياة بعد تشييدها ؛ إلا واحدا من أهم سماتها الظاهرة . لكن يدفعنا هذا إلى الظن بأنه من أسباب حيويتها ؛ بل إنه ظاهرة لامتداد الأجل العنيد ، لعجوز يأبى أن يموت .

وحقا ؛ تُبدى الدول العالمية ميلا إلى اعتبار نفسها غايات في حد ذاتها . في حين أنها تمثل في حقيقة الأمر ، مرحلة من مراحل عملية التحلل . فإن كان لها مزية خلاف ذلك ، فلقد تصبح ذريعة لهدف معين ، بعيداً عنها وأعلى منها .

الفصل الرابع والعشرون

سراب الخلود

إذا ما تطلعنا إلى هذه الدول العالمية من خلال أنظار مواطنيها ،
لا باعتبارنا مراقبين أجنبين ؛ سنجد أن هؤلاء المواطنين لا يتمنون الحياة
الدائمة لدولهم الجامعة فحسب ، بل أنهم ليؤمنون بكفالة خلود هذه النظم
التي صاغها البشر ؛ بيد أن المراقب ، إذ يتطلع إليها من خلال الأحداث
المعاصرة الرهيبة التي تتبدى في صور مختلفة ، سواء في الزمان أو في المكان ؛
يستشف بكل تأكيد ، أن هذه الدول العالمية موضع بحثه ، تلفظ آخر
أنفاسها ، في تلك اللحظة بالذات ؛

ولعل المراقب على حق في تساؤله عن السبب الذي يدفع مواطني دولة
عالمية ، إلى اعتبارها « أرض الميعاد »^(١) ، وأنها هدف الجهود البشرية ،
ولا يعتبرونها مجرد ملاذ في فلاة الإنسانية . وهم يتحدثون بذلك حقائق الحياة ،
وهي حقائق ظاهرة الواضح . بيد أن ثمة تحفظاً في هذا القول مبناه أن عاطفة
مواطني الدول العالمية ، تجاهها تقتصر على الدولة العالمية التي يُقيمها بناء
إمبراطورية وطنيون ، وما كان أحد الهنود — مثلاً — ليرجو أو يتنبأ بخلود
سلطان الإنجليز في الهند ؛

ومصدّقاً لهذا الرأي ؛ يؤكد في إيمان صادق الجيل الذي عاصر السلام
الأوغسطي في تاريخ الإمبراطورية الرومانية وهي دولة الحضارة الهلينية
العالمية ؛ أن الخلود قد كتب للإمبراطورية وللمدينة روما التي شيدتها : من

(١) أي الغاية المرجوة . (المترجم)

ذلك أن تيبوليس Tibullus^(١) يتغنى به « أسوار المدينة الخالدة » . ويتكلم
فيرجيل^(٢) على لسان بطله إيويتر Iuppiter عن الورثة الرومانيين لعصر
الآينياس Aeneas فيقول « إلى أمنحهم إمبراطورية لا نهاية لها » . ويكتب
ليفى بنفس روح التأكيد عن « المدينة التي أنشئت لتخلد » .

ولقد تشكك هوراس Horace^(٣) في خلود أشعاره الغنائية : إذ جعل من
تكرار الدورة السنوية لطقوس الدولة الرومانية الدينية ، مقياسه التقديرى
للخلود : إلا أن أشعاره الغنائية ما تزال باقية على شفاه الناس ، أما عن
بقائها خالدة ، فهذا ما يمكن التأكد من قوله : إذ يقل في الأزمنة الحديثة
بشكل محزن ، عدد أولئك الذين يقتبسونها ؛ قلة تعزى إلى ما طرأ على
أساليب التعليم من تغيرات ، وأياً ما يكون الحال ؛ فقد عاشت أشعار هوراس
الغنائية فترة تعدل أربعة أو خمسة أمثال حياة الطقوس الدينية الوثنية الرومانية .
التي تمنى أن تخلد أشعاره خلودها .

وبعد انقضاء أكثر من أربعمائة سنة من عصرى هوراس وفرجيل (أى
بعد نهب الزعيم القوطى الآريك Alarik روما مما أئذ بنهايتها) ؛ نجد
روتيلوس ناماتيانوس Rutilius Namatianus شاعر بلاد الغال ، يؤكد
متحدياً ، خلود روما : ونجد بالمثل ، القسيس جريجوري ، إبان اعتزاله بمدينة

(١) تيبوليس (حوالى ٥٤ - ق . م) : شاعر روماني يمتاز شعره بالركة والوضوح
(المترجم)

(٢) فيرجيل : شاعر روماني (٧٠ - ١٩ ق . م) ويقال إنه تلقى تعليمه عن سيرون
الأيقورى . وأهم أعماله Georics ومتاز بأصالتها . ويتلوها الآيناد Aenead ، وفيها تغنى
بأنجاد روما ويطلها إيويتر .
(المترجم)

(٣) هوراس (٦٥ - ٨ ق . م) . شاعر روماني . ولقد انضم في شبابه إلى قوات
هروتوس خصم أوكتافيوس وأنطونيوس . واشترك في موقعة فيلبى التي خسرها بروتوس .
على أن فيرجيل استطاع تقديم هوراس إلى أصحاب النفوذ فأمكن تعيينه شاعر البلاط . وقد
خلف هوراس مجموعة ضخمة من الأشعار أهمها أشعاره الغنائية .
(المترجم)

القدس ، يتوقف عن أبحاثه الكهنوتية ليعبر عن حزنه لمصير روما ، في لغة تكاد أن تماثل لغة روتيلوس .

فها هنا الموظف الرسمي الروماني يشترك مع القديس المسيحي في رد فعل عاطفي تجاه حدث لم يكن ، وفقاً لتفكيرنا الحاضر ، ثمة بد من وقوعه .

وإن الصدمة التي أحدثها سقوط روما عام ٤١٠ ميلادية في نفوس رعايا دولتها العالمية ، الذين توهّموا أئديهم وجودها ، لتماثل الصدمة التي حلت برعايا الخلافة العباسية ، وقتما سقطت بغداد عام ١٢٥٨ في أيدي المغول . وإذا كانت الصدمة الأولى قد أحس بها العالم الروماني من فلسطين إلى بلاد الغال ، فقد شعر بهول الصدمة الثانية المسلم العربي من فرغانة إلى الأندلس . بل إن عنف تأثير الصدمة السيكلوجي ، كان أقوى في حالة العرب منه في حالة الرومان . ذلك لأن سيادة الخلافة العباسية ، كانت عديمة التأثير ، قبل أن يوجه هولاءكو ضربته القاضية بثلاث أو أربعة قرون ، إلى القسم الأعظم من أملاكها التي كانت تبسط عليها سلطانها .

وغالباً ما يُغرى هذه الهالة من الخلود الماسح التي يكتسبها الدول العالمية ، زعماء من البرابرة أشد فطنة ، وقت شروعيهم في تثبيت أسلابهم فيما بينهم ، على الانقياد لوهم الدولة العالمية الخالدة ، ألياداً أعمى . ويطالعا في هذا الصدد ، سعى زعماء أسرة آمالنج Amalung من آربي القوط الشرقيين ، وزعماء أسرة بني بويه من الديلم وكانوا من الشيعة ، إلى إحراز صك ملكية فتوحاتهم بالادعاء بأنهم إنما يحكمونها نيابة عن إمبراطور القسطنطينية وخليفة بغداد ، على التوالي ، بيد أن هذا الإجراء الحصيف ، لم يعصم العصابات الحربية ، من التردى في نفس مصير الدولتين العالميتين اللتين ناءتا تحت أثقال الشيخوخة : ويعزى هذا ، إلى استمساك تلك العصابات ، بعقائد دينية منحرفة ، في نظر الكثرة .

إلا أن ثمة عصابات أخرى ؛ وفقت في استخدام نفس المناورة السياسية توفيقاً باهراً ، يرجع إلى فطنتها (أو حسن طالعها) التي جنبتها انحراف عقائدها الدينية . مثال ذلك ، أن كلوفيس ملك الفرنجة (ويعتبر أعظم مؤسس الدول البربرية التي خلفت الإمبراطورية الرومانية توفيقاً) قد أتبع اعتناقه الكاثوليكية ، وأحرق لقب نائب القنصل مع شعارات المنصب من أناستاسيوس Anastasius إمبراطور القسطنطينية النائية عنه . ويشهد على نجاحه ، إطلاق اسم لويس ، وهو ربما صورة مرققة من اسمه (كلوفيس) على ثمانية عشر ملكاً حملوا في الأجيال التالية اسم لويس ، وحكموا الأرض التي غزاها :

وُتبدى الإمبراطور العثماني نفس مظاهر الخلود الخداع ؛ في الوقت الذي انحدرت منزلتها إلى « رجل أوروبا المريض » . والامبراطورية العثمانية — كما قدمنا في موضع مبين من هذه الدراسة — هي الدولة العالمية للحضارة البيزنطية . وهنا نجد قادة الحرب الطموحين من أمثال محمد علي في مصر وسوريا ، وعلى باشا في رومانيا ، وباش فانوكلو في فيدين وحاكم الركن الشمالي الغربي للرومان ، يبتدئون بجدّهم دولاً خلقت الإمبراطورية العثمانية . لكن ؛ دأب هؤلاء الملوك على أن ينفذوا باسم الباديشاه ، تحقيقاً لأطماعهم الخاصة ببيع الأعمال الضارة بمصالح الباديشاه نفسه . وسارت الدول الغربية على منوالهم مع الباب العالي . من ذلك أن بريطانيا ظلت تدبر باسم السلطان في الأستانة : قبرص ابتداء من عام ١٨٧٨ ومصر منذ عام ١٨٨٢ ؛ إلى أن ألقت نفسها عام ١٩١٤ تحارب تركيا .

ويسفر تاريخ الدولة المغولية للحضارة الهندية عن نفس المظاهر . فان الدولة التي كانت تمارس سلطانها الفعلي على الجانب الأكبر من شبه القارة الهندية ؛ قد ضوّلت بعد انقضاء خمسين سنة من وفاة الإمبراطور أورنجزيب عام

١٩٠٧ ، إلى كيان يمتد ٢٥٠ ميلاً طولاً ومائدة ميل عرضاً . ثم تناقص بعد انقضاء خمسين سنة أخرى ، إلى دائرة أسوار القلعة الحمراء في دلهي . بيد أنه بعد انقضاء ١٥٠ سنة من عام ١٧٠٧ ، كان ثمة سليل لأكبر نوأورنجزيب ، ما يزال يعتد عرشهما . ولربما قيّض له البقاء مدة أطول من ذلك ، لولا أن مار ١٨٠٠ قد أرغموا هذا الألعية المسكين - ضد رغبته - على منح برتبه لورثتهم ، ضد سلطان آخر^(١) قدم من وراء البحار بعد فترة من العاصي في البلاد ؛ ونصب نفسه مكان سلطان المغول الذي انهار منذ زمن هوبل ، والذي كان هذا الامبراطور رمزاً له .

وثمة بيّنة عن التشبّه بالإيمان بخلود الدول العالمية ، أجدر من ذلك بالاعتبار . وتتجلى في تحولات أشباح تلك الدول ، بعد ما يبين انقضاء أجلها . ويطالعنا في هذا المقال أمثلة عدة نسوق منها ما يلي :

إقامة خلافة بغداد العباسية في القاهرة ، استعادة الامبراطورية الرومانية الشرقية للمسيحية الأرثوذكسية ؛ استعادة إمبراطورية أسرقى تسين وهان في حضارة الشرق الأقصى ، في صورة إمبراطورية سيوى وتانج .

ولقد خلع مؤسس الامبراطورية الروسية لقب « قيصر » . أما لقب « الخليفة » ، فإنه انتقل إلى القاهرة في القرنين الأستانية ؛ حيث ظل هناك ردحا من الوقت ؛ حتى ألغاه في القرن العشرين ، الثوار الأتراك المتغربون^(٢) .

وتلك هي مجرد أمثلة من فيض الأحداث التاريخية التي تصوّر ثبات الاعتقاد في خلود الدول العالمية . رغم أن منافاته لحقائق الحياة القلسية :

فما هي أسباب هذه الظاهرة الغريبة ؟

(١) أى الإنجليز . (المترجم) .

(٢) أى من اصطبغوا بالصبغة الغربية . (المترجم)

مناط السبب الظاهر ؛ قوة التأثير الذى يحدثه منشئو الدول العالمية وحكامها العظام . تأثير يسرى منهم إلى أعقاب واحة ، ويحمل بين ثناياه : تضخيم الحقيقة المجردة ، وتحويلها إلى أسطورة شاملة .

وثمة سبب آخر يكمن فى تأثير النظام نفسه ، بصرف النظر عن حكامه العظام . فإن الدولة العالمية أسس القلوب والعقول ، بفضل تجسيمها فكرة « لمْ شعث الشعب » بعد انقضاء فترة طويلة من « الكسرة » ، إبان عصر اضطرابات . ومن خلال أسطورة ؛ فازت الإمبراطورية الرومانية فى نهاية المطاف ؛ بإعجاب الأمم اليونانيين ، خصوصها بالأصالة . أولئك الذين كتبوا فى عصر الأنطونين ، الذين حكم عليه جيبون بعد انقضائه بزم من طويل ، بأنه الفترة التى أدرك فيها الجنس البشرى أعلى مراتب الهناءة .

وفى هذا يقول المؤرخ أريستيديس : « لا أمل فى استقلال غير مصحوب بقوة . إن وضع الإنقاذ نفسه تحت حكم من هو أقوى منه ؛ يعتبر بديلا أقل من الاستقلال . لكنه يفضل غيره إطلاقا ، مصداقا لبخشنا — الحاضر عن الإمبراطورية الرومانية . إن هذه التجربة ، قد دفعت العالم للالتحاق بروما بالبائع والراعى . وما عاد أحد يفكر فى الانفصال عن روما ، إلا بمقدار ما يفكر بجارة سفينة فى التخلي عن صُحبة ربانها . لا بدو أنك قد شاهدت خفاضا ينصق أحدها بالآخر وتحكم جميعها تماسكها بالصخور . ذلك هو مدى اعتماد العالم بأسره على روما . ويستجمع القلق اليوم فى كل قلب ، خشية انتزاعه من العقود . وتثير فكرة تخلى روما عن العالم ، الملح ، حتى أنها تصد أية فكرة طائشة عن التخلي عنها . ان ثمة نهاية لتلك المنازعات حول السيادة والاعتبار ، وهى أسباب اندلاع جميع الحروب الماضية . وعلى حين أن بعض الأمم — مثله مثل الماء المتدفق هادئا — أصبح يهنا بالهدوء أو ينعم بتحرره من الكد والقلق ، قد أدرك أخيرا بطلان مجاهداته القديمة ؛ فإن ثمة أخرى بلغت الحال بها أنها عدت لا تدرك أو تتذكر هل سبق لها تسلم كرمى الحكم مستقلة . وفى

«الواقع ، فإننا نشهد زاوية جديدة من أسطورة بامفيليا Pamphylia» (١) ،
 « وفي اللحظة التي كانت فيها أحداث دول العالم تُعرض بالفعل لتحرق
 على أكوام الخطب - بفعل صراعها مع بعضها بعضاً - وأتائها جميعها
 سلطان روما ، فكان أن بثّ فيها الحياة توا . فكيف وصل بها الحال إلى
 هذا المآل . إنها لا تدرك بسبب جهلها المطبق ، إلا أن في قدرتها أن تعجب
 من هزائنها التي أصبحت تنعم بها . إنها كالنيام المستيقظين الذي أفاقوا لأنفسهم
 فأخذوا يطردون عن أفكارهم الأحلام التي كانت تلازمهم منذ لحظة
 واحدة فقط . لم تعد تلك الدول تصدق بوجود شيء اسمه الحروب . . .
 أصبح العالم المسكون بأسره يستمتع براحة أبدية . . . وهكذا فإن الشعب
 الوحيد الذي ما يزال يستحق الشفقة لحرمانه من الأشياء الطيبة ، هو الشعب
 الذي يُقيم خارج حدود إمبراطوريتك إن كان هناك شيء خارجاً عنها » (٢) .

ويستوقف نظرنا ، تساؤل الكثير عن حقيقة وجود أي شيء يستحق
 الذكر خارج نطاق الإمبراطورية الرومانية ، وهذا ما يبرر إطلاقنا أسم
 « الدول العالمية » على تلك النظم السياسية الإمبراطورية الرومانية . وأنها
 لعالمية ، لا بسبب اتساعها الجغرافي فحسب ، ولكن بفعل تأثيرها السيكولوجي
 في نفوس الناس . إذ ينصحنا هوراس ، أشعاره الغنائية - مثلاً - بأن
 لا نقيم وزناً لتهديدات تيريداتس Tiridates ملك بارثيا Parthia (٣) ،

(١) بامفيليا : قطر قديم كان يقع في الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . وكان في بداية
 أمره جزءاً من الإمبراطورية الفارسية . ثم امتلكته مقدونيا ثم سوريا ثم روما ثم العرب وأخيراً
 تركيا . وهو الآن إقليم ألتنة . ويعني الأستاذ المؤلف بهذا التعبير ، أسطورة غير قابلة للتصديق ،
 ولعلها أسطورة من ابتداع أفلاطون نفسه . (المترجم) .

Aristeides, P. Aelius (A. D. 117-84 : In Roman) (٢)

(٣) بارثيا Parthia : قطر في آسيا الغربية كان يقع جنوب شرق بحر قزوين . ومكانه
 الآن في القسم الشمالي من مقاطعة خراسان الإيرانية . وقد كونت بارثيا لنفسها منذ عام ٢٥٠
 ق . م إمبراطورية شمل سلطانها الفراتين وبحر قزوين ونهر السند ، ووصل نفوذها إلى
 المحيط الهندي . وأخيراً انتهى بها المطاف إلى وقوعها منذ عام ٢٢٦ م تحت سلطان ملكة
 فارس . (المترجم) .

وهو لا يهتم لها وإن كانت قائمة بالفعل . وعلى غرار هذه الفكرة ، افترض الأباطرة المانشوكيون للدولة الشرق الأقصى العالمية في معاملاتهم الدبلوماسية ، أن جميع الحكومات — بما في ذلك حكومات العالم الغربي — قد حصلت من السلطات الصينية في فترة ماضية غير معروفة ، على التصريح بالبقاء في العالم .

على أن واقع هذه الدول العالمية ؛ يختلف كل الاختلاف عن التصوير البديع الذي رسمه أليوس أريستيديس Aelius Aristeides وغيره من مادحيها في مختلف العصور . ويطالعا في هذا المقام قصة ابتكرتها عبقرية الأساطير العالمية عن ملك أثيني (ولا يخفى أن الحدود النوبية هي حدود الإمبراطورية العالمية المصرية الجنوبية) ؛ أحبته لسوء حظله الربة إوس Eôs ربة الفجر الخالدة . فكان أن تضرعت الربة إلى رفاقها من أرباب الأوليمب^(١) ، لكي يعفوا حبيبها البشري الخلود الذي تحظى به هي ونظراؤها من الأرباب . ورغماً عن غيرتهم على امتيازاتهم الإلهية ، فإنهم رضخوا لرجائها وأعزوا تحت إلحاحها الأنثوى . على أنه شوه هذه المنحة التي انبعثت عن حسن قلبه ، شوهها صدمع ممت . إذ نسيت الربة في غمار حماسها ، اقتران خلود أرباب الأوليمب بشباب مقيم ؛ ولم يغن الأرباب الحقودون إلا بإجابتها إلى رجائها المجرد . وأسفر الأمر عن نتيجة ساخرة ومفجعة . إذ انقضت أيام الزواج الرغيدة في طرفة عين من حياة أرباب الأوليمب . فوجدت إوس Eôs ورفيقها الخالد الذي بلغ من الكبر عتياً ، محكوماً عليهما بالخلود لينوحا معاً على ورطة الملك الأثيني المنحوس^(٢) . فإن شيخوخة تصدف يد الموت الرحيمة عن وضع حد لها ،

(١) الأوليمب : جبل في تساليا ، وتذكر الأساطير اليونانية أنه مقر الآلهة .

(المترجم)

(٢) اسمه في الأسطورة Tithonus . (المترجم)

لتعتبر محنة أخرى أن لا يترك الإنسان الفاني يكابد بها ، وإن الحزن الأبدي .
لهو الهمّ الملازم الذى لا يدع مجالاً لفكرة أخرى أو شعور .

وبالأحرى ؛ يرقى الخلود على هذه الدنيا ، لأى نفس بشرية أو نظام
بشرى ، إلى مرتبة الاستشهاد ؛ حتى وإن لم يقترن بضعف الشيخوخة .
أو خرفها الذهني .

وفى هذا المعنى ، كتب الإمبراطور الفيلسوف ماركوس أوريليوس .
(١٦١ - ٨٠ م) :

« يصدق القول بأن إنساناً بلغ الأربعين ويتمتع بذكاء معتدل ، فى وسعه .
أن يشاهد فى ضوء تجانس الطبيعة ، الماضى والحاضر بأسرها » .

وإذا كان هذا التقدير لقدرة النفوس البشرية على ملاقات المحنة ؛ يصدم
القارىء ، لتصويره تلك القدرة مفرطة فى وضاعتها ؛ فلعل القارىء يعثر
على السبب ، فى عصر ماركوس ، إذ لا يخفى أن « الصيف الهندى » هو
عصر الملل الثقيل ..

وحقاً ؛ اقتضى « السلام الرومانى » ثمناً ، مصادرة الحرية الهلينية ؛ وإنه .
وإن استأثرت الأقلية دائماً بتلك الحرية ، ورغماً عن نزوعها إلى الطغيان .
والاستهتار ؛ إلا أنه ظاهر بالقياس على الماضى ، أن ضراوة عصر
الاضطرابات الأثينى فى ذروة ذبوع أسلوب شيشرون ، قد أمدت الخطباء
الرومانين بثروة من البحوث المثيرة الملهمة ؛ لو أطلع عليها نظراؤهم .
فى عصر الإمبراطور تراجان الذى اتسم بالدقة والزهو ، لصبوا عليه جام
غضبهم واعتبروه عصر أهوال (لا كما ننظر نحن إلى عصرنا الحاضر على
ما فيه) . ورغماً عن مظهر عصرهم هذا ، فإنهم يجهدون دواما فى بذل
جهود شاقة لاستبدال حياتهم الطبيعية التلقائية بحياة مصطنعة متكلفة .

ولقد تصوّر أفلاطون إبان اهتمامه بالسعى غداة انهيار المجتمع الهليني ، إلى

[تجنيبه سقوطاً آخر ؛ بثبته في وضع شديد الصلابة^(١) ، مثالية ثبات الثقافة المصرية . ولما شاهد آخر رواد الأفلاطونية الجديدة ، الثقافة المصرية ما تزال حية ترزق ، بعد ألف سنة من هذا الرأي ، في حين كانت الحضارة الهلينية تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ أشادوا بفكرة معلمهم المشهورة ، في إعجاب مغيظ لا يشوبه تحفظ .

وحقاً ؛ عاشت الحضارة المصرية ، لترى مصرع الحضارات المعاصرة لها : المينوية والسومرية والسندية ، وإخلاء مكانها لحضارات خلفتها تمت إلى جيل أحدث سناً . وانقضى أجل هذه بدورها تاركة مكانها للحلائف من جيل أصغر عمراً . وانتهى أجل بعض هذه الحضارات ، بينما ظلت الحضارة المصرية على قيد الحياة . ويعزى هذا إلى تشبث الدولة العالمية المصرية بالحياة ، واستعدادها لإياها المرة بعد الأخرى ، بعد ما يوضع جسدها في تابوت الموتى في كل مرة . وأن في مُكنة طلاب التاريخ المصري ، ملاحظة ميلاد ووفاة الحضارات : السورية الأولى والحبشية والبابلية (فروع الحضارة السومرية) . وشاهدت الحضارة المصرية قيام وانهار الحضارة السورية والحضارة الهلينية المتفرعة من الحضارة المينوية . وما استطالة نهاية المجتمع المصري أمدا لا يصدق ؛ إلا نتيجة عمل دورات متعاقبة كثية ، بذلتها طاقة ماردة أمدت هذا المجتمع الناعس بقوة أخرت نهايته المقدرة . وتوافرت له هذه النتيجة بفضل الضغط الذي تعرض له المجتمع المصري من عدوان جماعات إجتماعية دخيلة .

ويطالعنا في خاتمة تاريخ حضارة الشرق الأقصى في الصين ، نفس ظاهرة الغيبوبة الاجتماعية التي دهمت المجتمع المصري . إذ كان المغول قد

(١) تمثل سمي أفلاطون في كتابه « الجمهورية » حيث رسم خطوط مجتمع فاضل -
يراجع كتاب المترجم (المدينة الفاضلة) .. (المترجم)

اصطبغوا بثقافة مسيحية (مسيحية الشرق الأقصى) (١). فلما فرضوا على الصين دولتهم العالمية ، استنارت صبغتهم الثقافية الدخيلة في الصينيين ، رد فعل قاد إلى خلع سلطان المغول وإحلال دولة عالمية مكانه هي أسرة مينج ، وأمكن برابرة المانشو (٢) ، سد الفراغ السياسى الذى ترتب عن انهيار أسرة مينج ، وكان تقبلهم ثقافة مسيحية الشرق الأقصى ، أقل كثيراً من التزامهم أسلوب الحياة الصينية . إلا أن هذه الصبغة الثقافية الدخيلة — على ضعفها — كانت كفيلة بإثارة معارضة عامة في صفوف الصينيين ، احتفظت بكيانها مستترة في جنوب الصين على الأقل ، إلى أن اندلعت علنا مرة أخرى في ثورة تايبينج Taiping عام ١٨٥٢ — ٦٤ . وكان من جراء تسلل المسيحية الحديثة في أوائل عهدها — في صورتها الكاثوليكية إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر — استفزاز الصينيين لطور الكاثوليكية من الصين خلال الربع الأول من القرن الثامن عشر . كما أن نسف أبواب الصين البحرية بين عامى ١٨٣٩ و ١٨٦١ لتدخل منها التجارة الغربية ، قد استنارت ثورة البوكسر المعادية للغرب . وكان أن اقتلعت في نهاية المطاف أسرة المانشو عن سلطانها (٣) ، لسببين :

الأول استملاكها بمنشأها النخيل .

والثانى عجزها عن مجابهة سطوة التغلغل الغربى الهائل (٤) .

وهكذا يتبين لنا : أن الحياة أكثر حذباً على البشرية من الأسطورة . فان حكم الخلود الذى ابتلت به الأساطير الملك الأثيوبى ، قد خففته

(١) ثقافة أوصلها الآباء النساطرة إلى منغوليا كما مر بنا القول في موضع سابق من هذه الدراسة . (المترجم)

(٢) المانشو : سكان مانشوريا في شمال شرق الصين . (المترجم)

(٣) وأعلنت الجمهورية الصينية بعد ذلك برئاسة الزعيم صن يات صن . (المترجم)

(٤) وتواصلت مقاومة الصين لهذا التدخل الغربى ، وتوجهت باستيلاء شيوعى الصين على أزمة الحكم . (المترجم)

الحياة ، على الدول العالمية : (ولذا كان لا مناص من موت رجل)^(١)
 ماركوس بعدما انتشعت عنه الأوهام - سواء في الأربعين أو الخمسين
 أو الستين - فان دولة عالمية ترفس أشواك الموت المرة بعد الأخرى ، لا بد
 وأن تذوى وتذبل خلال تعاقب العصور : وهى فى هذا مثل عمود الملح
 الذى تذكر بعض الأساطير أنه جوهر امرأة عاشت وقتنا ما ثم تحجرت :

(١) قال الإمبراطور ماركوس أوريليوس « يصدق القول بأن إنساناً يبلغ الأربعين
 بذكاء معتدل ، فى وسعه أن يباهد فى ضوء وحدة طبيعية ، الماضى والحاضر بأسرها » .
 (المترجم)

الفصل الخامس والعشرون

وهكذا تكّد لغيرك

وهكذا تكّد لغيرك ، انك أيها النحل لا تصنع العسل لنفسك فقط !! (١)
يعبر هذا الاستشهاد المتواضع (باستخدام تشبيه ساذج) عن موقف
الدول العالمية المتناقض في إطار التاريخ . وهذه النظم المهيبة ؛ هي آخر
ما تقوم به الأقليات المسيطرة من أفعال ، في الكيان الاجتماعي المتحلل ،
للحضارات التي تكابد مرحلة الاحتضار :

وترنو الأقليات المسيطرة من وراء إقامة هذه النظم ؛ الابقاء على
سلطانها في المجتمع الذي ترتبط به أقدارها ، بفضل احتفاظها بطاقة نشاطها
المبددة . وتعتبر إقامة الدول العالمية ، أثراً من الآثار العرضية للتحلل
الاجتماعي . غير أنها تؤدي دوراً مرموقاً في أفعال الإبداع الطريفة : وهي
وإن أفادت الغير ، إلا أنها تفشل في انتشار نفسها من النهاية المقدرة :

وبالأحرى ؛ فإن الدولة العالمية ، وسيلة لانجاز رسالة ينتفع بها الغير ،
فمن هم أولئك المنتفعون ؟

إن المرشحين للإنتفاع من وجود الدولة العالمية ، لا بد وأن يكونوا
واحداً أو أكثر من : البروليتاريا الداخلية ؛ والبروليتاريا الخارجية للمجتمع
الاحتضري نفسه ؛ أو أية حضارة دخيلة تعاصر الدولة العالمية .

فإن قدر للدولة العالمية خدمة البروليتاريا الداخلية ؛ فانها تبذل معاونتها
لدين من الأديان العالمية ، يأخذ سبيله في جوف البروليتاريا الداخلية - وفي

(١) Sic vos non vobis melificats apes

هذا يقول بوسويه ^(١) Bossuet « لقد ساهمت جميع الإمبراطوريات الكبرى التي قامت على الأرض - بوسائل شتى - في شد أزر الدين وفي تمجيد الرب ، مصداقاً لما صرح به الرب نفسه لأنبيائه » .

١ - قدرة الدول العالمية على التوصيل

مناطق واجبتنا التالى : لإجراء عرض تجربى للخدمات التى أسدتها الدول العالمية قسراً ، والمنافع التى اجتنتها البروليتاريات الداخلية والبروليتاريات الخارجية والحضارات الدخيلة ، بفضل هذه التيسيرات . لكن علينا أن نعرّ أولاً على إجابة عن سؤال استهلالي هو :

كيف يستطيع نظام سلبي الطابع ، محافظ ، سلفى النزعة ، وهو بالفعل يثارى الاتجاه فى جميع اتجاهاته ؛ أن يسدى لأى فرد خدمة من الخدمات ؟

وباستخدام الاصطلاحين الصينيين الذين يعبران عن إيقاع الكون الموسيقى ؛ كيف انبثقت حركة اليانج الدافعة عن حالة الين ؟ ^(٢)

يتيسر إدراك ذلك بالطبع . فإن حدث أن ومضت طاقة إبداعية فى حتمى دولة عالمية ؛ فلن تتوافر فرصة الاضطرام لنصبح لهباً متأججاً ؛ إلا إن تعرضت الطاقة الإبداعية ؛ إلى صدمة عصر الاضطرابات القاصفة . بيد أن هذه المنة - على قيمتها - شئ سلبى .

فما هو مظهر الحالة الاجتماعية التى تبرز فى ظل سلطان الدولة العالمية ، والتى تعتبر الثمرة العليا التى تمنحها الدولة العالمية ، المنتفعين بها ؟

يطالعنا من قبيل المثال : عدم جدوى إحتواء النسيج المتخلف عن

(١) بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤) : مطران فرنسى ، امتاز بمؤهلاته الدينية والتاريخية . ومن أشهرها : تاريخ فرنسا ، والسياسة المقدسة ، وتاريخ العالم ، واستعراض للعقيدة الكاثوليكية . (المترجم)

(٢) الين حالة السكون ، واليانج ، حالة الحركة الدافعة . (المترجم)

مجتمع تهشم (ويقوم المجتمع في نطاق الإطار السياسي لدولة عالمية) في استعادة ما تلاشى من المجتمع بالفعل؛ أو صد الانهيار (التدريجي) لما تبقى منه. انهيار يتم تدريجياً وينشأ عنه فراغ اجتماعي مكين هائل، يلزم الحكومة باتباع سياسة تجافي رغباتها؛ بلجوها إلى استحداث نظم شاذة، راجية من ورائها سد هذا الفراغ الاجتماعي.

ويعرض التاريخ الإداري للإمبراطورية الرومانية خلال القرنين اللذين تليها قيامها؛ مثالا مألوفاً عن تواصل تدرج الفراغ، إلى أن يصبح ثلثة دائمة. فان مبدأ السلطة غير المباشرة، هو جماع الحكم الروماني.

ذلك لأن الدولة العالمية الهلينية وفقاً لتفكير مؤسسيها الرومانيين؛ مشاركة بين مدن تتمتع بالحكم الذاتي، وتلحق بها في المناطق التي لم تتمكن بها الثقافة السياسية الهلينية بعد، مقاطعات مستقلة استقلالاً ذاتياً. فأصبح عبء الإدارة يقع على عاتق هذه السلطات المحلية.

ولم تنج الحكومة في بداية الأمر إلى تعديل كيان الدولة الإداري، إلا أنه قد تغدل بالفعل في ختام قرن من «السلام الروماني». إذ استحوالت المقاطعات التابعة إلى أقاليم؛ وأصبحت الأقاليم نفسها، أعضاء في إدارة مركزية تهيمن عليها الحكومة مباشرة. ولما نضجت بمرور الوقت؛ الموارد البشرية القائمة على إدارة الحكومة المحلية، واجهت الحكومة المركزية قحطاً في الكفاية الإدارية طفق يشتد يوماً عن آخر. فكان أن ألقت الحكومة نفسها مكرهة على إيداع مصائر المدن ذات الاستقلال الذاتي، أيدي مديري تعينهم هي. فضلاً عن تعيين الإمبراطور حكاماً من قبله، مكان الأمراء من أهالي البلاد المحكومة، رغماً عن ولائهم له.

وهكذا انتهى الأمر بانتقال إدارة الإمبراطورية بأسرها إلى أيدي طائفة بيروقراطية منظمة تنظيمياً طبقياً.

ولم تكن السلطات المركزية في فرضها هذه التغيرات، بأشد رغبة من

السلطات المحلية في إجازتها ، فإن كليهما ضحية القوة القاهرة . ومع ذلك اتسمت النتائج بطابعها الثورى ، وقما أضحت النظم الجديدة أدوات « توصيل » . ولقد طالعنا في موضع سابق من هذه الدراسة ، مظهران بارزان لعصر التحلل الاجتماعى يتمثلان في : التبذل والشعور بالوحدة . وأنه وإن تباينت النزعتان السيكولوجيتان من وجهة النظر الذاتية ؛ لكنهما تُجمعان على إبراز نتيجة موضوعية متماثلة ، مدارها ما تهبؤه روح العصر الغالبة لهذه النظم الجديدة التى أبرزتها الدول العالمية تحت ضغط ظروف خاصة^(١) ؛ من قدرة على « التوصيل » تستمدّها من محيطها السيكولوجى البشرى . وتقارن من ناحية قدرتها ؛ بمقدرة « التوصيل » التى يستمدّها المحيط التابع أو السهب الأرضى ، من الطبيعة العادية .

ولقد سبق للكاتب اليونانى الآنف الذكر آليوس أريستيديس أن كتب « إن روما تضم إلى أحضانها جميع شعوب الأرض . فهى كالأرض تحمل على ظهرها البشر جميعاً ، ومثل الأنهار تلتقى بالبحر » . كما سبق لمؤلف هذه الدراسة ، استخدام هذه الاستعارة قبل أن يطلع على كتاب أريستيديس : « فى وسع الكاتب أن يعبر خير تعبير عن إحساسه الشخصى تجاه الإمبراطورية^(٢) ، باستخدام تشبيه : ان الإمبراطورية كالبحر المستدير ، ينتظم حول شواطئه عقد من المدن . ولقد يبدو الأبيض المتوسط لأول وهلة بديلاً هزيباً للأنهار التى تكونت المدن حول شطآنها . إذ تحفل بالحيوية مياه الأنهار سواء أكانت صافية أم طينية ، فى حين تظهر مياه البحار مالحة ساكنة ميتة . لكن ؛ ما إن ندرس البحر ، حتى نجد فيه كذلك الحركة والحياة . فلن ثمة تيارات هادئة تدور على الدوام من جانب من البحر إلى آخر ؛ كما لا يفقد سطح البحر مياهه المتبخرة ، لأنها تسقط فى الواقع بعد

(١) فى الأصل : وجدت لتسد خانة . (المترجم)

(٢) يقصد الدكتور توينبى الامبراطورية الرومانية . (المترجم)

زوال ملوحتها في أماكن قصية وفي فصول أخرى ، مطراً عذياً زلالاً ، وكلما سحبت السحاب مياه السطح هذه ؛ تحل مكانها طبقات المياه الأوطأ ، ترد الى السطح من الأعماق . وإن البحر نفسه في حركة دائمة خلقة غير أن تأثير هذا الجرم العظيم من المياه ، يمتد أبعد من شواطئه كثيراً . ان المرء يجده في جوف القارات القصى ، وبين شعوب لم تسمع باسمه قط ؛ يلطف من حدة الحرارة المتطرفة ، ويعجل بالإنبات ، ويسر حياة الانسان والحيوان^(١) .

أما بالنسبة للحركات الاجتماعية التي تتخذ سبيلها عن طريق أداة موصلة انبثت عن دولة عالمية ؛ فانها تتجلى في الواقع في وضعين ؛ أحدهما أفقى والآخر رأسى :

فن أمثلة الحركة الأفقية ؛ دورة الأعشاب الطبية في الإمبراطورية الرومانية ، وفقاً لشهادة « بليني الكبير » في كتابه « التاريخ الطبيعى » . وانتشار استخدام الورق من طرف الخلافة العربية الشرقى إلى طرفها الغربى . ففي عام ٧٥١ م انتقل استعمال الورق من الصين إلى سمرقند ، وانتشر إلى بغداد عام ٧٩٣ م وإلى القاهرة عام ٩٠٠ وإلى فاس قرب المحيط الأطلسى حوالى عام ١١٠٠ م ، ومنها عام ١١٥٠ الى جاتيفا^(٢) في شبه جزيرة أيبيريا .

وتتسم التحركات الرأسية في بعض الأحيان بكونها أكثر مراوغة ، لكنها أكثر من التحركات الأفقية أهمية من ناحية تأثيراتها الاجتماعية : وهذا ما نلاحظه من تاريخ اليابان إبان سيطرة أسرة توكوجاوا على البلاد . فان نظام أسرة توكوجاوا^(٣) قدرنا الى عزل اليابان عن بقية العالم . ونجح فعلاً

(١) Toynbee, A.J., in the Legacy of Greece (Oxford 1922 صفحة ٣٢٠)

(Clarendon Press)

(٢) جاتيفا (أى شاطبة) عاصمة مقاطعة بلنسية بإسبانيا . (المترجم)

(٣) أسرة توكوجاوا : استأثرت بحكم اليابان دون أباطرتها ، وكان الحاكم منها يلتقب بـ « الشوجن » ثم انتهى أمرها بعد ثورة نبلاء البلاد عليها فازاحوها عن الحكم ومكنوا الإمبراطور ميجى عام ١٨٥٦ من ممارسة سلطانه . (المترجم)

طوال قرنين في الاحتفاظ بهذا الوضع الفريد . إلا أنه ألقى نفسه عاجزاً عن صد تيار التغير الاجتماعي داخل إمبراطورية يابانية منزلة ، رغمًا عن الجهود التي بُذلت في سبيل إحالة النظام الإقطاعي المتحجر الذي ورثته اليابان عن « عصر الاضطرابات » السابق ، إلى ناموس دائم .

« فإن تطرق الاقتصاد النقدي إلى حياة اليابان . . قد أحدث ثورة بطيئة ، لكن لا تقاوم ، بلغت ذروتها في انهيار الحكومة الإقطاعية واستئناف التعاون مع البلاد الأجنبية ؛ بعد انقضاء أكثر من مائتي سنة من العزلة . إن أبواب اليابان لم تفتح تحت ضغط الخارج ، لكنها فتحت تحت تأثير الانفجار الداخلي . . وكان في طليعة القوى الاقتصادية ؛ زيادة ثروة سكان المدن ، زيادة تمت على حساب طبقتي الساموراي^(١) والفلاحين . . إذ دأب الحكام^(٢) وأتباعهم على إنفاق أموالهم على اقتناء السلع الترفية التي ينتجها الصناع وبييعها التجار . حتى أنه ليقال أنه لم يأت عام ١٧٠٠ م حتى انتقلت ملكية الذهب والفضة جميعها تقريباً إلى أيدي سكان المدن . وعندئذ أخذ الحكام يشترون السلع نسيئة ، ولم يمض وقت طويل حتى غرقوا في ديون أقرضتهم إياها طبقة التجار . فكان أن اضطروا إلى رهن أملاكهم أو بيعها جبراً . . . فحلت بهم النكبات والفضائح الجسيمة . وسعى التجار من ناحيتهم إلى الاشتغال بالسمسرة في تجارة الأرز ثم إلى المضاربة على أسعاره . . ولم يستفد في ظل هذه الظروف سوى أعضاء طبقة واحدة ، بل لم يستفيدوا منها جميعاً . هؤلاء هم التجار - سبها السماسرة والمقرضون - المكروهون الذين عرفوا وقتذاك باسم الـ « الشونين Chonin » أي سكان المدن ، الذين كان في وسع أي سياف (ساموراي) - نظرياً - أن يقتل أي فرد منهم إن وجه إليه كلمة نابية . ولقد لبث مركزهم الاجتماعي

(١) الساموراي . أي حملة السيوف . (المترجم)

(٢) في الأصل Daimyo وهي كلمة يابانية تعني الحكام الإقطاعيين . (المترجم)

منحطاً ، لكن عمرت جيوبهم بالأموال ، فأصبحت لهم — من ثم — السيادة . ولم يأت عام ١٧٠٠ حتى أصبحوا بالفعل من أقوى عناصر الدولة المقدّامة . بينما طفقت الطائفة العسكرية تفقد نفوذها (١) .

فإذا نظرنا إلى عام ١٥٩٠ م (وفيه تغلب هيديوشى (٢) على آخر مقاومة لديكتاتوريته) باعتباره تاريخ إقامة الدولة العالمية اليابانية ؛ لاحظنا في المجتمع الياباني ، انبعاث ثورة اجتماعية بيضاء (٣) ، بعد انقضاء فترة تزويد قليلاً عن القرن من ارتقاء طبقات المجتمع الدنيا من الحضيض إلى أعلى مكان . وكان خلفاء هيديوشى قد رنوا إلى تثبيت أوضاع المجتمع الياباني مثلما ثبت أفلاطون نظم مدينته الفاضلة . ولقد أسفرت جهودهم عن نتيجة . ثير الإعجاب ، تتجلى في غلبة التجانس الثقافي إلى حد كبير غير عادي ، على الدولة العالمية اليابانية إبان عصر أسرة توكوجاوا .

* * *

ويتيسر تبيان قدرة الدول العالمية على « التوصيل » ؛ يبحث الأمثلة الأخرى التي تتوافر لنا عنها دراية تاريخية وافية .

٢ - سيكلوجية السلام

الدول العالمية يفرضها بناتها ، ويتقبلها رعاياها دواء شافياً لجميع أوجاع عصر الاضطرابات . وهي — وفقاً للتعبير السيكلوجي — نظام يرنو إلى تحقيق الوفاق الاجتماعي ، والمحافظة عليه . وهي دواء ناجع لداء شخص تشخيصاً صادقاً ؛ يتمثل في بيت انقسم

(١) صفحة ٤٦٠ - Samsom : F.B. : Japan. a short History

(٢) يعتبر اليابانيون « هيديوشى » بطلاً من أعظم أبطال اليابان ، ويقده القوم هناك تقديساً جعلوا منه الآما يعبدون روحه ، ويقيمون له الهياكل في شتى أنحاء البلاد . (المترجم)

(٣) أى أنها ثورة نجحت دون سفك دماء . (المترجم)

على نفسه انقساماً يحصد الجانبين على السواء . والانقسام نوعان :

نوع أفقى - يحدث بين الطبقات التى تصارع بعضها بعضاً^(١)

ونوع رأسى - يتخذ سبيله بين الدول المتحاربة .

وفى أثناء تكوين دولة عالمية من بين الدول التى تظل على قيد الحياة بعد الحروب التى تكون قد نشبت قبلئذ بين الدول الإقليمية^(٢) وبعضها بعضاً ؛ يعمد بناء الامبراطوريات إلى التوفيق بينهم وبين رفاقهم أعضاء الأقليات المسيطرة فى الدول الإقليمية التى غزوها . ولما كانت المسألة حالة عقلية وقاعدة للسلوك ، لا يقتصر وجودها على قسم من الحياة الاجتماعية دون آخر ؛ لا مناص من أن يمتد الوفاق الذى تسعى الأقلية المسيطرة إلى تحقيقه فى علاقاتها الداخلية ، إلى علاقات الأقلية المسيطرة مع البروليتاريين الداخلية والخارجية ، ومع أية حضارات أجنبية تتصل بها الحضارة المتحللة .

ويفيد هذا الوفاق العالمى الطابع ؛ مختلف المنتفعين به ، بدرجات شتى :

فإن الوفاق العالمى يُسمى قوة البروليتاريا ؛ إذ يعين الأقلية المسيطرة على استرداد قواها بعض الشيء . ذلك لأن الحياة تكون قد ولت عن الأقلية المسيطرة ، فلا يملك الوفاق مهما تنوعت أشكاله ، إلا «إطالة أمد الانحلال» (إن استغرنا تعقيب برون اللاذع على جثة الملك جورج الثالث) . بينما تكون أنواع الوفاق هذه للبروليتاريا ، بمثابة مخضبات تُسَمَّى وتُورَقها . وينبغى بالضرورة على هذا الرأى ؛ استفحال قوة البروليتاريا خلال الهدنة التى تفرضها دولة عالمية ؛ بينما تتناقص قوة الأقلية المسيطرة .

ومن الناحية الأخرى ؛ فإن منشئ الدولة العالمية إذ يعتقدون مبدأ التسامح (وهو هدف سلبى) رجاء تلافى الصراع بين بعضهم بعضاً ؛ إنما

(١) وهذا هو الصراع الطبقي ، أساس نظريات كارل ماركس ومريديه . (المترجم)

(٢) الدول الإقليمية : هى الدول المحدودة السيادة والسلطان بمساحة معينة من الأرض

وسكان محدودين . (المترجم)

يسهون للبروليتاريا الداخلية بذلك فرصة تشيد صرح عقيدة عالمية . ومن شأن انصراف البروليتاريا الداخلية للأمور الروحانية ، ضمور النزعة المادية بين رعايا الدولة العالمية : وهنا يغتنم برابرة البروليتاريا الخارجية الفرصة (أو تغتنمها حضارة أجنبية مجاورة) ، لاقتحام الدولة العالمية والسيطرة على تلك البروليتاريا-الداخلية التي آثرت الوقوف موقفاً سلبياً تجاه التطورات السياسية التي تأخذ مجراها في بلادها ؛ في حين يتعاضم نشاطها في الميدان الديني .

ويتضح عجز الأقلية المسيطرة نسبياً عن الإفادة من الظروف التي أبرزتها إلى الوجود هي نفسها ؛ من اخفاقها الملموس في الدعوة إلى مذهب فلسفي أو إلى عقيدة دينية طريفة تبتكرها وتذيعها من أعلى إلى أدنى (١) . ويجدر بالذكر ، من الجهة الأخرى ، ملاحظة مدى تأثير ثورة البروليتاريا الداخلية على الانتفاع بانتشار السلام الذي يتيح قيام الدولة العالمية ، في التبشير بدين أسنى ، من أدنى المجتمع إلى أعلاه ؛ فتضع بذلك قواعد عقيدة دينية عالمية .

وتطالعنا الأمثلة التالية :

١ - استخدمت عقيدة أوزيريس الإمبراطورية المصرية الوسطى (٢) ، وهي الدولة العالمية المصرية الأصلية ، لإذاعة مبادئها .

٢ - انتفعت العقيدة اليهودية وشقيقتها (من ناحية المبادئ الدينية) للعقيدة الزرادشتية ، بقيام الإمبراطورية البابلية . كما انتفعتا من تأسيس الإمبراطورية الأخمينية والمملكة السلوقية .

(١) وهذا عكس الحاصل - وفقاً لآراء الأستاذ المؤلف - من انبعاث العقائد الدينية عن البروليتاريا الداخلية . فنتشره بالتالي من أدنى إلى أعلى ، أي من البروليتاريا الداخلية إلى الأقلية المسيطرة . (المترجم)

(٢) أي الدولة الوسطى في التاريخ المصري القديم . وتبدأ بالأسرة الثانية عشر وأول ملوكها أمنتحت الأول . (المترجم)

٣ - استفادت ، فى ظل السلام الرومانى ، طائفة من العقائد الدينية التى انبعثت عن البروليتاريات الداخلية وناfst بعضها بعضاً لاجتذاب الأتباع والمريدين . ويطالعا منها عقائد سييل وايزيس وميترا والمسيحية .

٤ - ترتب على استتباب السلام فى الشرق الأقصى^(١) . تنافس عقيدتين دينيتين فى العالم الصينى : المهايانا وهى عقيدة البروليتاريا السندية ؛ والعقيدة . التاوية ، وهى عقيدة البروليتاريا الصينية الأصلية .

٥ - أتاحت الخلافة العربية للإسلام ، فرصة مماثلة للانتشار .

٦ - هيا حكم الجوجا ذيوع الهندوكية فى العالم السندى .

٧ - استغلت المسيحية النسطورية والكنيسة الكاثوليكية الغربية والإسلام . وطائفة اللامية^(٢) والبوذية المايانية ؛ الفترة القصيرة التى عاشتها الإمبراطورية المغولية ، وفرضت سلاماً بدوياً Pax Nomadica من شاطئ المحيط الهادى الغربى حتى شاطئ البلطيق الشرقى ومن حدود التندرا السيرية الجنوبية حتى حدود الصحراء الغربية الشمالية وأدغال بورما . ولقد أثار مخيلة بعثات التبشير المسيحية فى الإمبراطورية المغولية ، وجود حشد من العقائد الدينية المتنافسة مع توافر فرص الانتشار لها .
ومن ثمت ؛ فإن الأديان العليا وقد أفادت الأوضاع الاجتماعية .

(١) Pax Hamica

(٢) اللامية : نسبة إلى اللاما ، وتعنى الكلمة « المعلم الروحانى » . واللامية فرع منحرف من البوذية ينتشر فى التبت ومنغوليا ، ويتزعم هذا المذهب « الدلاى لاما » وتعنى دلاى « بحر الحكمة » . وكان يقيم فى لاسا عاصمة التبت قبل استيلاء الصين الشعبية على المقاطعة ، فاضطر إلى الفرار إلى الهند حيث يقيم الآن .

وأساس العقيدة اللامية ، إمكان كل مخلص للبوذية وتعاليمها أن يتساقى فيغدو « بوذا » فرعى « أو ما يدعى بودساتيفا Bodhisattiva ، وتتقمص روحه الشخصيات السامية التى يقدر لها البوذا الأعظم تعليم البشر . أما اللاما ، فإنه الشخصية الكبرى فى العقيدة وفيه تتقمص روح البوذا ، فإن مات انتقلت الروح إلى طفل ولد فى نفس يوم وفاته ويغدو هو اللاما الجديد . ويتعبد مريدو هذه العقيدة للبوذا الأكبر وللقديسين ولأرواح الأسلاف . وتصحب طقوس العبادة تأدية رقصات معينة وعزف صاخب على الطبول . (المترجم)

والسيكولوجية لدولة عالمية ؛ أصبحت تقدر النعمة التي جاد بها عليها رضاء
الرب الحق الواحد الذي تبشر باسمه :

ومصادقا لذلك ؛ اعتبر مؤلفو أسفار يوشع الثاني وعزرا ونحميا ،
الدولة الأخيمينية ، الأداة التي اختارها ياهوى^(١) للتبشير بالعقيدة اليهودية :
وبالمثل اعتبر الياها الكبير (٤٤٠ - ٦١ ميلادية) الإمبراطورية الرومانية
أداة ساقطها العناية الربانية لتسهيل انتشار المسيحية . وهذا ما دعاه أن
يكتب بمناسبة إلقاء موعظته الثانية والثمانين « إن العناية الإلهية قد أبرزت
الإمبراطورية الرومانية إلى الوجود كي يعرف العالم بأسره ، « فضل »
هذه النعمة التي لا توصف ؛ أي التجسد الإلهي في شخص المسيح » .

وألِفَت العقلية المسيحية هذه الفكرة . فرأيناها تظهر من جديد في شعر
ميلتون الغنائى « أصبح ميلاد المسيح » .

لا حرب أو صوت معركة

سُمِعَت حول العالم

وعَلِقَ عالياً ، الرمح والقوس الكسولان

وانتصبت العربى المعقوفة كاملة

وتحدث البوق ، ولكن لا إلى الحشد المسلّح

وجلس الملوك ساكنين بأعينهم المروعة

كما لو أنهم يجزمون معرفة سيدهم الملك بالقرب منهم .

ولقد تبدو إقامة الدولة العالمية فرصة نادرة أتاحها السماء للدين الذى
يعيش فى كنفها ؛ تمكنه من الانطلاق صوب تحقيق أهدافه : بيد أن ذلك
لا يعنى فى جميع الأحوال ، توافر تسامح الدولة العالمية تجاه العقيدة الدينية
حتى يتم لها الفوز النهائى : إذ قد ينقلب الحال إلى النقيض : ولا شبهة فى
وجود حالات لم تكابد فيها العقيدة الدينية مثل هذه النتيجة المشؤمة . إذ لم

(١) اسم الإله عند اليهود ، ويتبرون أنفسهم شعبة المختار . (المترجم)

تكابد العقيدة الأوزيرية^(١) الاضطهاد قط ، وامتزجت في نهاية الأمر مع ديانة الأقلية المصرية المسيطرة^(٢) وظاهر أن السلام قد ظل بالمثل مستتباً في العالم الصيني بين البوذية والمهابانية والعقيدة التاوية^(٣) . في جانب ، وامبراطورية هان في الجانب الآخر ؛ إلى أن سارت الدولة العالمية في طريق التحلل في ختام القرن الثاني الميلادي .

فإن قدّمنا إلى العقيدتين اليهودية والزرادشتية^(٤) ؛ ألفينا أنفسنا

(١) العقيدة الأوزيرية : عقيدة أوزيريس في العالم المصري القديم . وأساسها عبادة الإنبات في ازدهاره وموته ثم بعثه . وقد جعل المصريون القدماء من ذلك موضوع أساطيرهم وأشهرها أسطورة الصراع بين أوزيريس وإيزيس وحوريس من جهة وست من الجهة الأخرى . (المترجم)

(٢) كانت عقيدة أوزيريس شائعة بصفة خاصة بين عامة المصريين القدماء ، في حين كانت الطبقة المسيطرة (أي الملك وبيته وكبار القوم) يؤمنون خاصة بعقيدة الشمس (رع) . ثم اندمجت العقيدتان مع توالى الأيام . (المترجم)

(٣) التاوية عقيدة دعا إليها الفيلسوف الصيني لاو تزي L'ao Tsz (وتبنى الكلمتان الصينيتان - الفيلسوف الوقور) المولود عام ٦٠٤ قبل الميلاد . ولقد عين لاوتزي أميناً للمكتبة الملكية في مقاطعة هونان بالصين . ولما عين بداية انهيار الدولة ، هاجر فترة من الزمن إلى مكان قصي في الصين . ثم خرج إلى الناس بدعوته التي تقوم على إظهار جمال الفعل البشري . متحرراً من الأنانية . وعنده أن العالم يجب أن يمضي في طريقه دون كفاح أو نجيب . وآمن الفيلسوف الصيني بفضائل الشفقة والتواضع ومقاومة الإساءة بالإحسان . (المترجم)

(٤) الزرادشتية Zoroastrianism : ديانة الفرس القديمة . أسسها زرادشت الذي عاش حوالي ٨٠٠ قبل الميلاد . وقد أخذ يعلم الناس وهو في الثلاثين . ثم اعتزلهم عدة سنوات قضاها في التأمل ، وفي سن السابعة والسبعين ، أسس الزرادشتية التي أصبحت عقيدة الفرس الدينية الوطنية منذ عام ٥٥٠ قبل الميلاد ، إلى أن قضى الإسلام عليها في القرن السابع الميلادي . فهاجرت بقية أتباعها إلى الهند وغيرها من البلاد حيث يعرفون الآن باسم « البارسي » . وأساس العقيدة ، فلسفة الثنائية ، أي روحا الخير والشر . والزرادشتية ، عقيدة توحيد في جوهرها الأصلي ، مما جعل عمر رضى الله عنه ، يسارى في معاملة المسلمين بين أتباعها والذميين من اليهود والنصارى . ويطلق زرادشت على رب الكون الأعظم اسم « أهرمازدا » الذي خلق روحى الخير والشر ، وماها إلا أداتان يسيّرهما الخالق وفق إرادته . ومناطق طقوس الزرادشتية ، عبادة النار . ولكل كائن وفقاً لتعاليم زرادشت ؛ إرادة حرة وضمير وفسق وروح تحميه وتقطن السماء . وإذا كان الإنسان بخيراً بين الخير والشر ، فإن عليه بداهة أن يكابد محنة الخطيئة .

على أن تعاليم زرادشت قد تداعت بتوالى الأيام ، فاقتحمتها الخرافات ، مما جعل للفرس . (المترجم)

عاجزين عن تقرير فيما إذا كانت علاقتهما النهائية ترتبط مع الإمبراطورية البابلية الجديدة ، أو مع الإمبراطورية الأخيمنية ؛ ذلك لأن الأجل لم يمتد بحياتهما التاريخية سوى القليل . ومبلغ علمنا ؛ أن الدولة السلوقية^(١) ، عندما احتلت مكانة الدولة الأخيمنية . وحلول الإمبراطورية الرومانية . في نهاية المطاف مكانها ، في المنطقة الواقعة غرب الفراتين ؛ جابهت العقيدتان . اليهودية والزرادشتية ، ضغط الثقافة الهلينية . فكان أن انحرفت الديانتان . عن رسالة التبشير الأصلية بمبدأ الخلاص للبشر كافة^(٢) ، واستحالتا إلى سلاحين من أسلحة الحرب الثقافية ، استخدمهما المجتمع السورى رد فعل على عدوان المجتمع الهلتي .

ولو كان قد قيص للإمبراطورية الأخيمنية أن تستكمل دورة حياتها الطبيعية ، مثلما استكملتها نظيرتها الخلافة العباسية التي تلت العهد الهليني ؛ لأمكن تصور الزرادشتية (أو اليهودية) تنجز ما أنجزه الإسلام من مآثر^(٣) ، إذ استفاد الإسلام من عدم أكثر الأُمويين بالدين ومن يقظة ضمير العباسيين في تسامحهم تجاه غير المسلمين من أهل الكتاب . فانتشر الإسلام — تبعاً لذلك — تدريجياً ، دون أن يبذل جيش الدولة أية مساعدة ، لعلها لو وجدت ، لعرقلت تقدمه . فلما أن انهارت الدولة العباسية ، أقبل الناس أفواجا على اعتناق الإسلام ليجدوا الملاذ في رحاب المسجد من عاضفة الفراغ السياسى الوشيكة الهبوب .

(١) الأسرة السلوقية : أسرة ملكية حكمت سوريا ، ابتداء من الملك سلوق الأول (٣١٢ - ٢٨٠ ق . م) ، وقد شمل ملكه سوريا بأكملها وجانباً كبيراً من آسيا الصغرى . وانتهت الأسرة بعد مقتل سلوق السادس (٩٥ - ٣ ق . م) . (المترجم)

(٢) إذ اعتنقت اليهودية والزرادشتية مبدأ أن الله قد صطفى معتنقي اليهودية (أو الزرادشتية) دون بقية خلقه ، وأنه تعالى قد كتب لهم الغفران وحدهم ، وقيص لهم الجنة . (المترجم)

(٣) لا نتفق في الرأي مع الأستاذ المؤلف . لأن الإسلام استطاع أن يشق طريقه خالصة دون حماية أية دولة عالمية . فانتشر في أندونيسيا والفلبين وأفريقيا والصين . بل طفقته الدول الاستعمارية هناك تقاوم انتشاره بجميع قواها لما تعلمه من مناهضة مبادئه لأغراضها .

(المترجم)

وبالمثل ؛ نجد الأسرة المالكة فى امبراطورية جوبتا (وتعتبر استعادة للدولة العالمية الأصلية إبان حكم أسرة موريا) لا يقتصر الأمر بها على عدم معارضتها فى إحلال الدين البوذى الذى أعقب الديانة الهندوكية ، محل الفلسفة البوذية ؛ بل إنها امتنعت عن ارتكاب أى فعل من أفعال الاضطهاد التى تعرقل انتشار البوذية . والواقع ؛ إن من سمات مزاج الحضارة الهندية الدينية ، اعتناق نزعة التسامح ، والميل إلى التوفيق بين الاضداد .

وعلى عكس هذه الحالات التى تستفيد فيها عقيدة دينية من السلام الذى تفرضه دولة عالمية وتتسلح معها حكومتها من البداية حتى النهاية ؛ ثمة حالات أخرى ، اعترضت تقدمها الاضطهادات الحكومية التى تقضى على العقيدة فى مهدها أو تمسخ طبيعتها ، بإحدى وسيلتين : فهى ؛ إما تقحمها فى المنازعات السياسية ، وإما تستفزها لحمل السلاح .

ويطالعنا من قبيل المثال ؛ استئصال المسيحية الكاثولية الغربية من اليابان فى القرن السابع عشر الميلادى ، استئصالاً كاملاً تقريباً ، وحصر انتشار الإسلام فى الصين إبان العهد المغولى بمقاطعتين ، وصيرورة معتقيه أقلية غريبة عن طبائع البلاد ؛ يستفزها مركزها الشاذ ، إلى معاودة الثوران الحربى ، المرة بعد الأخرى .

ولم تتأثر المسيحية تأثراً ذا بال من الصراع الذى خاضته ضد النظام الإمبراطورى الرومانى ، بل كان فاتحة انتصاراتها . على أن الكنيسة لم تكن طوال القرون الثلاثة التى انتهت باعتناق قسطنطين المسيحية ، بمنجاة من خطر التلوّث بالسياسة الرومانية . فبالإضافة إلى سيطرة الشك على الدولة الرومانية إبان عهدها الإمبراطورى ، تجاه جميع أنواع الجمعيات الخاصة ؛ كان ثمة تقليد رومانى أقدم من الشك وأعمق جذوراً ، يتصل بمعاودة السلطات الرومانية بصفة خاصة للجمعيات الخاصة لنشر الأديان الدخيلة . فإذا كانت الحكومة الرومانية قد تساهلت فى تطبيق هذه السياسة الصارمة غاية الصرامة

مكافأة لها على صمودها للإضطهاد والتزامها التسامح :

ولم تخرج الكنيسة المسيحية من هذه الحقبة سليمة : لأنه عوضاً عن استخلاصها العبرة من انتصار نزعة الوداعة المسيحية على القوة الرومانية العارمة ، قدّمت باختيارها إلى مضطهديها المدحورين ، البيئة عليها ؛ فكان أن تشفّى منها خصومها ، بعد ما دحرتهم . فإنها قد احتضنت خطيئة العنف ذاتها ، التي سبق أن أردّت خصومها إلى العجز والقصور . فانضمت الكنيسة المسيحية بذلك إلى جانب الظلم ؛ وظلت على حالتها تلك ، أمداً طويلاً .

نخلص مما تقدم إلى القول ؛ بأن البروليتاريا - وهي مُبدع الأدباني العليا - هي المستفيد الأساسي من الجانب الروحاني من ماثرة الأقلية المسيطرة في تكوين الدول العالمية والمحافظه عليها . لكن تعود فائدة الجانب السياسي من هذه الماثرة على آخرين .

لكن يبنى على سيطرة سيكلوجية السلام بفضل تشييد دعائم الدولة العالمية ؛ فقدان حكام تلك الدولة طاقتهم على الاحتفاظ بمنحاهم الثقافي ؛ ويستتبع هذا الرأي ؛ إخراج الحكام والحكوميين على السواء (أى الطبقة المسيطرة والبروليتاريا الداخلية) من زمرة المنتفعين من استتباب السلام ؛ والسلام هو العملية السيكلوجية لنزع السلاح . وبالأحرى ؛ ينتفع بالسلام ، أولئك الدخلاء الوافدون من وراء حدود الدولة العالمية ؛ ولعلهم إما أعضاء في البروليتاريا الخارجية للمجتمع المتخلل ، أو ممثلين لحضارة أجنبية .

ولقد لاحظنا في موضع سابق من هذه الدراسة ؛ أنه غالباً ما تتجلى الواقعة التي تسجل انقراض حضارة من الحضارات (ويختلف الانقراض عما سبق ذكره خاصاً بالانهيار والتحلل) ؛ تتجلى في قيام زعماء البرابرة العسكريين خارج الحدود ، باحتلال موطن الدولة العالمية الميتة . أو يؤدى نفس الفعل ؛ غزاة يمتدّون إلى مجتمع آخر ، ويعتقون ثقافة مغايرة . أو قد يشترك الفريقان في عملية الاحتلال ، بأن يأتي أحدهما في أعقاب الآخر :

ولا شبهة في حرص المعتدين من البرابرة أو الأجانب ، على كفالة الفوائد لأنفسهم ، عن طريق الاستفادة - تحقيقاً لغاياتهم الجشعة - من الجو السيكلوجى ، متمثلاً في إشاعة السلام الذى تهبته الدولة العالمية : ويقطعون في هذا السبيل ، شوطاً بعيداً ، يثير النفس لأول وهلة :

وفعلاً ؛ فإن غزاة البرابرة الذين انحدروا من بقعة منبوذة في دولة عالمية تخطمت ؛ أبطال لا مستقبل لهم . فلا جرم أن الأجيال التالية قد تحققت من كونهم مغامرين شائنين ، لولا الروعة التى أضفتها على سيرهم ، موهبتهم في تدوين شواهد قبورهم بلغة الشعر الحماسى ؛ فكان أن استحال فرارهم الخسيس إلى بطولة . بل إن رجلاً من طراز آخيل^(١) ، ما كان ليصبح بطلا لو لم تذكره الإلياذة . وبالمثل فإن مآثر الإرساليات العسكرية التى توفدها حضارة أجنبية ؛ ما هى إلا أوهام تخيب الظنون ، وتمكن مقارنتها بما دونه التاريخ عن مآثر العقائد الدينية .

وفى موضعين أدركنا فيهما سياق القصة بأكملها ؛ تبين لنا أن الحضارة التى اختزل حياتها قبل الأوان غزاة غرباء ؛ تظل على الأرض قروناً عدة ، ترقد فى سبات إلى أن يحين دورها ، فتجد فى النهاية فرصتها للتخلص من الحضارة الدخيلة ، واستئناف مرحلة الدولة العالمية . ومن قبيل المثال : أن الحضارة السندية ، قد أنجزت فعلها الفاره بعد ستمائة سنة من انقمارها تحت الطوفان الهليني ؛ وأنجزته الحضارة السورية بعد ما يقرب من ألف سنة^(٢) . وتجلت مآثرتهما فى إقامة إمبراطورية الجوبتا والخلافة العربية ؛ واستعيدت فيهما الدولتان العالميتان الأصيلتان اللتان تجمعتا فى الإمبراطوريتين المورية والأخيمينية (الفارسية) على التوالى . أما المجتمعان البابلى والمصرى ؛ فقد اندمجا أخيراً فى كيان المجتمع السورى الاجتماعى ؛ رغماً عن احتفاظ

(١) آخيل : بطل إلياذة هوميروس . (المترجم)

(٢) تم ذلك بفضل اعتناق العرب الإسلام . (المترجم)

المجتمع البابلي بذاتيته الثقافية طوال أكثر من ستائة سنة بعد تخريب
قورش إمبراطورية نبوخذ نصر البابلية الجديدة ؛ واحتفاظ المجتمع المصرى
بكيانه فترة لا تقل عن الألفى سنة بعد انقضاء أجل حياته الطبيعية ، بأنهار
« الدولة الوسطى » .

نخلص من هذا إلى القول بأن استقرار التاريخ ، يتيح لنا ختامين بديلين
لمحاولات حضارة من الحضارات ابتلاع حضارة أخرى ، عنوة وهضمها ؛
ويبدى الاستقرار — مع ذلك — أنه قد تنقضى مئات السنين بل آلافها ،
قبل أن تتحقق نتيجة عملية الابتلاع فى خاتمة المطاف .

ولعل هذا يُصَدَّف مؤرخى القرن العشرين عن المغالاة فى تقدير نتائج
محاولات الحضارة الغربية فى الوقت الحاضر ، لابتلاع الحضارات المعاصرة
لها . إذ يجدر بهم أن يأخذوا فى الحسبان ، قصر الوقت الذى انقضى منذ
بداية أقدم هذه المحاولات ، وضآلة ما تبدى من القصة للعيان .

ففى حالة الغزو الأسبانى لعالم أميركا الوسطى — مثلاً — قد يفترض
بحق ، أن حلول الجمهورية المكسيكية التى رنت إلى الانحطاط فى عضوية
جماعة الأمم الغربية وفازت بها ، محل الدخيل المائل فى شخص الحاكم
الأسبانى الملكى على « أسبانيا الجديدة »^(١) ؛ من شأنه تحقيق اندماج مجتمع
أميركا الوسطى ، فى كيان المجتمع الغربى الاجتماعى . وهذا ما يجافى الواقع .
إذ قد تلت ثورة ١٨٢١ المكسيكية ، ثورة ١٩١٠^(٢) ؛ التى انتصب إثرها
مفاجأة ، المجتمع الوطنى الهاجع ، الذى ظن أنه قد وورى التراب . فكان
أن روى يرفع هامته ويمزق الغشاء الثقافى الذى رسبته الأيدى الكاستيلية^(٣)
على القبر الذى أودع فيه الغزاة الأسبان ، الجسم الذى ظنوا أنهم ذبحوه .

(١) المستعمرات الإسبانية فى أميركا الوسطى . (المترجم)

(٢) وهى الثورة التى أعلنت فيها المكسيك استقلالها عن أسبانيا . (المترجم)

(٣) نسبة إلى كاستيلون . وهى مقاطعة أسبانية بإقليم بلنسية تطل على البحر
الأبيض المتوسط . (المترجم)

ويثير هذا النذير ؛ سواء عما إذا كانت فتوحات المسيحية الغربية في العالم الانديانى وغيره ، قد تبرهن بالمثل - عاجلا أم آجلا - على سطحيّتها ووقتيّتها :

هنا تطالعنا حضارة الشرق الأقصى في الصين وكوريا واليابان ؛ وهي حضارة تهاوت ، تحت ضربات النفوذ الغربى قبل كتابة هذه الدراسة . وبالتالي ؛ ما يزال تأثيرها يسرى بين شعوبها ، بقوة تفوق إلى أبعد حد ، سريان حضارة أميركا الوسطى . فإذا كانت الثقافة القومية المكسيكية قد أعادت تأكيد نفسها يعد انقضاء أربعائة سنة من خسوفها ؛ فإن حتمية ابتلاع الغرب أو روسيا ثقافة الشرق الأقصى ، قول يتسم بالتسرع .

أما بالنسبة للعالم الهندى ؛ فلعله يتيسر تفسير إقامة الدولتين اللتين خلفتا الإمبراطورية البريطانية عام ١٩٤٧^(١) ، بكونه صورة سلمية مهذبة لثورة عام ١٨٢١ المكسيكية . ومن ثم لا يستند على أساس ؛ الزعم بأن إلحاق الدولتين بجامعة الأمم الغربية بعد تحررها السياسى ، بمثابة تصديق - وهو تصديق ظاهرى - على عملية تحويلهما الثقافى الغربى . إذ لعل التحرر السياسى يصبح الخطوة الأولى صوب التحرر الثقافى ، لمجتمع طغى عليه المد الغربى موقتا .

والمثل يقال عن البلاد العربية التى حصلت على استقلالها حديثا ، أعضاء في جماعة الأمم الغربية^(٢) . فلقد أمكنها نيل مطمحها السياسى بفضل توفيقها في إلقاء السيادة العثمانية السياسية عن كاهلها ، وتخليص نفسها من الطلاء الثقافى الإيرانى الذى غشيها طوال أربعة قرون ، فهل ثمة سبب للشك

(١) أى جمهوريتا الهند وباكستان . (المترجم)

(٢) يعنى الأستاذ المؤلف بعضوية جماعة الأمم الغربية ، أى اعتناق الأساليب الثقافية الغربية وأنماط الحضارة العربية ، وليس للعبارة أى مفهوم سياسى . (المترجم)

عن تأكيد البقية الدفينة من الطاقة الثقافية العربية ذاتيتها ، عاجلاً أم آجلاً ،
تجاه تأثير ثقافة الغرب الأشد بُعداً عنها من الثقافة الإيرانية ؟

* * *

وصفوة القول ؛ يعزز استعراضنا تأثيرات التغيرات الثقافية في آخر
مراحلها ، النتيجة التي توصلنا إليها من أن البروليتاريا الداخلية هي المستفيد
الأوحد المؤكد من الخدمات التي تسديها الدولة العالمية .
أما المنافع التي تجتنيها البروليتاريا الخارجية ، فإنها دائماً وهمية .
وبالنسبة للفوائد التي تحصل عليها الحضارة الأجنبية ، فإنها موقوتة .

٣ - صلاحية النظم الإمبراطورية للتطبيق العملي

الآن وقد فحصنا مظهرين من المظاهر العامة للدولة العالمية هما ، قدرتها
على التوصيل ، وإقرارها السلام ؛ فعسانا أن نمضى قدماً لاستعراض
ما تسديه للمتفعين بوجودها من خدمات ، تضطلع بتأديتها نظم ثابتة
خاصة ، تُحدثها الدولة العالمية وترعاها . ومناط رسالة هذه النظم التاريخية ،
قيامها بأدوار لم يقصد منشؤها في الأصل تأديتها . وإذا استخدم اصطلاح
« النظم » في معنى شامل نوعاً ما ، نقصد من وراء استخدامه ، أن يتضمن
الموضوعات التالية :

وسائط الاتصال — الحاميات العسكرية والمستعمرات — المقاطعات —
كأسى الملك من الأمصار — اللغات وحروف كتابتها — النظم القضائية —
التقاويم والأوزان والمقاييس والنقود — الجيوش — الإدارات الحكومية —
أوضاع المواطنين .

وسنعرض لكل منها على التوالي :

(١) وسائط الاتصال :

تأتى وسائط الاتصال على رأس القائمة السالفة الذكر ، بحسبانها الأساس
الذى تستند عليه الدولة العالمية للمحافظة على كيائها الدائى .

ولا يقتصر نفع وسائل الاتصال على تمكين الدولة العالمية من السيطرة العسكرية على أملاكها ، فإنها تتيح لها كذلك الهيمنة السياسية على أرجائها . وتفوق خطوط الاتصال الإمبراطورية الرئيسية التي يشيّد بها الإنسان ، وسائل الاتصال الطبيعية التي يستخدمها . ذلك لأن الطرق الطبيعية العامة التي تتيحها للإنسان الأنهار والبحار والسبب ؛ ليست وسائل اتصال عملية ، إلا إن عززتها أسباب الحراسة الرادعة .

ويتطلب الحال كذلك ؛ توافر وسائل المواصلات . ولقد اتخذت هذه الوسائل في معظم الدول العالمية التي ذكرها التاريخ ، شكل خدمة إمبراطورية للبريد ، يتولاها ساعي بريد (إن طبقنا الاصطلاح المتداول عند الرسميين عن هذه الخدمة سواء عامة أو محلية) : وكان ساعي البريد وقتئذ ، يقوم كذلك بعمل رجل البوليس .

وكانت خدمة البريد على ما يبدو ، قسما من الأداة الحكومية العامة في إمبراطورية سومر وأكاد إبان الألف الثالثة قبل الميلاد . ونجد النظام نفسه بعد مرور ألفي سنة في عصر الإمبراطورية الأخمينية (التي شملت فيما شملته ، نفس بقاع إمبراطورية سومر وأكاد) يرتفع مستواها من ناحيتي الكفاية والتنظيم . ونجد سياسة الإمبراطورية الأخمينية ، في الانتفاع بنظام الاتصالات الإمبراطورية ، لتمكين سيطرة الحكومة المركزية على أقاليمها ، تعاود الظهور في عهدي الإمبراطورية الرومانية والخلافة العباسية .

ويثير العجب حقاً ؛ العثور في الدول العالمية — من الصين حتى يبرو (في أمريكا الجنوبية) — على نظم مشابهة لما تقدم . فإن تسين هوانج — في (المؤسس الثوري للدولة الصينية العالمية) هو باني الطرق التي تشعبت عن عاصمته . كما استخدم الإمبراطور الصيني ، هيئة للتفتيش منظمة تنظماً متقناً . وعزز « الإنكا » Incas سلطانهم بالمثل ، باستخدام الطرق ؛

فأصبح يتيسر توجيه رسالة تسير من كوزكو Cuzco^(١) إلى كويتو Quito^(٢) ،
وهى مسافة تزيد عن الألف ميل يطيرها الغراب^(٣) ، فضلا عن أكثر من
نصف هذه المسافة تقطع برأ فى وقت قصير ، هو عشرة أيام :

وظاهر أنه كان بالإمكان استخدام الطرق التى تُنشئها حكومات الدول
العالمية وتحافظ عليها ، فى الأغراض الأخرى ، التى لم تنشأ فى الأصل
لخدمتها : فإن العصابات الحربية للبروليتاريا الخارجية الغازية ؛ ما كان
ليأتى لها أن توسع نطاق إغارتها آخر أيام الإمبراطورية الرومانية ،
لو لم تتح لها تلك الإمبراطورية — عن غير قصد — تلك الوسائط البديعة
للوصول إلى الميدان : بيد أن ثمة أشخاصا آخرين أصدق معرفة بأهمية
الطرق من ألاريك Alaric^(٤) ، منهم القديس بولص . فإن أغسطس
بفرضه السلام الرومانى على بيسيديا Pisidia^(٥) ، قد مهد — لاشعوريا —
لرحلة بولص التبشيرية التى حطت فى بامفيليا^(٦) وسارت به آمنا إلى إنطاكية

(١) كوزكو : عاصمة إقليم فى جنوب بيرو (بأميركا الجنوبية) . وتقع فى واد صغير
يرتفع نحو ١١٤٤٠ قدماً عن سطح البحر . وقد كانت المدينة عاصمة إمبراطورية الانكا ،
واستولى عليها الاسبانيون بقيادة بيزارو عام ١٥٣٣ . وقد أحل الاسبان مدينة ليما عاصمة
لبيرو . (المترجم)

(٢) كويتو : عاصمة جمهورية الاكوادور بأميركا الجنوبية ، وكانت مدينة هامة من
مدن إمبراطورية الانكا . (المترجم)

(٣) كان الغراب يستخدم فى نقل الرسائل . (المترجم)

(٤) ألاريك : زعيم قوطى عظيم . وقد أصبح ملكا على القوط الغربيين ، وغزا اليونان
عام ٣٩٦ م ، وإيطاليا عام ٤٠٠ . وفى عام ٤١٠ غزا روما ونهبها ، ومات فى تلك السنة .
(المترجم)

(٥) بيسيديا : مقاطعة قديمة فى آسيا الصغرى ، وكان يقطنها شعب جبل مخارب حافظ
على استقلاله حتى دهمته الجيوش اليونانية الرومانية . (المترجم)

(٦) بامفيليا : قطر قديم كان يقع على الساحل الجنوبى من آسيا الصغرى . وقد لبث
جزءاً من الإمبراطورية الفارسية حتى استولت عليه مقدونيا ثم سوريا . (المترجم)

وإلى أيكونيا ^(١) Iconium وليسترا ودربي . وإذا كان بومبي ^(٢) قد نظّف البحار من القراصنة ، فلقد أتاح لبولص القيام برحلته البحرية الخطيرة من قيصرية فلسطين إلى بيوتولي Puteoli الإيطالية دون التعرض لأخطار البشر ، بالإضافة إلى محن العاصفة وتدمير السفن .

وحقاً ؛ دلت السلام الروماني ، على كونه بيئة اجتماعية موافقة لأخلاف بولص . من ذلك أن القديس إيريناوس Irenaeus من ليون بفرنسا ، قد أظهر تقديره الضمني لوسائل الاتصال التي أقامتها الإمبراطورية الرومانية ؛ وقمّا أشاد بوحدة الكنيسة الكاثوليكية في جميع أرجاء العالم الهليني : إذ كتب يقول « إن الكنيسة وقد تلقت هذا الإنجيل وهذه العقيدة ، أمكنتها المحافظة على هذين الركازين رغماً عن تفرّق أتباعها في أنحاء العالم ، فاصبحوا كما لو أنهم يعيشون تحت سقف واحد » . وبعد انقضاء مائتي عام من هذا القول ؛ تدمّر مؤرخ وثني هو Ammianus Marcellinus من أن جماهير الأساقفة تستخدم خيول البريد الحكومية للتوجه هنا وهناك لحضور المجامع الدينية .

والآن ؛ وقد ألقى استعراضنا ، ضوءاً على الحالات التي استفاد فيها عن غير قصد من وسائل الاتصال ؛ منتفعون ، بلغ عددهم قدراً ضخماً ، يدفعنا إلى اعتبار هذه الظاهرة « قانوناً » تاريخياً . ولقد ارتقت وسائل

(١) إيكونيا : مدينة قديمة بآسيا الصغرى ، وقد زارها القديس بولص في رحلته الأولى آتياً من أنطاكية وقد أصبحت في العهد الإسلامي عاصمة دولة السلاجقة ، وتعرف الآن بمدينة قونية . (المترجم) .

(٢) بومبي : قائد روماني عظيم ، عين عام ٦٧ ق . م للقضاء على القرصان في البحر الأبيض المتوسط ، فنجح في مهمته نجاحاً كبيراً . وفتح بعد ذلك سوريا للرومانيين ، وأصبح عام ٥٢ ق . م حاكم روما المطلق . ثم نشب النزاع بينه وبين قيصر الذي انتصر عليه عام ٤٢ ق . م ، فهرب إلى مصر ، حيث قبض عليه . (المترجم)

الاتصال على مر القرون ، ارتقاء يجعلنا نتساءل في عام ١٩٥٢ ؛ عن مستقبل العالم المصطبغ بالثقافة الغربية ، الذى يعيش كاتب هذه الدراسة بين ظهرائه ، هو ومعاصروه .

وبالفعل ؛ ما إن حلّ عام ١٩٥٢ ، حتى كان قد انقضى حوالى الأربعة قرون ونصف قرن على انكباب الإنسان الغربى - مستخدماً إبداعه وحذقه - على ربط ذلك الجزء بأسره المسكون والمطروق من كوكبنا الأرضى ، بعضه بالبعض الآخر ؛ بفضل توافر وسائط اتصال تستند على أسلوب تكنولوجى يطرّد تقدمه على الدوام .

ومصادقاً لذلك ؛ نجد السفن ذات الحجم النسبى الهائل والتي تتحرك آلياً ، تحل محل السفن الشراعية الخشبية الكبيرة وما فى حكمها . وهى السفن التى جهّزت لتقاوم الرياح ، والتي عاونت رواد أوربا الغربية البحريين على تنصيب أنفسهم سادة على المحيطات بأسرها . كما استعيفض عن الطرق الترابية التى تعبرها عربات تجرها ستة خيول ؛ بطرق معبّدة بالأسفلت أو أخرى شيّدت بالأسمنت المسلح ، تعبرها السيارات على أنواعها . وأصبحت السكك الحديدية تتنافس مع الطرق البرية ، وغداً النقل الجوى يتنافس جميع وسائط النقل البرى والمائى .

ولقد تلاقى الإرتقاء فى وسائط النقل المائى ، مع الارتقاء فى وسائط نقل لا تقتضى نقل الأجسام البشرية نقلاً مادياً . فكان أن أبرز الخيال إلى الوجود ؛ أشكال التلجراف والتليفون واللاسلكى بالراديو (سواء عن طريق السمع أو بالرؤيا) (١) .

ولم يحدث فى أى وقت مضى ؛ أن شبل الاتصال الوثيق فى كل

(١) وارتقى الاتصال اللاسلكى فأصبح يجمع - فى التليفزيون - بين السمع والرؤيا .

(المترجم)

جانب من جوانب العلاقات البشرية بين الناس وبعضهم بعضا ، في مناطق تمتد هذا الامتداد الهائل :

لكن ؛ لم يكن لهذا الارتقاء ثمرته المرجوة في تحقيق التوحيد السياسى في نهاية المطاف ، للمجتمع الذى انبعث بين ظهرانيه هذه الإشعاعات التكنولوجية . فما برحت الناحية السياسية في مستقبل العالم الغربى ، تقسم بالغموض . إذ رغما عما قد يحس به المراقب من شعور جازم بتحقيق الوحدة السياسية بصورة أو بأخرى عاجلا أم آجلا ؛ لا يتيسر التنبؤ بميعاد هذه الوحدة أو بطريقتها :

وظاهر أن عالمًا ما يزال ينقسم سياسياً إلى ستين أو سبعين دولة^(١) تغار على سيادتها الإقليمية (حتى بعد ابتكارها القنبلة الذرية) ؛ هذا العالم قد يندفع إلى اعتناق الطريقة التقليدية باستخدام القوة العارمة لفرض التوحيد السياسى . فإن قيَّض للسلام أن يتحقق هنا كما تحقق في حالات كثيرة أخرى بفضل دولة عظمى قائمة بالفعل ، تفرض إرادتها المطلقة على بقية دول العالم ؛ فلقد يبنى على فرض الوحدة بالقوة ، خسائر في النواحي الخلقية والسيكلوجية والاجتماعية والسياسية (بفرض إغفال الناحية المادية) ، تجاوز الخسائر التى تترتب عن انقسام العالم إلى دول إقليمية :

وبالأحرى ؛ لامناص من تحقيق الوحدة السياسية المرتجاة بفضل الطريقة البديلة القائمة على التعاون الاختيارى .

بيد أنه مهما يكن من أمر حل هذه المشكلة ، فإن الرسالة التاريخية لشبكة الاتصال العالمية الحديثة ، تكمن يقينا في تأديتها ذلك الدور الساخر

(١) أصبح عدد الدول الإقليمية المنضمة إلى الأمم المتحدة يجاوز المائة ، يضاف إليها ، الأمم التى تحول العوالم السياسية دون انخراطها في عضوية تلك الهيئة . (المترجم)

الذى عرضنا له فيما سبق ، ويقوم على تحويلها لخدمة مستفيدين لم تكرر
في الأصل لخدمتهم :

فن الذى يمتحنى فى هذه الحالة ، أعظم قسط من المنافع ؟

يصعب القول بأن المستفيدين هم برابرة البروليتاريا الخارجية . فإننا
وإن نشأنا برابرتنا بالفعل (ويحتمل أن يبرز فى أوساطنا برابرة آخرون من
رجال من طراز آتيللا فى شكل هتلر ومن فى حكمه ، تبتعثهم حضارتنا
الملحدة) ؛ إلا أنه لا مجال لخشية نظامنا النسيح الأرجاء من البقايا المنبوذة
للبرابرة الأصليين^(١) خارج حدود المجتمع الغربى .

ومن الجهة الأخرى ؛ ما فتئت الأديان العليا الحالية (التى ترتبط
بجالات نفوذها مع بعضها بعضاً ومع مناطق وثنية يقطنها الرجل البدائى ،
وتتقلص يوماً عن آخر) ؛ تستفيد من الفرص التى تعرض لها : فإن
القديس بولص الذى جازف وقتاً ما بالارتحال من نهر العاصى^(٢) إلى
نهر التير ، كان يتلهف إلى مخاطر رحلات فى بحار أوسع نطاقاً من البحر
الأبيض المتوسط . وقد تحققت فكرته ، وقما ارتحلت تعاليمه رحلتها
الثانية فى مركب برتغالى حول رأس الرجاء الصالح^(٣) . ثم قطعت
شوطاً أبعد من ذلك فى رحلتها الثالثة إلى الصين عبر بوغازى ملقا^(٤) .

(١) يعنى الأستاذ المؤلف باصطلاح البرابرة الأصليين ، الأقوام الذين لم يتأثروا
بالخضرة الغربية وما يزالون على فطرتهم الأصلية . ويقابلهم البرابرة المحدثون ويعنى بالاصطلاح
أولئك القادة الذين يستخدمون العنف تحقيقاً لأهدافهم التوسعية . (المترجم)

(٢) نهر الأورنت قديماً . (المترجم) .

(٣) باعتبار أن استيطان النسطورية ترانكور (بالهند) يمثل المحاولة الأولى لتحويل
الهند إلى المسيحية ، وباعتبار بثة الجزويت إلى بلاط أكبر ، هى المحاولة الثانية . (المؤلف)

(٤) باعتبار أن استيطان النسطورية سينجان خلال القرن السابع عشر ، هو محاولة
للمسيحية الأولى لتحويل الصين إلى المسيحية ، والبعثات المسيحية الغربية التى أوفدت إلى الصين
بطريق البر إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، هى المحاولة الثانية ، والبعثات التى أوفدت
بحراً إبان القرن السادس عشر ، هى الثالثة . (المؤلف)

ثم كان أن عبر التبشير المسيحي المحيط الأطلسي من قاذس إلى فيراكوز Vera Cuz^(١). وعبر المحيط الهادى من آكابولكو Acapulco^(٢) إلى الفلبين . ولم تقتصر استفادة العقيدة الدينية من وسائط الاتصال الغربية . ، على المسيحية الغربية وحدها . إذ أمكنت المسيحية الشرقية الأرثوذكسية فى أعقاب رواد القوزاق ؛ أن تقطع الرحلة الطويلة من نهر كاما إلى بحر آخوتسك^(٣) ؛ بفضل استخدام الأسلحة النارية الغربية . كذلك استتر القديس بولص وراء دافيد لفنجستون المبشر الأسكتلندى ، الذى كان يبشر بالإنجيل ويداوى المرضى ويستكشف البحيرات ومساقط المياه .

وتمضى رسالة التبشير الإسلامية هى الأخرى قُدُما ، بفضل طرائق الاتصال الحديثة . كما لن يستغرب إذ تعاود بوزية المهايانا رحلتها العجيبة مستخدمة طرائق الدولة هذه المرة ، من ماجاد Magadha^(٤) إلى لوانج^(٥) . ولعلها بفضل صحتها من سباتها ، تستفيد بمخترعات حيوية كالتطائرات والراديو ، فى تبشيرها بالخلاص ؛ مثلما استفادت من قبلئذ ، اختراع المطبعة الصينية .

ولا تقتصر نتائج التبشير الدينى (على نطاق عالمى) على المناحي المتصلة بالتقسيمات السياسية الجغرافية . فإن ولوج الأديان العليا الثابتة الأركان ، ميادين تبشيرية جديدة ، يبرز إلى العيان مسألة النأى بجوهر الدين الخالد

(١) فيراكوز : مقاطعة بالمكسيك . (المترجم) .

(٢) آكابولكو : أهم ميناء للمكسيك على شاطئ المحيط الهادى . وتبعد عن العاصمة بنحو ١٨٠ ميلا . (المترجم)

(٣) آخوتسك : بحر داخلى يقع شرق سيبيريا شمال المحيط الهادى ويتجمد ستة شهور فى السنة . (المترجم)

(٤) ماجادا : هى فى الهند القديمة ، اسم مملكة براسيل وكانت تقع على نهر الجانج . (المترجم)

(٥) لوانج : عاصمة لاوس . (المترجم)

عن تأثيرات الأحداث الزائلة . ولقد ترتب عن مصادمات الأديان بعضها مع البعض الآخر ، انبعث سؤال يتصل بتقبل الأديان على طول المدى ، العيش جنباً إلى جنب ؛ أو أن طغيان إحداها على بقيتها أمر مقدر :

هنا تطالعنا الإجراءات التي اتخذها كل من ألكسندر سفيروس الروماني^(١) والإمبراطور أكبر الهندي^(٢) تحقيقاً لفكرة مثالية وجدت في نفسيهما هوى . إذ سيرهما مزيج من الخدلة الذهنية ورقة القلب ، إلى السعى لإيجاد عقيدة دينية تجمع بين طائفة من مبادئ الأديان المختلفة . بيد أن تجربتهما باءت بالفشل المطبق .

واستلهم الرواد من المبشرين الجزيت ؛ مبدأً مثالياً آخر يقوم على اجتذاب للعالم الهندي وعالم الشرق الأقصى ، إلى حظيرة المسيحية . فإن إكسافير^(٣) وماتيو ريكس ، الجوالين الروحانيين ؛ هما أول مبشرين دينيين ، اغتتما الفرص التي هيأتهما فتوحات التكنولوجيا الغربية لأهالي البحار . على أنهما وقد وُهباً إدراكاً عقلياً إلى جانب بطولة العقيدة ، لم يغب عنهما استحالة نجاح مشروعهما ، إلا مع توافر شرط جوهري ، لم يترددا في تقبل نتائجه .

(١) ألكسندر سفيروس : إمبراطور روماني (٢٢٢ - ٢٣٥ م) . اشتهر بتقواه وعذالته . ورغمما عن تمسكه بوثنيته ، إلا أنه أبدى احتراماً كبيراً لقواعد المسيحية . (المترجم)

(٢) حاول أكبر حل مشكلة تعدد الأديان والمذاهب في الهند ، عن طريق توليف دين يجمع - في اعتقاده - بين محاسن الأديان المعروفة في عهده . لكنه فشل فشلاً ذريعاً . (المترجم)

(٣) إكسافير Xavier : (١٥٠٦ - ٥٢) مبشر أسباني اشترك في تأسيس جمعية المسيح للتبشير . وفي سنة ١٥٤٠ ارتحل إلى جزائر الهند الغربية للتبشير بالمسيحية . ثم قام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الهند وسيلان . وأقام في اليابان عامين (١٥٤٩ - ١٥٥١) استطاع خلالها إنشاء حركة قوية للتبشير ، حتى بلغ عدد المسيحيين بعد وفاته بأربعين سنة ، حوالي الأربعمئة ألف . لكن حاكم اليابان اعتقد بأن المسيحية تهديد للاستعمار الإسباني ، فكان أن استأصل شأقتها . وأقفلت اليابان أبوابها في وجه الأجانب حوالي الأربعمئة سنة ، وفتحتها في منتصف القرن التاسع عشر تحت ضغط الأمريكيين . (المترجم)

فلقد أدركا أن على المبشر إبلاغ رسالته في عبارات يرتضيها سامعها : من ناحية الطلاوة والمنحى الثقافى والتأثير العاطفى . وكلما تزايدت الروح الثورية الكامنة فى الرسالة ، كلما تعاظمت أهمية تقديمها فى ثوب مألوف جذاب . لكن يتطلب تنفيذ هذا ؛ تجريد الرسالة من رداثها القديم الذى ورثه المبشرون أنفسهم عن تقليدهم الثقافى ، والذى أصبح يحافى منحى الرسالة الجديد . كما يقتضى ذلك ، أن يتكفل المبشرون ، خلال عرضهم عقيدتهم الدينية فى ثوبها التقليدى ، بتقرير ما هو جوهرى وما هو عرضى .

يبد أن مناظ العقبة السائد فى طريق هداية الجماعات الغير المسيحية ؛ أن المبشر الذى ينصب نفسه لهداية هذه الجماعات ، إنما يضع تحت أقدام رفاقه أنفسهم ، عقبة إضافية تترتب عن تنافس البعثات التبشيرية وحسدها بعضها بعضاً . نعم ؛ تحطمت على هذه الصخرة ، جهود بعثات التبشير المسيحية الحديثة . لكن قد لا يكون هذا خاتمة قصة التبشير المسيحى الحديث .

وإلى ترمّت الفاتيكان^(١) ؛ يرد جانب من فشل بعثات التبشير المسيحية . فى حين أنه لو لم ينزع بولص الطرسوس ببراعة عن المسيحية أرديتها الفلسطينية التى كانت تكسوها وقتها وفدت إلى العالم^(٢) ؛ لما قيض أبداً لفنانى الأقبية الرومانية من المسيحيين ، ولا لفلاسفة المدرسة اللاهوتية المسيحية بالإسكندرية ؛ الفرصة لعرض المسيحية فى ثوب الفكر والخيال اليونانيين . فكان أن مهدوا الطريق لاعتناق العالم الهلينى لها .

وبالمثل ؛ ما كان ليتيسر للمسيحية ، اغتنام الفرصة العالمية الطابع - وقت كتابة هذه السطور - لكل دين عظيم ؛ لو لم تجرد مسيحية أغسطس وأوريجين

(١) الفاتيكان : المقر البابوى فى روما . (المترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف ، تلك التأثيرات الفلمقية اليونانية التى أدخلها بولص على فواعد المسيحية ، لتصبح أقرب إلى العقلية الأوربية ؛ مما يغريها باعتناقها . (المترجم)

نفسها من الزخارف التي تسلطت عليها إبان وقوفها خلال رحلتها التاريخية ،
على محطات الوقوف المتعاقبة : السورية والهلينية والغربية .

والواقع ؛ يقضى الدين السامى على نفسه بالجمود والعقم الروحى ، إن
تهاون فى حق نفسه ، فتطور إلى مجموعة من الزخارف ؛ التي وإن ضمت
بين طياتها قبساً موقوتاً من شعلة الثقافة ، إلا أنها تنأى بالدين عن
مجال الروح .

فإن سلكت المسيحية طريق الروح ؛ فلعلها فى نهاية المطاف ؛ تنجح فى
إنجاز عمل مجيد ، سبق أن أنجزته فى إبان عصر الإمبراطورية الرومانية . وقتها
أمكنها بفضل طرق المواصلات الرومانية ، استخلاص عناصر روحية من
الأديان العالمية والمدارس الفلسفية التي واجهتها ، ووراثه أفضل لباسها .
ولا جرم فى عالم يتصل بعضه ببعض الآخر اتصالاً مادياً بفضل المخترعات
التكنولوجية الغربية الحديثة ؛ يتوقع مساهمة الهند وكية والبوذية المهايانية ؛
بقسط لا يقل فى نفعه للفراسة والخبرة المسيحيين ، عن عبادة إيزيس والفلسفة
الأفلاطونية الحديثة .

كذلك ؛ لو كان على كل إمبراطورية فى العالم الغربى ، أن تقوم وتسقط
على غرار تداعى أو اضمحلال إمبراطورية قيصر ، بعد انقضاء بضع مئتين
من السنين ؛ لأصبح فى وسع كل مؤرخ يتطلع فى عام ١٩٥٢ إلى المستقبل ،
أن يتصور المسيحية وقد ورثت المدارس الفلسفية بأسرها ؛ من فلسفة أخناتون
حتى فلسفة هيجل . ووراثه جميع الأديان ، منذ العبادة الخفية الموغلة فى القدم
للأم وابنها ؛ تلك العبادة التي سلكت فى رحلتها تحت اسمى إيشثار وتموز ،
الطرق التي أنشأتها الحكومات على اختلافها .

(ب) الحاميات والمستعمرات :

تعتبر ضياع المؤيدين المخلصين للنظام الإمبراطورى (وقد يكونون جنوداً

في الخدمة العسكرية العاملة أو من الجنود المسترخين أو من المدنيين) ؛ جزءاً
لا يتجزأ من أى نظام اتصال إمبراطورى . فإن وجود كلاب الحراسة
الآدميين هؤلاء وجراتهم ويقظتهم ؛ يكفل للسلطات الإمبراطورية ، الأمن
الذى لا نفع بدونه من إنشاء الطرق وإقامة الكبارى وما إليها .

وتعتبر مواقع الحدود بالمثل ؛ جزءاً من نفس النظام ، لأنها دائماً
طرق جانبية عامة .

وقد تعتمد الدولة بالإضافة إلى إقامة الحاميات لأغراض الحراسة
أو الدفاع ، إلى إقامة المستعمرات . آملة من وراء ذلك ؛ تحقيق غاية أعظم
نفعاً ، تستهدف استصلاح معالم التخريب الناجمة عن صراع السيطرة المدمر ،
خلال الفترة المبكرة من عصر الاضطرابات .

ولقد سيطرت على ذهن قيصر فكرة رآب ما صدعته الحروب ؛
وقتما عمّر المواقع الموحشة لكابوا وقرطاجنة وكورنث ، بمستعمرات
المواطنين الرومانيين المستقلة استقلالاً ذاتياً . وكانت الحكومة الرومانية
قد تعدت خلال صراعها في سبيل البقاء مع الدول الإقليمية الهلنستية ،
أن تمثل بكابوا ، لانحيازها الغادر إلى صف هانيبال ، وأن تمثل بقرطاجنة
لإقدامها على دجر روما نفسها . وتفردت كورنث دون غيرها من عصابة
المدن الآخية ، بمعاملة تعسفية . ولقد أصر الحزب المحافظ أيام النظام
الجمهورى (قبل عصر قيصر) على معارضة ترميم هذه المدن المشهورة
الثلاث ؛ لخشية ابتعاث قوتها ، ولكن لخض الانتقام منها . فكان أن أصبح
على مر الأيام الخلاف الشديد على طريقة معاملتها ، رمزاً لنزاع واسع المدى .
فهل ينحصر المبرر لبقاء الحكم الرومانى ، في تحقيق المصلحة الأنانية
للدولة التى أقامت هذا الحكم ؟ .

أو هل قامت الإمبراطورية لكفالة الخير العام للعالم الهلنستى الذى أصبحت
الإمبراطورية تجسده السياسى ؟ .

هذان هما الرأيان المتعارضان ؛ المثلان لفكرتي مجلس الشيوخ
الروماني وقيصر . فكان انتصار قيصر على مجلس الشيوخ ؛ انتصاراً
لمرجحة نظر أوسع أفقاً وأعظم إنسانية ، وأنبأ مقصداً .
وليس هذا الاختلاف المعنوي الحاد بين النظام الذي اتخذته قيصر
والنظام الذي أبطله ؛ بالشئ الفريد في التاريخ الهليني . إذ قد صاحب
الانتقال من مرحلة الاضطرابات إلى مرحلة الدولة العالمية في تاريخ
الحضارات الأخرى ؛ صاحبه تغيير مماثل في الاتجاه صوب استعمال القوة
والاعتساف في استخدامها . بيد أنه رغما عن التسليم بهذا « القانون التاريخي » ،
إلا أنه يتعرض لكثير من الاستثناءات .

إذ لا يقتصر فعل « مرحلة الاضطرابات » على توليد البروليتاريات
المنكودة الطالع التي تقتلع عن مواطنها ؛ بل ينتج عنها توطين مغامريها
على نطاق واسع ، في مناطق بعيدة عن مواطنها الأصلية . ومن قبيل
المثال ، ذلك الحشد من المدن الهلينية التي شيدها الإسكندر الأكبر ،
على أملاك الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) .

وعلى النقيض من ذلك ؛ قلما يتوافر الثبات اللازم في نزوع الأقلية
المسيطر إلى الخير ؛ وهو اتجاه آخرى بأن يكون سبيل دولة عالمية . وقلما
ينعكس هذا الاتجاه فيتردى إلى الأوضاع التي كانت شائعة في إبان
مرحلة الاضطرابات ؛ وهي المرحلة التي تسبق مرحلة الدولة العالمية .
ويطالعنا في هذا الصدد ، مثال الإمبراطورية البابلية الجديدة
التي وقفت بوجه عام إلى جانب ثورة أخلاقية اندلعت ضد وحشية
رجال حدود الإمبراطورية من الآشوريين . إلا أن هذه الإمبراطورية
قد اندفعت إلى استئصال مملكة جوديا ، مثلما استأصل الآشوريون مملكة
إسرائيل (١) . ولا يتفق في هذا المجال ، مع واقع الحان ؛ نسبة فضل

(١) انتمى اليهود إلى مملكتين : مملكة جوديا Judaea في الشمال ، ومملكة إسرائيل
وعاصمتها القدس في الجنوب . (المترجم)

أخلاقى لبابل على نينوى^(١) ، بالقول بأن بابل قد سمحت بالعيش
للمنفيين من « مملكة جوديا » ؛ إلى أن أتاح لهم الدولة الإخمينية خليفة
بابل ، العودة إلى موطنهم . في حين استصفت آشور « القبائل العشر المفقودة » ؛
فانتهى أمرها إلى الأبد ، إلا في مخيلة اليهود البريطانيين^(٢) :

ومهما يكن من الأمر ؛ فبالرغم من الاستثناءات ؛ ثمة حقيقة
لا تمارى تقوم على أن سياسة الاستيطان البناء الإنسانية الطابع ، مظهر
من مظاهر الدولة العالمية :

وقد سبق أن عيّنا فاصلا بين الحاميات التي تهدف إلى تحقيق غرض
حربي ، أو إلى كفالة الأمن ؛ وبين المستعمرات التي ترنو إلى غايات
اجتماعية أو ثقافية . بيد أنه يتبين على طول المدى ، أن العبرة في تعيين
الفاصل ، يظهر في الغرض ، لا في النتيجة . وقلما يخيب مسعى الحاميات
العسكرية التي ينصبها بناء الإمبراطورية على حدود الدولة العالمية وفي
داخليتها ، في استجلاب المدنيين للاستيطان عن كذب منها .

ومن قبيل المثال ؛ أنه على الرغم من حظر الزواج رسميا على جنود
الكتائب الرومانية أثناء فترة خدمتهم بالبحر ، كان يسمح لهم عمليا
بإقامة علاقات دائمة مع المحظيات ، وتنشئة العائلات . وكان في مكنتهم ،
بعد تسريحهم من الخدمة ؛ تحويل التسرى إلى زواج شرعى ، والاعتراف
بشرعية أولادهم منهم : وكان يؤذن للجنود العرب ، باصطحاب
زوجاتهم وأطفالهم :

وهكذا ؛ غدت الحاميات العسكرية الرومانية والعربية ، نواة

(١) نينوى : عاصمة دولة آشور . (المترجم)

(٢) كان اليهود يكونون في الأصل اثنتى عشرة قبيلة ، ينتسب كل منها إلى ولد من أولاد
يعقوب الاثنى عشر . ويسمى يعقوب أيضاً بإسرائيل . (المترجم)

الاستيطان المدني . ويصدق هذا القول على مواقع الحاميات العسكرية في كافة الإمبراطوريات وفي جميع الأزمنة .

يبد أن المستعمرات المدنية إذ تنبعث كمنتجات فرعية للمؤسسات العسكرية ؛ تعمّر كذلك باعتبارها أهدافاً في حد ذاتها . مثال ذلك ؛ أن مقاطعات الأناضول الشمالية الشرقية التي أقطعها أباطرة الدولة الأخمينية لنبلأ فارس ، قد عمرها العثمانيون بالبنانيين اهتموا إلى الإسلام . ولقد أسكن العثمانيون بالمراكز التجارية في قلب ممتلكاتهم ، جماعات من مهاجري اليهود (من السفاردية) الذين نزحوا إلى الإمبراطورية العثمانية من أسبانيا والبرتغال .

وفي وسعنا إيراد قائمة طويلة بالمستعمرات التي أنشأها الأباطرة الرومانيون ، مراكز للحضارة (انلاتينية أو الهلينية وفقاً للأحوال) في مناطق الإمبراطورية الأشد تأخرًا . ويطالعنا في مدينة أدريانوبل^(١) ، مثال من أمثلة كثيرة . إذ يُذكر اسمها حتى هذه الأيام ، بجهود إمبراطور عظيم من القرن الثاني ، لتخليص أهالي تراقيا من بربريتهم التقليدية . واتبع بناء الإمبراطورية الأسبانية نفس السياسة في أميركا الوسطى والجنوبية . فكان أن أدّت المدن التي أنشأها المستعمرون الأسبان ، وظيفة الحلايا لنظام إداري وقضائي أجنبي دخيل ، مثلها مثل المدن الهلينية .

« برزت المدن في المستعمرات الأنجلوأمريكية لسد احتياجات سكان الريف . أما في المستعمرات الإسبانية ، فقد تزايد سكان الريف لمواجهة احتياجات المدن . وبينما تجلّت بصفة عامة الغاية الأساسية للمستوطن الإنجليزي ، في العيش على الأرض واكتساب أوده من زراعتها ؛ كان مناط الغاية الأساسية للإسباني ، الحياة في المدن واجتناء معاشه من الهنود

(١) هي مدينة أدرنة في تراقيا التركية . (المترجم)

أو الزوج العاملين في الضياع أو في المناجم . ونظرا لاستغلال جهود السكان الأصلاء في العمل في الحقول والمناجم ؛ فقد ظل الهنود ، جبهة سكان الريف العظمى^(١) .

وثمة نوع من الاستيطان الداخلي يبرز في المرحلة الأخيرة لتاريخ دولة عالمية . ذلك هو السماح للبرابرة بتعمير الأراضي التي أقفرت من سكانها ، سواء نتيجة لإغارات البرابرة أنفسهم ، أو بفعل إصابة الإمبراطورية المتداعية بداء اجتماعي ، ويحضرنا مثال تقليدي في سماح الإمبراطورية الرومانية بعد عصر دقلديانوس بإقامة مستعمرات ألمانية وسرماتية^(٢) على الممتلكات الرومانية في بلاد الغال^(٣) وإيطاليا والأقاليم الدانوبية . ولقد أطلق على المستوطنين البرابرة كلمة Zeti الشائعة في غرب ألمانيا ؛ وتعني الأجانب أشباه الأرقاء المستوطنين البلاد . ولعل البحث يقودنا إلى أنهم ذراري أعداء من البرابرة المهزمين ، ينزل أهل البلاد القصاص بهم على أعمالهم العدوانية التي ارتكبوها فيما سلف من أيامهم ؛ بإلزامهم بالتحول إلى زراع مسالين في الأرض التي اجتاحتها في إغاراتهم السابقة ، وكانوا يعتبرونها بمثابة أرض الميعاد^(٤) ؛ أو لعل أهالي البلاد يتوددون إليهم بهذا الإجراء .

وعلى أية حال ؛ فلقد استقر البرابرة المغيرون في داخلية البلاد ، لا في مناطق الحدود .

ويوحى استعراض الحاميات والمستعمرات التي شيدها حكام الدولة

(١) صفحتا ١٥٩ و ١٦٠ Haring, C. H. The Spanish Empire in America.

(٢) تقع سرماتيا شرق ألمانيا . ويقطنها الروس والبولنديون في الوقت الحاضر .

(المترجم)

(٣) بلاد الغال : فرنسا الحالية . (المترجم)

(٤) أرض الميعاد في الأصل هي فلسطين بالنسبة لليهود . (المترجم)

العالمية ، وبيث التأمل في عملية نقل السكان تعسفيا ؛ فكرة مبادرتها أنه مهما يكن من أمر فضائل هذه النظم في مواطن أخرى ، فلا بد وأنها قد عززت عملية التحول البروليتارى واختلاط العناصر ؛ التي رأينا أنها سمة « عصر الاضطرابات » ومظهر مرحلة « الدولة العالمية » على السواء . إذ تصبح الحاميات العسكرية الدائمة التي تنشأ على الحدود ، بوتقة انصهار ؛ تمزج فيها الطبقة المسيطرة نفسها بالبروليتارين الخارجية والداخلية كليهما . وينحو بمرو الزمن حراس الحدود هم وعصابات الحرب البربرية المعسكرين في الجانب الآخر منها ، إلى الامتزاج بعضهم بالبعض الآخر . ويتم ذلك في محيط التكنولوجيا الحربية في البداية ، ثم ينتهى الحال إلى التمازج الثقافى .

على أنه قبل اصطباغ الطبقة المسيطرة بالصبغة البربرية بزمان طويل (بفضل اتصالها بالبروليتاريا الخارجية على حدود البلاد) ؛ نجدتها تهبط (بفضل تأخيرها مع البروليتاريا الداخلية) إلى المستوى الثقافى لفئات المجتمع الدنيا . ذلك لأن بناء الإمبراطوريات ؛ قلما يحتفظون بقوة عسكرية ضاربة تكفى لوفاء بأغراضهم ، أو يوفرون للجيش الخترقة ، الحماس القمين بدفعها إلى الاستمساك بإمبراطوريتها والدفاع عنها دون التماس مساعدة خارجية . ومن ثم ؛ يلجأ بناء الإمبراطورية تعزيزاً لجيوشهم ، إلى التزوّد بأية مساعدة خارجية متاحة . وتنتجلى هذه المساعدة في بداية الأمر في تكوين الجيوش من شعوبهم الخاضعة لسلطانهم ؛ وهى شعوب لم تفقد فضائلها الحربية بعد . ويشرع بناء الإمبراطوريات في مرحلة تالية في التزوّد كذلك ، بالجنود من بين صفوف برايرة الحدود .

فمن هو المستفيد الأساسى من عملية امتزاج العناصر والتحول البروليتارى؟ واضح أن البروليتاريا الخارجية هى أبرز المتفعين . إذ يمكن التعليم الذى يتلقاه البرايرة بفضل احتكاكهم بالمواقع الحربية التى تُنشئها الحضارة

عند حدودها الخارجية (احتكاك يتم بفضل مناوشتهم لها في بداية الأمر ، ثم بانخراطهم جنوداً مرتزقة في جيوشها) ؛ يمكنهم هذا من الانقضاض فيما بعد عبر الحدود المنهارة ، على الدولة العالمية المتداعية لتلك الحضارة . ويتمكنون بالتالى من اقتطاع دول تخلف تلك الدولة العالمية . وتعرف هذه المرحلة باسم « عصر البطولة » . وهو عصر سبق أن بينّا أن مآثره سريعة الزوال .

والمسيحية والإسلام هما المستفيدان النهائيان من عملية إعادة تنظيم السكان وإدماجهم داخل الإمبراطوريتين الرومانية والعربية على التوالى . وهذا ما نتبينه فيما يلى :

فإن الإسلام قد انتفع - كما هو ظاهر - بالمعسكرات وحاميات الحدود التى أقامتها الخلافة الأموية . إذ جعل منها نقاط ارتكاز تنتشر منها طاقاته الروحية الكامنة ؛ انتشاراً غير عادى . وأمكن لرسالة الإسلام بفضل هذا الانتشار ؛ أن تتألق وأن تتكيف على مر العصور . فإذا كان الإسلام قد اندفع من شبه الجزيرة العربية فى إبان القرن السابع الميلادى ، عقيدة اقتصرته فى بداية الأمر على العرب وحدهم (وكانوا قبل إسلامهم عصابات حربية تقطع لنفسها مقاطعات من ممتلكات الإمبراطورية الرومانية) ؛ إلا أنه لم يأت القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى غدا الإسلام ديناً عالمياً ، تنفّء إلى ظله الأقاليم التى هجرتها دعائها بعد انهيار الخلافة العباسية وقتما تحالت الحضارة السورية^(١) .

فما هو سر قوة الإسلام على البقاء ، بقاؤه بعد وفاة رسوله ، ثم زوال بناء إمبراطوريته من العرب ، وانهيار من حلوا محلهم من الإيرانيين ،

(١) باعتبار أن الخلافة العباسية هى الدولة العالمية للحضارة السورية بعد استعادتها بفضل العرب المسلمين . (المترجم)

وانهزام الخلافة العباسية ، وتداعى الدول التي قامت فترة ما على أنقاض الخلافة العباسية ؟

يمكن التفسير في التجربة الروحية التي مر بها المهتدون إلى الإسلام ، من رعايا الخلافة الأموية من غير العرب

فلقد تأصلت جذور الإسلام في قلوبهم ، فأولوه أهمية تفوق نظرة العرب إليه . وإن كان منهم من أقبل على اعتناقه في بداية الأمر ، تحقيقاً لمنافع عاجلة .

ولاجرم أن عقيدة دينية توفّق التوفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها ، عقيدة لا يستند بناؤها (أو زوالها) على أهواء تلك النظم السياسية التي تنشأ استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجاف مبادئها ؛ ليعتبر انتصارها الروحاني ، أعجب مثال يبين أنه وإن حلت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التي سمت إلى تحقيق غايات سياسية ؛ إلا أن الإسلام — عكسها — لم يؤثر فيه هذا الاتجاه . وهذا ما يديه استقراء اتجاهه السياسي منذ عهد الرسول نفسه ثم في عهد خلفائه من بعده . فإن هجرة النبي العربي من مكة إلى المدينة ؛ قد جعلت منه سياسياً ناجحاً لامعاً ، عوضاً عن بقاءه بمكة نيباً قليل الحظ من الأتباع والأنصار .

وإذا كان استخدام العقيدة الدينية الإسلامية قد عرّض الإسلام للمخاطر التي تعرضت لها العقائد الدينية الأخرى التي استخدمت أداة لإدراك أهداف سياسية ؛ إلا أن الإسلام وحده هو الذي سلم من هذه المخاطر .

وهكذا ؛ تبينت بمرور الأجيال والأحقاب ، عظم قدر الرسالة الروحية التي أبلغها محمد إلى البشرية .

وترتبت على السياسة التي اتبعها بناء الإمبراطورية الإسلامية في إبان عهد الخلافة ، لإقامة الجوامع العسكرية وإنشاء المستعمرات وتنظيم عملية نقل

السكان وامتزاج عناصرهم ؛ قرنت نتيجة لم تتوقع ولم تقصد أصلاً ، مدارها التعجيل بإخاز رسالة الإسلام الروحية .

ولقد انبثت في تاريخ الإمبراطورية الرومانية نتيجة ممثلة :

إذ تبلورت في الحاميات العسكرية على طول الحدود في إبان القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإمبراطورية الرومانية ؛ أشد تأثيرات الموصلات الدينية نشاطاً وذبوعاً . وتجلت هنا بصفة خاصة ؛ سرعة التبشير الديني في عبادة جوبيتر^(١) ذات الأصل الحيثي ، وعبادة ميترا الإيرانية الأصل^(٢) . وذلك بعد اضطبابها بتسعة هيلينية . وفي رسما ان تتبع انتقال هاتين العقيدتين الدينتين من ظهور الحاميات العسكرية الرومانية على القرات ، إلى الحاميات معسرة على نهر الدانوب ، وعلى الحدود الألمانية ، وعلى نهر الراين ، وفي قلاع بريطانيا .

ويذكرنا تسبوع هاتين العقيدتين الدينتين بين الحاميات العسكرية الرومانية ؛ برحلة عقيدة دينية عاصرتهما ، هي البوذية المهايانية ؛ في إبان المرحلة الأخيرة من جانب من الجند من الجانب الغربي من هضبة التبت . فالتد تبعت رحلتها من شواطئ "حوض نهر تارين إلى شواطئ المحيط الهادئ . صور من الحاميات العسكرية ، تحرس حدود دولة عالمية صينية

(١) جوبيتر (ويدعى إيويتر باللاتينية) : كبير آلهة الرومان القدماء . وتماثل مكانته ، مكانة زيوس عند اليونانيين . (المترجم)

(٢) ميترا : أحد أرباب فارس القديمة . جعلت منه الزرادشتية ملاكاً للضياء يقف إلى جانب إله النور آهورمازدا في صراعه ضد إله الشر والظلام آهرمان . وقد انتقلت عبادته بانتقال الجيوش الفارسية . وأخيراً استرملن آميا الصغرى ، متدمجاً مع عبادة الشمس وغيرها من الآلهة القديمة في الديانة الجديدة في الإمبراطورية الرومانية ، وتمكنت بين الحاميات العسكرية الرومانية ، وشجع انتشارها الأباطرة الرومانيون . وقد بدأت عبادة ميترا تتداعى من عام ٢٧٥ م . فخلال صنف المسيحية ، وقصور عليها الإسلام في فارس وغيرها من

ضد بدو السهب الأوراسي^(١) . ونجحت عقيدة المهايانا خلال الفصل الثاني من قصة انتشارها ؛ في النفوذ إلى داخلية الدول العالمية الصينية ، قادمة من حدودها الشمالية الغربية . فأصبحت والحالة هذه ؛ الديانة العالمية للبروليتاريا الداخلية الصينية . وغدت في نهاية الأمر ؛ إحدى العقائد الدينية ، في عالم ينزع إلى الثقافة الغربية .

أما عن عقيدة ميترا وعبادة جوبيتر ؛ فإن مصيرهما أكثر تواضعاً إذ نظراً لارتباطهما (كما تبين ذلك فيما بعد) بمصير الجيش الروماني الإمبراطوري ؛ لم تفق قط هاتان العقيدتان ذاتا النزعة الحربية ، من تأثير الضربة التي أصابتهما بفعل الانهيار الموقوت الذي ألمّ بالجيش الروماني في منتصف القرن الثالث المسيحي . على أن للعقيدتين أهمية تاريخية ما تزال باقية في كيان المسيحية . إذ يعتبران رافدين من روافد تيار التقاليد الدينية المتضرر ، الذي غذاه تلاقى الكثير من الأمواه في مجرى النهر الذي حفرتة المسيحية لنفسها ؛ وقتما تدفقت على الإمبراطورية الرومانية ، على طول مجرى يختلف عن مجرى العقائد الدينية الأخرى .

وإذا كان جوبيتر وميترا ، قد استخدما حاميات الحدود ، معبراً لسييرهما من الفرات إلى الشمال الغربي صوب نهر التاين Tyne^(٢) ؛ فقد استفاد القديس بولص بالمثل من المعسكرات التي شيدتها قيصر وأغسطس في داخلية الإمبراطورية الرومانية . ففي رحلته التبشيرية الأولى ؛ بذل القديس بولص بنور المسيحية في أنطاكية بيسيديا^(٣) ، وفي ليسترا^(٤) . وبندرهما في رحلته

(١) الأوراسي : الأوربي الآسيوي . . (المترجم)

(٢) نهر التاين : نهر في شمال إنجلترا يبلغ طوله حوالى ٤٢ ميلا . (المترجم)
(٣) بيسيديا : اسم أطلق على قطر جبل في جنوب آسيا الصغرى . وكان يقطنه سكان أشداء دأبوا على الإغارة على جيرانهم . وقد أخضعهم الإسكندر الأكبر بعد مقاومة عنيفة . وأصبحت بيسيديا مقاطعة رومانية وهي الآن جزء من الجمهورية التركية . (المترجم)
(٤) ليسترا : كانت مستعمرة رومانية في آسيا الصغرى وقد زارها القديس بولص

ومكانها الآن قرية خاتين سراي . (المترجم)

الثانية فى المستعمرات الرومانية فى ترواس^(١) و فيليبى^(٢) Philippi وكورنث. على أن القديس بولص ؛ كان أبعد من أن يحصر نشاطه فى مثل هذه المستعمرات . من ذلك أنه استقر طيلة عامين بمدينة إفسوس Ephesus^(٣) الهلينية القديمة . على أن كورنث وإن أقام بها ثمانية عشر شهراً ، لم تؤد دوراً هاماً فى حياة الكنيسة المسيحية ، فى إبان الفترة التى تلت عصر الرسل . وفى وسعنا أن نخدس بأن تبرز الجماعة المسيحية هنا ، يرد بعضه إلى طابع السكان المختلط فى المستعمرات التى أقامها قيصر لتوطين عتقاء روما .

فإن مدينة ليون بفرنسا وليست كورنث باليونان ، هى أعظم أمثلة المستعمرات الرومانية لفتاً للأنظار من ناحية تحولها للقضية المسيحية . إذ لم يبطل تقدم المسيحية من مستعمرة إلى أخرى وقما بلغت روما ، كما لم يتوقف انتشارها بوفاة القديس بولص . ومدينة ليون هذه ، هى مدينة لوجودوم Lugudonum التى كانت مدينة لاتينية اسماً ومبنى ، والتى اختير عام ٤٣ ق . م مكان إنشائها بعناية ، فى زاوية كونها التقاء نهري الرون والساون Saône . وكانت الغاية من توطىن المواطنين الرومانيين ذوى الأصل الرومانى الخالص فى هذه المستعمرة الواقعة على عتبة الأصقاع الرحبية لبلاد

(١) ترواس : هى مدينة طروادة فى آسيا الصغرى ، وهى أساس ملحمة الإلياذة لهوميروس . (المترجم)

(٢) فيليبى : مدينة قديمة فى مقدونيا . حصنها فيليب الثانى ملك مقدونيا لحاية مناجم الذهب بجوارها . وأصبحت مستعمرة رومانية بعد هزيمة بروتوس وكليوس على أيدي أوكتافيوس وأنطونيوس . (المترجم)

(٣) إفسوس : مدينة قديمة بآسيا الصغرى . وما تزال بقاياها قائمة على بعد ٣٥ ميلا من مدينة أزمير ، وكانت تشتهر بمعبدها الذى كانت تعبد فيه آرتميس (ديانا) ربة الطبيعة فى آسيا الصغرى . وقد اعتبر هذا المعبد فى عصره إحدى عجائب الدنيا السبعة ، وقد دمره القوط عام ٢٦٣ ميلادية . (المترجم)

الكلت التي ألحقها فتوحات قيصر بالإمبراطورية ؛ كانت الغاية منه استخدام هذا المركز الكلتى لإشاعة الثقافة الرومانية فى تلك الأنحاء ، مثلما أشعتها بالفعل مدينة ناربون Narbonne المستعمرة الرومانية القديمة ، فى أرجاء بلاد الكلت الذين استقروا فى الإمبراطورية الرومانية واعتنقوا أساليب الحياة الرومانية . فكان أن منحهم روما رعويتها .

ولقد أصبحت ليون ، مقر الحامية الرومانية الوحيدة فى المناطق الواقعة بين روما نفسها ونهر الراين . ولم يقتصر الأمر على كونها المركز الإدارى الوحيد لإحدى المقاطعات الثلاث ، التى انقسمت إليها بلاد الكلت ؛ بل غدت كذلك مكان الاجتماع الرسمى لمجلس المقاطعات الثلاث ، وقوامه ممثلو ستين مقاطعة أو أكثر ، كان ينعقد حول ما يدعى بمحراب أغسطس الذى أنشأه دروسوس Drusus^(١) عام ١٢ قبل الميلاد . وإذا كان قد قُصد من إنشاء مدينة ليون أن تُنجز أهدافاً هامة للدولة الرومانية ؛ إلا أنه لم يأت عام ٦٧٧ ميلادية ، حتى كان يفىء إلى ظل المستعمرة الرومانية ، جماعة مسيحية بلغت من الحيوية قدراً دفع السلطات الحكومية إلى إقامة الحجازر لصد نشاطها . وكانت دماء الشهداء هنا كله هى فى أمكنة أخرى ، بذرة المسيحية المزدهرة .

ومصادقا لذلك ؛ يعزى فضل تكوين أولى أشكال التنظيم اللاهوتى الكاثولىكى المسيحى ، إلى إيريناوس Irenaeus^(٢) (وكان أديبا يونانيا لعله من أصل سورى ثم أصبح أسقفا لمدينة ليون خلال الخمسة والعشرين سنة التى تلت عام ١٧٧ ميلادية) .

(١) أحد الساسة الرومانين . (المترجم)

(٢) إيريناوس : أحد آباء الكنيسة اليونانية . وقد أصبح منذ عام ١١٧ م مطران

ليون . وقد اغتاله الإمبراطور سفيروس . (المترجم)

وصفوة القول :

انتفعت المسيحية في عهد الإمبراطورية الرومانية ، والإسلام في ظل الخلافة ، والبوذية في عهد الدولة العالمية الصينية ؛ انتفع كل منهم من الحاميات والمستعمرات التي أقامها بناء الإمبراطوريات تحقيقاً لأهدافهم الدنيوية الخاصة . على أن ما أسفرت عنه إقامة الحاميات والمستعمرات من نتائج دينية غير مقصودة ، من إعادة توزيع السكان توزيعاً منتظماً ؛ يرقى في نتائجه إلى ما بلغته إجراءات نبوخذ نصر الذي ارتدّ إلى الأساليب الأشورى البربرية وقما حمل اليهود أسرى إلى بابل . ولم تقتصر عُنُقِي هذا الإجراء على كفالة التقدم لدين هام ما يزال قائماً في العالم ، بل لقد ابتعث إلى الوجود - إلى حد كبير - دينا جديد^(١) .

(ج) الأقاليم :

يجزئ بناء الدولة العالمية أملاكهم إلى أقاليم تؤدي وظيفتين واضحتي المعالم . مثلها مثال الحاميات والمستعمرات التي يثرونها على صفحات أملاكهم :

الأولى - المحافظة على كيان الدولة العالمية ذاتها .

الثانية - وقاية المجتمع الذي تزود الدول العالمية كيانه الاجتماعي ، بالإطار السياسي .

ويبين استقراء تاريخي الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البريطانية في الهند ، أن مناط الوظيفتين الرئيسيتين البديلتين للتنظيم السياسي لدولة عالمية ؛ هو المحافظة على سيادة الدولة التي أقامها بناء الإمبراطورية وملء الفراغ السياسي الذي يترتب في الكيان الاجتماعي للمجتمع المتحلل ، بفعل تدمير دوله الإقليمية ، قبل تكوين الدولة العالمية أو إنهيارها .

(١) أي المسيحية باعتبار أنها تولدت عن اليهودية أصلاً . (المترجم)

وينساق بناء الدولة العالمية نحو إلحاق الأقاليم بدولتهم غنوة واقتداراً ،
أو إدارتها إدارة مباشرة . وتلك تدابير تكفل في ظنهم حماية دولتهم
العالمية من خطر انبعاث منافسيهم المهزمين : ويتوقف مدى سيرهم
في هذا السبيل ، على درجة ولاء سادة الدول الإقليمية الطغاة ورعاياها ،
لكيانها ؛ والأسف على انقضاء أيامها . وتتوقف درجة الولاء والأسف
يدورها على سير الغزو وعلى التاريخ السابق للمجتمع الذي شيدت الدولة
العالمية سلطانها في نطاق ملكه . وإن لبُناة الإمبراطورية الظافرين ،
الحق كله في خشيتهم لانبعاث قوة تقوّض دعائم الحكم الذي فرضوه
بضربة واحدة ؛ سدودها إلى عالم من الدول الإقليمية التي ألّفت
الاستمئاع بوضع الدول المستقلة ، ودأبت على إساءة استخدام استقلالها .
ويطالعنا من قبيل المثال :

إن أسرة تسين Tsin مشيّد الإمبراطورية الصينية ؛ قد فرضت
على العالم الصيني وحدة سياسية ، أنجزتها خلال فترة لا تتجاوز عشر
سنوات (٢٣٠ - ٢٢١ ق . م) . إذ استطاع الملك تشنج Chên من
أسرة تسين خلال هذه الحقبة القصيرة من الزمن ؛ تدمير ست ممالك ،
كانت ما تزال إلى عصره قائمة . فغداً بذلك مؤسس دولة عالمية صينية ،
أهلته لحمل لقب تسين شي هوانج تي Tsin She Hwang Ti . بيد
أنه عجز أن يستصفي بنفس السرعة ؛ الوجدان السياسي للعناصر الحاكمة
السابقة . الأمر الذي دعا المؤرخ الصيني « سى - ما تسين Sse-Ma Ts'ien »
إلى تصوير المشكلة التي جابهت هذا الإمبراطور تصويراً درامياً ، اتخذ
صورة مناظرة خطابية رتيبة ، جرت في المجلس الإمبراطورى .

ومهما يكن من أمر الإجراءات التي فصلت أخيراً في نتيجة الصراع
الذى أفضى إلى اتخاذ الإمبراطور قراره ، فالموكد أن السياسة التقدمية
الطابع هي التي أملت عليه قراره . وانتهى الحال بالإمبراطور تسين شي

هوانج - تي Tsin she hwang - ti إلى الإيمان بإعادة تقسيم جميع أراضي دولته العالمية إلى ست وثلاثين قيادة حربية .

وإن الإمبراطور الصيني باتخاذ هذه الخطوة التقدمية ، إنما سيرته أوضاع الدول الإقليمية الست التي قضى على تشكيلها الحربي وعلى نظامها الاجتماعي الغير الإقطاعي . وهذا النظام ، قد ساد بالفعل دولته طوال مائة عام . لكن ما كان يتوقع أن تتقبل الدول الأخرى التي غزاها ، النظام الذي فرضته عليه إرادته ؛ إذ كان « تسين شي هوانج - تي » أنموذجاً لتلك الشخصية المألوفة في تواريخ تشييد الدول العالمية . لقد كان غازياً من رجال الحدود ، نظرت إليه الطبقة الحاكمة للدول التي غزاها ، نظرة مواطني المدن اليونانية في إبان القرن الرابع إلى مقدونيا ؛ نظرة تعلق قليلاً عن نظرتها إلى البربرية .

وطبيعي أن تنزع شعوب المركز الثقافي للعالم الصيني إلى الكسلف بثقافة كانوا هم أنفسهم أئمتها الأصليين . وشجعهم مؤخراً على التمداد في هذه الخطيئة الفكرية ، فلاسفة المدرسة الكنفوشيوسية . إذ شخص مؤسسها داء المجتمع الصيني الاجتماعي في تجاهل الفرائض ونبذ الأوضاع القديمة . ووجد العلاج الشافي ، في استعادة النظام الاجتماعي والخلقي - الافتراضي - للعصر الإقطاعي الصيني المبكر .

ولم يكن لتمجيد هذا الماضي النصف التصوري ، سوى تأثير ضئيل في حكام دولة تسين Ts'in وشعبها . وترتب على فرض نظم جماعة واقعة وراء الحدود على شعب « تسين » ، عنوة ، إثارة الازدراء العنيف الذي كانت إجابة « تسين هوانج - تي » الوحيدة عليه ، تطبيق مزيد من إجراءات القمع التعسفية .

وأحدثت مثل هذه السياسة الانفجار الشعبي . إذ تلا وفاة الإمبراطور عام ٢١٠ ق . م . نشوب ثورة عارمة ترتب عليها استيلاء أحد زعماء الثورة

« ليو بانج Liu Pang » على عاصمة إمبراطورية تسين . بيد أنه لم يعقب فوز رد الفعل العنيف على الانقلاب الذى أحدثه منشئ الدولة العالمية الصينية فى نظام الدولة ؛ لم تعقبه استعادة النظام القديم . إذ لم يكن « ليوبانج » عضواً فى طبقة النبلاء الإقطاعيين التى جرّدت من سلطانها ، بل كان بأصله فلاحاً ، وفقى إلى إنشاء نظام ثابت الدعائم . ومناطق توفيقه ، صدوفه عن السعى لاستعادة النظام الإقطاعى التناقضى^(١) ، أو النظام الثورى البديل الذى فرضه تسين شى هوانج - تى . وانصبت سياسة « ليو بانج » على تلمّس طريقه فى هوادة ، صوب نظام سلفه الشبيه بنظام قيصر ، مع اعتناق قسط من نزعة التوفيق بين الآراء ، شبيهة بنزعة أغسطس .

وفى خلال الفاصلة القصيرة بين انهيار دولة « تسين » عام ٢٠٧ ق. م ، والاعتراف الشامل عام ٢٠٢ ق. م . بـ « ليوبانج » سيداً أوحده على العالم الصينى ؛ حاول نائز آخر « هسيانج يو Heisng yu » استعادة النظام القديم فباءت تجربته بالفشل . ولما نصب « ليو بانج » نفسه سيداً فرداً للعالم الصينى ، بدأ بالإنعام بالإقطاعيات على أكثر معاونيه بلاء فى خدمته . بل إنه سمح لمن أعلنوا ولاءهم له من مناصرى خصمة « هسيانج يو » ، بالاحتفاظ بأَمْلاكهم . لكنه ما لبث أن أنزل المهانة بهؤلاء القادة أصحاب الإقطاعيات ، وحكم عليهم بالموت الواحد بعد الآخر ، كما دأب على نقل أصحاب الإقطاعيات الآخرين من إقطاعية إلى أخرى ، توطئة لانتزاع أَمْلاكهم منهم ، دون أن تترك لهم فرصة إقامة أى نوع من الاتصالات الخطيرة مع رعاياهم .

واتخذ « ليوبانج » فى نفس الوقت ، إجراءات مشددة للمحافظة على رجحان السيادة الإمبراطورية والإعلاء من شأنها . وتجلّى هذا ، فى إبراز فكرة « تسين شى هوانج - تى » المثالية عن الدولة العالمية التى تدار إدارة

(١) التناقضى هنا يدل على شئ يستحيل تحقيقه . (المترجم)

مركزية ؛ إلى حين التنفيذ العملى فى غضون مائة عام من وفاة « تسين شى هوانج - تى » . وكان الإنجاز هذه المرة ، قاطعاً مانعاً . ذلك لأن ما اتسمت به سياسة « ليوبانج » وخلفائه من حيلة وتبصر^(١) ، قد أتاح الوقت للحكومة الإمبراطورية لتكوين الأداة البشرية التى قاد الافتقار إليها أيام أول إمبراطور من أسرة « تسين » ، إلى انهيار صرح آماله فى تحقيق مشروعاته المحيطة .

فما كانت إدارة الحكومة المركزية ، تيسر دون طبقة الموظفين الإداريين . وهذا ما وفقت إليه أسرة هان الملكية التى أسسها « ليوبانج » . إذ نجحت فى تشييد دعائم إدارة مدنية قادرة ، رضى عنها الناس جميعاً . لا يعزى نجاحها إلى تحالف الأسرة الملكية مع مدرسة كنفوشيوس الفلسفية ، وما تلا ذلك من انقسام تحالف الفلاسفة الكنفوشوسيين القديم مع الأرستقراطية الوراثة العسكرية ذات الأفق التفكيرى الضيق . وأمكنها إدراك غايتها المرتجاة ، بفتح باب الالتحاق بوظائف الدولة لطبقة جديدة رحبية التفكير . تستند أرستقراطيتها على جدارتها الثقافية القائمة على تمكنها من ماثورات كنفوشيوس ، وبصرها بأحكامه . وكان أن أنجزت عملية الانتقال تدريجياً وأديرت فى براعة ، قادت فى نهاية المطاف ، إلى وراثة الأرستقراطية الجديدة لقب « تشون تزي Chun tze » (وكان كنية الأرستقراطية القائمة) . وتم ذلك ؛ فى هوادة لم يشعر أحد معها بالثورة الاجتماعية السياسية الخطيرة التى تعتمل فى حياة البلاد .

ولقد يمكن اعتبار مؤسس أسرة هان (قياساً على ثبات عمله الفذ ودوامه) أعظم جميع هؤلاء الساسة الذين تتضمن سيرهم تأسيس دولة عالمية .

(١) استخدم الدكتور توينبى هنا تعبير « Fabian » نسبة إلى القائد الرومانى فايوس الذى أنهك قوى القائد القرطاجى هانيبال خلال الحرب البونية الثانية . فأصبح اسمه علماً على حيلة الحذر واجتناب الصدام السافر . (المترجم)

وجدير بالذكر ؛ جهل العالم الغربي (عدا المؤرخين المتخصصين في التاريخ الصينى للوجود التاريخى للإمبراطور « ليو بانج » ؛ بينما يدرك العالم الغربى مآثر قيصر المشابهة لمآثر الإمبراطور الصينى .

وإذا كنا قد أوضحنا مفهوم التنظيم الإقليمى فى الدولة العالمية الصينية ؛ لكن يقتضينا ضيق المجال ، الاكتفاء بهذا المثل ، والانتقال دفعة واحدة لبحث الخدمات التى تسديا - لاشعورياً - المنظمات الإقليمية ، إلى طوائف لم تنصرف النية لخدمتها ، عند إنشائها فى بداية الأمر . وهنا نقصر بحثنا مرة أخرى على مثال فرد ؛ بأن نستعد ، نجاح الكنيسة المسيحية فى تحويل التنظيم الإقليمى للإمبراطورية الرومانية لصالحها .

فلقد انتفعت الكنيسة أثناء تشييدها كيانها الدينى من وجود المدن الرومانية ؛ وكانت خلايا الكيان الاجتماعى الهليني ، وخلايا الكيان السياسى الرومانى . ولما ذوت تقاليد الحضارة الهلينية تدريجياً ؛ تحولت الدول الهلينية إلى مجرد مدن كبرى ، باتت مقر الأسقف المسيحى^(١) - عوضاً عن أن تعنى مدناً تتوافر بها نظام الحكم الذاتى ، ويرخص بوجودها فى الكمولث الرومانى ، كبلديات .

وفى عهد دقلديانوس ، سلم الأساقفة المحليون فى كل إقليم من الأقاليم الزرومانية ، بأسبقية الأسقف المحلى الذى مقر كرسيه عاصمة هذا الإقليم . وسلم رؤساء أساقفة (أو مطارنة) مجموعة من الأقاليم التى كانت تدعى بالأبروشيات^(٢) وفقاً للنظام الرومانى وقتذاك ، برئاسة مطران عاصمة مجموعة الأقاليم هذه . وكلمة أبروشية ، كلمة رومانية الأصل ، تلتفتها الكنيسة وجعلت منها مدلولاً على اختصاص المطران الواحد . وبذل المطارنة

(١) كان ذلك هو العرف المألوف فى إنجلترا حتى العصور الحديثة . فكانت المدن ، مدن كاتدرائية ؛ وغير مدن الكاتدرائيات ، بلديات . (المترجم)

(٢) Dioceses ، أى المقاطعات . (المترجم)

والأساقفة ورؤساء المطارنة جميعاً ؛ الولاء لبطاركة الولايات التي يعادل توزيعها في سلم الوظائف الدينية ، ترتيب التنظيم لإدارى في الإمبراطورية الرومانية ؛ فكان طبيعياً أن تنقسم الولايات الرومانية في نهاية المطاف ، من ناحية الوظائف الدينية ، إلى أربعة كراس بطيركية رئيسية :

الإسكندرية — القدس — أنطاكية — القسطنطينية .

أما الولايات الإدارية الرومانية الثلاث الأخرى ، فقد اندمجت اختصاصاتها الدينية ، في بطيركية واحدة واسعة الأرجاء ، إلا أنها قليلة السكان نسبياً ؛ تلك هي بطيركية روما ؛

ولم يوح أى حاكم دنيوى بهذا التنظيم الإقليمي للكنيسة المسيحية ، إذ شيدته هي نفسها خلال عصر لم تكن الدولة تعترف رسمياً بكيان الكنيسة . بل لقد تم التنظيم ، في وقت كانت الدولة تعاود اضطهادها لها الفينة بعد الأخرى .

وأياً ما تكون الحال ؛ فقد استطاع صرح الكنيسة هذا ، تلافى الانهيار الذى لاقته النظم الحديثة ، بفضل استغلالها — تحقيقاً لأهدافها — نظام الاستقلال الذاتي الذى اعتنقته النظم الدنيوية في بداية عهدها :

ففى بلاد الغال مثلاً ؛ رنا النظام الإمبراطورى المتقلقل ، إلى رد اعتباره الذاتى ، باستجلاب تأييد شعبى تبذله له مؤتمرات محلية دورية يعقدها الأعيان ؛ فأمكن الكنيسة بعد زوال ريح الإمبراطورية ، أن تسيطر على فكرة هذه السلطة الدنيوية الزائلة ، فتعقد مؤتمرات إقليمية يحضرها الأساقفة ؛

في وسع مؤرخ يتطلع في خريطة فرنسا الكهنوتية إبان العصور الوسطى ، أن يميز في فسيفساء الأسقفيات ، حدود دول مدن الغال التى اصطبغت

بالصبغة الرومانية ومقاطعات الغال الأخرى ، في حين احتفظت الأبروشيات^(١) بأسس التقسيمات الإدارية للأقاليم التي أنشأها أغسطس ، كما كانت معروفة في عصر دقلديانوس وهى : ناربون *Narbonensis* واكوينانيا *Aquitania* وليون *Lugdunensis* وبلجيكا *Belgica* . بل إن البطيريكيات الخمس ما تزال قائمة حتى وقت كتابة هذه السطور : أربع في أيدي الأرثوذكسية الشرقية^(٢) ، وواحدة في أيدي الكاثوليكية الغربية^(٣) .

ورغمًا عن تغير مناطق نفوذ هذه البطيريكيات وتشتت أتباعها ، وتباين جنسياتهم إلى أقصى حد منذ انعقاد المجمع المقدس الرابع في خاليدونيا (عام ٤٥١ م) ؛ عوض خسائرها الفادحة ، مكاسبها التي لم تكن تتوقعها ، وقما اتخذت البطيريكيات قلبها المعهود .

٥ - كراسى الملك من الأمصار :

تبدى دراسة عواصم الحكومات المركزية للدول العالمية ، نزعة بيّنة نحو تغيير مواقعها على مر الأيام .

وبياشر بناء الإمبراطوريات سلطانهم عادة من مقر الحكم الموافق لهم ، ويتم ذلك :

إما باتخاذ عاصمة وطنهم ، عاصمة لإمبراطوريتهم - مثل روما ، بالنسبة للرومان .

(١) الأبروشيات : رؤساؤها من المطارنة (أى رؤساء الأساقفة) في حين أن الأسقف (وهو أقل من المطران درجة في مراتب الكهنوت المسيحى) يترأس الأسقفية . (المترجم)

(٢) يوجد بكرسى الإسكندرية البطيريكى بطيريكان : بطيريك الكنيسة القبطية المرقسية وبطيريك كنيسة الروم الأرثوذكس . (المترجم)

(٣) لم تحتفظ بوحدها سوى البطيريكية الكاثوليكية في روما (وتدعى الآن : بابوية) . إذا تفرعت بطيريكية القسطنطينية إلى بطيريكيات : القسطنطينية وأثينا وموسكو . وتوشك بطيريكية الإسكندرية القبطية أن تتفرع إلى بطيريكى الحبشة ومصر . (المترجم)

أو بإقامتها في موقع جديد على أطراف الأضلاع الخاضعة لسلطانهم ،
مثل كلكتا في الهند بالنسبة للبريطانيين .

بيد أن الخبرة التي تكتسبها الإدارة الحكومية ، كفيلة — بتوالي الأيام —
بإرشاد بناء الإمبراطوريات أو خلفائهم (الذين يتسلمون زمام حكمها بعد
انهار موقوت) إلى تعيين موقع عاصمة ملكهم ، مسيرين بصلاحيه الموقع
للإمبراطورية في مجموعه ، وليس وفاء بأغراض بناتها فحسب . وقد
تضطرهم الأحداث إلى اتخاذ هذا القرار .

وطبعي أن يترتب على تطبيق وجهة النظر العالمية الطابع هذه ؛ اختلاف
مواقع العاصمة العتيدة ، وفقاً للظروف والملايسات :

فإن كانت الصلاحيه الإدارية هي الاعتبار الأساسي ؛ يصبح الموقع
الوسط ذو المواصلات السهلة ، أصلح المواقع .

وإن أتى في المحل الأول ، الدفاع ضد عدو مرتقب ؛ يغدو الموقع المختار ،
أنسب المواقع لتوزيع القوات على الحدود المهددة .

ولقد رأينا بناء الدول العالمية ، يختلفون في المنبت ؛
فهم يمتنون أحياناً إلى حضارة أجنبية عن المجتمع الذي يزودونه باحتياجاته
السياسية .

وهم في أحيان أخرى ، برايرة أصبحوا يتأون عن الحضارة التي ينجذبون
إليها . فهم بعبارة أخرى ما دعونه بـ « البروليتاريا الخارجية » .

وغالباً ما يكونون رجال حدود ؛ يبررون مطالبتهم بالانتساب إلى
حضارة ، بالدفاع عن حدودها ضد البرابرة الأبعدين . وذلك قبل أن
يوجهوا هم أنفسهم ، أسلحتهم صوب داخلية مجتمعهم ، فيمهرونه — من
ثم — بدولة عالمية .

وأخيراً ؛ لا يكون بناء الدولة العالمية — وهذه حالة نادرة — دخلاء

أوبرابرة أو رجال حدود ، بل « مواطنين » من داخلية المجتمع - موضع البحث .

وتنحو عاصمة الدولة العالمية التي يؤسسها دخلاء أو برابرة أو رجال حدود ، إلى الانتقال من حدود البلاد إلى وسطها . وإن كان يحدث في حالة الدولة العالمية التي ينشئها رجال حدود ، أن يجعلوا عاصمتهم قريبة منها ، ليتولوا وظائفهم الأصلية في الذود عن حدود البلاد . أما في الدول العالمية التي يؤسسها رجال من أهل البلاد ذاتها ، تبدأ العاصمة طبيعياً وسط البلاد - وإن كان يحتمل انتقالها قرب الحدود - إن ارتكز اهتمام الحكومة بصفة خاصة على الدفاع عن جهة معينة من البلاد .

وأجدد بنا الآن ، أن نسوق أمثلة للأحكام التي يبدو أنها تنظم مواقع العواصم وانتقالاتها :

يعتبر الحكم البريطاني في الهند ، مثالا للإمبراطوريات التي يشيدها دخلاء . إذ وصل الإنجليز الهند بطريق البحر ، للتجار مع السكان ولم يحلموا قط بحكمهم يوماً من الأيام . فأنشأوا القواعد التجارية في بومباي ومدراس وكلكتا . وأصبحت كلكتا ، أول عاصمة سياسية . إذ حدث أن أقامت شركة الهند الشرقية سلطاتها مصادفة على إقليمين يقعان وراء كلكتا ، ومضى على ذلك جيل بأسره ، قبل أن تستحوذ الشركة على ممتلكات مماثلة ، وظلت كلكتا عاصمة الهند البريطانية أكثر من مائة عام ، بعد رسم ولسلي (الحاكم العام ١٧٩٨ - ١٨٠٥ م) خطة إخضاع الهند بأسرها للحكم البريطاني ، وبعد انقضاء أكثر من خمسين سنة من تنفيذ الخطة بالفعل .

بيد أن توحيد شبه القارة الهندية ، كان من القوة بحيث اجتذب حكومة الهند المركزية البريطانية ، إلى نقل مركز الحكم من كلكتا إلى دلهي ، التي تعتبر الموقع الطبيعي لعاصمة إمبراطورية تشمل حوضى نهري السند والجناح على السواء . ولم تكن دلهي بالطبع موقعاً طبيعياً فحسب ، بل كانت كذلك

موقعاً تاريخياً ، بحسبانها منذ عام ١٦٢٨ وما بعده ، عاصمة أباطرة المغول . وقد زود المغول الهند - مثلما زودها البريطانيون - بدولة عالمية دخيلة . مع فارق أن المغول وفدوا إليها من الحدود الشمالية الغربية ، وجاءها البريطانيون عن طريق البحار . ولو كان المغول قد ساروا على نهج بريطانيا من اتخاذ العاصمة في بداية الأمر أقرب ما تكون إلى الجهة التي وفدوا منها أساساً ، لجعلوا كابول عاصمة إمبراطوريتهم . لكنهم لم يفعلوا ؛ بل اتخذوا آجرا عاصمتهم وقتاً ما (وتقع في نقطة متوسطة من البلاد) ، ثم استقروا في دهلي .

وإذا ما ألقينا لمحة عابرة على أمريكا الإسبانية ؛ ألفينا بناء الإمبراطورية بأميركا الوسطى ، ينشئون عاصمتهم أولاً وأخيراً بمدينة Tenochtitlan (أى مدينة المكسيك عاصمة جمهورية المكسيك الحالية) ، وهى هنا بمثابة دهلي للهند . فى حين أهملوا ميناء فيراكوز Vera Cruza ، وهو لإمبراطوريتهم بمثابة كلكتا . أما فى بيرو ؛ فقد اتبعوا طريقاً عكسياً ، باتخاذهم ميناء ليما عاصمة ، عوضاً عن كوزكو Cuzco عاصمة دولة الأنكاس القديمة Incas ، على الهضبة الداخلية . ونجد تفسير ذلك - بلاريب - فى حقيقة مبناها غنى شواطئ بيرو على المحيط الهادى وأهميتها ، عكس فقر شواطئ المكسيك على المحيط الأطلسى .

ونقل العثمانيون (وهم الدخلاء الذين زودوا المجتمع المسيحى الأرثوذكسى بدولته العالمية) كرسى ملكهم من عاصمة إلى أخرى . فجعلوه فى آسيا فى بداية الأمر ، ثم نقلوه إلى أوربا . وأخيراً استقر بهم المطاف فى الموقع القذ ، لعاصمة أسلافهم البيزنطيين .

ولما أنجز الإمبراطور المغولى قوبلاى خان (حكم ١٢٥٩ - ٩٤ م) غزو جميع أراضي مجتمع الشرق الأقصى داخل القارة ؛ نقل عاصمته من قره قوروم المنغولية إلى بكين الصينية . لكن قوبلاى خان ، وإن

اتخذ هذا القرار شخصيا ، ظل قلبه يحن إلى مراعى أجداده . فكان أن أرضى السياسى المنغولى نصف المثقف بالثقافة الصينية ، مشاعره البدوية الكامنة ، بتشيد مئوى ثانوى فى تشونج تو Chun tu ؛ وهى نقطة تقع على حافة الهضبة المنغولية حيث يقترب السهب فى أدنى نقاطه من العاصمة الجديدة . وإذا كانت بكين قد لبثت عاصمة الإمبراطورية ، إلا أن بعض أعمال الدولة كانت بلاريب تنتقل فى بعض الأحيان إلى « تشونج تو » . وفى هذا يقول الشاعر :

زندو أمر قوبلاى خان

بإقامة منظره فخيمة

ولعلنا نقارن « تشونج تو » بمدينة سيملا^(١) . فإذا كان قوبلاى خان قد تحسّر على مراعيه ، فقد كان نواب الملك فى الهند يتحسرون بالتأكيد على مناخ بلادهم المعتدل . بل لعلنا نقارن تشونج - تو بمدينة المورال^(٢) ، بما كان لها فى قلب الملكة فيكتوريا ما كان لمراعى السهب من حظوة فى قلب قوبلاى خان ؛ ولقد نمضى خطوة أبعد من ذلك فتخيّل مسافراً صينياً خلال القرن التاسع عشر ، يصف مفاتن المورال بحماس قمين بالإيجاء إلى شاعر صينى فى القرن الخامس والعشرين بتقديس الملكة فيكتوريا و « منظرها الفخيمة » فى شجرة من الشعر الصينى السحرى ! !

وهى سلوقوس نيكاتور Seleucus Nicator مؤسس إحدى الدول التى تخلّفت عن تقسيم إمبراطورية الإسكندر الواسعة الأرجاء التى انقضت

(١) تقع فى جبال هيمالايا بشمال الهند . وكان حكام الهند البريطانيون ينصون أشهر الصيف فى ربوعها . (المترجم)

(٢) مصيف ملوك إنجلترا ، وتقع فى إسكتلندا . (المترجم)

بموته ؛ يهيئ حالة بانى إمبراطورية تردد اتجاه تعيين موقع عاصمته . فلقد توزع فكره بالنسبة لاجتياح أطاعه التوسعية . وانصب سعيه فى بداية الأمر على الفوز (وقد فاز بالفعل) بالمقاطعة البابلية من الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) المنقضية . فكان أن ابتنى عاصمته سلوقيا Seleucia على الضفة اليمنى من نهر دجلة فى أقرب نقطة من نهر الفرات ؛ واختير الموقع اختياراً يثير العجب . وظلت سلوقيا مدينة عظيمة ومركزاً هاماً للثقافة الهيلينية طوال أكثر من خمسمائة عام من إنشائها . على أن مغامراته الناجحة على حساب منافسيه من القواد العسكريين المقدونيين ، أضلته ؛ فجعلته يحول مركز اهتمامه إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ، حيث أنشأ عاصمته الرئيسية فى أنطاكية على بعد عشرين ميلاً من مصب نهر (العاصى)^(١) الأورنت . وترتب عن عمل سلوقوس ، تبديد خلفائه قواهم الحروب مع مصر البطليموسية ، ومع غيرها من دول البحر الأبيض فكان أن استولى البارثيون على أملاكهم البابلية .

وإذ استنبطنا جميع الأمثلة السالفة الذكر من تواريخ إمبراطوريات أسسها رجال ينتمون إلى حضارات دخيلة ؛ نمضى الآن قدماً فى بحث موضوع عواصم الإمبراطوريات التى أسسها البرابرة :

كان الموطن الأصلى للبرابرة البارثيين الذين زوّدت فتوحاتهم المجتمع السورى بدولته العالمية فى شكل إمبراطورية أخمينية (فارسية) ، صخرياً مجدياً ، منقطعاً عن مسالك الاتصالات البشرية . وفى قصة اختتم بها هيرودوس تاريخه ، ذكر أن قورش الأكبر (مؤسس الإمبراطورية الأخمينية) قد

(١) من المدن الكثيرة التى أنشأها سلوقوس ودعيت باسمه ، مدينة تجاور أنطاكية ، لتكون ميناءها . ومن ميناء سلوقيا هذه ، أبحر القديس يولس (وفقاً لما ورد فى أعمال الرسل بالمهد الجديد) إلى قبرص فى رحلته التبشيرية الأولى . (المترجم)

استمجن اقترح ارتحال الفرس (وقد أصبحوا سادة العالم) عن مواطنهم الصخرية والاستقرار في بلد أكثر ملاءمة من البلاد التي استحوذوا عليها . وهي قصة مفيدة استخدمناها في موضع سابق من هذه الدراسة . للتدليل على فضل الظروف الشاقة في استثارة العزيمة البشرية (١) .

ومهما يكن من أمر نصيب هذه القصة من الصحة ؛ تبدى الحقيقة التاريخية أنه بعد انقضاء أكثر من مائة عام من خلع قورش الأكبر سلطان آخر أسياده الميديين ؛ نقل أحد خلفائه الأخمينيين ، مقرر حكومته من موطن أجداده الجبلى ، إلى قطعة من ممتلكاته في السهول . وسمى المكان « آنسان Ansàn » وتقع في مكان قريب من مدينة « سوسا Susa » ، لكن ما يزال موقعها الصحيح مجهولاً . وأصبح مقر الحكومة بعد إنشاء الإمبراطورية الأخمينية ، ينتقل سنوياً وفقاً للموسم ، ومن عواصم إلى أخرى تفرد كل منها بمناخ خاص . لكن بربوليس Persepolis وإكباتانا Ecbatana ، بل وحتى سوسا (وتعرف بـ « شوشان » في العهد القديم) ، تعتبر - في الغالب - عواصم الطقوس والأحاسيس . بيد أن موقع مدينة بابل ، كان أكثر المواقع ملائمة من الوجهة الجغرافية ، وأنسبها للأعمال التجارية ، وفيها تركزت بالفعل شئون الإمبراطورية . وكانت بابل هذه ، عاصمة الإمبراطورية التي شيدت في السهول وسبقت الإمبراطورية الأخمينية في الزمن .

ولما استعاد في نهاية المطاف عرب الحجاز ، للعالم السورى (بعد انقضاء قرابة ألف سنة من المداخلة الهلينية) ؛ تلك الدولة العالمية التي زودها أصلاً بناء الإمبراطورية الفارسيون من الحضبة الإيرانية ؛ ردد التاريخ نفسه بالتأكيد . إذ أصبحت يثرب بعد انقضاء ثلاثين سنة على الهجرة ، عاصمة

(١) صفحة ١٤٢ من الجزء الأول من هذه الترجمة . (المترجم)

إمبراطورية شملت لا مجرد الممتلكات الرومانية في سوريا ومصر ؛ بل ضمت كذلك أملاك الإمبراطورية الساسانية بأسرها . ويرد توفيق يثرب في صيرورتها عاصمة العالم الإسلامي ؛ إلى فراهة زعماء هذه الواحة وصدق فطرتهم . فلقد دفعتهم رغبتهم في إنهاء خلافاتهم ، إلى استدعاء النبي (ص) ليتخذ من بلدهم موطناً ، عوضاً عن مكة البلد المنافس ليثرب والذي أعرض أهله عن تعاليمه . ونصب زعماء يثرب محمداً زعيماً عليهم عساه يحقق الوفاق الذي عجزوا هم عن توفيره لأنفسهم . وتستمد يثرب حقها في بقائها مقر الحكومة ، إلى كونها النواة التي انبثقت منها إمبراطورية العالم العربي في اندفاع جارف يوحي حقاً بأنه من الأفعال الربانية . وقدس المسلمون يثرب لأنها مدينة النبي . وظلت على أية حال — من الوجهة الشرعية على الأقل — عاصمة الخلافة ، إلى أن أسس المنصور العباسي عام ٧٩٢ م مدينة بغداد . وإن كانت الخلافة الأموية قد نقلت كرسى الخلافة من الناحية العملية إلى دمشق ، حيث لبثت هناك أكثر من مائة عام .

وننتقل الآن إلى الحالات التي أسس فيها رجال الحدود ، دولا عالمية :
 ففي تاريخ الحضارة المصرية الطويل الأجل ، أضفى رجال الحدود من المشارف العليا للنيل الأدنى ؛ الوحدة السياسية — أو فرضوها — على المجتمع المصري ، بما لا يقل عن ثلاث مرات . وتلا امتداد حدود الدولة لتصبح دولة عالمية ؛ نقل العاصمة من موقع في أعلى النهر — طيبة (الأقصر) أو ما يعادلها ، إلى موقع أيسر منالاً للجانب الأعظم من السكان ، هو منف (القاهرة) أو ما يعادلها في المناسبتين الأوليين . ونقلت في المناسبة الثالثة إلى قلعة حدود قرب الركن الشمالي لدلتا النيل ، وكان من الناحية الحربية موقعاً مكشوفاً .

وتذكرنا مصائر طيبة في التاريخ المصري ، بمقادير روما في التاريخ الهليني . إذ تمثل عامل استنارة عزيمة روما في استيلائها من الأترويين على

وظيفة حراسة العالم الهليني من إغارات قبائل « الكلت » مثلما استثنى عزيمة طيبة ، استيلاؤها من مدينة الكاب على وظيفة حراسة شلال النيل الأول ضد هجمات النوبيين . ثم كان أن حولت روما جرابها إلى داخلية بلادها ؛ مثلما حولتها طيبة من قبل ، وفرضت وحدة سياسية على المجتمع الهليني الذى كانت هى عضواً من أعضائه . واحتفظت طوال قرون عديدة بمركزها عاصمة الإمبراطورية التى أوجدتها . وأن من المفهوم ، أن مارك أنطونى لونجح فى مشروعه ، واتخذت موقعة أكتيوم^(١) مصيراً مختلفاً ؛ لكانت روما قد تنازلت للإسكندرية عن مركزها كعاصمة ، فى نفس الجيل الذى أمت فيه مجال فتوحاتها . على أنه بعد انقضاء ثلاثة قرون من موقعة أكتيوم ؛ طرأت طائفة من الظروف لا يتأتى سردها هنا ، قادت إلى تحويل عاصمة الإمبراطورية التى دب فيها الفساد ، إلى موقع القسطنطينية ؛ وهو أفضل من موقع روما بكثير . وحظيت القسطنطينية بفترة مجد حافلة ، تعاقبت عليها دول عالمية ، كانت هى خلالها عاصمتها . وكان على مدينة التير^(٢) أن تتخلى عن دورها فتصبح مدينة المسيحية المقدسة ، مثلما أصبحت يثرب مدينة الإسلام المقدسة .

وإذا كانت القسطنطينية هى روما الثانية ، فإن موسكو كثيراً ما نادى قبل عصور الماركسية ، بأنها روما الثالثة . وعسانا نبحت الآن المنافسة بين غواصم الدولة العالمية لحضارة المسيحية الأرثوذكسية الروسية ؛ بدأت روما سجل حياتها كما بدأتها روما ؛ عاصمة دولة حديثة^(٣) ،

(١) موقعة أكتيوم البحرية : موقعة هزم فيها أسطول أوكتافيوس أسطول أنطونىوس وكليوباترة . (المترجم)

(٢) أى روما . لوقوعها على نهر التير بجنوب إيطاليا . (المترجم)

(٣) أى على حدود مجتمع . (المترجم)

تقف حائلا دون تغلغل البرابرة . فلما انحسر تهديد البدو المغول ؛ ألقت نفسها تواجه هجمات جيرانها الأقربين في المسيحية الغربية وتصدّهم : البولونيون والليتوانيون . وجاء وقت بدا فيه كما لو أن مستقبلها أصبح مكفولا . لكن خاعها عن مكانتها ، قيصر طموح اصطبغ بالصبغة الغربية ، فأحل مكانها مدينة من ابتداعه هي سانت بترسبرج^(١) ، أقامها عام ١٧٠٣ على أرض استولى عليها من السويد .

وأن بطرس الأكبر بنقله كرسي حكومته من أرض قصبة إلى أرض آمن بانتمائها إلى عالم أعظم استنارة ؛ إنما يكرر ما فعله سلوقوس نيكاتور في نقله مقر حكومته من مدينة سلوقيا « الشرقية » النائية ، إلى مدينة أنطاكية على نهر العاصي .

بيد أنه تلاحظ جملة اختلافات بين العاهلين :

كان سلوقوس في إثارة أنطاكية على سلوقيا ، أحد بناء الإمبراطوريات الدخلاء في جنوب غرب آسيا ؛ قد تنازل والحالة هذه عن شيء من صنع يديه ، لا تربطه إليه عاطفة قومية مكينة . وهو قد انحاز إلى موقع لا يبعد أكثر من مسيرة يوم من الأبيض المتوسط ، موقع أقرب إلى قلب العالم الهليني . وبالأحرى ؛ ولّى سلوقوس بإجرائه ، وجهه شطر وطنه الأصيل^(٢) .

أما في الحالة الروسية ، فلقد كانت جميع الاعتبارات العاطفية إلى جانب موسكو . وما كان الطريق المائي البارد صوب الغرب حيث تطل منافذ عاصمة بطرس الجديدة التي يجري فيها تجاربه لصنع روسيا بالصبغة الغربية ،

(١) يلاحظ أن الإمبراطور بطرس الروسي قد سعى عاصته « مدينة القديس بطرس » ، والقديس بطرس مدفون بروما وتنسب الكنيسة الكاثوليكية إليه . وإن كان الروس من الناحية الرسمية (قبل العهد الشيوعي) ينتسبون إلى العقيدة الأرثوذكسية . (المترجم)

(٢) باعتبار أن سلوقوس قائداً يونانياً ينتمى من ثم إلى الحضارة الهلينية . (المترجم)

ليعدل عالم الأبيض المتوسط الهليني . ولقد احتفظت سنت بطرسبرج بمكانتها فترة مائتي عام ، فلما اندلعت الثورة الشيوعية ، استردت موسكو مكانتها مرة أخرى ، وأصبح على مدينة سنت بطرسبرج أن تعزى نفسها بالاسم الجديد « ليننجراد » (١) .

ويثير العجب ، إمعان الفكر في مصير « روما الرابعة » (٢) ، فإن مصير الرابعة بقبض الأولى . فإنه لما توقفت روما عن تأدية دورها عاصمة دولة علمية ، تطورت بمضى الأيام ورغماً عن إرادة كافور وموسوليني (٣) ، فأصبحت « مدينة القديس بطرس المقدسة » (٤) .

وبعد ؛ تلك هي الدوافع التي كيّفت موقف حكام بعض الدول العالمية التي أشار التاريخ إليهم ، عند ذكر عواصمهم . فإذا ما انتقلنا إلى المنافع المعارضة التي اجتنتها أناس آخرون من وراء هذه العواصم ، وما استفادته منها الأقليات المسيطرة التي تكتنف هؤلاء الحكام ؛ في وسعنا أن نبدأ بذكر أبشعها وأشدّها غلاظاً ، ألا وهي : الأسر والسلب والنهب . ذلك كان المقياس الذي قدر به الفيلد مارشال بلونخر (وهو جندي ينتسب إلى دولة لا يتوافر (٥) فيها سوى الإقدام الحربى) المنافع التي عادت على لندن ، وقمّا كان ضيفاً بعد معركة واترلو ، على الوصى على العرش ، ومر بأحد

(١) ليننجراد : نسبة إلى زعيم الثورة البولشفية لينين . (المترجم)

(٢) روما الأولى هي روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية والثانية بيزنطة (القسطنطينية) والثالثة بطرسبرج ، والرابعة روما الحالية عاصمة إيطاليا . (المترجم)

(٣) كافور هو السياسى الإيطالى الذى ساهم بتصويب موفور في تكوين الدولة الإيطالية الحديثة ، وجعل مدينته روما عاصمتها رغماً عن احتجاجات البابا . وموسوليني هو زعيم الفاشية الإيطالية . (المترجم)

(٤) يقصد الأستاذ المؤلف مدينة الفاتيكان حيث مَثَوِى القديس بطرس . (المترجم)

(٥) هي بروسيا . (المترجم)

شوارعها الحافلة بأسباب الثراء . إذ أبدى تعجبه بقوله « أية أسلاب » ! !
وفي وسع المرء إيراد قائمة طويلة تتضمن سلب العواصم ونهبها . فإذا
ما قدرنا النتائج للمغيرين الظافرين لا بد وأن نجد أن هذه الولايم الفخمة ،
لا يعقبها سوى دورة من عسر الهضم :

إذ لم يقتصر الأمر على إلحاق عار سلب البلاد المنهزمة بمجتمع القرن
الرابع قبل الميلاد الهليني ، ومجتمع القرن السادس عشر المسيحي ؛
بل لقد اجتاحت هذه البربرية المجتمعين نفسيهما . فإذا كان البرابرة
يفلتون إلى حد ما من قصاص الجريمة التي يرتكبونها في عالم بدائي ،
إلا أن العقاب واقع عليهم في مجتمع أصبحت النقود قوام اقتصاده القومي^(١) .
ومصدقا لهذا الرأي ؛ ترتب على نهب اليونانيين خزائن بلاد غرب
آسيا ، وسلب الأوربيين كنوز الأمريكيتين ؛ انهيار جلاميد الذهب
والفضة انهيار مفاجئا على التداول ، أعقبته موجة مدمرة من التضخم
النقدي ، وكان أن كفر أرباب الحرف الأيونيون^(٢) في سيكليديس
والفلاحون الألمان في سوابيا ، عن خطايا النهابين المقدونيين في بربوليس
والسلايين الاسبان في كوزكو .

ولنتقل إلى مباحث أقل خسة :

واضح أن عواصم الدول العالمية ، مواطن صالحة لإشعاع كافة أنواع
التأثيرات الثقافية . من ذلك :

١ - أنها تقي بأغراض الأديان العليا . ففي غضون الأسر البابلي (وقتما

(١) أي اقتصاد تتم المبادلات فيه وفقاً للنقود ، عكس الاقتصاد البدائي حيث تجري
المبادلات بالمقايضة . (المترجم)

(٢) نسبة إلى أيونيا وكانت مقاطعة يونانية في آسيا الصغرى - وسيكليديس عاصمتها .
(المترجم)

ساق نبوخذ نصر اليهود من مملكة جودايا إلى بابل) ، عاون وجود اليهود بالعاصمة ، على استيلاء دين أعلى . فإنه بفضل حضانة بابل لليهودية ، تغيرت فكرتها الدينية من الإقليمية إلى العالمية .

٢ - يعتبر مقر الحكومة العالمية، أرضاً طيبة تستقر فيها البذور الروحية . ومثل هذه المدينة ، عالم واسع الأرجاء في مجال صغير . إذ تضم جدرانها بين ظهرانيها ، نماذج من جميع الطبقات ومن كثير من الأمم ، إلى جانب اشتغالها على عديد من اللغات . وتقود أبوابها إلى مسالك تتجه إلى جميع الأرجاء . ومن ثم ، يغدو في وسع مبشر واحد ، التبشير بفكرته في الدساكر^(١) وفي القصور . فإن ألقى إليه الملك بسمعه ؛ فقد يأمل رؤية جهاز الإدارة الإمبراطورية الضخم يوضع تحت تصرفه .
وتطالعنا الأمثلة التالية :

(أولا) أناح وضع « نحميا »^(٢) في حاشية الإمبراطور الفارسي في سوسا ، فرصة الظفر بمنصرة أردشير Artaxexes فكرة إعادة هيكمل أورشليم .

(ثانيا) داعبت الأمانى الآباء الجزويت بتحول الهند والصين إلى الكاثوليكية باستخدام أسلوب « نحميا » ، بعد توفيقهم في كفالة منزلة في بلاط آجرا^(٣) الهندى إبان القرن السادس عشر وفي بلاط بكين الصينى إبان القرن السابع عشر .

وحقاً ؛ غالباً ما نجد الرسالة التاريخية للعواصم على طول المدى ؛ صداها في الميدان الدينى :

(١) جمع دسكرة : الحى القذر Shums . (المترجم)

(٢) من أنبياء بنى إسرائيل . (المترجم)

(٣) عاصمة الهند قبل انتقال السلطان امغولى إلى دهل . (المترجم)

فإن التأثير الفعال الذى ما يرحت مدينة لويانج (المدينة الصينية الإمبراطورية) تحظى به حتى كتابة هذه السطور على مصائر الإنسانية ؛ لم ينجم عن دورها السياسى السابق كمنقر حكم أسرة « تشو Chou » الملكية التى حكمت مجتمع الشرق الأقصى ، وأسرة هان التالية التى أعقبتها . فإن لويانج قد جمعت من الناحية السياسية بين « نينوى وصور » ؛ لكنها ظلت تمارس نفوذها العظيم لكونها المشتل الذى تأقلمت به بذور البوذية المهايانية : فصرها ذلك بيئة صالحة لترعرع الثقافة الصينية .

وبالمثل ؛ ظل موقع مدينة قره قوروم (عاصمة منغوليا) البلقع ؛ يحيا حياة متوارية : إذ قد ترتبت عن دورها السياسى القصير الأجل فى إبان القرن الثالث عشر المسيحى ؛ نتيجة عرضية مبناها جمعها وجهاً لوجه ، البعثات التبشيرية للكاتوليكية الرومانية الغربية مع أئمة النسطورية فى آسيا الوسطى ، وأئمة العقيدة اللامية من التبت .

فإذ قدمنا إلى موقع أقرب إلى موطننا ، واضح فى عام ١٩٥٢ ، أن بطرس وبولس ورومولس وريموس أو أغسطس ؛ هم مؤلفو معنى الخلود الذى تتصف به روما . وأن القسطنطينية (روما الثانية) وقد تجاوزت جميع المقدر لها كعاصمة دولة عالمية ، تدين لهذا النفوذ الذى ما يرحت تحظى به فى العالم ، إلى كونها مقر كرسي البطريرك الذى يعترف به الرؤساء الدينيون فى جميع الكنائس الأرثوذكسية الشرقية^(١) ، بما فى ذلك كنيسة روسيا التى تعتبر « الأولى بين الأنداد »^(٢) .

(١) لعل الأستاذ المؤلف يقصد كنائس الروم الأرثوذكس . إذ لا تعترف الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (القبطية) بأى سلطان لكنيسة القسطنطينية . (المترجم)

(٢) Primus inter pares .

(هـ) اللغات الرسمية وحروف الكتابة :

من تحصيل الحاصل ، القول بأن الدولة العالمية تسعى حثيثاً لتزويد نفسها بوسائل لإجراء الاتصالات الذهنية تعترف هي بها . ولا تقتصر هذه الوسائل على نقل اللغات عن طريق التحدث بها ؛ وإذ يُستخدم كذلك في نقلها نوع من المدونات البصرية .

ولقد اتخذت هذه الطريقة في جميع الأحوال ، شكل اختزال اللغة الرسمية : ويطالعنا في هذا الشأن نجاح « الانكاس Incas » في أمريكا الجنوبية في الاحتفاظ بنظام لغوي اعتنقته الجماعة بصفة عامة : وقوام النظام ، استخدام ما يعرف بطريقة « كيبو Cuipo ^(١) » وهي طريقة لا تتصل في قليل أو كثير بالمعاني الصامتة . ولا شك أن هذه الطريقة ، عمل فذ لا نظير له .

وثمة حالات أراححت فيها لغة واحدة أو طريقة للكتابة بذاتها ؛ عن ميدان التداول اللغوي ؛ جميع مزاحمها الاحتمالين . وتم ذلك قبل تشييد الدولة العالمية ؛

ومن قبيل المثال :

ارتبطت اللغة المصرية وحروف كتابتها ، باللغة الكلاسيكية وبالحروف الهيروغليفية ؛ في إبان عهد « الدولة الوسطى » :
وارتبطت اللغة والكتابة الخطية في اليابان في عصر الشوجن ^(٢) ؛ باللغة اليابانية من ناحية ، وباستخدام حروف صينية منتقاة من الناحية الأخرى . فكان أن أقبل الناس على استعمالها :

(١) الكيبو Quipo : أداة من الخيوط والعقد الملتونة ، كان يستخدمها أهالي بيرو بأمريكا الجنوبية البدائيون عوضاً عن الكتابة . (المترجم)

(٢) الحكام العسكريون في اليابان الذين استأثروا بالسلطة دون أباطرتها . وقد استعاد الإمبراطور سلطانه المسلوب عام ١٨٥٦ . (المترجم)

وارتبطت اللغة والكتابة في الإمبراطورية الروسية باللغة الروسية من جهة ، ومن جهة أخرى بالتغيير الذي أدخله السلاف على الحروف اليونانية قبل استخدامهم لها .

ولأ يعتبر ما سردناه آنفاً عن اللغة الرسمية والحروف الأبجدية ؛ من الأمثلة الشائعة : إذ لا يجابه بناء الإمبراطوريات في غالب الأحيان حقيقة مشكلة يجهزون وجودها ، بل يواجهون مشكلة الاختيار بين عدد من اللغات وحروف الكتابة ؛ ينافس بعضها البعض الآخر :

ويقبل بناء الإمبراطورية في مثل هذه الحالات ، على اتخاذ لغتهم الخاصة ، لغة رسمية : فإن افتقرت إلى حروف للكتابة ؛ يستعرون لها حروفاً من لغة أخرى أو يبتكرون حروفاً للوفاء بهذا الغرض .

على أن ثمة حالات حدث فيها بالفعل ؛ أن استعاض بناء الإمبراطورية عن لغتهم الأصلية ، بلغة أخرى تُداول في ممتلكاتهم بالفعل ، كلغة مختلطة (١) . بل إنهم يبتعثون إلى الوجود ؛ لغة قديمة يحملونها محل لغتهم الوطنية :

والشائع على أية حال ؛ إقبال بناء الإمبراطورية على اتخاذ لغتهم وكتابتهم الوطنيتين رسمياً . على أنهم لا يمكنون لها من احتكار هذا المجال : وعسانا نفسّر هذه الافتراضات العامة ، بإجراء استعراض على هدى التجارب العملية :

حلّ الإمبراطور تسين شى هوانج - تى في العالم الصيني ؛ المشكلة بأسلوب يتسم بعنفه : إذ فرض مؤسس الدولة العالمية الصينية ، تدوان ذلك الشكل من الأبجدية الصينية الذي كان يُستخدم رسمياً في إبان عصر

(١) أي لغة تتألف من خليط من اللغات المختلفة (مثل الأوردية في شمال الهند) وفقاً لما مر بنا في هذه الدراسة . (المترجم)

الانتقال من العصر المينوى الوسيط الثانى إلى العصر المينوى الوسيط الثالث ؛ نوعان مختلفان من الكتابات الرمزية ، اتخذتا سبيلهما على التوالي فى الحياة المينوية فى مستهل العصر المينوى الوسيط الثانى ؛ لكن استطاع القضاء عليهما فجأة ؛ نوع مفرد جديد من الكتابة ، يطلق عليه العلماء « المخطط ١ » (١) .

ونجد فى المجتمع السورى نظيرا للإمبراطور الصينى « تسين شى هوانج - قى » يمثلته الخليفة الأموى « عبد الملك بن مران » (حكم ٦٨٥م - ٧٠٥م) ؛ فقد استعاض ، عن اليونانية فى المدونات الحكومية باللغة والأبجدية العربية ؛ فى الأقاليم التى اقتطعتها الخلافة من الإمبراطورية الرومانية ؛ وعن اللغة الفارسية والخط البهلوى ، فى الأقاليم الساسانية السابقة .

وعسانا ننتقل الآن إلى بضعة أمثلة شائعة استخدمت فيها بصفة رسمية عدة لغات وأبجديات ؛ ومنها لغة مؤسس الدولة العالمية وأبجديتها . ومن ذلك :

إحلال اللغة الإنجليزية (لغة مؤسسى الإمبراطورية البريطانية فى الهند) محل الفارسية ، اللغة الرسمية التى ورثها المغول عن فاتحي الهند السابقين . ومصدقا لذلك : فرضت عام ١٨٢٩ حكومة الهند البريطانية ، اللغة الإنجليزية واسطة لمكاتباتها الدبلوماسية ، وجعلتها عام ١٨٣٥ واسطة التعليم العالى . بيد أنه لما اتخذت عام ١٨٣٧ الخطوة النهائية لخلع اللغة الفارسية

(١) لم يكن « المخطط ١ » قد حلت رموزه حتى كتابة هذه السطور عام ١٩٥٤ . وقد انتشر هذا النوع من الكتابة فى طول جزيرة كريت وعرضها . ولعله كان يعبر عن لغة مينوية سبقت العصر اليونانى . وأياً ما تكون العائلة اللغوية التى تنسب إليها ، فلقد أصبح من المتفق عليه أن نوع الكتابة المعروف بـ « المخطط ب » كان يعبر عن اللغة اليونانية وكان استعماله فى كريت قاصراً على كنوسوس عاصمة الدولة المينوية . وقد شاع استعماله بعد ذلك فى مراكز الحضارة المينوية بالقارة الأوربية . (المختصر)

عن مكانتها الرسمية في الهند البريطانية ؛ لم تستخدم الإنجليزية للوفاء بجميع الأغراض الأخرى التي كانت الفارسية تخدمها فيما مضى . فبالنسبة للإجراءات القضائية والمالية ؛ حلت اللغات المحلية الدارجة محل الفارسية ، الموضوعات التي تهتم الهنود على اختلاف مشاربهم . واصطنعت البعثات التبشيرية البروتستانتية البريطانية ؛ لغة هندية مكتوبة بالسنسكربتية ؛ عُرفت باسم « الهندوستانية » لتقوم لدى السكان الهنادكة في شمال الهند ، مقام اللغة الهندية المتأثرة بالفارسية المعروفة بـ « الأوردية » التي سبق أن اصطنعها مسلمو الهند لأنفسهم .

ولعل هذا القرار الحسير والسياسي ، بأن تفرض فرضا مطلقا ، لغة أجنبية تمت إلى مؤسس إمبراطورية دجيل : لعله أحد العوامل التي أدت عقب تسليم الرعايا الهنود زمام أمورهم ، بعد انقضاء مائة وعشر سنوات من تأسيس الإمبراطورية البريطانية الهندية ؛ أدت إلى تقبل الدولتين الألسنيتين^(١) استمرار استخدام اللغة الإنجليزية — ولو فترة مؤقتة على الأقل^(٢) للوفاء بالأغراض التي خدمتها في ظل الحكم البريطاني .

ونقيض السياسة اللغوية البريطانية في الهند ؛ محاولة الإمبراطور جوزيف الثاني (حكم ١٧٨٠ - ٩٠ ، ويعتبر واحدا من يطلق عليهم لقب المستبد المستنير في العالم الغربي إبان الجليل السابق للثورة الفرنسية) فرض استخدام اللغة الألمانية على شعوب مملكة هابسبرج الدانوبية التي لا تتحدث الألمانية ؛ فإنه على الرغم مما كان يُرجى تحقيقه من وراء إجراء الملك السياسي من نفع اقتصادي وتقارب ثقافي ؛ فقد دلت الأحداث على فشل سياسة جوزيف اللغوية فشلا مدمرا . وقاد فشله إلى استثارة البوادر الأولى لجيشان الحركات

(١) الألسني Polyglot : المتعدد اللغات ، أي من يتكلم لغات كثيرة . (المترجم)

(٢) صرح رئيسا دولتي الهند وباكستان بأن اللغة الإنجليزية سيبتل استخدامها

عام ١٩٦٥ . (المترجم)

الوطنية التي مزقت إمبراطورية هابسبرج . إربا بعيد انقضاء مائة عام .
ولم يعتنق قط ، الأتراك سادة الإمبراطورية العثمانية ؛ السياسة التي
طبقتها الخلافة العربية بنجاح والتي أخفقت في تطبيقها الملكية الدانوبية
الهابسبرجية^(١) . فلقد كانت اللغة الرسمية للإدارة الحكومية هي التركية ،
لغة مؤسس الإمبراطورية . بيد أنه شاعت بين أرقاء السلطان إبان ازدهار
الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر المسيحي ، لغة مختلطة أساسها
الصربية الكرواتية ؛ وأخرى إيطالية في البحرية العثمانية . وفضلا عن ذلك ؛
اتبعت الحكومة العثمانية في الأمور المدنية (مثلما فعلته حكومة الهند
البريطانية) سياسة السماح لرعاياها باستخدام اللغات التي يرتضونها في المسائل
الطائفية التي تتصل بمعاملات الأفراد اتصالا وثيقاً .

ولقد طبق الرومانيون سياسة لغوية تتسم بالحمود وقتما فرضوا اللاتينية
لغة رسمية في تلك المقاطعات من إمبراطوريتهم التي تتكلم اليونانية ، باعتبارها
لغة وطنية ؛ أو حيث يتحدث بها مختلطة مع غيرها من اللغات المحلية .
ثم أرضوا غرورهم الوطني بجعل اللاتينية ؛ اللغة الوحيدة للقيادة العسكرية
لوجبات الجيش الإمبراطوري ، مهما اختلفت مواطنها الأصلية ، أو مهما
يكن من أمر قواعدها . كما جعلوا اللاتينية لغة الإدارة في المستعمرات
التي سكانها من أصل لاتيني سواء المقامة على أرض يونانية ، أو على أرض
شرقية . أما بالنسبة للوفاء بالأغراض الأخرى ؛ فقد واصلوا استخدام
لغة آتيكا المختلطة^(٢) ؛ حيث تُستخدم رسمياً . كذلك أسبغوا عليها ذاتية رسمية
ظاهرة بمساواتها باللاتينية في الإدارة المركزية لروما نفسها .

(١) في رأينا أن نجاح الخلافة العربية في نشر اللغة العربية مرده قوة الإسلام
الروحية . بدليل شيوع عدد ضخم من الكلمات العربية في جميع لغات الشعوب الإسلامية
كأندونيسيا والإليو . . . الخ . (المترجم)

(٢) آتيكا : مقاطعة يونانية . كانت أثينا عاصمتها . (المترجم)

وإن توقير الرومان للغة اليونانية ؛ شيء أعظم كثيراً من الاعتراف بتفوق اليونانية على اللاتينية ، واسطة للثقافة . إذ يعنى انتصار الحنكة السياسية على عنصر الخلافة في نفوس الرومان . فليقد كان انتصار اللاتينية ، شيئاً ، مثيراً في أراضي الإمبراطورية الغربية النائية ؛ حيث لم تكن تنافس اليونانية . ووفق الرومان إلى تعزيز شأن لغتهم ، يجعلهم استخدامها رسمياً ، امتيازاً تتعلق به أفئدة الناس .

ولم تستطع اللاتينية أن تنتصر بالوسائل السلمية وحدها ، على اللغات التي لم تهبط إلى مستوى قصر استخدامها في الكتابة وحدها إذ كان عليها في إيطاليا أن تناجز شقيقتها من اللهجات الإيطالية مثل : الأوسكانية والأمبرية ، وأن تناز اللهجات الإيليرية^(١) مثل لهجتي ميسانيا وفينيسيا اللتين كانتا في سالف أيامهما على قدم المساواة مع اللاتينية ثقافياً . فما بالناس باللغة الأثرورية المفعمة بالتراث الثقافي الذي جلبته معها من موطنها الأصيل في الأناضول ؛ وكان على اللاتينية كذلك أن تنازع في أفريقيا ، اللغة البونية^(٢) .

على أن اللغة اللاتينية ، قد خرجت من هذا المعجمان منتصرة انتصاراً لا شبهة فيه .

ولقد أظهر بسنة الإمبراطورية السومرية التي كانت تعرف في عصرها بـ « مملكة أركان العالم الأربعة » ، تحفظاً تجاه لغتهم أشد غرابة ؛ وقتما ساووا بين لغتهم السورية واللغة الأكادية ، التي برزت فجأة من غمار النسيان . وقدّر للغة الأكادية البقاء ؛ في حين أصبحت السومرية لغة ميتة من الناحية العملية ، قبل انتهاء أجل الدولة العالمية السومرية .

(١) نسبة إلى إيليريا *Illyria* : مقاطعة على الشاطئ الشرقي من بحر الأدرياتيک . وكانت تشمل الجزء الشمالي من ألبانيا الحالية ، ومعظم أجزاء يوجوسلافيا . (المترجم)

(٢) أي لغة قرطاجنة في تونس . وهي لغة سامية الأصل ، حملها المهاجرون السوربون معهم وقتما أسسوا قرطاجنة . (المترجم)

وهيأت الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) في دواوين الحكومة ؛ مكاناً للغتها الفارسية الأصلية ، متواضعا بمائل المكانة التي أتاحها لفارس وطنها الأصل بين أقطار الإمبراطورية : ويطالعنا في هذا الشأن ؛ تسجيل الإمبراطور دارا الكبير Darius أعماله ، على صخور جبل بهستان^(١) (التي تطل على الطريق العظيم الشمالى الشرقى للإمبراطورية) بثلاثة أساليب مختلفة: للخط المسمارى ؛ تعبر عن لغات مختلفة ، هي لغات عواصم إمبراطوريته الثلاث : فالعلامية لغة سوسا ، والفارسية الوسطى لغة اكباتانا Ecbatana^(٢) والأكادية لغة بابل : لكن لم تحظ أى من اللغات الثلاث بشرف صيرورتها اللغة الرسمية لهذه الدولة العالمية ؛ بل فازت به اللغة الأرامية ، ذات الحروف الأبجدية السهلة المتال .

وهكذا : تبين أن التجارة والثقافة ؛ أعظم أهمية من الشؤون السياسية : في تقرير مصير اللغة . إذ لم يكن للمتكلمين بالأرامية وزن ما في الإمبراطورية الأخمينية . (الفارسية) : إزاء هذا ؛ تقبّلت الحكومة الأخمينية تفوق اللغة الأرامية ، أمرا واقعا ؛ فكان أن أضفت الصفة الرسمية على اللغة الأرامية : على أن أعظم مظاهر انتصار اللغة الأرامية ؛ نجاح أبجديتها في

(١) بهستان Behistan أو Bisitum : جبل صخري يجاور مقاطعة أردلان بفارس على بعد ٣٢ ميلا شرق مدينة كرمنشاه . ويرتفع إلى حوالى ١٧٠٠ قدم . وعلى ارتفاع ثلاثمائة قدم كتب دارا (مات عام ٤٨٥ ق . م) سجل أعماله بثلاث لغات . وإلى جوار هذا السجل ، توجد كتابات عربية وأخرى يونانية ، قيضت لى مشاهدتها عند مرورى بمدينة كرمنشاه فى طريقى من طهران إلى بغداد فى ٢٨ يولييه سنة ١٩٤٦ .
(المترجم)

(٢) الباتانا Ecbatana أو Agbatana : كانت عاصمة مملكة ميديا القديمة . وقد استولى عليها قورش إمبراطور فارس عام ٥٤٩ ق . م واتخذها عاصمة ملكة . ثم أصبحت بعد ذلك المقر الصينى الأثير للملك فارس . ثم نهبتها جيوش الإسكندر الأكبر وجيوش سلوقوس . وتقع مكانها الآن مدينة حمدان . (المترجم)

الحلول مكان الخط المسامرى ، واسطة للتعبير عن اللغة الفارسية ، إبان مرحلتها التي تلت الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) .

ونجح آشوكا إمبراطور الدولة العالمية المورية الفيلسوف (حكم ٢٧٣ - ٢٣٢ ق . م) ؛ في التوفيق بين مقتضيات العدالة المنصفة والاعتبارات العملية ، باتخاذ طائفة من اللغات المحلية تكتب بنوعين مختلفين من الخطوط : البراهمى Brahmi والخاروشتى Kharashti . ولقد عجل بتنفيذ هذا الإجراء (الذى يماثل إجراءات الكاثوليك) اتفاه مع هدف الإمبراطور الخالص الطوية ؛ هدف يقوم على تعريف شعوبه بطريق « خلاص النفس » وفقاً للأسلوب الذى بشر به الجوتاما بوذا ، أستاذ آشوكا .

ولقد أخرجت بواعث مشابهة ، غزاة إمبراطورية الإنكا Incas الأسيان ، بالسماح فى البلاد التي فتحوها ، باستخدام لغة مختلطة (١) . راجين بهذا ، نشر العقيدة الكاثوليكية بين رعاياهم الأمريكين .

* * *

فإذا ما انتهينا من بحثنا بالتساؤل عن المستفيدين ؛ نجد أن اللغات الرسمية قد انتفعت من وراء مستعبدى الإمبراطوريات ، التي حظيت فيها هذه اللغات بالصفة الرسمية . وتم ذلك بتقرير التعامل بها فى إدارات الحكومة ، واستخدامها فى التبشير بالأديان العليا .

وإن موضوع اللغات وحروف كتابتها ، واضح ؛ لن يحتاج منا إلى مزيد من الشرح والتفسير :

إذ لا نجد من بين اللغات التي ورد ذكرها فى سياق هذه الدراسة ؛ لغة فى التاريخ أعظم من الأرامية جدارة بالاعتبار . كما أنها لا تدين إلا بالقليل لحكام الدولة العالمية التي ذاعت فى ربوعها وانتشرت .

(١) أى لغة تتألف من عديد من الكلمات المتباينة التي استخلصت من لغات ولهجات شتى . (المترجم)

ولقد دفعت عظمة الأرامية الإسكندر الأكبر إلى أن يتجه بشكل فظ
عقب تقويضه دعائم الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) ، إلى تجريد
اللغة الأرامية من منزلتها الرسمية التي أضفتها عليها تلك الإمبراطورية في
مقاطعتها . وأحل الإسكندر لهجة آتيكا^(١) اليونانية مكانها . إلا أن اللغة
الأرامية ، قد أمكنها على الرغم من حرمانها تأييد الدولة ، من استكمال
عملية الغزو الثقافي التي كانت قد شرعت فيها قبل تلقيها رعاية الدولة ؛
ومناطه حلوطا تحمل اللغة الأكادية في الشرق ومكان الكنعانية في الغرب .
فأوضحت اللغة المتداولة بين كافة سكان الهلال الخصيب^(٢) ، ذوى الأصل
السامي . ومن قبيل المثال : أن الأرامية لا بد وأن تكون اللغة التي
استخدمها السيد المسيح في التحدث إلى حواريه .

أما بالنسبة للأبجدية الأرامية ؛ فلقد أنجزت مآثر أوسع مدى مما أنجزته
اللغة الأرامية ؛ يطالعنا منها ما يلي :

١ - اتخذت عام ١٥٥٩ عقب الفتح المانشورى للصين . أداة للتعبير عن
اللغة المانشورية :

١ - عجلت الأديان العليا من سرعة انتشار الأبجدية الأرامية .
إذا أصبحت في صورتها العبرية القديمة ، وبسطة تسجيل كتب اليهودية
وطقوسها المقدسة ؛ وحوّرت تحويراً يطابق اللغة العبرية ، فأصبحت
حروف الإسلام الأبجدية .

٣ - أفادت في سميتها السورية ، في التعبير تعبيراً منصفاً عن آراء
الهرطقة التي بشر بها المذهبان النقيضان : النسطورى والمينوفيسى^(٣) :

(١) آتيكا : هي المقاطعة اليونانية التي كانت أثينا عاصمتها . (المترجم)

(٢) يعرف الأستاذ المؤلف الهلال الخصيب بأنه المنطقة الخصبة الممتدة حول شمال

البحر العربى من مصر عبر سوريا والعراق وبابل ، إلى الخليج العربى .

(٣) يتجلى تناقض المذميين بالنسبة لأحدهما الآخر وبالنسبة لمهجرة المذاهب المسيحية .

٤ - وفي صيغتها البهلوية التي كتبت بها كتب الأفيستا^(١) ، حافظت على كتب الزرادشتية المقدسة :

٥ - ابتكرت العقيدة المانوية^(٢) ، صورة للأبجدية الآرامية انتفعت بها في أغراضها . والمانوية ، عقيدة ضالة اجتمع أتباع المسيحية والزرادشتية على كراهيتها ولعنها .

٦ - زودت الأبجدية الآرامية في شكل خاص يعرف بـ « الخاروشتي Kharoshthi » بأداة التعبير عن تعاليم البوذا إلى رعايا الإمبراطور آشوكا في البنجاب الذي كان فيما مضى ، من أقاليم الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) .

= الأخرى ، في عدم إيمان النسطورية بالوهية السيد المسيح عليه السلام . إذ تؤمن بأنه كلمة الله .

أما المذهب المينونيسى فيعتقد بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية . فإنه إله يوم ولد ويوم مات ويوم بعث وارتفع إلى السماء .

أما المذاهب المسيحية الأخرى ، فإنها تؤمن بأن للسيد المسيح طبيعتين : طبيعة بشرية وولد بها ومات ، وإلهية بعد ارتفاعه إلى السماء . (المترجم)

(١) الأفيستا Avesta : اسم يطلق على مجموعة الكتب المقدسة الفارسية القديمة . وتعزى إلى زرادشت نبي الفرس القديم . (المترجم)

(٢) المانوية : عقيدة دينية تنتسب إلى مؤسسها الفارسي « ماني » (٣١٦ م) . وكان ثمة في العصر الذي ولد فيه صراع حاد بين عقيدتين :

الأول - عقيدة ميتر - وهي عقيدة فارسية قديمة شرحنا أسسها في موضع سابق .
الثانية - العقيدة المسيحية .

وقد درس « ماني » العقيدتين ، كما درس العقيدة الفارسية القديمة ، واستخلص من دراسته عقيدة تضم نقاطا من كل عقيدة . وتحكم العالم وفقا لعقيدة « ماني » قوتان متساويتان هما قوة الخير وقوة الشر . أما قوة الخير فقد خلقها الله ، في حين خلق الشيطان قوة الشر . وليس للعقيدة المانوية أتباع في الوقت الحاضر . (المترجم)

(و) القانون :

ينقسم ميدان الفعل الاجتماعى للقانون ، إلى ثلاث دوائر اختصاص كبرى ؛ يختلف إحداها عن الآخر .

الأول - القانون الإدارى - ويحدد واجبات المواطنين تجاه الحكومة ؛
الثانى - القانون الجنائى - ويُعنى بالأفعال التى يؤدىها طرفان قوامهما أشخاص محددون .

الثالث - القانون المدنى - ويهتم بالأفعال الخاصة لأناس معينين .

ولا يتأتى لأية حكومة ، تجاهل القانون الإدارى . إذ تتمثل أولى واجباتها ؛ فى فرض سلطان الدولة ، وكبت أفعال العصيان التى تصدر عن المواطن ضد إرادتها . سواء أكانت تلك الأفعال الخيانة العظمى ، أم إهمال الفرد تسديد الضرائب المستحقة عليه .

وتدفع هذه الاعتبارات الحكومات إلى الاهتمام بالقانون الجنائى ، إذ قد لا يهاجم المجرم الحكومة سواء مباشرة أو عن قصد ؛ إلا أنه يتعرض فعلا لاقتحامها مجرى حياته ؛ إن فرض ومسّ مهام الدولة المتصلة بالمحافظة على الأمن .

أما من ناحية اهتمام الحكومات بالقانون المدنى ؛ فلأنها تؤثر فى هذا المجال منفعة رعاياها على منفعتها . وثمة اختلافات واسعة المدى تتصل بالعناية التى تبذلها حكومات الدول العالمية فى مجال كمجال القانون المدنى .

وتجابه الدول العالمية - فى مجال القانون - مشكلة خاصة لا تواجهها الدول الإقليمية . إذ تستوعب أراضيها رعايا عدد من الدول الإقليمية المغزوة التى لا تتلاشى قبل أن تختلف فى ميدان القانون - كما تختلف فى غيره من الميادين - رواسب لا مناص لمن يستصنفى الدول الإقليمية ، من أن يعمل لها حسابا .

وثمة على الأقل حالة واحدة هي حالة « المغول » ، عجزوا بعد تكوين إمبراطوريتهم ، عن فرض أي جانب من جوانب قوانين أسلافهم على رعاياهم المقهورين . إذ كان المغول أدنى من رعاياهم ثقافة :

أما العثمانيون - ويتشابهون مع المغول في الأصل البدوي - فقد آثروا اجتناب التدخل في القانون المدني لرعاياهم الغير الأتراك ، إلا أنهم سلكوا بالنسبة للقانونين الإداري والجنائي مسلكاً حازماً . إذ فرضوها على رعاياهم فرضاً .

وعلى النقيض من سياسة العثمانيين ؛ تميّز الإمبراطور تسين شي هوانج - تى Tsin Shi Hwang ti في العالم الصيني ، بفرضه بضربة واحدة ، قانوناً عاماً ينص على تطبيق القانون السارى في مملكة أجداده « تسين Ts'in في جميع أنحاء أراضى الدول الست المنافسة لها والتي ألحقها بمملكته .

وللإمبراطور الصينى نظيران في العالم الغربى :

الأول - نابليون الذى طبّق مواد قانونه الفرنسى في أراضى إمبراطوريته الإيطالية والألمانية والبولندية :

الثانى - الحكومة البريطانية ، بتطبيقها قانون إنجلترا العام (قسم منه في شكله الأصيل والقسم الآخر داخلاً في التشريع المحلى) في جميع أنحاء الإمبراطورية الهندية التى أقامت عليها سلطانها المباشر :

وكان الرومان أبطاً من البريطانيين أو نابليون أو الإمبراطور تسين شي هوانج - تى في استكمال وحدة القانون في إمبراطوريتهم ؛ لكن العيش تحت ظلال القانون الرومانى ؛ اعتبر ميزة معدودة للمواطن الرومانى ؛ ولم تكن نعمة حقوق المواطن ، قد أسبغت بالكامل على رعايا الإمبراطورية ، حتى صدور مرسوم الإمبراطور كاراكالا (عام ٢١٢ م) :

ويفتائل تاريخ الخلافة الإسلامية مع التاريخ الروماني في هذا الشأن .
 إذ اتسع تدريجياً نطاق سيطرة القانون الإسلامي على زعابا الخلافة العبر
 المسلمين ، بفضل هدايتهم إلى عقيدة مؤسسى الإمبراطورية الإسلامية .
 وحيث يرتقى الوعى القانونى ويرتفع إلى أقصى صور التناسق ؛ تتولى
 سلطات الدول العالمية تقنين تشريع الدولة الموحد . وتبرز حيالنا
 الأمثلة التالية :

١ - حدثت الخطوة الأولى في تاريخ القانون الروماني لتجميع نصوص
 القوانين ، في مدونة دائمة لا تتغير نصوصها ؟ حدثت في مطلع تولية القاضى
 أوربانوس وظيفته (١) عام ١٣١ ميلادية . ثم اتخذ جوستنيان عام ٥٢٠ م ثم
 عام ٥٣٣ م الخطوات النهائية في عملية التوحيد ، وقاما أصدر القوانين المدنية
 والإدارية في مدونة شاملة :

٢ - تم تجميع القوانين في الإمبراطورية السومرية (وهى ما كانت
 تعرف بمملكة الأركان الأربعة) في وقت مبكر ، تحت إشراف الأباطرة
 السومريين في عاصمتهم أور Ur . وقد تبين أن هذا التجميع هو أساس
 عملية التجميع التى تولاهما فيما بعد حمورابى البابلى الذى استعاد الإمبراطورية
 السومرية . ولقد كشف عالم الآثار الغربى الحديث ج . دى مورجان هذه
 المجموعة في عام ١٩٠١ .

والمقاعد أن يبالغ الإقبال على تجميع القوانين أوجه قبيل انهيار الدولة ،
 على صورة من الصورتين التاليتين :

أولاً - ابتلاء الدولة بكارثة اجتماعية ، وبعد انقضاء ذروة النضوج
 التشريعى بزمان طويل .

ثانياً - وقتما يضطر مشرعو الجيل الحالى إلى سلوك طريق التقنين في
 غمار معركتهم الخاسرة مع قوى التدمير الشديدة الشكيمة التى تثتاب ذولتهم
 في عصر انهيارها .

(١) كانت وظيفة القاضى تتم بالانتخاب لفترة سنة . وكان صاحبها يدعى Praetor
 (المترجم)

ومصدقا لذلك ؛ نجد الإمبراطور جوستنيان يحنى وراء مئذنته التشريعية^(١) ظانا أنها تخفيه من عادات القضاء والقدر التي انقضت على الإمبراطورية الرومانية الشرقية . بيد أنها ألحّت في مطارذته ، فاضطر أن ينثر في طريق فراره أوراق قانونه الجديد الذي تدخل في أحوال الناس الشخصية تدخلا مغرضاً :

بيد أن القدر قمين بأن يترفق على طول المدنى ، بطائفة جامعي القوانين . فإذا كان أسلافهم الذين انتهكوا حرمتهم بقوانينهم ، يصدقون بالتأكد عن تقديم آيات الإعجاب والتقدير إليهم ؛ إلا أن هذا الإعجاب لا بد وأن تبدله إلى أرواحهم ذرية يبعد عصرها عن عصرهم ، تغالى في إعجابها بحيث تعجز عن تقدير العمل التشريعي تقديرًا سليماً .

وعلى الرغم من الإعجاب بتشريعات السلف الذي تبديه الأجيال التالية ؛ دون تحفظ ؛ فإنها ترى استحالة تطبيق تلك الشرائع التي تنزل لديها منزلة التقديس ، على علاقتها ؛ إلا بعد تحريرها تحويراً أساسياً ، كذلك التحوير الذى ألم « بيوطوم Bottom » وبوطوم هذا ، هو الذى تحول رأسه فى إحدى روايات شكسبير إلى رأس خمار ؛ فكان أن هتف ضديقة يثير كوينس Peter Quince لدى رؤيته قائلاً « مبارك أنت يا بوطوم ! ها قد تبدلت^(٢) » . ويعرض لنا تطور الأحداث التاريخية ، ما آلت إليه عملية تجميع القوانين :

فلقد تلا عصر جوستنيان مباشرة ، طوفان غزوات اللومبارد والسلاف والغرب ، فانتهدت الإمبراطورية بالرغم من تشريعات الإمبراطور ؛ وبالمثل ؛

(١) Corpus Iuris .

(٢) فى مسرحية « حلم ليلة من ليالى الصيف » . ويعنى الأستاذ توينبى هنا ، المنالاة فى تحوير نصوص التشريعات حتى تبدو صورتها الأصلية الكريمة . (المترجم)

انحدر الكاسيون من الهضاب على إمبراطورية سومر وأكّاد في إبان مرحلتها الأخيرة ؛ فكان أن قضى عليها بالرغم مما بذله حوراني في سهول شينغار^(١) من جهود مضيئة في الإصلاح السياسى والاجتماعى ؛ جهود تبلورت في تشريعاته :

ولما كرّس الامبراطور ليو وخلفاؤه جهودهم لإعادة تشييد الإمبراطورية البيزنطية (في صورة رومانية وبعد مضي مائة وخمسين عاما من التقلل وعدم الاستقرار) ؛ عثروا في التشريع الموسوى^(٢) على مادة قانونية أغزر تما تضمّنته مدونة جوستنيان التشريعية . أما في إيطاليا ؛ فلقد صدّاف بُناة الأمة الإيطالية عن هذه المدونة ، وتعلقت آمالهم بالقواعد القانونية التي وضعها القديس بنديكت :

وهكذا ؛ ووريت مجموعة تشريعات جوستنيان التراب وظلت في لحدها أربعمائة عام . فلما أن أشرق عصر نهضة القرن الحادى عشر التشريعية ، دبّت فيها الحياة مرة أخرى بجامعة بولونا الإيطالية . إذ تألّقت من هذا المركز في إبان هذا العصر ، تأثيرات تلك الجامعة . فأشعّت على جميع أركان العالم الغربى القاصى منها والدانى ؛ في مجال أبعد مدى مما طمح إليه جوستنيان . فإلى قدرة جامعة بولونا على المحافظة على التراث الثقافى خلال القرون الوسطى ، يعزى إذن حصول هولندا واسكتلندا وجنوب أفريقيا على نسخة من القانون الرومانى .

فإذا انتقلنا إلى مصير تشريعات جوستنيان في المسيحية الأرثوذكسية ؛ تجدها قد ظلت هاجعة مدة أقصر نسبيا مما قضتها ساكنة في المسيحية الغربية ؛ إذ أقامت بالقسطنطينية فترة ثلاثة قرون ، ثم انبعثت خلال القرن العاشر

(١) شينغار : أراضى ما بين النهرين أى جنوب العراق الحال . (المترجم)

(٢) نسبة إلى موسى عليه السلام . (المترجم)

المسيحي كمجموعة قوانين استعاضت بها الأسرة الملكية المقدونية عن التشريع
الموسوى الذى طبقته أسرة ليو السورية خلال القرن الثامن .

ولن نتوقف هاهنا لنصف تسرب القانون الرومانى إلى قواعد العرف
التي كانت مرعية لدى الدول التيوتونية الممجية ، إذ لم يقيض لتلك الدول
البقاء^(١) . فإن ثمة زاوية من البحث أعظم من ذلك أهمية وأشد إثارة للدهشة
والعجب ، تلك هى تسلل القانون الرومانى خفية - تسلا لا تخطئه عين الباحث -
إلى قانون العرب الإسلامى ، غزاة الأقاليم الرومانية على اختلافها . إذ
امتزج هنا عاملان يباين أحدهما الآخر^(٢) ؛ تباين يزرى باختلاف العرف
التيوتونى عن القانون الرومانى .

ولم تقتصر نتيجة امتزاج القانونين الإسلامى والرومانى على إيجاد قانون
محلى الطابع تستخدمه دولة بدائية للوفاء باحتياجاتها التشريعية ، لكنها أسفرت
عن قانون عالمى المنحى ، التزم بخدمة دولة عالمية سورية ابتعثها العرب
المسلمون بعد زوالها من الوجود^(٣) . ولما تهاوى هذا الإطار السياسى ،
أخذ هذا القانون على عاتقه بأن يسوس مجتمع إسلامى ويشكله ، مجتمع
اتصلت حياته رغما عن سقوط الخلافة . وامتد مجاله حتى غدا يشمل
وقت كتابة هذه السطور ، مناطق تمتد من أندونيسيا حتى ليتوانيا ،
ومن جنوب إفريقيا حتى الصين .

وعلى عكس رصفاتهم التيوتون ، لم يتزعزع العرب المسلمون تقريبا عن

(١) نظرا لتحول التيوتون إلى المسيحية النرية وتكوينهم الدول الحديثة الحالية .

(المترجم)

(٢) أى الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى . (المترجم)

(٣) ذلك لأن النهضة العربية الإسلامية قد ابتعثت إلى الوجود الدولة العالمية السورية
التي زالت بفعل تحطيم الإسكندر الأكبر الدولة الأخمينية (الفارسية) وكانت هى الدولة العالمية
للمجتمع السورى . (المترجم)

أسلوب حياة أسلافهم التقليدي ، أى قبل أن تلمّ بهم تلك الرجة التي انبثقت عن تغيير بيئتهم الاجتماعية تغييراً مفاجئاً^(١) ، دفعهم من الصحراء العربية وواحاتها إلى حقول الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية ومدنهما .

وبالأحرى ؛ ترتب في الجزيرة العربية عن إشاعات الثقافتين السورية والهيلينية المتصلة الحلقات ؛ نتائج اجتماعية طفقت تراكم ، ثم تبدّت أخيراً في البعثة المحمدية . ولقد أخذت سيرة الرسول العربي بألباب أتباعه ، ونمت شخصيته لديهم إلى أعلى عليين ، فأمنوا برسالته إيماناً جعلهم يتقبلون ما أوحى به إليه وأفعاله كما سجلتها السنة ، مصداً للقانون ؛ لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها ، بل يرتب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم الغير المسلمين الذين كانوا في بداية الأمر يفوقونهم عدداً .

وإزاء سرعة الفتوحات الإسلامية ، وعنف اكتساحها ؛ برزت أمام العرب مشكلة هائلة مدارها التوفيق بين أسس تشريع الغزاة المسلمين والأوضاع القائمة في الشعوب المغزوة . فكان أن بدت استحالة تطبيق قواعد القرآن والسنة على علاقتها في مجتمع مصطنع ؛ مثلما استحال على موسى تحقيق مطالبه اليهود إياه بتفجير ينابيع المياه أثناء فترة التيه في سيناء^(٢) .

وفي غمرة هذه الصعاب ؛ لاذ بناة الخلافة العربية بباب الاجتهاد ، تاركين النظريات والمبادئ* تأخذ طريقها المألوف . وتلمسوا طريقهم

(١) العامل الأورث في تغير البيئة الاجتماعية العربية ، هو الرسالة المحمدية .

(المترجم)

(٢) ويعرض الدكتور توينبى بند ذلك للفارق بين السور الحكية والسور المدنية فيذكر بأن الأولى روحانية الطابع وتنحصر إلى تأكيد وحدانية الإله . بينما تعرض السور المدنية خاصة لمسائل الدولة العامة التي أصبح النبي رئيسها . (المترجم)

بمساعدة ملكة الفهم والإدراك ، ومعاونة القياس والإجماع والعرف .
وجدوا في إدراك بغيتهم حينما يجدونها . فإن اقتنع أهل التنى والورع
بنسبة ما أسفر عنه البحث إلى الرسول مباشرة ، اعتبروه أحسن مظان
التشريع .

ولقد كان القانون الرومانى ضمن المصادر التشريعية التى غنمها
المسلمون . فأحدثوه بينهم مكانا عليا ، وطبقوه على علاته وفقا
للأسلوب الذى كان معروفا فى الأقاليم السورية . ولعل أقرب إلى الحقيقة ،
أن اليهود هم الذين عرفوا المسلمين بالقانون الرومانى .

فإذا انتقلنا لبحث التشريع اليهودى نجده قد مر بتاريخ طويل قبل
عصر هجرة النبي محمد :

فلقد تألف التشريع اليهودى فى بداية الأمر من عادات بدائية اكتسبها
اليهود فى إبان بداوتهم . فلما اندفعوا من سهب شمال الجزيرة العربية
إلى حقول سوريا وبلدنها ، اضطروا إلى تقبل القانون القائم فى مجتمعهم
الجديد الذى تجافى أوضاعه ما ألفته حياتهم الأولى ؛ قانون وجدوه يطبق
قبل دخولهم أرض الميعاد^(١) . ومثلهم فى ذلك ، مثل العرب المسلمين الذين
ألفوا أنفسهم فجأة تجاه وسط اجتماعى يباين مجتمعهم الأصيل إلى أقصى حد .

وإذا كانت الوصايا العشر تبدو للباحث نتاجا عبريا أصيلا ، إلا أن
القسم التالى من التشريع الإسرائيلى (وهو ما يعرف لدى العلماء بـ « شريعة
العهد ») يفتش سر ما فى ذمة التشريع الإسرائيلى من ديين لتشريع
حمورابى ، رغما عن انقضاء أكثر من تسعة قرون على سن هذا القانون

(١) أى فلسطين . انظر الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج (الآيات ١٧ -

٢٦) . ونجد تفصيلات أوفى ابتداء من الآية الثالثة والعشرين من الأصحاح العشرين حتى

الآية الثالثة والثلاثين من الأصحاح الثالث والعشرين .

السومرى . ولا ريب أن انصباب التشريع السومرى فى تشريع اليهود (وهم إحدى الجماعات المحلية التى ظهرت فى أيام المجتمع السورى الأخيرة) ، يشهد بعمق ومثانة الجذور التى تأصلت فى الأرض السورية فى إبان الألف سنة التى انقضت فى جيل حورابى .

وحقا ؛ اتسم القانون السومرى بالقوة التى مكنته من البقاء ساريا بين ذرارى رعايا حورابى السومريين أو أبناء البلاد التى ألحقت وقتنا ما بإمبراطوريته ، رغمًا عن اندلاع نيران الثورات الاجتماعية والثقافية . وحسبك دليلا على قوته ، استطاعته أن يطبع بطابعه الخاص ، التشريع الفج لهماج اليهود الكنعانيين الذين غزوا فلسطين .

وبالأحرى ؛ تسلس القانون السومرى — مثل القانون الرومانى بعد ذلك — إلى تشريع البرابرة الذين قادت المصادفة إلى توليهم دور « المصحضن »^(١) لدين عالمى . وهو هنا قد خلف للتاريخ تراثا يفوق فى عظم تأثيره ، ما لو كان قد لاقى برابرة يقتصر دورهم التاريخى على الغزو والنهب ثم الارتحال الشائن ، على نحو ما يفعله أمثالهم . وما يزال للقانون السومرى حتى كتابة هذه السطور ، تأثير ملموس ينحصر كلية فى صورته الواردة بالقانون الموسوى .

وأيا ما تكون الحال ، لم تتأثر الشريعة الإسلامية وحدها بالقانون الرومانى . فإن كنيسة المسيحيين ، الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية ؛ ما برحتا الوريثتين المباشرتين للقانون الرومانى .

* * *

وصفوة القول ؛ البروليتاريا الداخلية ، هى المستفيد الأساسى من تشييد الدولة العالمية ، سواء فى ميدان القانون أم فى غيره من الميادين .

(ز) التقاويم والأوزان والمقاييس والنقود :

من تحصيل الحاصل ، تبيان ضرورة المعايير القياسية ، للزمن والمسافة

والطول والجِرم والوزن والقيمة ، للحياة الاجتماعية على أى مستوى فوق المستوى البدائى . بل إن هذه المقومات الاجتماعية الشائعة الاستعمال ، لأقدم من الحكومات وجودا . فلما أن برزت إلى الحياة ، أصبح تنظيم أوضاعها شغل الحكومات الشاغل :

وفى الواقع ، ثمة علتان لوجود الحكومات :

الأولى — إيجابية الطابع ، وتتلور فى توليها زمام تنظيم أعمال المجتمع وقيامها بدور القائد السياسى العام .

الثانى — سلبية الطابع — ومبناها ، ضمانها لرعاياها قسطا من العدالة الاجتماعية ولو يسيرا . ويتطلب هذا رأى ، فى معظم المسائل المتصلة بأمور الحياة ، تطبيق معايير قياسية تقيمها الدولة أيا ما يكون نوعها .

وإذا كانت الحكومات تعنى على اختلافها بالمعايير القياسية ، فإن عناية الدول العالمية بها أشد وأقوى . إذ تجابهها بحكم طبيعة تكوينها ، مشكلة تحقيق الانسجام بين جمهرة رعاياها الذين يختلفون عن بعضهم بعضاً فى الكثير من مناحى الحياة ، عكس رعايا الدول الإقليمية الذين يتسمون بالتجانس عموماً . ولرعايا الدولة العالمية اهتمام خاص بالتناسق الاجتماعى الذى تتيحه المعايير القياسية ، سيما إن تولت الدولة رقابة ما يتصل بها . عن كذب :

أولاً — التقاويم :

قياس الوقت ؛ أهم ما مسّت إليه حاجة البشرية منذ أقدم العصور . وتجلى ذلك فى بداية الأمر ، فى قياس فصول الدورة السنوية . واستدعى ذلك ، تنسيق دورات السنة الطبيعية المختلفة ، أى : السنة والشهر واليوم . وكشف رواد قياس الزمن أن النسب بين هذه الدورات ليست كسوراً بسيطة ، لكنها جذور صماء . ولقد اهتدى كل من المجتمع المصرى والبابلى والمائبانى إلى معلومات عملية ، طبقتها تطبيقاً مذهلاً . وتم ذلك بفضل السعى فى البحث عن « السنة

العظمى . وفيها تنطلق الدورات المتناقضة الثلاث جميعها في وقت واحد ثم تووب جميعها مرة أخرى في نهاية الأمر إلى نقطة البداية التي انطلقت منها في وقت واحد .

وما أن استقل رواد الفلك قطار العد والتقدير هذا ؛ حتى أوصلهم إلى مراعاة دورية التحركات ، لا بالنسبة للشمس والقمر فحسب ، بل ومراعاتها كذلك بالنسبة للكواكب وما كانوا يدعونونه بـ « النجوم الثابتة » . فكان أن ارتد أفق تفكيرهم الزمنى مسافة لا يتأتى التعبير عنها بسهولة ؛ بل إن تصورهما تصوراً أقرب إلى الواقع ، أصعب من ذلك كثيراً . وإن كان هذا التصور لن يرقى إلى تفكير عالم معاصر من علماء الكونيات^(١) ؛ الذى يرى أن نظامنا الشمسى هذا ، مجرد غبار نجمى فى المجرة . ولا تعدو المجرة نفسها أكثر من سديم من آلاف السُّدُم التى تسير فى طريق التحوّل إلى الرماد الميت ، بمنأى عن الميلاد المتقدّم .

وإنه وإن افتقر رواد الفلك الأقدمون إلى كشف كُنه الأجرام وفقاً لترتيبها الزمنى ، لكن تولدت دورة النجم الكلى^(٢) المصرية ذات الـ ١٤٦٠ سنة بفضل رصد المصريين القدماء تحركات الشمس المنظورة ومقارنتها بتحركات أحد تلك النجوم التى كان الأقدمون يظنونها ثابتة . كذلك انبثق عن الدورة المشتركة المتعاقبة للشمس والقمر والكواكب الخمسة ما يدعى بالسنة القُدسية وتبلغ فترتها ٤٣٢٠٠ سنة . بينما نجد فى الدورة المايانية العظمى الجسيمة ذات الـ ٣٧٤٤٠ سنة ما لا يقل عن عشر دورات جوهرية مميزة يتداخل بعضها فى البعض الآخر . ولقد أورثت « الإمبراطورية القديمة » المايانية هذا التقويم المتقن العجيب — رغم تعقده الهائل — إلى المجتمعين الياكوتى والمكسيكى اللذين تفرعا عن المجتمع المايانى .

(١) أى المشتغلين ببحث طبيعة الكون وكُنهه . (المترجم)

(٢) دورة عينها الفلكيون المصريون بـ ١٤٦٠ أو ١٤٦١ سنة شمسية ، بفضل مراقبتهم تحرك النجم الكلى . (المترجم)

وتعنى الحكومات مثل الفلكيين ، بتقرير الزمن على أساس السنوات ، كما تهتم بترابط الدورة السنوية المتعاقبة . إذ تهتم الحكومات قبل أى شئ آخر ، بالمحافظة على كيانها والإبقاء على وجودها . فلا مناص لها مهما يكن من أمر بساطة نظمها الإدارية وسذاجتها ، من الاحتفاظ بنوع من التسجيل المتصل الحلقات لأعمالها ؛ تعجز بدونه عن البقاء فى الحكم . ومن الطرائق التى تتبعها الحكومات لهذا الغرض ؛ تأريخ أعمالها بأسماء المتقلدين بعض الوظائف ذات الطابع القضائى التى يتم شغلها سنوياً بالاختيار . ويحدثنا هوراس فى إحدى قصائده الشعرية عن ولادته فى عهد مانليوس القاضى (وهذا يماثل تأريخ أحد سكان لندن ميلاده باسم عمدة المدينة وقت ولادته) . وواضح صعوبة مثل هذا النظام ؛ إذ لا يتأتى لكل امرئ تذكر أسماء القضاة ولا ترتيب تقلدهم وظائفهم^(١) .

وبالأحرى ؛ يكمن أنسب النظم وأوفاهها بالغرض ، فى اختيار سنة بذاتها وجعلها تاريخاً رئيسياً ، وترقيم السنوات التى تتلوها . ومن الأمثلة التقليدية ؛ العصور التى تبدأ من : الاحتلال الفاشى لروما ، إقامة الجمهورية الفرنسية الأولى ، هجرة النبى محمد من مكة إلى المدينة ، وتأسيس الدولة الهاشمية خليفة للإمبراطورية السلوقية فى جودايا Judaea ، عودة سلوقوس ظافراً إلى بابل .

وثمة حالات أخرى ؛ جعل من الأحداث التى كان تاريخها موضع

(١) وبالمثل فقرة « كابد فى عهد بونطىوس » التى مجدها كل ما يتصل بمجمع نيقية وفى سفر الرسل والتى تستخدمها الكنائس المسيحية . وهى عبارة تشير إلى تأريخ أكثر من إيرادها اتهام فرداً بممارسة التعذيب . فلو كان مؤلفو العقيدتين قد آثروا الانغماس فى المباحثات الجدلية ، لكان عليهم اتهام اليهود بقتل المسيح (وما يزال المسيحيون يكرهونهم) عوضاً عن اتهام سلطات روما التى تصالحوا معها . ومناطق عبارة « كابد فى عهد بونطىوس » ؛ تؤكد أن الشخصية الثالثة (الأقنوم) من الثالوث ، شخصية تاريخية لها تاريخ معين ؛ وهذا عكس الشخصية الأسطورية مثل ميترأ أو إيزيس أو سيبييل فى الديانات الأخرى . (المؤلف)

نزاع ، أساساً لتأريخ العصور ، ومن قبيل المثال ولادة السيد المسيح .
 فلا يوجد دليل على ولادته بالفعل في السنة الأولى من العصر المسيحي .
 بل إن عبارة « العصر المسيحي » لم تُتداول وتألّفها الأسماع إلا منذ القرن
 السادس الميلادي . وبذلك لا يوجد برهان على تأسيس مدينة روما عام
 ٧٥٣ ق . م ، كما هو معروف ، أو عن إقامة أول احتفال أوليمبي عام
 ٧٧٦ ق . م . وهو التاريخ المتواتر . وأضعف من ذلك دليلاً ، ما يزعمه
 اليهود عن خالق الدنيا يوم ٧ أكتوبر سنة ٣٧٦١ ق . م ، أو ادعاء
 المسيحية الأرثوذكسية أنه تعالى قد خلقها يوم أول سبتمبر سنة ٥٥٠٩
 ق . م . أو زعم المؤرخ الأسقف الإنجليزي الإيرلندي بأنها قد خلقت الساعة
 السادسة من ليلة ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م .

ويلاحظ إيرادنا هذه العصور في الفقرتين السالفتي الذكر وفقاً لترتيب
 التحذاري من ناحية قوة الدليل على واقعية أزمنة الأحداث المختارة للتأريخ .
 فإن استعرضنا القائمة من وجهة نظر نجاح هذه العصور النسبي في شيوعها
 بين الناس وتقبلهم لها دواما ؛ نلاحظ أن تصديق الدين على استخدامها هو
 طلسم نجاحها ، كما أن صدوفه عن اعتمادها ، سر إخفاقها . وإننا لنجد
 للتقويم المسيحي وقت كتابة هذه السطور ، السيادة على جميع العالم ؛
 ولا ينازعه مكانته سوى منافس خطير هو التقويم الهجري الإسلامي .
 وما يزال اليهود بعنادهم المعروف ، يحسبون تقويمهم رسمياً على أساس
 تقديرهم بداية الخليفة .

وفعلا ؛ ثمة ترابط معترف به ، بين قياس مثقفي البشر وسلطان الدين
 على النفوس البشرية . ويشهد على صحة تأصل هذه الفكرة (وتفتقر إلى
 السند العلمي) في الأعماق اللاشعورية المنبعة للنفس البشرية ؛ ندرة الحالات
 التي وفق فيها إصلاح للتقويم أساسه العقل والمنطق ، في إغراء الناس
 بالإقبال على استخدامه في حياتهم الجارية .

تلك حقيقة نجدها في جميع المجتمعات حتى ما بلغ منها منزلة رفيعة من الاستعلاء عن الموضوعات الغيبية . فإذا كانت مجموعة قوانين الثورة الفرنسية (وتتمايز باستنادها على العقل والمنطق وحدهما) قد شقت طريقها إلى أقصى جهات الأرض ، وحظيت أوزانها وأطوالها العصرية الرشيدة (الجرامات والمليجرامات والأمتار والكيلومترات والمليمترات) بنجاح ساحق ؛ إلا أن الثورة قد أخفقت تماماً في محاولتها إبطال تقويم روماني وثني احتضنته الكنيسة المسيحية فأرخت به ميلاد المسيح .

« على أن التقويم الذي ابتكرته الثورة الفرقة الفرنسية يتسم بجاذبيته ؛ إذ كانت أسماء الأشهر تشير إلى نوع الطقس السائد خلال الشهر أو المتوقع شيوعه فيه . ويتم ذلك بتقسيم نهايات الأشهر إلى أربع شرائح موسمية يضم كل شهر ثلاثاً منها . وكان قوام الشهر ثلاثين يوماً نجمعها ثلاثة أسابيع يحتوى الأسبوع على عشرة أيام . وكان ثمة شريحة تضم خمسة أيام تزيد عن المقرر لمجموع أيام السنة البسيطة ؛ وإذا كان هذا يشوه تشويها بسيطاً تقويم الثورة ، إلا أنه يعتبر أكثر تقويم اخترعته البشرية من ناحية إفراطه الحساسية في بلد يدعو شهور السنة العاشر والحادي عشر والثاني عشر بأكتوبر ونوفمبر وديسمبر » (١) .

وبطالعنا التاريخ الروماني بتفسير لزيغ التسميات التي عرضت لها الفقرة السالفة الذكر . فلقد كان يعبر عن شهور السنة بالأرقام ، ثم أطلقت عليها أسماء الآلهة ، وليس في ذلك خطأ البتة . وكان مارس (٢) هو بداية السنة الرومانية ، وفيه تبدأ الدولة في شن عملياتها الحربية ، تحت قيادة حاكمها الذي يتولى مهام منصبه بعد انتخابه في ١٥ مارس من كل سنة .

(١) صفحة ٩ Thompson, J.M. The French Revolution

(٢) يلاحظ أن مارس هو إله الحرب عند الرومانيين . (المترجم)

ولما كانت عمليات الحكومة الحربية لا تتجاوز وقتئذ نطاق مسيرة بضعة أيام من العاصمة ، تيسر للحاكم المنتخب حديثاً تسلم زمام قيادة الجيش في الوقت المناسب ، لتوجيه دفعة العمليات الحربية في إبان فصل الربيع . لكن تغيرت الحال بعد اتساع نطاق العمليات الحربية الرومانية إلى أراض أبعد من إيطاليا . إذ بات القائد المعين في القيادات البعيدة ، يجد نفسه عاجزاً عن بلوغ مركز العمليات إلا بعد انقضاء موسمها بوقت طويل .

وعجيب أن لا يُعير الرومان التفانا لهذا الخطأ في التقويم طوال القرن الذي تلا الحرب الهانيبالية ؛ خطأ يتبين (وفقاً للتقويم) من حلول شهر مارس من السنة الجديدة ، في خريف السنة السابقة ، ففي عام ١٩٠ ق . م (وهي السنة التي دحر فيها الجيش الروماني جيشاً سلوقياً بميدان معركة ماجنيسيا Magnesia ؛ حدث أن وصلت الكتائب الرومانية ميدان المعركة قبل الموعد الحقيقي بوقت طويل ؛ فلم تصله عملياً يوم ١٥ مارس لكنها وصلت فعلاً يوم ١٦ نوفمبر من السنة السابقة . وفي سنة ١٦٨ ق . م ، ألحق بالمثل جيش روماني آخر هزيمة ساحقة بجيش مقدوني في موقعة « بيدنا » ؛ وكان التاريخ الرسمي ١٥ مارس ، هو في الواقع ٣١ ديسمبر من السنة السابقة .

وانتهى المطاف بالرومانين إلى السعي لتلافي حيرتهم بين هذين التاريخين ، بتصحيح التقويم . وقد تبين لسوء الحظ ، أنه كلما كان التاريخ أدنى إلى الصحة من الناحية الفلكية ، كلما اشتد العزوف عن استخدامه في التوقيت أثناء الحروب . إزاء ذلك تقرر في عام ١٥٣ ق . م ، تحديد أول يناير ، تاريخاً لتنصيب الحكام المنتخبين سنوياً ، عوضاً عن يوم ١٥ مارس . وهكذا أصبح شهر يناير - تبعاً لذلك - أول السنة ، بدلاً من شهر مارس :

واستمر التنافر الفلكي قائماً ، حتى تجمعت ليوليوس قيصر القدرة ليفرض قواعد الفلكيين فرضاً . فكان أن طبّق التقويم « اليوليوسي »

الذى بلغ درجة من الإنقاذ والصحة . أهلتته للبقاء ألفاً وخمسمائة سنة .
وعمد قيصر كذلك إلى تعديل أول شهر من الشهور التى كان يُرمز إليها
بالأرقام ، فأطلق عليه اسمه « يوليو » ، وأطلق بعد وفاته اسم « أغسطس »
على الشهر التالى . ولم يكن إطلاق اسم « يوليوس قيصر » على شهر من
شهور السنة إلى جانب أسماء الآلهة الرومانية بدعاً فى التقويم الرومانى ،
إذ كان الاسمان مؤلهين رسمياً .

وبوضّح تطور التقويم اليوليوسى ، الارتباط العجيب بين الأديان
والتقاويم . فما إن حلّ القرن السادس عشر الميلادى حتى ، تبين للعيان ،
تأخر التقويم اليوليوسى عن الزمن الحقيقى بعشرة أيام . ووجد أن حذف
هذه الأيام (بإجراء تعديل فى قاعدة السنوات الكبيسة^(١)) يتلافى
خطأ التقويم ويحيل اختلافه الزمنى إلى العدم تقريباً . وما كان لينأى تنفيذ
فكرة إصلاح التقويم إلا بسلطان البابا ، رغماً عن أن القرن السادس عشر
يتميز فى مجتمع المسيحية الغربية الأوربية بظهور جاليليو جاليللى^(٢) ، واتّباعه
طريق سان توماس الأكوينى^(٣) فلا بدع والخالة هذه ، أن يصدر عام ١٥٨٢
التقويم المعدّل باسم البابا جريجورى الثالث عشر .

أما فى إنجلترا البروتستانتية ؛ فلقد اتخذ تعديل التقويم سبيلاً مختلفاً .
إذ لم يكن البابا موضع تكريم وتوقير ، بل هبطت مكانته فيها إلى مجرد

(١) السنة الكبيسة : ٣٦٦ يوماً .

(٢) جاليليو جاليللى (١٥٦٤ - ١٦٤٢) : فيلسوف إيطالى تجريبى وفلكى . ويعتبر
أحد رواد الفكر الحديث . ويؤثر عنه اختراعه الترمومتر والتليسكوب . وهو الذى قال بكونية
الأرض وأن الشمس متحركة ، فحوكم بسبب ذلك وحكم عليه بالسجن (المترجم)

(٣) سان توماس الأكوينى : من كبار علماء الكنيسة المسيحية الغربية وامتازت آراؤه
فى عصره بالزعة التقدمية . ويلاحظ تأثره الشديد بأراء الفلاسفة اليونانيين - انظر كتاب المترجم
عن المدينة الفاضلة . (المترجم)

« أسقف روما الشائن » ؛ حتى أن الجزء الثاني من كتاب الصلوات في عهد الملك إدوارد السادس نص على الابتهاال إلى الله لتخليص الإنجليز من آثام البابا البغيضة . وإذا كان هذا الدعاء الكريه قد حُذِف من أوراق كتاب الصلوات في عهد الملكة اليزابث الأولى ؛ إلا أن شعور الإنجليز تجاه البابا قد لبث على حاله . وبدا هذا في تشبث الحكومتين الإنجليزية والاسكتلندية طوال مائة وسبعين سنة أخرى ، بطريقتهما في احتساب الزمن . فأصبح المؤرخون يكابدون عند بحثهم هذه الحقبة من الزمن ، سفاسف النزعة بين « الأسلوب الجديد » و « الأسلوب القديم » في حساب التقويم . ولما آن لبريطانيا عام ١٧٥٢ أن تقتدى بغيراتها في القارة الأوروبية ؛ ضج الرأي العام البريطاني (وذلك في سياق القرن السابع عشر ، عصر العقل والمنطق باتفاق الناس جميعاً) بثورة أقوى مما حدثت في العالم الكاثوليكي وقت تطبيق التقويم الجريجوري في القرن السادس عشر ، وهو دون القرن السابع عشر في استنارته .

فهل تُردّ شدة اعتراض الإنجليز على تعديل أساس تقويمهم الزمني إلى القول بأن قانوناً يصدره البرلمان عن التقويم ، هو بديل هزيل لصوت الرب^(١) في زي نشرة بابوية ؟

ثانياً - الأوزان والمقاييس :

بانتقالنا من التقاويم والعصور إلى الأوزان والمقاييس والنقود ؛ نلج دائرة اختصاص ميدان المعاملات الاجتماعية حيث يسيطر الإدراك المنطقي ، ولا تحدد الوسوسن الدينية من نشاطه .

وحقيقة ؛ إن كان رجال الثورة الفرنسية قد أخفقوا إخفاقاً مُزرياً

فى تمكين تقويمهم الدينوى ، إلا أن أوزانهم ومقاييسهم قد أحرزت نجاحاً عالمياً .

فإن عقدنا مقارنة بين نصيب كل من نظام المقاييس السومرى والقاعدة المترية الفرنسية الجديدة من الشيعوع والانتشار ؛ لأوحت لنا بردّ نجاح المصلحين الفرنسيين السالحى ، إلى طابع الاعتدال الحكيم الذى اتسم به عملهم . فإنهم بخفضهم عديد من جداول النظام القديم المعقّدة إلى طراز للتقدير نسيج وحده ؛ قد أبانوا عن إدراكهم العملى العميق لقصور الطريقة العشرية وبعدها عن المنطق . وهى الطريقة التى أجمع الجنس البشرى بأسره على استخدامها ؛ لا بسبب مزاياها ، ولكن لمجرد أن للفرد البشرى العادى عشرة أصابع فى كل من يديه ورجليه .

وإذا كان الإنسان قد أقبل لهذا السبب على استخدام الحساب العشرى وصدّاف عن الحساب الاثنى عشرى المنطقى ، فإن من مداعبات الطبيعة القاسية ؛ تزويدها طائفة من خليقتها الفقارية^(١) بست أصابع فى كل قائمة من قوائمها الأربع . لكنها لم تنعم على حائزى أداة الحساب الاثنى عشرية الطبيعية هذه ، بالعقل الذى يقودها إلى الإفادة منها . بينما منحت الطبيعة جنس الإنسان نعمة التفكير ، لكنها قترت عليه فى نفس الوقت ، فلم تمنحه سوى عدداً من الزوائد لا يزيد مجموعه عن العشرين .

وليس هذا من التوفيق فى شىء . فإن عدد « ١٠ » وهو المقياس الأساسى للحساب العشرى ؛ لا يقبل التقسيم إلا على عددين فقط هما « ٢ » و « ٥ » . فى حين يعتبر العدد « ١٢ » فى الواقع ، أقل عدد تتأق قسمته جملة على « ٢ » و « ٣ » و « ٤ » . ورغمما عن تفوق العدد « ١٢ » ؛ لم يكن ثمة مفر من تطبيق الترقيم العشرى . إذ وقتما أصبح فى وسع حصفاء

(١) أى من ذوات الفقرات . . (المترجم)

مجتمع من المجتمعات تقدير قيمة التفوق الأصيل للعدد « ١٢ » ؛ كان الترقيم العشري قد استشرى في الحياة العملية ، فبات استئصاله بعيد المنال .

ويعتبر كشف المصلحين السومريين مزايا العدد « ١٢ » ، ضربة عبقرية ؛ اتبعوها بخطوة ثورية بإعادتهم صبّ نظام موازينهم ومقاييسهم على أساس اثني عشري . والظاهر أنهم لم يدركوا أن تطبيق الأوزان والمقاييس الاثني عشرية في الحياة الجارية ، يتطلب خطوة إضافية تقوم على إرشاد مواطنيهم إلى اعتناق النظام الاثني عشري في أوجه الحياة . ويعني القصد في هذا السبيل ، تطبيق نظامين متافريين (الاثني عشري والعشري) جنباً إلى جنب ؛ الأمر الذي يطيح بميزة النظام الاثني عشري .

وهذا ما وفّق إليه المصلحون الفرنسيون بفضل ابتكارهم النظام المترى . ومهما يكن من أمر النظام السومري الاثني عشري ؛ فلقد شاع في أرجاء المعمورة . إلا أنه ما برح في المائة والخمسين سنة الأخيرة ينزل منافسه الفرنسي الفتي في معركة خاسرة . وما تزال أوكسفورد^(١) (مثلاً كانت مدينة أور Ur)^(٢) موئل القضايا الخاسرة . وحقّاً ؛ لم تخسر « أور Ur » قضيتها تماماً ، ما دام الإنجليز (ومن تأثر بهم) يتشبثون بتقسيم « القدم » إلى اثني عشرة بوصة ، والشلن إلى اثني عشر بنساً^(٣) .

(١) يعنى الأستاذ المؤلف بأكسفورد ، البلاد الإنجليزية والتي تأثرت بالثقافة الإنجليزية (سيما المستعمرات الإنجليزية السابقة والحالية . بحسبان أوكسفورد المصدر الأصيل للثقافة الإنجليزية . (المترجم)

(٢) مركز الثقافة السومرية . (المترجم)

(٣) إن تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة والساعة إلى ستين دقيقة ، هو كذلك سومري الأصل . ولهذا التقسيم حظ في البقاء أبد الآبدين ، أفضل من حظ المقاييس والموازين . بل إن الثوريين الفرنسيين صدقوا عن تحويل الوقت إلى النظام المترى . (المؤلف)

ثالثاً - النقود :

بات اختراع النقود أمراً مقضياً وقتها استبان للحكومات اتصال المعاملة الشريفة بالصالح العام . فأصبح من أوجب واجبات أية حكومة جديرة بهذا اللقب ؛ أن توقع القصاص على من يغش في الوزن والمكيال . بيد أنه ما كان ليتأتى اختراع النقود إلا باتخاذ طائفة محددة من الخطوات ولم يتحقق امتزاج الخطوات في الواقع إلا في إبان القرن السابع قبل الميلاد ؛ رغمًا عن وجود المجتمعات المتحضرة بالفعل ، قبل ذلك بفترة لعلها ثلاثة آلاف سنة .

وتمثلت الخطوة في تحويل بعض السلع وظيفة الوسيط في التبادل . فأضنى عليها منفعة إضافية ، إلى جانب فائدتها الأصلية .
وإنه وإن تعددت السلع المختارة لتأدية دور الوسيط في المعاملات ، غير أن ذلك لم يؤد إلى ابتكار النقود .
وتطالعنا الأمثلة التالية :

ففي العالَمين المكسيكي والأندىانى ، توافر معدنا الذهب والفضة (وكان لاعتبارهما مادتين نفيستين ، موضع طمع في الدنيا القديمة) توافرا أذهل الغزاة الأسبانيين . إلا أن أهالى البلاد الأصليين لم يفكروا إطلاقاً في الاستفادة منهما وسيطا للتبادل ، رغمًا عن إلمامهما منذ أمد طويل بفن استخراجهما وتنقيتهما واستخدامهما في الأشغال الفنية . لكنهم اهتموا بمحض الصدفه إلى استخدام سلع أخرى وسائط للتبادل ، منها الفول والسملك الخفيف والملح والقواقع .

ويختلف الحال في الحضارات المصرية والبابلية والسورية والهيلينية عنه في الحضارتين الأمريكيتين السالفتي الذكر ، إذ كانت التجارة فيها أشد تعقداً . فكان أن أهدى إلى استخدام المعادن النفيسة مقياساً للقيمة ، على هيئة قضبان بجرى العرف على تعيين أوزانها .

وإذا كانت المعادن النفيسة قد جرت في التداول في الحضارات السالفة الذكر مئات السنين ، بل آلافها قبلما تُدركه المدن الهيلينية على الشاطئ الآسيوى من البحر الأبيض ، إلا أن حكومات تلك المدن قد خطت خطوة أبعد من مساواتها المعادن بالسلع ، وسائط في التبادل . إذ استنّت قاعدة عامة بتقريرها عقوبة قانونية على من يُقدم على غش الوزن والعيار . واقتضى ذلك أن تخطو تلك المدن الرائدة خطوات ثورتين يجعلها صناعة وحدات القيمة المعدنية هذه ، احتكارا حكوميا . وتطلب ضمان الدولة قيمة العملة ووزنها ونوعها ، النص على وجهها بأنها من إنتاج دار السك الحكومية ، وتسجيل قيمتها .

والقاعدة ، أنه يتيسر سك العملة كلما صغرت مساحة الدولة وقل عدد سكانها . فلم يكن من قبيل المصادفة إذن ، أن تكون دول المدن معامل لإجراء تجارب سك النقود .

وثمة قاعدة أخرى لا تقل عن الأولى وضوحا مدارها تزايد منفعة النقود المسكوكة مع اتساع المساحة التي تُتداول فيها قانونا . وتلك خطوة تقدمية اتخذتها الملكية في ليديا بعد غزوها لإيان العقوذ^(١) المبكرة من القرن السادس قبل الميلاد ، وجميع دول المدن اليونانية الواقعة على شاطئ الأناضول (باستثناء مدينة ميليتوس Miletus)^(٢) ، ثم تغلغلها بعد ذلك في داخلية الأناضول إلى أن بلغت نهر هاليس Hylis . وحقا ، ما إن توطد حكم مملكة

(١) العقد - عشر سنوات . (المترجم)

(٢) ميلتوس Miletus كانت في العصر اليوناني من أكبر مدن آسيا الوسطى . وكانت عضواً في اتحاد المدن الأيونية الاثني عشرية . اشتهرت بصناعة الصدف وازدهرت فأصبحت دولة بحرية خطيرة تسيطر على عدة مستعمرات . أصبحت المدينة مركز الثروة ضد الاحتلال الفارسي لآسيا الصغرى فدمرها الفرس عام ٤٩٤ ق . م . لكنها استعادت شيئاً من مجدها إلى أن دمرها الإسكندر الأكبر بسبب ثورتها عليه . مكانها الآن مدينة بالاتيا . (المترجم)

ليديا حتى سكنت عملة فرضت استخدامها على سكان أنحاء المملكة بأسرها ،
 ووقع اختيار الدولة على عملة مدينة فوكايا Phocaea^(١) ، وبطالعنا اسم
 قارون Craesus أشهر ملوك ليديا وآخرهم ، الذى كان وما يزال علما
 على الغنى والثراء ؛ وما انفك اسمه يتردد على الألسنة حتى الآن ، فيقال
 « فلان غنى كقارون » أكثر مما يقال غنى كروتشيلد أو روكفلر أو فورد
 أو موريس أو غيرهم من أصحاب الملايين فى بلاد الغرب .

وبلغ تنظيم التعامل النقدي ضرورته وقتما اندمجت مملكة ليديا بدورها
 فى الإمبراطورية الأخمينية (الفارسية) الواسعة الأرجاء ؛ فتأكد مستقبل
 العملة المسكوكة ؛ فإن العملات الذهبية (وقد طبع عليها رسم قواس)^(٢)
 التى سكبتها الدولة الأخمينية العالمية ، قد دفعت النظام النقدي المسكوك إلى
 العيان دفعا وعجلت باستخدامه فى كل مكان تقريبا . ومصدقا لذلك ،
 نجد العملات المسكوكة تشق طريقها إلى الهند بعد استيلاء الدولة الأخمينية
 على البنجاب : وأصبحت الظروف مهيأة لتطبيق هذا النظام بعد حركة
 تسين شى هوانج - فى الثورية ، وهى حركة وفق الإمبراطور هانج ليوانج
 من التلطيف من حداثها ؛ فأنقذ الإمبراطورية . فى عام ١١٩ ق م .
 مكنت بديهة الحكومة الإمبراطورية الصينية الرقادة من إدراك حقيقة تتصل
 بالتكامل النقدي - لم توث لأحد قبلها - تلك هى أن المعدن ليس وحده
 قوام النظام النقدي . وقد تكشف تلك الحقيقة كما يلى :

« كان الإمبراطور فى المنتزه الإمبراطورى فى تشانج نجان -
 Ch'ang Ngan ذكر غزال أبيض^(٣) ، وهو حيوان نادر لا نظير له فى

(١) فوكايا Phocaea كانت قديماً عضواً باتحاد المدن الأيونية وتقع على الساحل الغربى
 من آسيا الصغرى . مكانها الآن مدينة فوكيا . (المترجم)

(٢) القواس : رابى السهام .

(٣) Cervus elaphus

الإمبراطورية . فأشار الوزير على الإمبراطور بذيجه وتقسيم جليده قطعاً صغيرة تصبح صكوكاً على خزانة الدولة العامة ، وهي آمنة من التقليل لندرة ذلك الحيوان . وفعلًا قُطِعَ الجلد وأصبحت مساحة القطعة حوالى القدم مربع ، وجُعِلَ لها حد ذو أهداب ومزخرف بصورة . وحدّد لكل قطعة ثمن فرضته الدولة فرضاً هو أربعمائة ألف قطعة نقدية نحاسية . وكان الإمبراطور ، إن وفد إليه الأمراء لتقديم فروض الطاعة والاحترام ، يرغمهم جميعاً على شراء قطع من هذا الجلد نقداً على أن يقدموها هدية للإمبراطور بعد ذلك . بيد أن قطع جلد ذكر الغزال الأبيض ما كانت لتكفى - لقلتها - بتزويد الخزانة العامة باحتياجاتها من الأموال (١) .

ولم يصبح اختراع النقود الورقية حقيقة واقعة إلا بعد أن صاحبه اختراعا : الورق والطباعة . ففي عامى ٨٠٧ و ٨٠٩ ميلادية أصدرت حكومة تانج T'ang ورقاً قابلاً للتداول على هيئة شيكات تحتفظ الخزانة الإمبراطورية بكموبها . ولا يوجد دليل على طباعة نقوش هذه الشيكات ، فإن حكومة سونج Sung هى التى طبعت الورق النقدى عام ٩٧٠ ميلادية .

وبرهن اختراع النقود بما لا يدع مجالاً للشك عن نفعه لرعايا الحكومات التى تصدرها . وتبين ذلك رغماً عن التقلبات الاجتماعية الخربة للتضخم والانكماش ، ومن مغريات الأقراض والاقتراض بفوائد ربوية ؛ وجميعها قد أبرزه اختراع النقود إلى العيان . لكن الحكومات التى تصدر الأوراق النقدية هى التى تحقق بالتأكيد فائدة أضخم ، باعتبار عملية الإصدار فعلاً من أفعال السيادة يربط الحكومة فى أقل درجاته - ربطاً مباشراً لا يتغير - بأقلية من رعاياها نشطة ذكية وذات نفوذ . ولا يقتصر تأثير هذه الظاهرة

(١) صفحة ١٦٤ - Fitzgerald; C.P., China, a Short Cultural History.

النقدية على كفالة الاعتبار للحكومة ، إذ تهيئ لها كذلك فرصة بديعة للإعلان عن نفسها .

ولقد صور العهد الجديد في عبارة مأثورة ، تأثير النقود على عقول سكان يريزحون تحت نير حاكم أجنبي يضيقون بسيطرته السياسية ذرعاً :

« ثم أرسلوا إليه قوماً من القديسين والهيرودسين لكي يصطادوه بكلمة . فلما جاءوا قالوا أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ، نعطي أم لا نعطي . فلم برياءهم وقال لهم لماذا تجربوننى ، إيتونى بدينار لأنظره . فأتوا به فقال لهم ، لمن هذه الصورة والكتابة ؟ فقالوا له لقيصر . فأجاب يسوع وقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فتعجبوا منه » (١) .

وأثر احتكار الدولة إصدار النقود كسباً معنوياً ذاتياً كانت له أهمية لا نظير لها (حتى في أبشع الظروف السياسية والدينية وأشدّها قتاماً) للحكومة الإمبراطورية الرومانية ؛ كسباً أعظم من أية مكاسب مادية بحجة ، قد يبرزها - مصادفة - استئثار الدولة بدار سك النقود . ولقد جعل رسم صورة الإمبراطور على النقد ، للحكومة الإمبراطورية ، منزلة خاصة في عقول السكان اليهود الذين اعتبروا سيطرة روما عليهم باطلة ، بالإضافة إلى اعتبارها شريكاً بالرب وفقاً لما ورد بالوصية الثانية من الوصايا العشر التي يؤمن اليهود بأن ياهوى Yahweh (٢) قد كتبه على الألواح الحجرية بيده نفسه وسلمها إلى موسى . وها هي تلك الوصية واضحة :

« لا تكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت

(١) وارد بإنجيل مرقس ، أصحاح ١٢ آيات ١٣ - ١٧ ، وإنجيل متى أصحاح ٢٢ آيات ١٥ - ٢١ وإنجيل لوقا أصحاح ٢٠ آيات ٢٠ - ٢٥ .

(٢) اسم الإله عند اليهود ، ويعتقدون بأنه إلههم الخاص . (المترجم)

الأرض : لا تسجد لمن ولا تعبدن . لأنى أنا الرب إلهك ، إله غيور»^(١).

وحدث عام ١٦٧ ق . م . أن أقام الملك السلوقى ابيفانيس أنطيوخس الرابع فى قدس أقداس [معبد ياهوى بأورشليم ؛ أقام تمثالا لزيوس زعيم أرباب الأوليمب ، فبلغ ذعر اليهود وسخطه لدى رؤيتهم « الرجس المخرب »^(٢)] قائماً حيث لا ينبغى ،^(٣) مبلغاً من العنف جعلهم لا يهدأون حتى خلعوا عن كاهلهم كل أثر للحكم السلوقى . والمثل يقال وقتما هرب بونطيوس بيلاطيس عامل الحكومة إلى أورشليم أعلاماً رومانية عسكرية تحمل صورة الإمبراطور بارزة ، وقد أدخلها المدينة ملفوفة تحت جنح الظلام ؛ فكان رد الفعل الذى أظهره اليهود تجاه هذا الفعل من العنف ، بحيث أجبر بيلاطيس على انتزاع الشعارات من أماكنها ؛

على أن هؤلاء اليهود أنفسهم قد أذعنوا ، لا للتطلع فحسب إلى صورة الإمبراطورية الكريهة مرسومة على النقد ، بل قبلوا راغبين التعامل بها واستخدامها واكتسابها واختزانها .

وما لبثت الحكومة الرومانية أن أدركت أهمية العملة المتداولة تداولاً عاماً فى التوجيه السياسى :

« أحلت الحكومة الإمبراطورية محل الاعتبار منذ منتصف القرن الأول وما بعده ، وظيفة المسكوكات النقدية ، كمرآة للحياة المعاصرة من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والروحية ، واعتبرتها صدى طموح العصر الفنى ، وهذا ما لم يتح قبلها أو فى عهدها سوى لحكومات قليلة . بل إن الحكومة الرومانية قد وجدت فى المسكوكات النقدية ، إمكانيات فذة

(١) وارد بسفر الخروج ، الأصحاح العشرون - آيتا ٤ و ٥ . (الترجم)

(٢) الأصحاح الحادى عشر من سفر دانيال ، آية ٣١ والأصحاح الثانى عشر منه آية ١١

(٣) إنجيل مرقس الأصحاح الثالث عشر آية ١٤ .

هائلة ، تستخدم أداة للدعاية ، فعالة إلى أبعد مدى . ويقابلها في عصرنا الحاضر ، الوسائل الحديثة لنشر الأنباء وطرائق الدعاية المستحدثة ، من طوابع بريد إلى الإذاعة والصحافة . حيث تسجل الأنواع الطريفة والمتغيرة سنوياً وشهرياً . (بل ويمكننا القول يومياً) - تسجل تفاعل الأحداث العامة . وتعكس آمال من يسيطرون على الدولة ، وتوضح منحاهم التفكيرى » (١) .

(ح) الجيوش العاملة :

تباين الدول العالمية تبايناً هائلاً بالنسبة لدرجة حاجتها للجيوش العاملة :

فإن في وسع قلة منها ، الاستغناء عنها كلية (على وجه التقريب) . بينما عرفت دول أخرى أنها شر لا بد منه ، سواء أكانت جيوشاً متحركة أو حشوداً تقيم بمعسكرات ثابتة :

وكان على حكومات الدول العالمية هذه أن تصارع مشكلات نظم عسكرية عنيفة خطيرة ، مشكلات شاقة اضطلعت بمجابهتها وكانت عسيرة على الحل في بعض الأحيان . وليس في وسعنا التوقف لاستقصاء تلك المشكلات برمتها ، الأمر الذي يحدو بنا إلى قصر بحثنا في هذا القسم من دراستنا على واحد من عديد الموضوعات التي تدخل في نطاق موضوعه ، ألا وهو « تأثير الجيش الروماني على ارتقاء الكنيسة المسيحية » . ويعتبر هذا الموضوع أكثر موضوعات القسم أطرافة وأهمية ، بالإضافة إلى أنه أشد التصاقاً بالفكرة العامة التي يبحثها هذا الباب من دراستنا .

وليست الكنيسة المسيحية وحدها أدنى المنتفعين بالجيش الروماني وأشدهم

وضوحاً . فإن أشد المتفجرين هم - بصفة عامة - البرابرة والدخلاء الذين ينخرطون في سلك جيوش الإمبراطوريات المتحللة . وهذا ما تُنبئنا به الأمثلة التالية :

١ - تعبئة ملوك الإمبراطورية الأخيمينية (الفارسية) قوات متحركة مخترقة ، قوامها جنود يونانيون مرتزقة : هذه القوات يسّرت للإسكندر الأكبر غزو الإمبراطورية الأخيمينية .

٢ - استعانة الخلفاء العباسيين بحرس من الأتراك المتبربرين والسماح لهم بالانخراط في صفوف الجيوش العاملة ؛ قاد هذا إلى سيطرة البربرية التركية على الخلافة .

٣ - تكوين جيوش من البرابرة التوتون والسرماطين ، أدى إلى تسلطهم على المقاطعات الغربية للإمبراطورية الرومانية ؛

٤ - استعانة الدولة الوسطى في مصر بعناصر بربرية في جيوشها ، نجمت عنه سيطرة الهكسوس على البلاد .

وأكثر من هذا إثارة للعجب ، رؤية عقيدة دينية ترتدى دثاراً عسكرياً ، وأهم من ذلك أن تتقبل هذا الوضع عقيدة دينية ، تناهض تقاليدھا الروح العسكرية .

إذا عارض المسيحيون الأوائل الروح اليهودية التقليدية المحاربة ، مسيرين بكرائية وجدانهم لإراقة الدماء . ويرد منحاهم هذا إلى إيمانهم بقرب عودة المسيح منتصراً ، وأوحى إليهم إيمانهم أن يترقبوها صابرين . وظاهر أن نزعة الوداعة المسيحية تجافى تماماً مزاج العنف اليهودي . فإذا كان اليهود قد أشعلوا في بداية الأمر خلال الثلاثمائة سنة من عام ١٦٦ ق . م حتى عام ١٣٥ ميلادية ، سلسلة من الثورات ضد الحكم السلوقي . ثم تمردوا بعدها على السيطرة الرومانية ؛ نجد المسيحيين يصدفون عن

الثورة المسلحة ضد مضطهديهم الرومان طوال فترة تناهز على وجه التقريب المدة بين بعثة يسوع وإبرام الصلح والتحالف عام ٣١٣ م بين الحكومة الرومانية والإمبراطورية والكنيسة المسيحية .

على أن الخدمة العسكرية في الجيش الروماني ، كانت عقبة في بداية الأمر ، عقبة تحول دون تفاهم المسيحيين مع السلطات الرومانية . ذلك لما تحمله بين ثناياها من : إراقة الدماء في إبان الخدمة العاملة — إصدار أحكام الإعدام وتنفيذها — تلقي القسّم العسكرى الغير المشروط للإمبراطور — عبادة عبقرية الإمبراطور وتقديم القرابين إليها — توقيف الأعلام العسكرية واعتبارها أوثانا . وتضاف إلى ما تقدم عوامل أخرى .

ومصادقا للفكرة المسيحية ، حرّم الآباء المسيحيون الأوائل المتعاقبون الخدمة العسكرية في مؤلف نشر عقب إبرام سلام الإمبراطور قسطنطين : حرّمها أوريجين Origen وترتوليان Tirtulian ولاكتانتيوس Lactantius ؛ وما له دلالة أن تحريم الكنيسة المسيحية الخدمة العسكرية في الجيش الروماني ، قد تداعى وقتما كان التطوع الاختيارى ما يزال أساس تكوين الجيش الروماني . وتم هذا بالفعل قبل انقضاء مائة عام من إثارة الحكومة الرومانية الموضوع بإعادة دقلديانوس (حَكَمَ ٢٨٣ — ٣٠٥ م) مسألة تطبيق مبدأ الخدمة العسكرية الإجبارية تطبيقاً عملياً ، وكان ما يزال حتى ذلك الوقت حقاً نظرياً ، وكان إلى عام ١٧٠ ميلادية يتحاشى على ما يبدو إثارة المنازعات المتصلة به .

فكان المسيحيون الأوائل يحجمون عن التطوع في الجيش ، فإن حدث أن تنصر جندي وثني تتغاضى الكنيسة عن استكمال فترة خدمته وتأديته جميع الواجبات التي يتطلبها الجيش منه . ولعل الكنيسة قد سوغت هذا اللين بنفس الأساس الذي أجازت به البدع الأخرى مثل دوام الرق (حتى في الأحوال التي يكون فيها السيد والعبد من المسيحيين) ؛ ولإدراج رسالة

القديس بولص إلى فليمون في القانون الكنسى ، له مغزاه في هذا الشأن :
 وفي إبان القرن الثالث المسيحى ، أخذ المسيحيون يندمجون باطراد
 فى أوساط الطبقات السياسية المسئولة فى المجتمع الرومانى ، بفضل ارتفاع
 مركزهم الاجتماعى من ناحية ، وبتوفيقهم من الناحية الأخرى فى تنصير
 الطبقة العليا من المجتمع : فأمكنهم الإجابة - عمليا - عن السؤال الذى أبرزه
 أمامهم ارتفاع مكانة الجيش الرومانى ، دون أن يتمكّنوا قط من حل
 المشكلة على الصعيد النظرى وفقا لتعاليم المسيحية . ولم تنتظر إجابتهم العملية
 هذه ، تنصّر الدولة التى كان الجيش لسان حالها . ومصدقا لهذا الرأى ،
 أصبحت الكنيسة المسيحية فى جيش دقلديانوس من الضخامة وقوة النفوذ
 بحيث وُجّهت عملية اضطهاد المسيحية عام ٣٠٣ ميلادية إلى الجيش بصفة
 خاصة . وفى الواقع ، بدا أن نسبة المسيحيين فى الجيش بالمقاطعات الغربية
 أعلى من نسبتهم فى السكان المدنيين .

وأعظم من ذلك أهمية : تأثير الجيش فى الكنيسة فى عهد كان الحظر
 على الخدمة ، ما يزال ساريا . إذ تُبرز الحرب فضائل من البطولة العسكرية
 تقارب تلك الفضائل التى يُطلب إظهارها من اتباع العقائد الدينية المكروهة ،
 فلا بدع والحالة هذه أن يستخلص كثير من مبشرى مثل هذه العقائد
 الدينية ؛ ذخيرة لفظية زوّدتهم بها فنون الحرب ومعداتا ؛ وليس ثمة
 أوضح مما فعله القديس بولص .

وكانت الحرب وفقا للتقاليد اليهودية (وقد احتفظت بها الكنيسة
 المسيحية كجزء ثمين من تراثها الخاص) تنزل منزلة التقديس بالمعنى
 الحرفى والمجازى على السواء ، وإذا كان للتقليد العسكرى اليهودى تأثير
 أدبى عظيم ، فلما قد تبدى التقليد العسكرى الرومانى حقيقة واقعة دامغة .
 وإذا كان الجيش الرومانى أيام الجمهورية مكروها مرذولا (وهى أيام
 اتسمت بقسوتها إبان عصر الفتوحات ، وبخاصة ، الحروب الأهلية .

الرومانية) ، لكن جيش الإمبراطورية قد انتزع عنوة ، توقيع الناس وإعجابهم ، بل إنه استحوذ على محبة رعايا روما باعتباره تنظيماً عالمياً يوفر لهم الهدوء ، فأصبح موضع فخارهم الحق : ومرد ذلك الشعور ، وقوف جيش الإمبراطورية بم عزل عن التدخل في شئون الرعية وبمناى عن السلب والنهب ، بفضل تجمعه على الحدود يذود عن الحضارة ضد البرابرة ، عوضاً عن إلحاق الأذى بالجزء الداخلى المتحضر من العالم الهليني وتدميره :

« كتب كلمنت من روما حوالى عام ٩٥ ميلادية فى رسالته الأولى إلى أهالى كورنثو عن مسلك الجنود الذين يخدمون حكامنا : تأملوا التنظيم والرشاقة والطاعة التى بها ينفذون ما يؤمرون به : وليس جميعهم مندوبين أو حكاماً أو قوادا أو مختارين أو ضباطاً من رتب أقل من هؤلاء . لكن يعمل كل منهم جندياً فى وحدته ، ينفذ أوامر الإمبراطور أو الحكومة » .

وإن كلمنت إذ يمتدح لمناظريه المسيحيين النظام الحربى ، إنما يشدد تنسيق التنظيم الكنسى المسيحى على غرارهِ : فنجدهُ يقول : « إن الطاعة دين واجب الأداء على المسيحيين ، طاعة لا تقتصر على تأديتها للحرب ؛ ولكن لرؤسائهم الدينيين كذلك » : على أن الكنيسة المسيحية إبان تطورها انحصرت تصويرها الحسى للعسكرية فى شخصية المبشر واعتبرته « جندي الله » . وكان على المبشر أن يزيع عن كاهله عوائق الحياة الدنيوية ، وكان على جماعته وفقاً لرأى الكنيسة نفس الحق الذى يخول للجندي الحصول على مرتبه من الضرائب التى يدفعها الممول :

بيد أنه مهما يكن من أمر تأثير الجيش الرومانى على تطور النظم الكنسية ، فإنه فى هذا المجال أقل شدة من تأثير الخدمة المدنية الرومانية . على أن قدوة الجيش قد أثمرت نتيجه الأساسية فى محيط المُشَلِّ العليا :

إذ يجعل القديس سيبريان Cyprian من طقوس التعميد التي ابتكرتها المسيحية ، نظيراً للقسم العسكري الذي يطلب من المجند تأديته عند التحاقه بالجيش الروماني : فكان على المرید المسيحي عند انخراطه في جحافل المسيحية أن يشن حربه وفقاً للتعليمات ، وتتضمن : اجتناب جريمة الفرار من خدمة المسيحية (وهي جريمة لا تغتفر) ، وتكذب جنائية لا تقل عنها شناعة هي « التقصير في تأدية الواجب » . وكان الموت عند القديس ترتوليان جزءاً التقصير ، وهذا هو تكييفه العسكري لعبارة القديس بولس التي وردت في رسالته إلى الرومانيين . وسأرى القديس ترتوليان كذلك بين طقوس الحياة المسيحية والتزاماتها المعنوية من جهة ، وبين أعباء العسكرية من الناحية الأخرى : فيجده يعرف الصوم بأنه الكف عن السهر هنا وهناك . ويصف إنجيل متى القيد السهل بأنه « كتيبة الرب الخفيفة » .

وبالإضافة إلى ما تقدم عن تأثير الجيش الروماني في نظم الكنيسة المسيحية ، يكافأ جندي العقيدة على إخلاصه بعد تسريحه من خدمتها بـ « رضا الرب » : فإن افتقر إلى جزائه تعالى ، ففي وسعه أن يتطلع إلى حصص من هذا الجزاء ما دام موضع رضاه . واعتبرت المسيحية الصليب بمثابة « علم الجندية المسيحية » كما اعتبرت السيد المسيح « قائداً عاماً » لها . هنا بطالعنا حركة بارنج جوولد Baring Gould التي أشمها « إلى الأمام يا جنود المسيح » ، والجنرال بووث General Booth التي أطلق عليها جيش الخلاص . فإن كلتا الحركتين تتوازيان مع مشل الكنيسة في إبان عهدها الأول ، مع فارق أن الجيش الذي ألهم هذه المقارنة ليس جيشاً مسيحياً ، لكنه جيش كونه الإمبراطورية الرومانية وحافظت عليه في سبيل غايات تختلف عن التي قُصد من إنشائها جيشاً بارنج جوولد والجنرال بووث .

(ظ) الوظائف العامة :

تباين كل دولة عالمية عن الأخرى تبايناً واسع النطاق إلى أقصى حد ، من ناحية مدى إحكام تنظيم وظائفها العامة :

ففي الذروة من إجادة التنظيم ، نجد الحكومة العثمانية بما زودت به جهازها الإداري بجميع ما تستطيع الفراهة البشرية ابتكاره ، وما تنجزه العزيمة الإنسانية لتكوين الخدمة العامة . وليست الخدمة العامة في النظام العثماني مجرد زمالة في المهنة الواحدة ، لكنها باتت تسير وفقاً لتنظيم يماثل التنظيم الديني . ولقد كان القائمون على الخدمة العامة العثمانية يشكّلون جنساً قائماً بذاته يختلف عن الجنس البشري المألوف ويسمو عليه ، مثلاً تختلف السلالة الممتازة أو السلالة المنحطة من الحصان أو الكلب أو الصقر عن حياة تلك الحيوانات في إبان وحشيتها ، أي قبل مرورها بمراحل التدريب والاستيلاء . ومبعث هذا الاختلاف ، عنف التنظيم العثماني وشدة تزمته وانعزاله وقسوة تأثير الاشتراطات المفروضة على الالتحاق بالخدمة العامة .

وغالباً ما يجابه منشئ وظائف الدول العالمية العامة ، عقبة تقرير مصير الطبقة الأرستقراطية التي كانت تسيطر على الوظائف العامة في إبان عصر الاضطرابات السابق إقامة الدولة العالمية .

ويطالعنا من قبيل المثال : أرستقراطية موسكو — وكانت تتصف بالعجز — وقتما شرع بطرس الأكبر في صبغ بلاده بالصبغة الغربية . كما تطالعنا أرستقراطية الإمبراطورية الرومانية — وكانت تمتاز بالكفائية — وقت العصر الجمهوري المتأخر . فكان أن عمد كل من بطرس وأوغسطس إلى الاستثناء من أرستقراطية إمبراطورية وجعلها مادة الجهاز الإداري العثماني . لكن الدافع إلى اتخاذ هذا الإجراء ، قد اختلف بالنسبة للعاهلين : إذ سعى بطرس الأكبر إلى حمل طبقة من النبلاء اتصفت بالتمزق ،

على التحول إلى إداريين أكفاء على النسق الغربي . أما أغسطس فقد سلم بأشراك مجلس الشيوخ معه في الحكم ، لا بسبب حاجته إليه ؛ ولكن لاعتباره هذه المشاركة ، ضماناً يعصمه من الردى في مصير سلفه يوليوس قيصر على أيدي جماعة غاضبة من صفوة أعضاء طبقة جردها قيصر من سلطتها .

وبالتالي جابه العاهلان مشكلة معاملة أرستقراطية تنتمي إلى عصر سبق ظهورها تكوين الإمبراطورية ، ولكن مع اختلاف المنحى التفكيرى في كل حالة . وتعتبر المشكلة جماع ما جابه العاهلين من مشكلات ، وكانت كفيلة بالإطاحة بهما . فإن الأرستقراطية إن اتسمت بالكفاية ، تضيق ذرعاً بخدمة الإمبراطور لاعتقادها بأن خدمته تحط من اعتبارها : وإن افتقرت إلى الكفاية ، يجد الديكتاتور الذى يستخدمها قصورها عن خدمة أغراضه ، إذ يقابل انتفاء الضرر ، ببلادة الإحساس :

ولست الجماعات الأرستقراطية التى سبقت قيام الإمبراطوريات ، المادة الوحيدة التى مست إليها حاجة بناء الإمبراطوريات لشغل وظائفها العامة . فلو أنهم اقتصروا على تعبئة البلاد ، لأصبحت حكوماتهم جيوشاً تتألف من القواد دون الكتائب . وبالتالي ؛ يقتضى تكوين المجتمع ، توافر طبقة وسطى تتألف من القانونيين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف ؛ طبقة تقابل قادة الكتائب . كما يتطلب التنظيم الإدارى ؛ حشداً من الأفراد الثانويين ، يقابلون الجند في الجيش .

وفى بعض الأحيان قاد الحظ السعيد بُناة الدولة العالمية إلى الاستعانة بخدمات طبقة أبرزوها هم إلى الوجود لكفاية احتياجاتهم الخاصة . ويتبين هذا من بحث مآثر الخدمة البريطانية فى الهند ، ويصعب تفهم طابعها دون دراسة الأساس الذى سبق مباشرة تاريخ المملكة المتحدة الإدارى .

« يعتبر تقرير نظام التفتيش على المصانع وفقاً لقانون ١٨٣٣ ، مرحلة

نشوء نوع جديد من الخدمة العامة ، ، ولقد أثمر حماس بنتام^(١) Bentham لإحلال المعلم مكان العُرف ، ثمرة طيبة بوجه عام . وبالمثل ، أنتجت آراؤه في هذا المجال فكرة طريفة مدارها أن الإدارة عمل فني . وأبرزت إنجلترا إلى الوجود بفضل إلهامه ، جهازاً إدارياً يستند على التدريب والاستقلال في العمل . فكان أن امتاز الموظف الإنجليزي في صورته الجديدة بالمعرفة عكس قاضي المصالحات الفرنسي : ولم يكن الموظف الإنجليزي - مثل رصيفه الفرنسي - مجرد كائن يمت إلى الحكومة . . فلهذا تعلم الشعب الإنجليزي الانتفاع بالمتعلمين على نمط يصون استقلالهم ويحفظ احترامهم الذاتي . والمهنة الأساسية لهذه الطبقة في الوقت الحاضر ، إظهار فوضى العالم الصناعي الجديد . ولن يستطيع إنسان دراسة تاريخ الجليل الذي تلا إقرار قانون الإصلاح ، من غير أن يصطدم بالدور الذي أداه الأطباء والقانونيون ورجال العلم والأدب في عرض رزايا البرامج المستحدثة^(٢) .

ذلك كان معنى التأخى الذي نبت في نفوس الطبقة المتوسطة من الإداريين المحترفين التي ظهرت في الهند . ومنعروض في مناسبة أخرى في فصل تال ، لتقدير مؤهلاتها وعملها الفذ .

ومن مآثر أغسطس ؛ إبرازه إلى الوجود ، نمط جديد من الخدمة العامة ، للوفاء باحتياجات الدولة العالمية التي بات مسئولاً عن مقاديرها بعد أن أنهكت الحروب قواها وزعزعت أركانها . وبمائل هذا ما فعله في العالم

(١) بنتام : entham : جيري بنتام (١٧٤٨ - ١٨٢٢) : مؤلف إنجليزي في القانون والاقتصاد السياسي . كانت لكتابات في التشريعات الجنائية والمدنية أثرها العظيم في الإصلاحات الاجتماعية التي أدخلتها إنجلترا على قوانينها ، وتبعها في هذا المضمار دول كثيرة أخرى .

(المترجم)

Hammond Z. L. and Barbara : The Rise of Modern Industry. (٢)

الصيني بعد ذلك بمائة وخمسين سنة ، الإمبراطور هان ليو بانج Han Liu Pang . لكن إن حكينا على كفاية النظامين بمقياس الاحتمال والبقاء ، لألفينا مآثرة هذا الفلاح الصيني تصمد لعاديات الدهر زمناً يجاوز إلى حد بعيد الزمن الذي عاشته أفعال أوكتافيوس البورجوازي . فلقد تمزق النظام الذي وضعه أغسطس إرباً بعد انقضاء سبعة قرون من إقامته ، في حين استمر نظام ليو بانج سارياً - ولو في أضيق الحدود - حتى عام ١٩١١ ميلادية .

وفي الخدمة العامة في الحكومة الرومانية الإمبراطورية ؛ ينعكس الصراع بين الأرستقراطية القديمة التي كان يمثلها مجلس الشيوخ ؛ وبين الديكتاتورية الجديدة التي أوجدتها الإمبراطورية الجديدة ، وتتمثل في هذا الانعكاس ، نقيصة تلك الخدمة العامة . وإذا كان أغسطس قد نجح في التلطيف من حدة هذا الصراع ، لكنه لم يقض عليه تماماً ؛ وبالأحرى ؛ أصبحت هناك سلطتان منفصلتان انفصالاً قاطعاً مانعاً يتفرع عنهما نوعان للعمل على طرفي نقيض يسلك كل منهما (أى الموظفون الذين ينتسبون إلى الأرستقراطية القديمة والموظفون من أبناء الشعب) طريقه الخاص .

ولقد أمكن رأب هذا الصدع في إبان القرن الثالث الميلادي ، بفضل إقصاء الأرستقراطية القديمة عن جميع الوظائف الإدارية ذات المسؤولية . بيد أن اضمحلال الإدارة المحلية التي تتمتع بالحكم الذاتي ، قد ابتلع ذلك القدر من العمل الذي ألقي دقلديانوس نفسه مضطراً إلى تأديته رجاء تعزيز الخدمة الإمبراطورية العامة إلى أبعد مدى . واقتضى تحقيق هذا الغرض خفض المستوى الاجتماعي للمرشحين لتولي الوظائف العامة .

ويتباين تاريخ الخدمة العامة الرومانية مع تاريخ الخدمة العامة الصينية في عصر أسرة هان Han تبايناً يجعل منه دراسة ممتعة . فلقد ساد منذ بداية الأمر مبدأ إتاحة فرص العمل لكل موهبة بصرف النظر عن مكانة

صاحبها الاجتماعية . وذلك وقتما أصدر الإمبراطور نفسه عام ١٩٦ ق . م (أي بعد انقضاء ست سنوات منذ استعادته الأمن والنظام) قانوناً يدعو السلطات العامة بالأقاليم إلى اختيار مرشحين للخدمة العامة على أساس اختبار الجدارة ، ثم يبتعثون بعد ذلك إلى العاصمة فيُعَيَّنون بوظائف الحكومة المركزية أو يُرفضون .

واتخذت الخدمة الصينية العامة قالبها النهائي وقتما قرر الإمبراطور هان ووتى Han Wuti (حكم ١٤٠ ق . م - ٨٧ ق . م) خليفة الإمبراطور هان ليو بانج Han Liu Pang ضرورة توافر صفتين أساسيتين في المرشحين للوظائف العامة :

الأولى - البراعة في استعارة الأسلوب المأثور عن المنطق الكنفوشيوسى .
الثانية - الفراهة في تفسير الفلسفة الكنفوشيوسية ، تفسيراً ترضى عنه
جمهرة أدباء عصره من مدرسة كنفوشيوس .

ولو قيض لكنفوشيوس أن يُبعث حياً في القرن الثانى قبل الميلاد ، لأصابته الحيرة والدهشة من مشاركة مدرسته الفلسفية للنظام الإمبراطورى ، مشاركة تتسم بالبلاقة والمداهنة معاً .

وإنه وإن انتزعت من فلسفة كنفوشيوس السياسية عناصرها الأصلية ، لكنها أصبحت مصدر إلهام قوى لنمط الحياة القائم على النقابات المهنية^(١) .
وجدير بالذكر أن الآداب اليونانية القديمة لم تؤثر نفس التأثير في متعجى الحياة في الإمبراطورية الرومانية في إبان عصر دقلديانوس . ولكن إن انتفت الروح العلمية الحقيقية من الآداب اليونانية ، فقد زوّدت الدولة الرومانية بالمثل الخلقية التي كانت تفتقر إليها .

(١) مثل نظام الطوائف الذى كان يضم المشتغلين بالحرف المختلفة في اتحادات مهنية .

وبينما أوجدت كل من إمبراطورية هان Han والإمبراطورية الرومانية الخدمة العامة من واقع التراث الاجتماعي والثقافي ، عجز بطرس الأكبر بسبب طبيعة مشكلته ذاتها ، عن إنجاز شيء من هذا القبيل ؟ فلقد شيد خلال ١٧١٧ - ١٨ عددا من الكليات الإدارية لتعريف الروس بالأساليب الإدارية الغربية المستحدثة ، وسبق أسرى الحرب السويديون ليعملوا مدرسين ومدرسين ، وابتعث التلاميذ إلى كوينزبرج Königsberg البروسية لتلقى فنون التدريب على اختلافها .

وتتضح ضرورة اتخاذ تدابير خاصة لتدريب موظفي الدولة حيث تطبق نظم تستجلب من بقاع أخرى عن عمد وإصرار ، ويقتضى الحال اتخاذ هذا الإجراء بصورة أو بأخرى في جميع أنواع وظائف الدولة الأخرى .

ففي إمبراطورية الانكا والإمبراطوريات الأخمينية (الفارسية) والرومانية والعثمانية ، كانت الحاشية الملكية قطب الرchy في أعمال الحكومة ، كما كانت بمثابة معهد لتدريب القائمين على شئونها .

وكانت عملية تثقيف الحاشية الملكية ، تتم في طائفة من الحالات ، بإيجاد فصيلة من الوصفاء الغلمان^(١) ، وهم بمثابة تلامذة الصنعة ، (باستخدام الاصطلاحات المألوفة لدينا) :

فكان في بلاط إمبراطورية الانكا أسلوب محكم للتعليم يستند على إجراء اختبارات على مراحل متعاقبة .

وكان النبلاء في الإمبراطورية الأخمينية - وفقا لهيرودوتس - يلربون في البلاط الملكي منذ سن الخامسة حتى العشرين ، على ثلاثة أشياء هي : ركوب الخيل والصيد وقول الصدق ، ولا شيء غيرها .

(١) الوصفاء : جمع وصيف .

أما البلاط العثماني ؛ فكان يفرض في أيامه الأولى في بروسه ؛ شروطا لتتقيف الوصفاء الغلمان . وظل يتبع سبيلا باليا في تدريب موظفي الدولة ، إلى أن أنشأ السلطان مراد الثاني (حكم ١٤٢١ - ١٤٥١ م) في ادرينوبل (التي أصبحت عاصمة الدولة في إبان عصره) مدرسة لتتقيف الأمراء . على أن خليفته السلطان محمد الثاني (حكم ١٤٥١ - ٨١) استن أسلوبا جديدا في الإدارة العامة ؛ بتزويده جهاز حكومته ، لا بأبناء النبلاء العثمانيين المسلمين ، ولكن بالأرقاء المسيحيين وكانوا يشملون « الكفرة » أسرى الحرب من المسيحيين الغربيين وأطفال الجزية الذين كانوا يُجبرون من رعايا الباديشاه (أى من المسيحيين الشرقيين) . ولقد سبق وصف هذا النظام العجيب في موضع سابق من هذه الدراسة .

وعلى عكس السلاطين العثمانيين ، الذين تعمدوا توسيع نطاق نفوذ حاشيتهم الشخصية - وقوامها الأرقاء - بتحويلها إلى جهاز حكومي لإمبراطورية تنمو نموا مطردا على حساب مصالح رعاياهم من أحرار العثمانيين ؛ اتخذ الأباطرة الرومان إجراءات للحد من دور الرجال المحررين^(١) في الإدارة الإمبراطورية . لكن الظروف قد ألزمت الأباطرة بالاستفادة من حاشية قيصر على غرار المتبع في النظام العثماني . ومن ثم أمكن عتقاء قيصر في أيام الإمبراطورية الأولى ، السيطرة التامة على الشؤون الإدارية للحكومة المركزية . وكان ثمة خمس إدارات غير حاشية قيصر ، استطلت على مر الأيام فأضحت وزارات إمبراطورية . ورغمما من سيطرة الرجال المحررين على هذه المراكز الإدارية التي باتت يحكمها عليهم بحكم التقاليد ، أصبح وجودهم السياسي مستحيلا وقتما استبان أمرهم . ومصادقا لهذا ترتب على الفضايح التي ارتكبتها الوزراء المحررون ممن تمتعوا بسلطان مطلق في عهدى كلوديوس ونبرون ؛ ترتب

(١) أى الذين أُعتقوا من الرق . (المترجم)

عليها في عهد الأباطرة الفلافيين ، انتقال مراكز الدولة الرئيسية الواحدة بعد الأخرى إلى طبقة عرفت باسم « نظام الفرسان » التي تطورت إلى طبقة تجارية .

وهكذا رسخت مكانة الطبقة التجارية في تاريخ الخدمة الرومانية العامة على حساب دنيا الرقيق والأرستقراطية التي تنسب إلى مجلس الشيوخ ؛ ولانتصار هذه الطبقة على منافسيها ، ما يبرره من كفائتها وتماسكها ؛ وهما صفتان مكنتا أفراد هذه الطبقة من حسن تأدية واجباتهم . وإن بروز هذه الطبقة إلى الطليعة ، وبلوغها ونيلها الثراء ، وإدراكها مرتبة عالية من القوة ؛ (أيا ما تكون وسيلتها لذلك) بالابتزاز والربا وفرض الضرائب على الفلاحين ؛ ليعتبر أهم انتصار حققه نظام أغسطس الإمبراطورى .

وبالمثل ؛ استمدت الحكومة الهندية البريطانية موظفيها من طبقة تجارية ؛ ولقد نشأ هؤلاء الموظفون في بداية الأمر ، مستخدمين بشركة تجارية^(١) تهدف إلى اجتئاء الأرباح النقدية . وكان من ضمن دوافع قبولهم العمل بعيدا عن موطنهم في طقس لا يلائمهم ، ما يرجونه من تكوين ثروات يتيحها الاتجار لمنفعتهم الخاصة في البلاد النائية . وبفضل نصر سهل غاية السهولة ؛ تحولت — فجأة — شركة الهند الشرقية إلى ملك عريض له كل خصائص السلطان عدا اللقب ، ويبسط ظله على أغنى مقاطعات الإمبراطورية المغولية المنهارة . وانصاع موظفو الشركة — فترة قصيرة — لإغراء انتهاب الأرباح المالية الهائلة لأشخاصهم ، وأبدوا في هذا الشأن صفاقة تماثل ما أظهره الفرسان الرومانيون قبل ذلك بوقت طويل . وكما حدث في وقت الرومان ، حدث مثله في الإمبراطورية البريطانية في الهند ؛ فلقد تحولت عصبية من الأفراد الجشعين النهائيين إلى طائفة التحقت بوظائف

(١) شركة الهند التجارية الشرقية . (المترجم)

الدولة ، لم ينصرف اهتمام أفرادها إلى اجتناء المنافع الشخصية ، بل تساموا إلى اعتبار أن إدارة الجهاز السياسى الهائل (دون أن يسيثوا استعماله) موضع شرف وفخار .

ويعزى خلاص طابع الإدارة البريطانية فى الهند مما علق بها إلى عاملين :
الأول - قرار شركة الهند الشرقية تعليم موظفيها ، للاضطلاع بالمهام السياسية الجديدة التى أُلقيت على كواهلهم . ففى عام ١٨٠٦ ؛ افتتحت الشركة بقلعة هرتفور ، كلية يلتحق بها موظفوها المثبتون بخدمة شئون الشركة الإدارية . ونقلت الكلية بعد ذلك بثلاث سنوات إلى هايلبيرى .

وأدت خلال الاثنتين والخمسين سنة التى عاشتها دورا يذكره التاريخ .
الثانى - قرار البرلمان عام ١٨٣٣ غداة انتقال حكم الهند من الشركة إلى التاج البريطانى ، شغل الوظائف العامة مستقبلا بامتحان مسابقة . فلقد ترتب عليه فتح باب التوظيف لمرشحين يُستقون من ذلك الميدان الواسع : أى ميدان المنشآت الغير الرسمية ، كجامعات المملكة المتحدة ، وما يدعى بـ «المدارس العامة» التى كانت الجامعتان الإنجليزيتان العتيقتان تستمدان منها طلبتهما .

وأغلقت كلية هايلبيرى Haileybury أبوابها عام ١٨٥٧ ؛ وكان الدكتور أرنولد أوف رجبى Arnold of Rugby خلال أعوام وجودها الاثنتين والخمسين ، يروح ويجىء ؛ فى حين كانت مبادئه التى نافح عنها ، يذيعها معلمون بالمدارس العامة ، أوتوا نفس سعة الأفق الذهنى .

وهكذا ؛ حصل موظف الحكومة الهندية العادى فى غضون النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، على تدريب يقوم على معرفة دقيقة بما يدعوه الغربيون بـ « اللغات والآداب الكلاسيكية » . كما يستند هذا التدريب على روح مسيحية لم تكن لتقل فى عنفها ، عن تلك اللغات والآداب ، من ناحية ما يكتنفها فى غالب الأحيان من بلبلة وغموض . وقد يتأتى استخلاص

مشابهة «تصورية تماما» ، بين هذا التدريب المعنوى الأريب ، وبين تراث كنفوشيوس الصينى الكلاسيكى الذى كان يُطلب استيعابه من موظف الحكومة الصينية ؛ وهى حكومة تألفت قبل كنفوشيوس بألفى سنة .

* * *

إذا ما تحولنا الآن إلى بحث المستفيدين من الوظائف الحكومية التى تبرزها الدول العالمية إلى الوجود تحقيقاً لغاياتها الخاصة ؛ نجد لأول وهلة الدول التى تنقسم إليها الدول العالمية بعد انهيائها ، هى أكثر المستفيدين ظهوراً . ولهذا الدول المستخلقة من حس الإدراك ما يمكنها من الانتفاع بهذا التراث الثمين .

على أن الدول التى خلفت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، ليست أظهر المستفيدين ؛ ولا يخفى أن تلك الدول هى التى مزقت كيان الإمبراطورية الرومانية . فإن الكنيسة المسيحية هى أظهر المستفيدين من الخدمة العامة الرومانية ؛ وقد اقتبسته جزئياً ، ودفعة واحدة .

هنا تطالعنا حالة دولتى باكستان واتحاد الهند . إذ يتبين للمرء ، دون ضرورة لدراسة قائمة الدول المستخلقة المستفيدة من الجهاز الإدارى للدولة عالمية تفككت ؛ أن هاتين الدولتين هما اللتان استفادتتا من الخدمة البريطانية الهندية العامة .

وتصدق القاعدة على الدول العالمية الأخرى :

إذ يتبين بالبحث والاستقراء أن العقائد الدينية هى أعظم المستفيدين بالجهاز الإدارى الذى يتخلف عن انهيار دولة عالمية . وهذا ما استبان لنا وقتما تأسست السلطة الكهنوتية المسيحية على غرار التنظيم الإمبراطورى الرومانى . كذلك أتاححت الإمبراطورية الحديثة بمصر قاعدة مماثلة للعقيدة الدينية المصرية الجامعة تحت رئاسة كبير كهنة آمون رع فى طيبة .

كما زوّدت الإمبراطورية الساسانية بنفس القاعدة للديانة الزرادشتية :
 وكان مدار القاعدة في كل حالة : إنبعث كبير كهنة آمون رع
 في صورة فرعون طيبة ، ورئيس كهنة زرادشت (ويعرف بـ « الموباذ
 Mobadh) في هيئة شاهنشاه ساساني ، وبروز البابا في مشابهة للإمبرطور
 في عصر دقلديانوس .

على أن الجماعات الإدارية العلمانية قد أدّت للعقائد الدينية ، خدمات
 أشد ألفة وودا . خدمات أعظم من كونها مجرد مصادر لإعداد التنظيم
 النهائي . ذلك لأنها قد أثرت كذلك في منحها واتجاهاتها العامة .

وحدث في بعض الأحيان أن تم نقل هذه التأثيرات الثقافية والأدبية ،
 لا عن طريق القدوة والمثال ؛ ولكن بوساطة انتقال الشخص الذي تتجسد
 فيه تلك التأثيرات ، من المحيط الديني إلى المجال الديني .

وتطالعنا مصداقا لهذا الرأي ؛ ثلاث شخصيات تاريخية وجهته كل منها
 تطور الكنيسة الكاثوليكية في الغرب توجيهها حاسما ، وانحدرت جميعها من
 الخدمة الرومانية العامة .

١ - كان آمبروسيو Ambrosius (عاش حوالي ٣٤٠ - ٣٩٧ م)
 ابن موظف بلغ ذروة سلكه الإداري وقتما تقلد منصب حاكم مقاطعة الغال .

٢ - كان القديس آمبروز Ambroso في بداية الأمر يسير على منوال
 والده حاكما لمقاطعة ليغوريا وأيميليا Liguria & Aemilia ، وقتما أُخرج
 عنوة - وهو مذعور - من عمله المقرر الرسمي المضمون ، ودُفع دفعا إلى
 تولى أسقفية ميلان ، بفضل إرادة شعبية ، اختارته للمنصب ولم تعن
 بالحصول على موافقته .

٣ - أمضى كاسيودوروس Cassiodorus (عاش حوالي ٤٩٠ -
 ٥٨٥ م) الجانب الأول من حياته الطويلة جداً ، يدير إيطاليا الرومانية

بأمر من الملك ثيودوريك القوطى الغربى . ولقد أحال فى أيامه الأخيرة عقارا كان يملكه فى الريف الإيطالى فى أصبع شبه الجزيرة ، إلى دير رهبانى أصبح مكملا لمؤسسة القديس بندكت فى مونت كاسينو . وما كان فى مكنة مدرسة القديس بندكت الرهبانية تأدية رسالتها للمجتمع المسيحى الغربى الناشئ ، إلا بعد ما تزاوجت فى بداية أمرها مع مدرسة تنتسب إلى كاسيودوروس . سيما وكانت مدرسة القديس بندكت قد انقلبت ، تحت تأثير هيامها بالرب ، من مثالية فكرية ؛ إلى عمل عضلى شاق فى الحقول . واستلهمت مدرسة كاسيودوروس نفس الحافز (لاستكمال مهمة الاعتراف) ، من المخلفات الأوربية الكلاسيكية الوثنية ومحاكاتها ، بالإضافة إلى تقليد أعمال آباء الكنيسة ؛ ولقد اتسم هذا العمل بالمشقة الذهنية .

لأما عن جريجورى الكبير (عاش ٥٤٠ - ٦٠٤ م) فقد هجر الخدمة العامة الدنيوية بعد قضائه زمنا حاكما لإحدى مدن إيطاليا ، ويشابه فى ذلك كاسيودوروس . فكان أن حوّل قصر آبائه وأجداده فى روما إلى دير . وقاده ذلك خلافا لرغبته وعلى غير ما كان يتوقعه ، إلى صيرورته أحد صانعى البابوية .

وبالأحرى ؛ ألقى كل من هؤلاء الموظفين المدنيين وراء ظهره ، مهنته الأصلية ، فى سبيل خدمة العقيدة الدينية . وجلبوا إلى عقيدتهم كفايات وتقاليد اكتسبوها من خبرتهم فى إبان أعمالهم الحكومية .

(ى) حقوق المواطنين:

تنبعث الدولة العالمية - بصفة عامة - عن اتحاد يتم عنوة بين عدد من الدول الإقليمية المتنازعة . ومن ثم تنسم حياتها فى بداية أمرها بوجود فجوة عميقة بين الحاكمين والمحكومين :

ففى جانب ؛ تقف الجماعة التى شيدت الإمبراطورية . وتمثل أقلية

مسيطرة تخلّفت عن صراع طويل الأمد في سبيل البقاء ، بين حكام الجماعات المحلية المتنازعة في العصر السابق .

ويقف في الجانب الآخر ، السكان المغلوبون على أمرهم .

ومن الأساليب المألوفة ؛ أن يتسع بمرور الوقت ، نطاق ذلك الجزء من السكان الذين تم تحرّهم فعلا ؛ بفضل انضمام أعداد متزايدة من الأغلبية المحكومة ، إلى صفوف الطبقة الحاكمة . على أنه من غير المألوف مواصلة هذه العملية سيرها ، إلى أن تتمكن في نهاية المطاف من إزالة الانقسام الذي نشأ منذ البداية بين الحاكمين والمحكومين .

وثمة في العالم الصيني حالة استثنائية ظاهرة استكملت فيها عملية التحرر السياسى مقوماتها ، وتمت في غضون ربع قرن من إقامة الدولة العالمية . فإن الدولة العالمية الصينية قد تألفت إبان أعوام ٢٣٠ - ٢٢١ ق . م عن طريق ظفر دولة تسين Tsin . ويتأق من عام ١٩٦ ق . م . تأريخ التحرر السياسى لشعب الدولة العالمية الصينية بأسره ، وإن امن تحصيل الحاصل القول بأنه ما كان في وسع هذه المأثرة السياسية أن تحول بضربة واحدة ، الكيان السياسى للمجتمع الصينى من جانبيه الاقتصادى والاجتماعى . وبالأحرى ؛ لبث ذلك المجتمع يتألف من جمهرة من الفلاحين دافعى الضرائب ، تعول طبقة صغيرة العدد من الحكام المميزين . على أنه بعد ما تحقق التحرر السياسى ، بات باب هذه اللجنة الحكومية الصينية مفتوحا على مصراعيه أمام الموهبة ، بصرف النظر عن مركز صاحبها الاجتماعى ،

ولن يتيسر توحيد شطرى المجتمع (وهو ما يبرزه إلى الوجود تفاعل القوى التاريخية إبان عملها الطويل الأمد) بمجرد إصدار تشريعات المساواة القضائية . ويطالعنا في هذا الشأن مثالان بارزان في كل من الإمبراطوريتين البريطانية في الهند ، والإسبانية في جزر الهند الغربية . إذ لم يكن للمساواة القضائية التى قررتها تشريعات الدولة أثر ذا بال في تضيق هوة الاختلافات

الاجتماعية بين رعايا التساج في الحالتين : بين الأوربيين والآسيويين الأوربيين^(١) والآسيويين في الهند البريطانية ، وبين الأوربيين والخلاسيين^(٢) والهنود في جزر الهند الغربية .

على أن ثمة حالة ، مأثورة تمت فيها بنجاح ، إزالة الهوة الاجتماعية القائمة بين الحاكمين والمحكومين ، بفضل إنغمار الأقلية المميزة تدريجيا في كتلة رعاياها السابقين . نجد تلك الحالة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية . وها هنا كذلك لم تنتشر زبدة المساواة السياسية بمجرد التشريع القاضي بإضفاء صفة المواطن الروماني على رعايا الإمبراطورية . فإنه وإن ترتب عن إصدار مرسوم « كاركالا » عام ٢١٢ م ، صيرورة جميع سكان الإمبراطورية — خلا استثناءات لا يوثب لها — مواطنين رومانيين ؛ إلا أن الحال تطلبت في إبان القرن التالي ، نشوب ثورة سياسية واجتماعية لكفالة حقوق المواطنين عمليا ، مثلما هي مكفولة نظريا بمقتضى نصوص القانون .

وفي أيام دقلديانوس ؛ أصبحت الكنيسة الكاثوليكية بالطبع ، هي المستفيد الأخير من مذهب المساواة التشريعية ؛ وهو ما اتجهت إلى تطبيقه الإمبراطورية الرومانية في إبان ما يعرف بعصر الزعامة^(٣) . فلقد استعارت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية عن الإمبراطورية الرومانية فكرتها العبقريّة عن الرعوية المزدوجة . وهى ابتكار دستوري مكّن الكنيسة من حل مشكلة التمتع بمنافع الانتساب إلى جماعة علمانية^(٤) ، دون أن تضطر إلى نذر روابط الولاء المقررة التي تربطها بالهيئة الدينية ، أو تقتلع جذورها .

(١) أى ذلك الفريق من سكان الهند الذى نجم عن تزواج بين الأوربيين والهنود .

(المترجم)

(٢) الخلاصى الهندى Creole : أجنبى مولود في جزر الهند الغربية . (المترجم)

(٣) أى العصر السابق لإمبراطورية دقلديانوس . وقد استخدمه أغسطس الذى استخدم

لقب زعيم Princes . ومعناه زعيم المجلس (أى مجلس الشيوخ) .

(٤) أى أساسها غير دينى . (المترجم)

ومصادقا لهذا الرأى ؛ كان جميع مواطنى الإمبراطورية الرومانية (عدا عدد صغير من الناس يقيم بالعاصمة فعلا) فى إبان عصر الرعامة (وهو العصر الذى ازدهرت الكنيسة الكاثوليكية داخل إطاره) مواطنين كذلك لسلطة محلية ، من نوع ما . وهذه السلطة بمثابة « دولة مدينة » تتمتع بحكم ذاتى فى نطاق التنظيم السياسى للدولة الرومانية ؛ ومثلها فى ذلك مثل دولة المدينة المألوفة فى العصر الهلنى . وارتبطت هذه المدن المحلية بالحكومة العامة ، ارتباط الأم بأولادها .

وهكذا ؛ استطاعت الجماعة الدينية المسيحية أن تنتشر وتزدهر متخذة طابعا علمانيا أقامته الدولة الرومانية فى بداية أمرها ؛ وقوامه نظام يتجه بالولاء لكل من تنظيم الدولة العام والسلطة المحلية . فأصبح ولاء المسيحى الكاثوليكي - والحالة هذه - يتجه إلى الجماعة المسيحية الكاثوليكية فى بيئته الجغرافية المحدودة (أى المدينة) ؛ ويتجه من ناحية أخرى ، صوب الجماعة الكاثوليكية التى تضم بين جنباتها تلك الجماعات المسيحية المحلية التى يجمع أشنتها التجانس فى الطقوس وتمثل المذهب الدينى .

الأديان العالمية

الباب الرابع

الفصل السادس والعشرون

آراء بديلة للعلاقة بين الأديان العالمية والحضارات

١ - الأديان سرطانات

تبين لنا نزوع الدين العالمى إلى الظهور فى عالم الوجود ، إبان عصر اضطرابات تال لإنهيار الحضارة . كما بدا ترعرع الدين العالمى ، ضمن نطاق الدولة العالمية التى تتولد عن لإنهيار تلك الحضارة .

وفى الفصل السابق من هذه الدراسة ؛ استبان لنا كذلك ، أن الأديان العالمية كانت أول المتفعين بالنظم التى تقيمها الدولة العالمية . فلا يستغرب إذن ؛ أن يضيق ذرعاً حماة الدولة العالمية التى آذن يُمنها بالزوال ، بوجود ديانة عالمية داخل حشاها . فالراجع والحالة هذه ؛ أن يصبح الدين من وجهة نظر السلطان ومعاونه ؛ سرطانياً اجتماعياً ، هو المسئول عن تحلل الدولة .

ويطالعنا فى حالة تحلل امبراطورية الرومانية ، ذلك الاهتمام الذى ظل يشد ، منذ الهجوم الذى شنه سلسوس Celsus حوالى نهاية القرن الثانى الميلادى حتى بلغ ذروته فى غرب أوروبا ، وقما كانت الإمبراطورية تعاني سكرات الموت . ولقد فاض قلب رويتليوس ناماتيوس عام ٤١٦ م بشعور الكراهية ضد الكنيسة المسيحية ؛ فى كلمات عبر بها عن شعور هذا الشاعر العنيد المخلص لروما الامبراطورية ، والذى انحدر من بلاد الغال ؛ وأطلقها وقما شاهد المنظر الحزن للجزائر المهجورة التى استعمرها — أو على حد تعبيره — إبتليت بالمسيحيين :

الآن إذ نتحرك ، تنتشل كابراريا نفسها

من البحر ؛ تتلطح الجزيرة وتزخر
 برجال يعرضون عن الضياء . لأنهم يرسمون أنفسهم
 رهبانا بأسماء يونانية ؛ لأنهم يبتغون
 العيش منفردين ، لا يلحظهم لإنسان ؛ لأنهم يرهبون
 عطايا القدر بينما يخشون رزاياه ؛
 أليس من يتنكب الألم يؤثر حياة الألم ؟
 فأى عقل ملثا يتعلق بهذا المبدأ
 أكونه يخشى الشر ، بأبى الخير كله ؟
 وقبل أن تنتهى رحلة روتيلوس ، كابد رؤية منظر أشد قتاما ؛ منظر
 جزيرة سبق أن أسرت لب مواطن من مواطنى الشاعر ، فقال فيها :
 تنهض « جورجون » وسط البحر ، وقد أحاط بها الموج من كل جانب
 بينما انتصبت بيسا وسيرنوس على الجانبين
 أعرضت عن الشواطئ الصخرية ، وكأنها نصب
 لكارثة قريبة العهد . فإن واحدا من نفس جنسى
 أفناه هنا ميت حى ^(١) . إذ قد حدث أخيرا
 أن شابا كريم المحتد ينتمى إلى أمتنا ، شابا
 لا يعوزه الحسب ولا النسب ،
 انساق وراء الخبل ، والجنس البشرى وفكرة هجران الدنيا
 وأنه كطريد خرافى مجد فى أثر
 مكان خفى معيب . إن الصعلوك السيئ الطالع
 قد ظن أن القبس الإلهى يتحقق له بفضل الخصبات النتنه
 وبفضل تعذيبه حياته بالجلدات القاسية

(١) الميت الحى : يقصد به السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

وهذا أفدح مايتصور وقوعه للآلهة الغضبي .

أليست هذه الطائفة^(١) أضعف فعالية من عقاير سيرس^(٢) ؟

إنها ترمز إلى تحويل الأجسام لكنها أخذت الآن تحول العقول ؛

ومن خلال هذه السطور ؛ لاتزال تبدو روح أرستقراطية وثنية خامدة .
رأت في إعراض الناس عن العبادة التقليدية للآلهة الهلينية ، علة دمار
الإمبراطورية الرومانية .

وقد أثارت هذه الخصومة بين الإمبراطورية الرومانية المتداعية والكنيسة
المسيحية الناهضة ، قضية لم تهز مشاعر معاصري هذه الأحداث ممن أعناهم
أمرها عناية مباشرة وحدهم ؛ بل لقد هزت أيضا مشاعر أعقابهم الذين
يتدبرون ذلك الحديث ؛ بعد أن فصلت بينهم وبينه هوة سحيقة من الزمن .

فإن جيون بعبارته « لقد وصفت انتصار البربرية والدين » لم يقتصر
بتلك الكلمات الخمسة على تلخيص الواحد والسبعين فصلا من كتابه فحسب ؛
لكنه نصب نفسه مؤيدا لسلسوس وروتيلوس ؛ وعنده أن ذروة التاريخ
الهليني الثقافية - وهي عصر الأنطونيين - تبرز واضحة المعالم ، عبر فترة
قدّر لها ستة عشر قرنا ، يتداخل بعضها البعض الآخر . وتمثل هذه الفترة
عند جيون « حوضا ثقافيا » . وقد دأب جيل أسلاف « جيون » في العالم
الغربي على الاعتراف من هذا « الحوض الثقافي » . وكان مقام ذلك الجيل ،
على منحدر جبل ؛ تلوح عند قدمه ، ذروة الماضي الهليني التي تماثل الجبل
في الارتفاع ، وتبدو للعيان مرة أخرى بجلالها وروعها .

إن هذا الرأي الذي تبدى في مؤلف المؤرخ جيون ، قد بسطه في

(١) أى المسيحية . (المترجم)

(٢) يذكر هوميروس في الأوديسية أن سيرس كانت تسكن إحدى جزر بحر إيجه
وكانت تعطي الرجال الذين يقعون في قبضتها عقارا يحيلهم إلى خنازير . لكنها عجزت عن
تحويل أوديسيوس (عوليس) إلى خنزير بفضل عقار زوده به الرب هومس وتغلب به
على مفعول عقار سيرس . (المترجم)

حذق وجلاء ، عالم من علماء القرن العشرين ، ضليع في علم أصول الإنسان ؛ عالم لا يقل في قدرته العلمية عن جيون :

« إن العقيدة الدينية للأم العظمى ، مع ما تتضمنه من مزيج من همجية فجّة ونزعات روحانية ، ليست إلا واحدة من المعتقدات الشرقية المتشابهة العديدة التي ذاعت في أرجاء الإمبراطورية الرومانية خلال أيام الوثنية الأخيرة . واستطاعت عقيدة الأم العظمى هذه تمزيق أوصال الحضارة القديمة كلها بتلقيح الشعوب الأوروبية بآراء غريبة عن الحياة » .

« فلقد قام المجتمع اليوناني - الروماني ، على فكرة خنوع الفرد للجماعة ، وسيطرة الدولة على المواطن . وتجعل هذه الفكرة سلامة الجماعة مناط السلوك وهدفه الأسمى ، وتؤثرها على سلامة الفرد ؛ سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة . وإذ كان المواطنون قد نُشئوا منذ نعومة أظفارهم على اعتناق هذا المثل الإيثاري الأعلى ، فقد كرسوا حياتهم للخدمة العامة وكانوا على استعداد للتضحية بها في سبيل الصالح العام . بل إنهم إذا قدر لهم أن يجمعوا عن بذل أسمى التضحيات ؛ فلا يخطر لهم على بال قط ، أن يتصرفوا تصرفاً يوحى إلى الذهن بتفضيلهم منفعتهم الذاتية على مصالح وطنهم » .

« على أن انتشار الأديان الشرقية وذبوع تعاليمها ، قد غير هذا الطابع بأشده . ذلك بما تغرسه في نفوس أتباعها عن اتحاد النفس بالله ، ومما تبثه فيهم من اعتبار الخلاص السرمدي ، المأرب الفرد الجدير بتكريس المراء حياته من أجله . ومقابل هذا ؛ أصبحت مسألة ازدهار الدولة ، بل وحتى وجودها ؛ في أدنى درجات الأهمية والتقدير . وانبثت على هذا المذهب الأناني اللاأخلاقي ، نتيجة حتمية مدارها عزوف مريدي العقيدة الدينية أكثر فأكثر عن الخدمة العامة ، وتركيز أفكارهم على الانفعالات الروحية . كما تملكتهم فكرة احتقار الحياة ، واعتبارهم إياها مجرد تدريب وإعداد لحياة أخرى ، خير وأبقى . إن القديس والناسك ، إذ يترفعان عن الأرض ويسبحان في ملكوت

«التأمل الوجداني ؛ يستحيلان في أعين جمهرة الناس إلى أسمى أنموذج للبشرية .
فيحلان بذلك محل المثل الأعلى القديم للوطني وللبطل ، ويتناسى كل منهما
نفسه ويعيش مستعداً للموت في سبيل وطنه . ومن ثم بدت الحياة الدنيا في
أعين أولئك الرجال الذين تتعلق أبصارهم بالآخرة ، تفد إليهم من خلال
سحب السماء » .

« فكان أن انتقل مركز الثقل — كما يقال — عن الحياة الحاضرة إلى الحياة
المستقبلية . وأنه مهما حصلت عليه الدار الآخرة من أتباع ، فلا شبهة في أن
الحياة الدنيا قد خسرت بهذا التطور ، خسرانا مبيناً . فقد بدأ تفتت عام في
الكيان السياسي ، وانحلّت عرى الدولة والأسرة ، ومال بناء المجتمع إلى تحليله
إلى عناصره الفردية . وقاده ذلك إلى الارتداد إلى البربرية . لأن الحضارة
لا تقوم إلا بفضل تعاون المواطنين الفعّال وحرصهم على إخضاع مصلحتهم
الخاصة للصالح العام . ومن ثم صدف الناس عن وطنهم ، بل لقد عزفوا
عن الرغبة في استمرار نوعهم على الأرض . وارتضوا — في قلقهم على إنقاذ
أرواحهم وأرواح غيرهم من الناس — ترك العالم الدنيوى يهلك من حولهم ،
وقد قرنوه بالشر . واستمرت هذه الفكرة تسيطر على عقول الناس ألّف
سنة . ثم كان إحياء القانون الرومانى وفلسفة أرسطو والفنون والآداب
«القديمة» في خواتيم القرون الوسطى ؛ إيلدانا بعودة أوروبا إلى مُثُل حياتها
العليا وسلوكها القويم ، وإلى أفكار أصحّ وأقرب إلى دنيا البشر .

« وهكذا انقضى التوقف الطويل الذى كابدته الحضارة ، وانحسر
أخيراً مد الغزو الشرقى ، وما يزال في انحسار متصل » (١) .

(١) انظر صفحات ٢٥١ - ٣ ، Frazer, Sir, J. G. : The Golden Bough,

Adonis, Attis, Osiris : Studies in the History of Oriental Religion.

ويسلم المؤلف في إحدى حواشى كتابه بأن انتشار العقيدة الشرقية لم يكن

السبب الوحيد في سقوط الحضارة القديمة .

وكان ما يزال فى انحسار وقت كتابة هذه السطور عام ١٩٤٨ . وإن الكاتب الحالى^(١) ليتساءل عما قد يقوله باحث دقيق قيّضت له وقتئذ مراجعة كتاب « الغصن الذهبى »^(٢) لطبع طبعة رابعة ، بعد انقضاء واحد وأربعين سنة من نشره ، عن بعض الأساليب التى تبدّت بها عودة أوروبا إلى المُثُل العليا للحياة . ولقد دلل فريزر ومعاصروه ممن هم على شاكلته العقلية ، على أنهم جيل آخر من الوثنيين الغربيين المحدثين ؛ جيل ينتسب إلى مدرسة فكرية ظهرت فى بداية أمرها بإيطاليا إبان القرن الخامس عشر الميلادى واتسمت بالتعقل والتسامح . بيد أنه لم يحل عام ١٩٥٢ ، حتى اكتسحتها من هذا المجال مدرسة شيطانية من الأخلاف ؛ سيطرت عليهم عناصر الشيطنة والعنف والانفعال ؛ انبتقوا من غور مجتمع غربي علماني . إن كلمات فريزر قد رددتها بعده برنين آخر ، صوت ألفرد روزنبرج Alfred Rosenberg . على أن الحقيقة واحدة ؛ ومدارها أن روزنبرج وفريزر إنما كانا يعرضان موضوعا واحدا ، يتطابق بدوره مع ما عرضه جيون قبلهما :

وفى موضع سابق من هذه الدراسة ، دللنا بالتفصيل على أن سقوط المجتمع الهليني قد حدث فعلا قبل مكابדתه — بفترة طويلة — تطفل المسيحية أو أية عقائد شرقية أخرى عليه ؛ وهى العقائد التى أخفقت فى منافسة المسيحية . وانتهى بالفعل المطاف بأبحاثنا إلى نتيجة مؤداها أن الأديان العليا ، ليست هى المسئولة عن هلاك أية حضارة من الحضارات . بيد أنه مهما يكن أمر هذه النتيجة ، ما يزال أماننا احتمال صدق إتهام الأديان العليا بأنها سبب هلاك الحضارات .

ويقتضينا الوصول إلى غور المشكلة ، أن ننقل بحثنا من مجال « الكون الكبير » إلى مجال « الكون الصغير » ؛ أى من وقائع التاريخ الغابر إلى الخصائص الدائمة للطبيعة البشرية .

(١) أبى الأستاذ توينبى .

(٢) الكتاب الذى اقتبس منه المؤلف عباراته السالفة الذكر . (المترجم)

وقوام فكرة فريزر ، أن الأديان العليا هي مصابة - بالضرورة -
بداء عضال ، هو مناهضة الحياة الاجتماعية .

فلو فرض تحول الاهتمام البشرى من المُثُل العليا التى تهدف لتحقيقها
الحضارات ، إلى المُثُل العليا التى تسعى لبلوغها الأديان العليا ؛ فهل يعنى
هذا بالضرورة أن تكابد القيم الاجتماعية التى تظاهرها الحضارات ؟
وإذا كان خلاص النفس البشرية هو هدف الحياة الأسمى ، فهل يتطلب
ذلك تقويض البناء الحضارى ؟

يرد فريزر على السؤالين بالإيجاب . ولو افترضنا صحة إجابته ، لكان
معنى هذا أن الحياة البشرية مأساة لا خلاص منها . ولكن كاتب هذه السطور
يرى أن إجابة فريزر خاطئة ، وأنها تقوم على فهم مبتسر لطبيعة الأديان
العليا وللنفوس البشرية على السواء .

فالإنسان ليس نملة خالية من الأنانية ، كما أنه ليس سيكاوبس^(١)
(عزوف عن المجتمع) . ولكنه « حيوان اجتماعى »^(٢) ؛ لا تجد شخصيته
مجالها فى التعبير والارتقاء إلا بإقامتها علاقات مع شخوص أخرى . أما المجتمع
نفسه ؛ فليس إلا المنطقة المشتركة بين شبكة العلاقات للفرد وشبكة العلاقات
للفرد الآخر . ومن ثم لا وجود لمجتمع ، إلا فى مناحى نشاط الأفراد الذين
لا يتأتى لهم بدورهم وجود إلا فى مجتمع .

وبالمثل ؛ ليس ثمة تنافر بين علاقات الفرد بزملائه ، وصلته بالله . وإنما
لنجد فى الإلهام الروحى للإنسان البدائى ، تضامنا بين عضو القبيلة وآلهته .

(١) السيكاوبس : جبار خرافى يعين واحدة . ويذكر الشاعر هوميروس فى الإلياذة
أنه كان يعيش وحيداً منقطعاً عن العالم على أحد شواطئ ليبيا . (المترجم)

(٢) عبارة تعزى إلى أرسطو وتعنى أن الإنسان اجتماعى بطبعه لا يمكنه العيش إلا فى
مجتمع . (المترجم)

وهو تضامن لا يؤدي بحال من الأحوال إلى ابتعاد رجال القبيلة بعضهم عن البعض الآخر ، بل إنه ليعتبر أقوى الروابط الاجتماعية التي تؤلف بينهم . ولقد استقصى فريزر نفسه — كما فسر — آثار هذا التوافق في الحياة البشرية البدائية بين واجب الإنسان تجاه الله ، وواجبه نحو أخيه الإنسان . وتقدم الحضارات المتحللة ، الدليل على صحة هذا القول ، حين تنشُد رابطة مستحدثة للمجتمع عن طريق تأليه حكامه .

فهل تحوّل « الأديان العليا » التوافق إلى تنافر ، على حد ما يذهب إليه فريزر ؟

تبدى الشواهد سواء من الجانب النظرى أم العمل ، أن الإجابة على هذا السؤال بالنفى .

ويستبين لنا من بحث الموضوع منذ بدايته الأولى ، أن الشخصيات لن تصبح قابلة للفهم إلا إن نُظر إليها باعتبارها أدوات للنشاط الروحاني . ولا يمكن تصور النشاط الروحاني كامناً في شيء ، إلا في العلاقة بين الروح والروح . والإنسان إذ ينشد له إلها ، إنما يؤدي فعلاً اجتماعياً . ولما كان حب الله قد تحوّل في هذه الحياة الدنيا إلى « فعل » بفضل إفتداء المسيح للبشر ، فإن جهود الإنسان ليكون وضعه أقل ما يمكن اختلافاً عن الله الذي خلق الإنسان على صورته ، يجب أن تتضمن جهوداً للاقتداء بالمسيح في تضحيته بنفسه لافتياء رفاقه الآخرين .

وينبئ على هذا التحليل فساد الرأى القائل بوجود تعارض بين محاولة المرء تخليص نفسه بالالتجاء إلى الله ، وسعيه للقيام بواجبه تجاه جاره . وفي هذا يقول السيد المسيح^(١) :

« أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل روحك ومن كل فكرك .

هذه هي الوصية الأولى والعظمى . والثانية قبلها أحب جارك كما تحب نفسك » :

وواضح أنه في ظل عقيدة المجاهدة على الأرض ، تتحقق الغايات الاجتماعية الطيبة للمجتمعات الدنيوية بتوفيق أعظم كثيراً مما تتحقق في مجتمع دنيوى يرمى إلى تحقيق هذه الأهداف مباشرة ، ولا يتطلع إلى ما هو أسنى من ذلك ، وبتعبير آخر ؛ إن الارتقاء الروحانى للنفوس البشرية في هذه الحياة ، يحمل معه - حقاً - تقدماً اجتماعياً أعظم بكثير مما يتحققه باستخدام طريقة أخرى . وفي الاستعارة التى استخدمها « بونيان » ؛ يعجز « الحاج » عن العثور على مدخل البوابة الذى يؤدى إلى الحياة المتسمة بالسلوك الطيب ، حتى أبصر بعيداً عنها كثيراً « الضياء المتألق » يسطع من وراء الأفق^(١) .

وإن ما أكدناه هنا بشأن « المسيحية » يمكن تطبيقه على سائر الأديان العليا ، فإن جوهر المسيحية هو جوهر الأديان العليا بصفة عامة . على أن هذه المنافذ المختلفة التى منها ينفذ شعاع الله المضيء إلى نفس الإنسان ، قد تبدو للأعين المختلفة متباينة في درجة الشفافية ، أو في نوع الأشعة التى ترسلها ؛ فإن انتقلنا من مجال النظريات إلى التطبيق العملى - من طبيعة الشخصية البشرية إلى سجل التاريخ - كان جهدنا يسيراً جداً في التدليل على أن

(١) لاشبهة في أن حج كريستيان (في قصة بونيان السالفة الذكر) ومرافقه الوارد بالقسم الأول من فصل « ارتقاء الحاج » ، يعتبر عملاً يمكن أن ندعوه بالفردية المقدسة . لكن يتم تصحيح هذه الفكرة الناقصة بالقسم التالى ، ويصبح لدينا مجتمع من الحجاج يتزايد عددهم باستمرار . ولا يقتصر رحيلهم إلى غايتهم الروحية ، لكنهم يقدمون خدمات اجتماعية دنيوية لمن يقابلهم في طريقهم . ولقد أوحى هذا التعارض إلى المسيو نوكس Knox في كتابه « لعبة الروح Jev d'esprit » بما جعله يرتق بنظريته فيقرر بأنه وإن سلم بأن القسم الأول هو من عمل بونيان المتطهر ، لكن القسم التالى من الكتاب قد نسب إلى بونيان خطأ . إذ يتم أسلوبه على أنه بقلم سيده إنجليزية كاثوليكية تقيّة .

رجال الدين قد خدموا حقاً احتياجات المجتمع العملية . فإذا كان علينا أن نذكر أسماء من قبيل : القديس فرانسيس من آسيسى ، القديس فنسنت دى-بول ، جون واسلى أودافيد ليفنجستون ؛ فإننا قد نُنْهَم بالتدليل على شيء لا يفتقر إلى دليل ؟

ومن ثم سنسرد طائفة من الناس ، مستثناة من تلك القاعدة . إنهم قوم تملكهم نشوة الإله فعاشوا مدبرين ظهورهم للمجتمع . فهم يتمتعون بالقداسة ؛ لكنهم يبعثون على السخرية . وإن الفرد من تلك الطبقة هو كما يصفونه ؛ رجل طيب بأسوأ ما تعنيه تلك الكلمة . ومن أولئك النساك المسيحيين : القديس أنطونيوس فى صحرائه والقديس سمعان على عموده^(١) .

وواضح أن هؤلاء القديسين إذ يعتزلون الناس ، يعقدون صلوات أعظم نشاطاً وأرحب ساحة كثيراً مما لو استمروا « فى الدنيا » وأنفقوا حياتهم عاملين فى حرفة من حرف الدنيا . لقد هيمنوا — من عزلتهم — على العالم بأشد مما يستطيعه إمبراطور من عاصمة ملكه . ذلك لأن سعيهم الشخصى وراء القداسة عن طريق نُشْدانهم الاتحاد مع الله ؛ يعتبر شكلاً من العمل الاجتماعى ، يحرك الأفراد بقوة أعظم من أية خدمة اجتماعية علمانية على الصعيد السياسى .

« لقد قبل فى بعض الأحيان أن التَّسَلَّك المثلِّى فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، هو الاعتزال التام عن دنيا الناس . وقد يستدل من سيرة « جون الملَّقب بمانح الصدقات » ، لِمَ كان اليزنطى فى ساعة الشدة ؛ يولى وجهه بالسليقة — التماساً للنعون والسلوى — شطر الناسك ، وهو واثق تمام الثقة

(١) وإليه تنسب طائفة العموديين الذين كانوا يقيمون على أعمدة ويبتعدون عن الدنيا ومباهجها وينصرفون إلى العبادة . (المترجم)

أنه واجد عنده العطف والعون . . . إن من أبرز مميزات التصوف البيزنطى المبكر ، هيأه بالعدالة الاجتماعية ودفاعه عن الفقير والمظلوم» (١) .

٢ - الأديان باعتبارها يفعات (٢)

جاءنا فى البحث السابق ، الرأى القائل بأن الأديان سرطانات تلهم الأنسجة الحية للحضارات . لكن ما زلنا نتفق مع فريزر فى عبارته المأثورة التى اقتبسناها ومؤداها أن مدّ المسيحية الذى تدفق بقوة فائقة إبان المرحلة الأخيرة للمجتمع الهلنئى ؛ قد طفق ينحسر فى تلك الأيام الأخيرة ، وأن المجتمع الغربى الذى انبثق بعد ذلك ، كان من نفس طراز المجتمع الهلنئى السابق للمسيحية .

وتفتح هذه الملاحظة المجال لفكرة أخرى محتملة عن العلاقة بين الأديان والحضارات ، وهى فكرة عبر عنها باحث غربى حديث فى العبارة التالية : «إن الحضارة القديمة قد أدبنت . . . وفى الناحية الأخرى وقفت الكنيسة - بالنسبة للمسيحي المؤمن - موقف هارون بين الحى والميت (وهو تعبير يعنى التوسط بين الدار الآخرة والحياة الدنيا) . لقد كانت الكنيسة بمثابة جسد المسيح ومن ثم فهى خالدة ، وهى شئ جدير بالمرء أن يحيا ويعمل من أجله . بيد أن الكنيسة وقفت فى هذا العالم قوة لا تقل عن الإمبراطورية نفسها . وعلى هذا النحو ، كوّنت فكرة الكنيسة يورة محدودة لا تقدر بثمن ، استطاعت أن تبلور حولها شيئاً فشيئاً حضارة جديدة» (٣) .

ومصادقاً لوجهة النظر هذه ، يصبح للأديان العالمية ما يبرر وجودها فى

(١) صفحة ١٩٨ و ١٩٧ Dawes, C, and Baynes : Three Byzantine Saints

(٢) Chrysalis .

(٣) صفحات ٢٢٠ و ٢٢١ Birkitt, F. C. : Early Eastern Christianity .

إبقاء أنواع من المجتمع نطلق عليها اسم « الحضارات » حبة . وذلك بالاحتفاظ بـ
بجراثيمة ثمينة من الحياة في رحم « فترة الفراغ » الحرجة ؛ وهي فترة تقع
بين انحلال ممثل فان للنوع^(١) وبداية نشوء ممثل آخر لنفس النوع . وعلى
هذا النحو ؛ تصبح العقيدة الدينية جزءاً من نظام الاستيلاد الحضارى ،
بقيامها - بين الفراشة والقراشة - بدور : البويضة والدودة واليفعة ؛

ولا يسع كاتب هذه الدراسة ، إلا أن يعترف بقناعته - طوال عدة
سنوات - بهذا الرأى ، الذى هو أميل إلى مناصرة فكرة دور العقائد الدينية
في مجريات التاريخ . وقد ظل يؤمن بأن الرأى الذى يذهب إلى أنها يفعات -
بخلاف الرأى الذى يذهب إلى كونها سرطانات - رأى صادق إلى المدى
الذى ذهب إليه . لكنه بات يؤمن بأن هذا الرأى ليس إلا جانباً من الحقيقة
وأنه على أية حال - الجانب من الحقيقة الذى علينا الآن أن ندرسه^(٢) .

فإذا ما ألقينا ببصرنا على الحضارات التى ما برحت قائمة فى عام ١٩٥٢ ،
نجد أنه يكمن وراء كل منها ، نوع من العقيدة الدينية العالمية ؛ وعن
طريقها تولدت الحضارة أصلاً عن حضارة أقدم منها :

١ - فالحضارتان المسيختان الغربية والشرقية ، تولدتا عن الحضارة
الهيلىنية عن طريق العقيدة المسيحية .

(٤) أى من يمثل الحضارة ، وهى نوع المجتمع . (المترجم)
(١) قد يكون فى روع ذات الرأى بالطبع - فى نفس تمتاز بالحساسية الروحانية -
أن يستولد مزاجاً سوداوياً أكثر منه مزاجاً منشراحاً . وما أن إنهاوت الحضارة التقليدية
حتى زال تأثير الكنيسة المسيحية باعتبارها عقيدة نبيلة ليسوع المسيح ، فاستحالت إلى
عقيدة دينية لها فائدتها كوشيجة فى عالم يعانى الانحلال . وهى بهذه الصفة قد أبدت
معاونتها على إحياء الحضارة الأوروبية الغربية بعد انقضاء العصور المظلمة . وقد تواصل
عملها كعقيدة اسمية لشعوب ذكية مضطربة تهدف عن تقديم - ولو بالقول - خدمة
إلى مثلها العليا . أما بالنسبة لمستقبلها ، فن ذا يمكنه التنبؤ به . (المؤلف)

٢ - وحضارة الشرق الأقصى ، تولدت عن الحضارة الصينية ، عن طريق بوذية المهايانا ،

٣ - والحضارة الهندية تولدت عن الحضارة السندية ، عن طريق العقيدة الهندوكية .

٤ - والحضارتان الإيرانية والعربية تولدتا عن الحضارة السريانية ، عن طريق الإسلام .

فكانت الأديان إذن بمثابة يفعات لجميع هذه الحضارات . كما أن البقايا المتحجرة التي لا تزال قائمة من تلك الحضارات البائدة ، مثال ذلك اليهود والبارسيون - وهي ما ناقشناه بموضع سابق من هذه الدولة - قد ظلت محفوظة في لحاء ديني . وليست هذه البقايا المتحجرة - في الواقع - عقائد دينية من نوع اليفعات التي عجزت عن أن تلد الفراشات .

وتتضح عملية انتساب حضارة إلى أخرى تسبقها في الزمن ، باستعراض الأمثلة التي سترد فيما بعد ، وهي قابلة للتحليل إلى ثلاث مراحل يمكن إلا أن نطلق عليها (باستخدام فكرة اليفعة) :

الحمل - فترة الحمل - الولادة . وقد تتمشى هذه المراحل الثلاث على وجه التقريب زمنياً مع المراحل التالية :

تحلل الحضارة القديمة - فترة الفراغ - نشوء الحضارة الجديدة .
وتبدأ مرحلة الحمل في عملية التولد أو الانتماء ، فما تغتم العقيدة الدينية الفرصة التي تهيئها لها البيئة الدنيوية . وإن من سمات تلك البيئة ، أن ورغم الدولة العالمية إرغاماً على تعطيل الكثير من النظم وطرائق الحياة التي أمدت المجتمع بالحياة ، في إبان مرحلة نموه وفي خلال مرحلة الاضطراب ، إن الأمن هو غاية الدولة العالمية . لكن لا يلبث أن يمتزج مغزى الشعور بالراحة - الذي يترتب على ذلك - بشعور الخيبة ، فإن الحياة لا يتأتى أن تحفظ نفسها

بمجرد توقفها عن المسير : وهنا تهبط العقيدة الليتية فرصتها ، فتودى لهذا المجتمع الدينى الراكد ، الخدمة التى يفقر إليها إذ ذاك افتقاراً شديداً . فإن فى وسع تلك العقيدة أن تشق مسالك جديدة لطاقات البشرية الجامعة .
فى الإمبراطورية الرومانية مثلاً :

« زود انتصار المسيحية على الوثنية الخطباء بموضوعات جديدة لخطبهم الحماسية ، وهياً لرجال المنطق نقاطاً للجدل طريفة : وولد فوق هذا كله مبدأ جديداً أحسن به باستمرار ، كل جزء من المجتمع . فلقد استثار الجمهرة الحامدة ، من الأعماق البعيدة الغور . إنه قد استفز كافة انفعالات الديمقراطية العاصفة ، فى قوم لا حول لهم ولا طول ؛ هم سكان إمبراطورية أفرطت فى النمو . لقد فعل الخوف من الضلال ، ما عجز الشعور بالظلم أن يفعله . إنه غيّر طبائع الناس الذين ألفوا — كالأغنام — الانتقال من طاغية إلى آخر ، وصيرهم — وجعل منهم — مواطنين مخلصين وثواراً عنيدين . إن نفحات البلاغة التى صممت طوال أجيال ، أصبحت اليوم تصدر عن محراب جريجورى Gregory . إن الروح التى أخذت على سهول فيليبى . عادت إلى الحياة فى أثناسيوس Athanasius وأمبروز Ambrose » (١) :

أ وهذا القول حق ، بقدر ما هو بليغ . ولكن النظرية التى تضمنها تتعلق بالمرحلة الثانية ، أو فترة الحمل . فإن المرحلة الأولى أو مرحلة الصراع الذى يسبق الظفر ، قد قدمت للرجل العادى وللمرأة العادية فرصة رائعة لتقديم تضحية سامية ، كذلك الخجد وتلك المأساة التى قام بها أسلافهم فى تلك الأيام الخوالى ، قبل أن تحطم الإمبراطورية الرومانية السلام الراكد لدولتها العالمية ، كوسيلة إطفاء النيران المشتعلة خلال عصر الاضطرابات :

(١) الجزء الأول ، صفحة ٢٦٧ Macaulay, Lord : History, In Miscellaneous Writings.

وهكذا : تستوعب العقيدة الدينية خلال مرحلة « بداية الحمل » ، الطاقات التي باتت الدولة عاجزة عن تحريرها أو الانتفاع بها : وتخلق مسالك جديدة تجد فيها تلك الطاقات منفذا : وتنسم مرحلة « فترة الحمل » التي تنلو ذلك ، باتساع نطاق عمل العقيدة الدينية إلى جد كبير : فإنها تجتذب إلى خدمتها رجالا من ذوى الحيثية ، اخفقوا في العثور على متسع لمواهبهم في الإدارة المدنية . وبالتالي : ثمة تفجّر ينجذب صوب نظام آخذ في الصعود ؛ وتنظم سرعته ويتحدد مجاله ، وفقا لسرعة انهيار المجتمع المتعطل .

ومن قبيل المثال :

١ - في إبان تحلل الحضارة الصينية ، كان توفيق العقيدة البوذية المهايانية أتم وأكمل في حوض النهر الأصفر الذي اجتاحه البدو الأوراسيون^(١) ؛ منه في حوض نهر اليانجتيسى ، حيث صُدّت موجات غزوهم :

٢ - وفي العالم الهليني ، عاصر سقوط الأقاليم اللاتينية الطابع في أحضان المسيحية أثناء القرن الرابع الميلادى ، تحول قاعدة الحكم إلى القسطنطينية ، وما صحبه من التخلي عن الأقاليم الغربية :

٣ - يمكن تفسير نفس الظاهرة في انتشار الإسلام من بين ثنانيا عالم سريانى (سوري) متحلل .

٤ - والمثل يقال بالنسبة لنمو العقيدة الهندوكية في عالم هندى متحلل : وتطالعنا في القصص الإسلامى صورة عجيبة - وإن تكن أختاذة - للعقيدة الدينية ، في مرحلة البطولة من تاريخها . وهى صورة تمثل محمدا عليه السلام وهو يجتاز - ثابت الخطى - الصراط المستقيم الضيق كحد موسى ،

(١) الأوراسيون : نعنى بهذا الاصطلاح بدو أوروبا / آسيا : (المترجم)

وهو الطريق الوحيد الذى يُنفِضى إلى الجنة ، وعلى حافتيه تَرى نار جهنم ؛ أما الكافرون الذين يغامرون بعبور الجسر على أقدامهم ، فإن التردى فى نار جهنم مصيرهم المحتوم . أما النفوس البشرية الفاضلة المؤمنة فهى وحدها التى يقدر لها عبور الجسر آمنة مطمئنة متعلقة بأذيال الرسول .

هذه الفكرة الإسلامية يمكننا تطبيقها فى موضوعنا هذا :

فإن العقيدة الدينية التى استمدت — فى سابق عهدها — الحيوية من حضارة قديمة فى مرحلة « بداية الحمل » ، ثم شقت طريقها وسط عواصف مرحلة « الفراغ » تُضفى حيوية على الحضارة الجديدة التى حملت بها داخل رحمها : وفى وسعنا أن نلاحظ هذه الحيوية الخلاقة تنسكب — فى رعاية العقيدة الدينية — فى مسالك دنيوية^(١) فى المجالين الاقتصادى والسياسى ، بالإضافة إلى المجال الثقافى من حياة المجتمع .

فبالنسبة للمجال الاقتصادى ؛ تعتبر الجراءة الاقتصادية التى يتسم بها العالم الغربى المعاصر — إلى أبعد حد — أعظم تراث خلفته عقيدة دينية ، لحضارة انبثقت عنها .

فى وقت كتابة هذه السطور ؛ كانت قد انقضت مائتان وخمسون سنة ، منذ أن استكمل المجتمع الدنيوى استخلاص نفسه من بقعة الكنيسة الكاثوليكية الغربية . على أن الأداة العجيبة الجبارة للتكنولوجيا الغربية ، كانت ما تزال تبدو كنتاج جانبي للرهبنة المسيحية الغربية . ويتمثل الأساس السيكلوجى لهذا الصرح المادى الهائل ، فى الإيمان باوواجب وشرف العمل البدنى^(٢) . وما كان ليتأتى لهذا الانقلاب الفكرى المناهض للفكرة الهلينية التى تعتبر العمل شيئاً مبتذلاً وخسيساً أن يوطد نفسه ؛ لولا أن رحبت به

(١) أى مسالك لاسلة لها بالدين . (المترجم)

(٢) Laborare est orare .

تعاليم القديس بندكت . وعلى هذا الأساس ؛ مهدت الرهينة البندكتية قاعدة الزراعة في حياة غرب أوروبا الاقتصادية . كما وجهت — بحذق — جهود طائفة رهبانية أخرى^(١) لإقامة أسس الصرح الصناعي الأوروبي . فإن هذا الصرح — الشبيه ببرج بابل — الذي شاده الرهبان قد استثمره جيرانهم من البنائين العلمانيين^(٢) فبلغ حماسهم ذروته حتى لم يعودوا يملكون أنفسهم عن المشاركة فيه . وبذلك أصبحت أعمال هؤلاء الرهبان أحد الأصول التي نشأ منها الاقتصاد الرأسمالي الغربي الحديث .

أما في المجال السياسي ؛ فقد راقبنا البابوية في موضع سابق من هذه الدراسة وهي تصوغ « جمهورية مسيحية »^(٣) ، وَعَدَّتْ بِنْيَ البشر بالاستمتاع في آن واحد بثمرات الدول الإقليمية ومزايا الدولة العالمية ، دون أن يتعرضوا لعيوب أى من النظامين . إن البابوية إذ تمنح بركاتها للممالك المستقلة ، وتؤمّن كيانها حين تبارك الملوك وقت تتويجهم ؛ إنما تستعيد بفعلها هذا إلى الحياة السياسية ، تلك الوفرة وذلك التنوع اللذين أثمرتا خير الثمرات في مرحلة ترعرع المجتمع الهليني . وإزاء التصدع والانشقاق السياسى اللذين جريا إلى انهيار المجتمع الهليني ، أصبح لا مناص من وجود سلطة روحية عارمة تلطف من شدة وقعهما وتكبح جماحهما . وهذا ما ادّعتة البابوية لنفسها محتجة بأنها الوريثة الروحية للإمبراطورية الرومانية . وكان على الأمراء العلمانيين الهلبيين أن يعيشوا معاً في وئام بالتقارب والتضافر ، في رعاية رادع ديني . بيد أنه بعد انقضاء بضعة قرون ، بدا الحلل في تلك التجربة السياسية الكنسية ؛ وقد

(١) طائفة سيرسيوم أو سيتو نسبة إلى مدينة تعرف بهذا الاسم . وقد أنشئ نظام الرهينة هذا عام ١٠٩٨ متفرعاً عن مدرسة بندكت الرهبانية غير أنه يتم بطرفه . ويدعى هذا النظام كذلك بالبرنارديني نسبة إلى القديس برنارد . (المترجم)

(٢) أى غير الدينيين . (المترجم)

(٣) Respublica Christiana .

ناقشنا أسباب ذلك الخلل في مكان سابق من هذه الدراسة . وإننا نقتصر هنا على ذكرها كدليل على الدور الذي قامت به الكنيسة المسيحية خلال ما أسميناه مرحلة « الوضع » ويقابله الدور الذي قام به التآخي البرهمي الديني^(١) في الترابط السياسي للحضارة الهندوكية الوليدة . إن البراهمة قد أضفوا الشرعية على الأسرة المالكة في راجبوتانا^(٢) ؛ بنفس الطريقة التي أضفتها الكنيسة المسيحية على حكم ملوك الفرنجة من كلوفيس أو بين .

فإذا ما انتقلنا إلى بحث الدور السياسي للكنيسة المسيحية في العالم المسيحي الأرثوذكسي ، ودور عقيدة البوذية المهابانية في بلاد الشرق الأقصى ؛ ألفينا ميدان نشاط السلطة الدينية في كلا المجتمعين يقوم على استدعاء طيف دولة عالمية لحضارة سابقة :

ومن ذلك :

أولا - بعث إمبراطورية الهان Han في شخص دولتي « سيوى Sui » و« تانج Táng » (حضارة الشرق الأقصى) .

ثانيا - بعث الإمبراطورية الرومانية في شخص الإمبراطورية البيزنطية في الكيان الرئيسي للعالم المسيحي الأرثوذكسي .

ففي مجتمع الشرق الأقصى ؛ وجدت المهابانا مكانا جديدا لها بين عدد من العقائد الدينية والمدارس الفلسفية التي عاشت في سلام جنباً إلى جنب تزود الجماهير نفسها باحتياجاتها الروحية . وطفقت مؤثراتها تتغلغل دون عائق في حياة مجتمع الشرق الأقصى ، وقد أسهمت في تحويل كوريا واليابان إلى طرائق حياة الشرق الأقصى . ويمكن مقارنة دورهما هنا بنفس الدور الذي أدته

(١) براهما هو الكائن الأعلى في الديانة الهندوكية وله ثلاثة تجليات أو مظاهر : براهما ، فيشنو ، شيفا . وجميعها صور للإله براهما . (المترجم)
(٢) إقليم في شمال الهند الغربي . (المترجم)

الكنيسة الكاثوليكية الغربية في اجتذاب بلاد المجر وبولندا واسكندنافيا إلى نطاق العالم المسيحي الغربي ، وكذلك الدور الذي أدته الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية في غرس فرع للحضارة المسيحية الأرثوذكسية على أرض روسيا .

فإذا ما انتقلنا من المجال السياسي إلى الميدان الثقافي ، لبحث ما أسهمت به العقائد الدينية للحضارات الناشئة خلال المرحلة التي أطلقنا عليها مرحلة « الوضع » ألفينا مثلاً :

أولاً - أن المهايانا - وقد أقصيت عن حلبة السياسة - تعمد فتؤكد شخصيتها بصورة فعالة في محيط الثقافة . ويعتبر تأثيرها الثقافي الباقي ، جزءاً من التراث الذي اكتسبته المهايانا من المدرسة الفلسفية البوذية الأولى .

ثانياً - أما المسيحية - من الناحية الأخرى - فقد بدأت حياتها دون نظام فلسفي خاص بها . فألفت نفسها مضطرة إلى تقديم عقيدتها في ثوب ثقافي أجنبي حاكته المدارس الفلسفية الهلينية (وكان هذا من أبرع أعمال المسيحية) . وأصبح هذا المزيج الثقافي الهليني مسيطرًا على الحياة الثقافية في العالم المسيحي الغربي سيطرة تامة ؛ وذلك بعد أن قوى بما تلقاه من فلسفة أرسطو في إبان القرن الثاني عشر . وأخيراً أسهمت الكنيسة المسيحية إسهاماً واضحاً في تقدم الغرب الثقافي بفضل إنشائها للجامعات وكفالتها إياها ؛ على أن أعظم مآثر لكنيسة في مجال الثقافة ، يتمثل في الفنون الجميلة ؛ وهذا من الواضح بحيث لا يتطلب منا تفسيراً .

* * *

استكملنا الآن استعراض دور العقائد الدينية باعتبارها يفعات ؛ لكن إذا قبَّض لنا الارتفاع إلى مكان سامق يتاح لنا منه التطلع بنظرة شاملة إلى الحضارات التي عرفها التاريخ ، من حيث علاقتها بعضها ببعض ؛ فلن يصعب علينا أن نلاحظ أن العقيدة الدينية اليفعة ، ليست وحدها الأداة

التي يتم بواسطتها تحدّر حضارة ما من حضارة سالفة . ولناخذ لذلك مثلاً واحداً ، تحدّر المجتمع الهليني من المجتمع المينوى . لكن ليس ثمة دليل على وجود عقيدة دينية ترعرعت داخل نطاق المجتمع المينوى وقامت بدور اليفعة للمجتمع الهليني .

حقاً ؛ لقد ازدهرت بضعة أشكال بدائية من ديانة عليا ، في ثانيا البروليتاريات الداخلية لطائفة من حضارات الجيل الأول (ولعلها ازدهرت في حضارات أخرى لم يكشفها الباحثون بعد) . لكن من الواضح أنه لم يقيض لأى من هذه الأشكال البدائية ، أن تستمر وقتاً طويلاً يكفى قيامها بدور اليفعات للحضارات التي أعقبتها .

ويدل استقصاء جميع الأمثلة المتاحة لنا ، على عدم انتهاء أى من حضارات الجيل الثانى — الهلينية أو السريانية (السورية) والهندية أو غيرها — بصفة النسب إلى حضارة سابقة ؛ عن طريق عقيدة دينية . كما يدل هذا الاستقصاء على أن جميع العقائد العالمية المعروفة ، قد ترعرعت في أحضان مجتمعات متعطلة تناسب إلى الجيل الحضارى الثانى . ويدل أيضاً على أن أية حضارة من حضارات الجيل الثالث — على الرغم من أن كثيراً منها (وربما كلها) قد انهار وتحلل ، لا يقوم دليلاً مقنعاً على إنتاجها حصيلة أخرى من العقائد الدينية العالمية .

ومن ثم ؛ تصبح لدينا سلسلة تاريخية يمكن تبويبها على النسق التالى :
مجتمعات بدائية .

حضارات الجيل الأول

حضارات الجيل الثانى

عقائد عالمية

حضارات الجيل الثالث

وعلى أساس هذا التبويب ؛ نستطيع أن نتناول بالبحث ما إذا كانت

العقائد الدينية - أو لم تكن - أكثر من مجرد أدوات استيلادية لجيل معين من الحضارات .

٣ - العقائد باعتبارها نوعاً أرقى من المجتمع

(١) تصنيف جديد :

ما يبرح أساس عملنا ؛ الافتراض القائل بأن الحضارات تمسك زمام القيادة في التاريخ ، وأن العقائد الدينية إنما تشغل دور التابع ، سواء أكانت عوامل تعويق (ما دعوانه سرطانات) أو عوامل عون ومساعدة (ما أطلقنا عليه يفعات) .

فلنفتح الآن أذهاننا لاحتمال تأدية العقائد الدينية الدور القيادي في التاريخ . وبالتالي تفسير تواريخ الحضارات وتصويرها ، لا على أساس مصائرهما نفسها ، ولكن وفقاً لتأثيرها على تاريخ الدين . وقد تبدوا الفكرة مستحدثة وظاهرة التناقض ؛ ولكنها - مع ذلك - طريقة استخدمتها لتفسير التاريخ ، مجموعة الكتب التي ندعوها بـ « الأناجيل » .

ويصبح علينا - طبقاً لوجهة النظر هذه - إعادة النظر في افتراضاتنا السابقة بشأن تفسير مبررات وجود الحضارات . وينبغي علينا أن ننظر إلى حضارات الجيل الثاني بفكرة أنها بُعثت إلى الوجود ، لا لتبدع تراثاً من صنعها ، ولا لتخلد نوعها في جيل ثالث ، ولكن ننظر إليها بفكرة أنها برزت إلى الوجود لتهيئ فرصة الميلاد لأديان عليا مكتملة النمو . ولما كان نشوء هذه الأديان العليا قد جاء نتيجة انهيار الحضارات الثانية وتحللها ؛ يتعين علينا اعتبار الفصول الختامية من تواريخها (وهي فصول طابعها الفشل) هي حجتها لبلوغ مرتبة الخطورة والأهمية .

وتمشياً مع هذه الفكرة ، ينبغي علينا أن ننظر في الحضارات الأولى على

أنها قد برزت إلى الوجود تحقيقاً للغاية نفسها . غير أن هذه الحضارات الأولى - عكس خليفاتها - قد عجزت عن أن تبعث إلى الوجود عقائد عليا مكتملة النمو . فالعقائد البدائية مثل عبادة تموز وعشتار ، وعبادة أوزيريس وإيزيس ؛ لم يقدر لها أن تزدهر . على أن هذه الحضارات قد أنجزت رسالتها عن طريق غير مباشر ؛ وذلك باستيلاها الحضارات الثانوية التي انبثقت عنها - في نهاية المطاف - العقائد العليا الكاملة . وقد ساهمت العقائد البدائية التي ظهرت في إبان الفجر الحضارى البشرى ؛ ساهمت على مدار الزمن في إلهام العقائد العليا التي انبثقت في الجيل الحضارى الثانى .

ويغدو - وفقاً لهذا الإيضاح - صعود الحضارات الرئيسية (وما تفرع عنها) وهبوطها على التوالي ، بمثابة إيقاع (لوحظ في مواضع أخرى) تدفع فيه دورات العجلة المتتابعة ، العربة التي تحملها العجلة . فإن تساءلنا عن السبب الذى أصبحت من أجله الحركة الهابطة في دورات عجلة الحضارة ، أداة لدفع مركبة العقيدة الدينية إلى الأمام ؛ تطالعنا الإجابة في تلك الحقيقة الماثلة وهى أن الدين نشاط روحى وأن التقدم الروحى يخضع لقانون أعلنه أسكيلوس Aeschylus^(١) « إننا نتعلم بالمكابدة » : فإن طبقنا هذه البديهة التى تتسم بها طبيعة الحياة الروحية على الجهد الروحى الذى تُوج بزوغ المسيحية وشقيقاتها من الأديان العليا : الإسلام ، المهايانا ، الهندوكية ؛ فقد نتمكن من تمييز ملامح من آلام المسيح وقت صلبه ، في آلام كل من : تموز ، آتيس ، أدونيس ، أوزيريس .

لقد انبثقت المسيحية من بين ثنايا العناء الروحى الذى جاء نتيجة لانهايار الحضارة الهلينية . بيد أن هذا كان آخر فصل من قصة طويلة .

(١) أسكيلوس : (٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م) أحد كبار أساتذة الدراما اليونانية . اشترك في الحروب اليونانية ضد فارس . ويقال إنه ألف سبعين مسرحية ، لكن المشهور منها سبع فقط . (المترجم)

فإن للمسيحية جذورا من الديانتين اليهودية والزرادشتية . وقد انبعثت هذه الجذور عن انهيار سابق لحضارتين أخريين فرعيتين وهما^(١) الحضارة البابلية والحضارة السريانية (السورية) . وما كانت مملكتنا إسرائيل ويهوذا اللتان تدفقت فيهما ينابيع اليهودية ، إلا دولتين من الدول الكثيرة الإقليمية المتحاربة التي كان يعجّ بها العالم السرياني (السورى) . وما كان تدمير هذين التنظيمين الجامعين للدنيويين واستئصال أطعهما السياسية بأسرها ، إلا المحنة التي بعثت الدين اليهودى إلى الوجود ، وبلغت أسمى تعبيراتها فى مناحة « الخادم المكابد »^(٢) التي كتبت فى القرن السادس قبل الميلاد فى إبان مخاض عصر الاضطراب ، الذى كان يمر به العالم السرياني (السورى) عشية تشييده الإمبراطورية الأخمينية .

يبد أن هذا لم يكن بداية القصة :

فإن للأصول اليهودية التي اقتبسها المسيحية ، أصلا موسويا خاصة بها^(٣) . وهذه المرحلة فى ديانة إسرائيل ويهوذا السابقة لعصر النبوة^(٤) ، كانت نتيجة كارثة دنيوية سابقة ؛ كارثة تمثلت فى تداعى « الدولة الحديثة » فى مصر^(٥) التي كان الإسرائيليون ينتظمون بتقاليدهم الموروثة - فى صفوف

(١) الحضارة الفرعية هى التي تفرعت عن حضارة رئيسية مثل الحضارة الروسية التي تفرعت عن حضارة المسيحية الشرقية ، وحضارة اليابان التي تفرعت عن الحضارة الصينية . (المترجم)

(٢) فقرات مختلفة وردت فى سفر أشعيا الثانى سيما فى الفصل ٥٣ .

(٣) إذ يرجع إلى موسى عليه السلام . ويلاحظ على هذا الجانب من اليهودية تأثره بالقواعد الدينية المصرية . (المترجم)

(٤) إذ تتابع بعد موسى ظهور أنبياء بنى إسرائيل الواردة أسماؤهم وسيهم فى العهد القديم . (المترجم)

(٥) حدث تداعى الإمبراطورية المصرية فى عهد أخناتون . وقد بسط فرويد العالم النفساني اليهودى المشهور ، الصلة بين موسى وأخناتون . فجعل من موسى كاهنا مصرياً لأخناتون بل لقد جرده من الانتماء عنصرياً إلى اليهود . انظر كتاب موسى والوحداية تأليف فرويد . (المترجم)

بروليتارياتها الداخلية . وتحكى هذه التقاليد نفسها ؛ أنه قد سبقت الأحداث المصرية من تاريخها ، بداية سومرية ؛ وفي خلالها إندفع إبراهيم بوحي من الرب الواحد الصمد - إلى تخليص نفسه من مدينة أور العظمى التى كان الرب قد حكم عليها بالدمار ، وذلك فى فترة تقع خلال تحلل الحضارة السومرية .

وهكذا ؛ اقترنت الخطوة الأولى فى الارتقاء الروحى الذى بلغ ذروته فى المسيحية ، بأول بادرة عرفها المؤرخون عن لإنهيار دولة عالمية . وفى ضوء هذا ؛ يتأتى النظر إلى المسيحية على أنها ذروة الارتقاء الروحى الذى لم يصمد للنكبات الدنيوية المتتابعة فحسب ، لكنه استخلص منها أيضاً جماع إلهامه .

ويتضح من هذه المطالعة : أن تاريخ الدين يقوم على الوحدة والارتقاء . وهذا عكس ما يشاهد فى تواريخ الحضارات من تعدد وتكرار . ويتبدى هذا التعارض بالنسبة للبُعد الزمنى كما يتبدى بالنسبة للبُعد المكاني . والمسيحية والأديان الثلاثة العليا الأخرى^(١) (التى ما تزال قائمة فى القرن العشرين) يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً ؛ أشد كثيراً مما يربط الحضارات المعاصرة بعضها ببعض الآخر . ونجد هذا التعاطف أشد وضوحاً بين المسيحية والبوذية المهايانية . إذ تشترك الديانتان فى الإيمان بوجود إله مُخلص يضحى بنفسه فداء للبشر . أما عن الإسلام والهندوكية ، فإنهما يعكسان كذلك نظرة عميقة لطبيعة الإله ؛ جعلت للعقيدتين معنى مميزاً ورسالة باتت علماً عليهما . إن الإسلام قد أعاد تأكيد وحدانية الله ، فى مقابل الضعف البادى فى تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية . أما الهندوكية ؛ فقد أكّدت مرة أخرى شخصية الإله ، باعتبارها الهدف الذى يتجه إليه البشر بولائهم ؛ ويقابل هذا ، إنكار الفلسفة البوذية البدائية لوجود شخصية الإله إنكاراً صريحاً .

(١) أى الإسلام والمهايانا والهندوكية . (المترجم)

حقاً ؛ إن الأديان العليا الأربعة ؛ مجرد ألوان أربعة لمنهج واحد .

ولكن ؛ إن كان الأمر كذلك ، فلم ينحصر - حتى الآن - إدراك وحدانية الوحي سواء في المسيحية أو الإسلام (وهما الديانتان اللتان لهما أصول مشتركة) في أنفس قليلة نادرة ، بينما لا يدركها العاديون من الناس ؟
مناط الإجابة من وجهة النظر الرسمية لهاتين العقيدتين الدينيتين العالميتين ، إصرار كل منهما على أن الضياء المنبعث من فرجة نافذته ، هو وحده الضياء الكامل ؛ وأن الأخرى إنما تعيش في غبشة الليل ، إن لم يكن في الظلام الدامس . بل إن أهل كل طائفة من الدين الواحد ، يقفون نفس الموقف من سائر الطوائف . وهذا الإنكار لما بينهما من مقومات مشتركة ولما تنادى به كل منها ، قد دفع من يؤكد أن معرفة الله مستحيلة ، وقاده في نهاية الأمر إلى الإلحاد والتجديف .

فإن تساءلنا عما إذا كان يُقيَض لهذا الموقف المؤسف أن يبقى إلى الأبد ؛ لتطلبت الإجابة تذكير أنفسنا بما تعنيه في هذا المجال كلمة « دوما » . فالواقع ؛ علينا أن نذكر أن الجنس البشرى إذا لم يستخدم الأساليب التكنولوجية التي كشف عنها حديثاً في إبادة كل أثر للحياة على هذا الكوكب ، فسيستمر التاريخ البشرى وليداً ، وسيبقى آلافاً أخرى من السنوات لا حصر لها .

وعلى ضوء هذا التحليل ؛ تصبح فكرة بقاء كل دين منعزلاً عن الآخر إلى الأبد ، فكرة سخيفة . فإما أن تزيج العقائد الدينية بعضها بعضاً من الوجود حتى لا يبقى منها واحدة ، ويصبح مثلها مثل قطط كيلكني Kilkenny التي انتهى الأمر بها إلى تدمير نفسها بنفسها ؛ وإما أن يجد الجنس البشرى - وقد تمت وحدته - خلاصه من أشكال الوحدة الدينية . وعلينا الآن أن نرى إذا كان في وسعنا أن نستشف - ولو على سبيل المحاولة - طبيعة تلك الوحدة المرتجاة .

إن الديانات الدُّنيا^(١)، ديانات محلية بطبيعتها . فإنها عقائد القبائل أو الدول الإقليمية المتعددة . ولقد ترتب على تشييد الدول العالمية ، أن : الـ ما يبرر وجود هذه الديانات المحلية . وتوافرت رقعة واسعة من الأرض تتنافس فيها ديانات أخرى علياً أو غير علياً لاجتذاب الناس لاعتناقها . ومن ثم ؛ أصبح الدين مسألة اختيار شخصي . ولقد شاهدنا أكثر من مرة خلال هذه الدراسة ، كيف تسابقت داخل الإمبراطورية الرومانية « تشكيلة » من الديانات المختلفة على إحراز قصب السبق الذي نالته المسيحية .

فماذا تكون حصيلة تفجّر جديد لنشاط تقوم به رسالة تبشيرية جديدة في وقت واحد وفي ميدان واحد ، يشمل هذه المرة مجال الدنيا بأسرها ؟

إن تواريخ النشاط المناظرة التي حدثت في إطار الإمبراطوريات الأخيمينية والرومانية والكوشانية بالإضافة إلى إمبراطوريتي هان وجوبتا ؛ قد أظهرت أن حصيلة هذا النشاط لا تخرج عن أي من البديلين التاليين :

١ - فوز دين واحد على جميع الأديان .

٢ - لجوء الأديان المتنافسة إلى التوفيق فيما بينها لتعيش جنباً إلى جنب ، مصداقاً لما حدث في العالمين الصيني والهندي .

ولا تختلف النتيجةتان ، على نحو ما قد يبدو للوهلة الأولى . فإن العقيدة الدينية المنتصرة ، إنما تحقق انتصارها باستيعابها بعض السمات الجوهرية للعقائد الدينية المنافسة لها . مثال ذلك أن شخصيتي « إيزيس » و « سيبل » تظهران - في المسيحية - مرة أخرى في تجلّي السيدة مريم في شخصية أم الإله

(١) يتسم الدين الأعلى بانتشاره انتشاراً عالمياً مثل الإسلام والمسيحية والبوذية المهايانية . وأما الدين الأدنى ، فإن اعتناقه قاصر على طائفة محددة من الناس مثل اليهودية والزرادشتية في الوقت الحاضر والعقائد الشيتوية اليابانية . (المترجم)

الكبرى. كما نشاهد تقاطيع إله الشمس في الصورة ذات الطابع الحربى التى يبدو فيها المسيح فى بعض الأحيان .

وأياً ما تكون الحال ، فإن الاختلاف بين النتيجتين البديلتين له أهميته . ولن يستطيع أبناء القرن العشرين الذى انطبع بالطابع الغربى ، البقاء بمنأى عن التفكير فيما هو متوقع لهم فى حالتهم .
تُرى ، ما هى النتيجة الأشد رجحانا ؟

تغلب روح التعصب فى الماضى ، وقما سيطرت الديانات العليا — السماوية — على عقول الناس . وعلى العكس ، كان التسامح دعامة الحياة وقما كانت السيادة للمبادئ الدينية التى تضمنتها الحضارة السندية . ولعل مناط الإجابة عما ينتظر حدوثه فى عالمنا ، يتوقف على طبيعة الخصوم الذين ستلقاهم الديانات العليا فى طريقها .

فما هو السبب فى تقبل المسيحية مرة أخرى الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الغيور ؛ بعد اعترافها بالفكرة اليهودية القائلة بأن الله محبة ، ونجّاهرتها بها ؟

إن هذه الردّة التى كبّدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين ، كانت الثمن الذى دفعته المسيحية فى كفاحها المرير ؛ كفاح الحياة أو الموت مع عبادة قيصر . ولم تعد الكنيسة إلى مبدأ أن الله محبة ، بعد انتصارها واستتباب السلام تبعاً لذلك . فإن عودة السلام لم تفصل ذلك الترابط بين شخصيتى يهوى^(١) والمسيح ، وإنما أكّدت .

وفى ساعة الظفر ، تحوّل عناد الشهداء المسيحيين إلى تعصب مسيحي

(١) ياهوى كما مر بنا ، هو الإله لدى اليهود . ومن سماته النضب والقسوة والبطش وعدم التسامح . ويعنى المؤلف أن المسيحية الجديدة قد وامت بين فكرتين متناقضتين : الأولى — فكرة البطش وعدم التسامح *
الثانية — فكرة المحبة والتسامح التى تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية .

جائر . وكان هذا الفصل المبكر من تاريخ المسيحية ، شؤماً على المصائر الروحية للقرن العشرين ذى الطابع الغربى . فإن عبادة القوة التى أوقعت بها الكنيسة المسيحية الأولى هزيمة بدت كما لو أنها حاسمة ، قد أعادت توكيد نفسها - فى انبعاث مشثوم -^(١) فى نمط من الدولة الجماعية^(٢) ، انتظمت فيه عبقرية التنظيم والتكنولوجيا الغربية الحديثة واستخدمتا فى مهارة شيطانية لاستعباد النفوس والأجسام ، إلى درجة عجز عن إتيانها أعتى طغاة العهد الماضى . وبدا كما لو أنه لا مناص من أن تنشب مرة أخرى فى العالم ذى الطابع الغربى ، حرب بين الله وقيصر^(٣) . وبدا أن المسيحية فى تلك الظروف ستضطلع مرة أخرى بدور العقيدة الدينية المكافحة بقوة السلاح . وهو دور مجيد من الوجهة الأدبية ، وان كان شائكاً من الوجهة الروحية .

ومن ثم ؛ قدّر على المسيحى ابن القرن العشرين الميلادى أن يحسب حساباً لاحتال قيام حرب ثانية ضلم عبادة قيصر ، من شأنها أن ترد الكنيسة مرة أخرى صوب عبادة ياهوى^(٤) ؛ وهى لم تفق بعد من آثار الردة السابقة . لكن إن آمن المسيحيون بأن إلهام الله - باعتباره محبة - يتجسّد فى آلام المسيح ، فإن هذا الإيمان سيحوّل فى النهاية قلوباً قدّدت من صخر إلى قلوب من لحم ودم . هنا قد يجرؤ المسيحيون على التطلع إلى قيام عقيدة دينية فى عالم متحد سياسياً ، حرره الإلهام الدينى من عبادة البطش متمثلة فى ياهوى أو قيصر .

(١) الدولة الجماعية : ضرب من التنظيم السياسى يخضع فيه المجتمع خضوعاً مطلقاً لسلطان فرد واحد أو سلطة مفردة . (المترجم)

(٢) أى حرب بين العقيدة الدينية والسلطة الزمنية الجماعية الملحدة . (المترجم)

(٣) أى يدفع الكنيسة إلى اعتناق مبادئ البطش وهى سمة ياهوى رب اليهود كما أشرنا فى موضع سابق . (المترجم)

وعندما بدأت الكنيسة المسيحية في أواخر القرن الرابع الميلادي في اضطهاد أولئك الذين رفضوا الانضمام إليها ؛ دوّن سيماخوس Symmachus الوثني احتجاجا تضمن الكلمات التالية : « إن الوصول إلى لب هذا السر الكبير ، لا يتأتى باتباع طريقة واحدة » . هنا يقترب الوثني بهذه الكلمات من المسيح ، أكثر من اقتراب المسيحيين الذين يضطهدونه . إن البرّ أم الفراسة والتجانس ، ليس ممكنا بوساطة اقتراب الإنسان من الإله الواحد الحق ؛ وذلك لأن الطبيعة الإنسانية تنقسم بالتنوع المثمر ، وهو طابع الإله الخالق ؛

لقد وُجد الدين لتمكين النفوس البشرية من تلقى الضياء الرباني . ولن يحقق الدين هذه الغاية إذا لم يعكس بأمانة ، التنوع القائم بين عباد الله . ويتأتى وفقاً لهذه الفكرة ؛ أن نتصور أن أسلوب الحياة وتصور الإله — اللذين تقدمهما كل من الديانات العليا القائمة حالياً — قد يقابلان أحد تلك النماذج السيكلوجية الكبرى . فإن عجز أى من هذه الأديان عن إشباع حاجات البشرية بعد أن صقلت التجربة ؛ فإنه يصعب علينا أن نتصور توفيق أى منها في كسب ولاء مثل هذا القدر العظيم من البشر لمدة طويلة .

فلو قدر لهذا الأمل في مصير الديانات أن يجرى مجرى اليقين ؛ لانفتح المجال لرأى جديد عن دور الحضارات . فإن ظلت حركة عجلة الدين ثابتة في اتجاهها ، لن تكون الحركة الدائرية المتكررة لصعود الحضارات وسقوطها متطابقة فحسب ، بل إنها تصبح تابعة كذلك . إن هذه الحركة قد تؤدي غرضها وتجد دلالتها — وهي تدفع العجلة صاعدة نحو السماء — عن طريق دورات تتم من وقت لآخر على الأرض ؛ دورات تتجلى في دوران عجلة الميلاد والموت ثم الميلاد . . . وهكذا دواليك . . . وهي لعمري عجلة كئيبة .

وعلى هدى هذا الرأي ، يتأتى بكل جلاء تبرير بقاء حضارات الجيلين الأول والثاني . بيد أن ادعاء بقاء حضارات الجيل الثالث ، تبدو

للهولة الأولى أشد غموضاً وإبهاماً . فإن حضارات الجليل الأول هي التي أخرجت إلى الوجود في فترة انحلالها ، أصول الديانات العليا . وأنتجت حضارات الجليل الثاني أربعة نماذج كاملة من الديانات العليا ، ما تزال تمارس نشاطها عند كتابة هذه السطور . أما تلك الأديان الجديدة التي يمكن تمييزها من بين ما تنتجه البروليتاريات الداخلية للجيل الثالث ، فإنها تبدو لنا وقت كتابة هذه السطور باهتة ضعيفة الأثر . . . وإذا كان جورج اليوت قد كتب « إن النبوة هي أعظم شكل للخطأ الاختياري الإنساني » ؛ فلن يجازف الإنسان كثيراً بالتنبؤ بأن الأديان التي ظهرت في الجليل الحضاري الثالث ، لن تكون لها قيمة على طول المدى .

ولعل المبرر المعقول لبقاء الحضارة الغربية الحديثة — على ضوء النظرة التي نعرضها هنا للتاريخ — أنها قد تحقق للمسيحية وشقيقاتها الأديان العليا الثلاثة^(١) صنيعة ، هو أن تقدم لها المكان الذي تلتقى فيه على صعيد عالمي ، فتعيد إليها وحدة قيمتها ومعتقداتها الغائبة ، وتطرح خلافاتها للنقاش ؛ لتتمكن من مواجهة تحدى انبعاث وثنية فاسدة تقوم على عبادة الإنسان لذاته .

(ب) مغزى ماضى العقائد الدينية :

تعرض الفكرة التي قلنا بها في القسم السابق من هذا الفصل ، للهجوم من فريقين :

الأول — أولئك الذين يعتبرون جميع الأديان لغوا وآمالاً فارغة .

الثاني — أولئك الذين ينكرون الأديان باعتبارها غير جديرة بالمبادئ التي تحترف الكلام عنها .

(١) الإسلام والبوذية المهايانية والهندوكية . (المترجم)

فأما عن الفريق الأول ؛ فإن الرد عليه يخرج عن مجال دراسة التاريخ هذه .

فإن حصرنا أنفسنا في بحث ما يذهب إليه الفريق الثاني ؛ فإننا نسلّم مخلصين بأن لدى ناقدينا كثيراً من مواد الاتهام . ويطالعنا منها على سبيل المثال : انحراف زعماء الكنيسة المسيحية في كثير من الأحيان منذ تشييد الكنيسة حتى أقرب وقت ؛ انحراف عن العقيدة ، بلغ درجة نكران مؤسس الكنيسة نفسه . إذ جعل رجال الدين من الدين مهنة يحتكرونها دون الناس جميعاً ، واتصفوا بذلك الرياء الذي كان من سمات الفريسيين اليهود^(١) . واعتنق رجال الدين كذلك - بدافع من مصالحهم - وثنية اليونان وتعدد آربابهم . وجعلوا من أنفسهم حماة للمصالح الموروثة ، يذودون عنها مستخدمين آراء المشرعين الرومان .

وليست الأديان العليا الأخرى ، أقل عرضة لهذا النقد الذي تتعرض له المسيحية .

وقد يفسر هذا العجز الذي أصاب الكنيسة - وإن لم يكن له ما يبرره بطبيعة الحال - تلك العبارة الساخرة التي قالها أسقف أريب من العصر الفيكتوري ، عندما سُئل عن السبب الذي جعل رجال الدين على هذا القدر من الغباء فأجاب بقوله « وما الذي يمكنك توقعه ؟ ليس أمامنا إلا العلمانيون نخدعهم^(٢) » .

حقاً ؛ إن الإديان لا تنتظم قديسين فقط ، ولكنها تنتظم آثمين أيضاً . وليس في وسع ديانة أى مجتمع في أى وقت من الأوقات - مثلها مثل

(١) طائفة من اليهود كان من دأبها الغلو في الدين والتظاهر بالشد في تطبيق أوامره ونواهيه ، حتى باتت علماً على الرياء والنفاق . (المترجم)

(٢) أى مثلما تكونوا يولى عليكم . (المترجم)

المدارس الفكرية — أن تسبق كثيراً جداً ، المجتمع الذى تقوم بن ظهرانيه وتتحرك فى نطاقه وتستمد منه كيائها .

وقد لا تُفنع الخصم هذه الإجابة . فيعاود الهجوم ، ويرد على المطران الفيكتورى بخشونة ؛ قائلاً إن الاختيار الذى أجرته الكنيسة من العلمانيين ، لم يقتصر على الصفوة ، وإنما اتجه إلى الختالة .

ومن الاتهامات التى يكيلها باستمرار خصوم الكنيسة المسيحية من ذوى الفكر السياسى فى العالم الغربى ، اتهامها بأنها عقبة فى طريق التقدم :

« فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة المسيحية الغربية تنبثق — منذ القرن السابع عشر وما بعده — عن العالم المسيحى الغربى ؛ خشيت الكنيسة — بحق — شيوع التمسك بالأمور الدينوية والارتداد إلى وثنية جديدة . هنا مزجت الكنيسة — خطأً — الإيمان الدينى بالنظام الاجتماعى الذى كان فى طريقه إلى الزوال . وهكذا ؛ بينما كانت الكنيسة تقود فى المؤخرة معركة ثقافية ضد ما اعتبرته أخطاء « تحورية » و « مستحدثة » و « علمية » ؛ سقطت دون أن تدرى فى هاوية الرجعية السياسية . فأصبحت — من ثم — تؤيد الإقطاع والملكية والأرستقراطية — بل و « الرأسمالية » — وتسد بوجه عام النظم القديمة القائمة . وغدت الكنيسة حليفة بل غالباً ما كانت أداة عناصر السياسين الرجعيين ، الذين كانوا فى الواقع خصوماً للمسيحية والروح الثورية على السواء . ومن هنا كان مصدر السجل السياسى للمسيحية الحديثة : فى القرن التاسع عشر تحالفت مع الملكية والأرستقراطية لكى تسفّ الديمقراطية اللبرالية ، وهى فى القرن العشرين تتحالف مع الديمقراطية اللبرالية لتسفّ النظم الجماعية . وهكذا بدت الكنيسة ، وقد وقفت دائماً منذ الثورة الفرنسية عند مرحلة سياسية متخلّفة عن سير الزمن . وهذه النقطة بالذات ، يبت القصيد فى نقد الماركسية للمسيحية فى العالم الحديث . ولعل رد المسيحية

على هذا الاتهام هو القول بأن من واجب الكنيسة أن تلزم مؤخره القطيع الذى يندفع برعونة إلى هاوية الحضارة المتحللة وأن تشد أنظار أكبر قدر ممكن من القطيع إلى أعلى المنحدر من جديد»^(١) .

ولقد يجد من يعتبرون الدين لغوا ، فى هذه الاتهامات ما يؤيد وجهة النظر التى ارتضوها . وأما المؤمنون — مثل كاتب هذه الدراسة — بأن الدين هو أهم ما فى الوجود ؛ فإن هذا الإيمان يدفعهم إلى بسط وجهة نظرهم منفصلة . فهم يستعيدون ماضيا حافلا ، وإن كان قصيرا نسبيا ، ماضيا غاب فى طيات القديم ؛ ويتصورون مستقبلا يستمر أحقابا سرمدية ، إن لم تقطع طريقه قنبلة هيدروجينية أو غيرها من « روائع التكنولوجيا الغربية » .

(ج) صراع القلب والعقل :

كيف يتأق للنفوس فى نشدانها الإله أن تنتزع جوهر الدين من أحداثه ؟ وكيف تأق للمسيحيين والبوذيين والمسلمين والهندوكيين — منفصلين عن بعضهم بعضا — أن يحرزوا مزيدا من التقدم والازدهار فى عالم بات متحدا على نطاق عالمى واسع ؟

إن الطريق الوحيد المفتوح أمام هؤلاء الرفاق الباحثين عن الضياء الروحى ، هو الطريق الشاق الذى سلكه أسلافهم وبلغوا به درجة الاستنارة الدينية الماثلة فى الديانات العالية القائمة فى القرن العشرين بعد ميلاد المسيح^(١) وإن استنارتهم النسبية هذه لتُظهر بكل وضوح تقدما رائعا إذا ما قورنت بمرحلة الوثنية البدائية .

(١) تعليق تلقاه المؤلف من المستر مارتين وايت وطبع فى كتابه المطول « دراسة للتاريخ » المجلد السابع صفحة ٤٥٧ .

(٢) أى الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية والمهايانة . (المترجم)

لكنهم لن يستطيعوا البقاء طويلاً عند الجهود التي بذلها أسلافهم .
فقد أزهقهم صراع بين القلب والعقل ، وليس في استطاعتهم ترك هذا
الصراع دون حل ؛ ولا حل له إلا مزيد من الدفع الروحي إلى الأمام .

ويقضى حل هذا الصراع ، تفهيم كيفية نشوئه . وليس مبعث هذا
الصراع القائم بين القلب والعقل - لحسن الحظ - مجهولاً فقد تبدى في شكل
تأثير العلم الغربي الحديث على الأديان العليا ، وداهمها في مرحلة من سيرها .
حين كانت لا تزال تحمل قدراً من التقاليد القديمة لم تعد لها قيمة من أية
وجهة ، حتى ولولم تكن النظرة العلمية قد ظهرت إلى الوجود .

ولم يكن هذا أول صدام بين الدين والعقل ، عرفه التاريخ . فإن التاريخ
يظالعنا بحادثين سابقين على الأقل :

فلنذكر أولاً أقرب الحادثين ؛ وعسانا تذكير أنفسنا بأن كلا من الأديان
الأربعة العليا الحالية قد واجه لوناً قديماً من النظر العقلي خلال « عهد سابق » .
من تاريخه ، وأنه قد وُفق إلى مصالحته . وما القواعد الدينية المقررة في كل
عقيدة علياً إلا حصيلة توفيق تم بينها وبين فلسفة دنيوية جابقتها العقيدة
الدينية وقت نشوئها ، وألقت نفسها عاجزة عن نبذها أو إنكارها . ذلك
لأن هذه المدرسة الفكرية كانت تسيطر على الجوف الفكري الذي كانت تعيش
فيه أقلية مثقفة في المجتمع ؛ ذلك المجتمع الذي اعتبرته العقيدة الدينية وقتذاك
ميدان تبشيرها . فما اللاهوت المسيحي والإسلامي إلا عرضاً للمسيحية والإسلام
بأسلوب الفلسفة الهلينية . كما كان اللاهوت الهندوكي عرضاً للعقيدة الدينية
الهندوكية بأسلوب الفلسفة السندية . بينما كانت المهايانا إحدى مدارس الفلسفة
السندية التي حولت نفسها إلى دين دون أن تزول صفتها في نفس الوقت .
كفلسفة .

بيد أن هذا لم يكن أول فصول القصة :

فإن المدارس الفلسفية ، كانت تكون نظاماً فكرياً راسخاً في الوقت .

الذى عرفتها فيه الأديان العليا إبان نشوئها ؛ فكانت بذلك قوة فكرية دينامية . وفى إبان هذه المرحلة الباكرة من الحياة والنمو والازدهار - وهى مرحلة تمكن مقارنتها بمرحلة نمو العلم الغربى الحديث - جابهت المدارس الفلسفية الهلينية والسندية ، العقائد الوثنية التى ورثتها الحضارتان الهلينية والسندية عن الإنسان الأول .

ويبدو للوهلة الأولى كما لو أن هذين الحادثن السابقين قد عادا إلى الظهور : فإذا كانت البشرية قد أمكنها الصمود لاصطدامين فى الماضى بين الدين والعقل ، أفلا يتيسر التنبؤ بخروجها سليمة من الاصطدام الحالى ؟

مدار الإجابة عدم نشوء مشكلة الصراع بين العقل والدين فى الاصطدامين السابقين ؛ بينما لقيت هذه المشكلة فى الاصطدام الأخير حلا كان من قوة الأثر فى أهداف عصره وبيئته ، بحيث عاش ليغدو لبّ المشكلة التى تواجه عالم القرن العشرين الذى طبعه الغرب بطابعه .

لم تنشأ مشكلة التوفيق بين القلب والعقل عندما حدث الاصطدام بين فلسفة بازغة ووثنية موروثة ؛ ذلك لانعدام العلة التى تدفع الفريقين إلى الاصطدام . فإن العمل - لا الإيمان - هو لباب الدين البدائى . ولا تتوقف المشاركة فى الدين على قبول العقيدة ، لكنها تتوقف على المشاركة فى ممارسة الطقوس الدينية . وما مزاوله الطقوس الدينية فى الدين البدائى غاية فى ذاتها . ولا يعرض للمزاولين لتلك الطقوس أن يتطلعوا إلى ما وراءها ، بحثاً عن الحقيقة التى تحملها تلك الطقوس بين طياتها . وبكلمة أوضح ؛ لا تحمل هذه الطقوس فى الدين البدائى أى معنى سوى الإيمان بالأثر العملى الذى يُحدثه أداؤها على الوجه الصحيح .

وعلى هذا ؛ فإن قام فلاسفة فى ظل هذا الوضع الدينى البدائى وأخذوا على عاتقهم وضع الخطوط العامة التى تحدد البيئة البشرية على هدى قواعد

تقوم على العقل ، تدمغ أمراً بأنه « حق » وآخر بأنه « زائف » ؛ إن حدث هذا ، فلن يقع صدام بين العقل والدين ، طالما بقي الفيلسوف قائماً بواجباته الدينية المتوارثة . وليس ثمة في فلسفته ما يمنعه عن القيام بها ، نظراً لأن هذه الطقوس الموروثة خالية من أى شىء يتعارض مع أية فلسفة .

وهكذا ؛ واجهت الفلسفة والدين البدائى أحدهما الآخر دون أن يتصادما . ولهذا القاعدة استثناء واضح - على الأقل - ولكن طبيعته تختلف إن نُجِثَ عن قرب . فسقراط لم يكن من شهداء الفلسفة ، ولكنه لقي حتفه على أيدي الوثنية التي اضطهدته . وقد دلت دراسة ظروف مصرعه على أن الحكم عليه بالموت ، نتيجة من نتائج الصراع السياسى الوحشى بين الأحزاب المتنازعة ؛ ذلك الصراع الذى ظهر فى أعقاب هزيمة أثينا فى حرب البلوبونيز . ولو أن زعيم « الفاشست » الأثينيين لم يكن من بين تلاميذه ؛ لكان من المحتمل أن يموت سقراط فى فراشه بسلام ، مثلما مات كونفوشيوس ، نظيره فى العالم الصينى .

لكن إنبعث وضع جديد ، حالما ظهرت الأديان العليا إلى الوجود . وحقاً إن الأديان العليا قد سافت أمامها - وحلت معها - مجموعة ضخمة من الطقوس الموروثة التي كانت شائعة فى المجتمعات التي شهدت النشأة الأولى لهذه العقائد الجديدة ؛ إلا أن هذا الزبد لم يكن جوهرها بالطبع . والطابع الجديد المميز لهذه الأديان العليا ، أنها طالبت أتباعها بالولاء لها على أساس تلقى أنبيائها الوحي بانفسهم من لدن الله الكريم وعرض الأنبياء ما يوحى إليهم على أنه تعبير عن حقائق ؛ وبذلك يمكن أن تكون صدقا أو زيفاً .

وأياً ما تكون الحال ؛ أصبحت « الحقيقة » مجالا ذهنيا تختلف فيه الآراء . فهناك سلطانان مستقلان أحدهما عن الآخر :

الأول - الوحي النبوى .

الثانى : العقل الفلسفى .

ويطالب السلطانان كلاهما بالقوامة على ميدان نشاط الفكر بأسره .
وبالتالى ؛ استحال على العقل والوحى أن يعيشا بسلام جنباً إلى جنب ، على
غرار ما حدث قبلئذ من تكافل ودى متبادل بين العقل والطقوس الدينية .

وظاهر أنه قد أصبح للحقيقة أسلوبان فكريان يدعى كل لنفسه الحق
المطلق والمشروعية الجارفة ، ولكن يحافى أحدهما الآخر . ولا نجد إزاء هذا
الموقف الأليم ، إلا بديلين فحسب :

الأول : أن يتمكن أسلوبا الحقيقة ، اللذان يقومان جنباً إلى جنب ،
من التوفيق فيما بينهما .

الثانى : أو أن يصارع أحدهما الآخر حتى يصصره ، فيتم له إخراج خصمه
من الميدان .

وقد أمكن الفريقان المواءمة بينهما سلمياً عندما تلاقت الفلسفتان السندية
واليونانية مع الديانات المسيحية والإسلامية والبوذية والهندوكية . وفى هذه
المواءمة ؛ ارتضت الفلسفة ضمناً ، إرجاء توجيه النقد العقلى لما يتلقاه الأنبياء
من وحى ، وذلك مقابل السماح للفلسفة بأن تعيد تشكيل رسالات الأنبياء
فى أسلوب جديد هو أسلوب السوفسطائيين :

ولسنا نشك فى إخلاص الفريقين كليهما فى تقبل هذا الحل الوسط .
ولكننا نرى أنه ليس حلاً حقيقياً لمشكلة العلاقة بين الحقيقة القائمة على الفهم ،
والحقيقة القائمة على الوحى . وهذا الذى سُمى بالتوفيق بين نوعى الحقيقة
المائل فى أسلوب عقلى جديد دعى بـ « اللاهوت » لا يعدو أن يكون كلاماً .
وأتبنت الصيغ التى تنادى بها المعتقدات ، أنها لن تستطيع أن تدوم ؛ لأنها
تركزت المعنى المبهم للحقيقة ، على غموضه الذى ألفتة عليه .

وانحدر إلى الأجيال التالية ، هذا الحل الكاذب ؛ ليصبح عقبة كأداء
تأكثر منه عوناً مثيراً فى حل الصراع بين الدين والعقل فى العالم المعاصر الذى

طبعه الغرب بطابعه . ولن يأتي الاهتداء إلى الحل الصحيح إلا إذا اعترف بأن لفظ « الحقيقة » نفسه (سواء استخدمه الفلاسفة والعلماء أو استعمله الأنبياء) لا يشير إلى نفس الوقائع ، ولكنه « جناس »^(١) لنوعين مختلفين من التجربة :

وأصبح مقدراً للصراع أن ينشب مرة أخرى عاجلاً أو آجلاً ، نتيجة للحل الوسط الذى وصفناه . فإن فرض وصيغت حقيقة الوحي فى أسلوب الحقائق العلمية ، فإن رجال العلم لن يطبقوا حبس أنفسهم عن توجيه النقد لجماع مذهب يسوغ على نفسه صفة الحقيقة العلمية : ومن ناحية أخرى ؛ فإن المسيحية إذا ما استطاعت يوماً أن تصوغ مذهبها بأسلوب النظر العقلى ، فإنها لن تتخرج عن المطالبة بالهيمنة على ميادين المعرفة التى هى المجال الشرعى للعقل .

فما أن بدأ العلم الغربى الحديث فى إبان القرن السابع عشر فى التحرر من سحر فلسفة اليونان ، وأخذ يشق لنفسه أرضاً جديدة فى مجال الفكر والثقافة ، كان أول ما خطر على بال كنيسة رومة أن أصدرت حظراً على « عدوان » الفكر الغربى الناهض ، على حليفها القديم وهو الفكر اليونانى ، كما لو كانت النظرية اليونانية التى تقرر أن الأرض مركز النظام الشمسى ، دعامة من دعائم العقيدة المسيحية ، أو أن تصحيح جاليليو لبطليموس خطيئة دينية !!

وليت الحرب سجلاً بين الكنيسة والعلم ، وفى عام ١٩٥٢ يكون قد انقضت ثلاثمائة سنة على نشوبها ، وانتهت السلطات الكنسية إلى موقف أقرب ما يكون إلى موقف حكومتى بريطانيا وفرنسا عقب تدمير هتلر البقية الباقية من تشيكوسلوفاكيا فى مارس ١٩٣٩ . فما برح العلم خلال مائتى عام

(١) جناس : كلمة تشترك مع أخرى لفظاً وتخالفاً معنى . (المترجم)

ينتزع من الكنيسة مجالاتها ، مجالا بعد آخر . من ذلك أن العلم قد قبض على ناصية علوم : الفلك ، أصل الكون ، التأريخ ، الأحياء ، الطبيعة ، النفس وأعاد العلم صياغتها على قواعد لا تتمشى مع التعاليم الدينية المقررة . ولا تلوح للكنيسة - على مدى البصر - نهاية لخسائرها . وما تزال هناك طائفة من الهيئات الكنسية ترى في الإصرار على عدم التسليم للعلم ، أملها الوحيد في استبقاء نفوذها . وقد انعكس عنادها هذا في قرارات مجمع الفاتيكان عام ١٨٦٩ - ٧٠ ، وفي قرار الحرمان الذي أصدرته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عام ١٩٠٧ ضد ما أسمته بـ « الاتجاهات العصرية الضارة » .

أما عن الكنائس البروتستانتية وأمريكا الشمالية ، فقد تحصّنت خلف ما أسمته « قواعد الحزام الإنجيلي » . وبالمثل ؛ انعكس موقف العالم الإسلامي في الحركات السلفية المجاهدة التي انتشرت في ربوعه مثل الوهابية والسنوسية والمهدية ؛ على أن هذه الحركات لم تكن مظاهر قوة ، ولكنها علامات ضعف ؛ بل توحى إلى الأذهان بأن الأديان العليا تحث الخطي نحو حتفها . على أن توقع فقدان الديانات العليا ولاء البشر لها ، أمر ينذر بالبشر ؛ لأن الدين إحدى الملكات الضرورية للطبيعة البشرية . وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين ؛ يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي ، تضطره إلى التماس فتات الغزاء الديني على موائد لا تملك منها شيئا .

وأمامنا مثال قديم هو المسخ المدهش الذي خرجت بواسطته ديانة المهابانا من بين الفلسفة المحرمة على الأشخاص . وتعتبر أولى المحاولات التي بذلها تلاميذ سيدهارتا جواتاما لصياغة رسالة بوذا . وعندما تحولت البوذية من فلسفة إلى الدين ، كانت النتيجة الموفّقة ؛ عقيدة دينية عالمية :

بل لقد حدث خلال القرن العشرين في العالم ذى الطابع المسيحي ، أن جُرّدت النفوس الروسية من غذائها الديني الموروث ، فاستخلصت من الفلسفة المادية الماركسية ، تعاليم أصبحت تقوم لديها مقام العقيدة الدينية :

ولكن إن مُقدّر للأديان العليا أن تُقصَى عن الميدان ، لحدث فراغ يُخشى أن تشغله أديان دُنيا .

ألم يصبح المعتنقون للأيدولوجيات الدنيوية الجديدة — الفاشية والشيوعية والنازية وما في حكمها — من القوة بحيث نجحوا في تسنّم زمام الحكم في بلادهم وفرض مذاهبهم ورسومهم باستخدام أساليب القمع والاضطهاد ؟ وهذه الأيدولوجيات وأمثالها ؛ هي في صميمها عودة للإنسان إلى عبادته القديمة لذاته ، واستردادها حيويتها مستترة وراء القوة البدنية . بيد أن داء عبادة الذات ، لا يقتصر انتشاره على تلك الأيدولوجيات وأمثالها . فإن أخطر ظاهرة يواجهها العالم اليوم في البلاد المسلمة بديمقراطيتها وبعقائدها المسيحية ؛ أن أربعة أخماس عقيدة جمهرة السكان ، هي فعلا العبادة الوثنية البدائية للجماعة التي أصبحت موضع تأليه جمهرة الناس ، وهي عبادة تستر وراء كلمة لطيفة هي « الوطنية » .

على أن عبادة الذات الجماعية هذه ؛ لم تعد وحدها من بين أطيايف الماضي . فإن جميع الجماعات البدائية التي لا تزال باقية حتى اليوم وكذلك جميع طوائف الفلاحين في المجتمعات غير الغربية .. لا يكادون يقلّون بدائية عن تلك الجماعات ؛ وهم جميعا يبلغون في الوقت الحاضر ثلاثة أرباع البشر ، قد ينتمون إلى طوائف البروليتاريا الداخلية في المجتمع الغربي المتفخ . وفي ضوء السوابق التاريخية ، نرى أن الطقوس الدينية التي كان يمارسها أفراد البروليتاريا ، والتي رنا إليها هؤلاء الأقوام البسطاء الذين انضموا حديثا إلى ركب الحضارة الغربية ليجدوا فيها ما يشبع توقهم إلى الدين ؛ هذه الطقوس الدينية قد بدا أنها عرفت طريقها إلى القلوب الجوفاء لسادة هؤلاء البروليتاريين المضللين .

وفي ضوء ما ذكرنا ؛ نرى أن انتصار العلم على الدين انتصاراً ساحقاً ،

كارثة على العقل والدين جميعا . فإن كلا من الدين والعقل ، ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية . ففي خلال المائتين والخمسين عاما السابقة لشهر أغسطس عام ١٩١٤ ، مضى رجال العلم في الغرب يستخفهم اقتناع ساذج ، بأنه ليس عليهم كى يؤمنوا للعالم حياة أفضل ، إلا أن يعضوا يستخرجون مكتشفات جديدة كل يوم . وقال شاعرهم :

عندما يستكشف العلماء شيئا جديداً

نغدو أسعد حالاً مما كنا فيما مضى^(١)

على أن رجال العلم يرتكبون خطأين رئيسيين :

الأول : نسيان رجال العلم أن الرخاء النسبي الذى تمتع به العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، يعزى إلى مآثر العلم وحدها .

الثانى : ظن العلماء بأن هذا الرخاء النسبي سيدوم إلى الأبد .

حقاً ؛ إن الأرض التى كانت على بعد خطوات منهم ، كانت أرض الضياع ، لا أرض الميعاد .

والحق أن السيطرة على الطبيعة غير البشرية التى منحها العلم للإنسانية ، هى أقل للإنسان أهمية — إلى أقصى الحدود — من أهمية علاقاته بنفسه وبإخوانه البشر وصلته بالله . فما كان ليتأتى للعقل البشرى أن يجعل من الإنسان سيدا على العالم ، لو لم يوهب سلفه فى المرحلة السابقة على الإنسانية^(٢) ، القدرة على التحول إلى حيوان اجتماعى : ولكن الإنسان البدائى لم يرتفع إلى ذلك النبع الروحى ، بحيث يستطيع أن يتعلم ويأخذ من هذه المقومات الاجتماعية التى تكون الظروف التى لا غنى للإنسان العامل عنها كى يؤدى الأعمال القائمة على التعاون والتآزر .

(١) من شعر بيلوك فى الضوء الكهربائى ، حصل على جائزة شعرية فى ١٨٩٠ .

(٢) الحلقة التطورية التى سبقت مباشرة الحقبة الإنسانية . (المترجم)

على أن ما حققه الإنسان من مآثر فكرية وتكنولوجية ، لها أهميتها لشخصه ، لا في حد ذاتها ؛ وإنما بقدر ما ساقته إلى مجابهة القضايا الأدبية ومصارعتها . وبغير ذلك ، لعله يمضى في طريقه معرضاً عنها .

وعلى هذا ؛ فقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية بالغة الأهمية ، ولكن العلم الحديث لم يشارك في إيجاد حلول لها ، وما كان في وسعه أن يفعله . والواقع أن أهم الأسئلة التي ينبغي على الإنسان أن يجيب عنها ، ليس للعلم فيها قول . وهذا هو الدرس الذي سعى سقراط إلى تعليمه ، وقمنا نبذ دراسة علم الطبيعة ، بغية نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحية التي تعلن عن الكون ، وتحكمه .

هنا يتضح لنا ما هو المطلوب من الدين : إن عليه أن ينزل للعلم عن كل فرع من فروع المعرفة العقلية ومنها تلك التي اصطلحت التقاليد على أنها داخلة في اختصاصه ، واستطاع العلم أن يضمها إلى حوزته . ذلك لأن السلطان التقليدي الذي تمتع به الدين على ميادين المعرفة ، كان عرضاً تاريخياً . وقد ربح الدين كلما تخلى عن سلطانه القديم على ميادين المعرفة ؛ فإن معالجتها لم تكن أصلاً جزءاً من واجباته ومدارها توجيه الإنسان صوب غايته الحقيقية وهي عبادة الله ودخول ملكوته تعالى . وبهذا كسب الدين — دون شك — بتنأزله للعلم عن ميادين فكرية مثل الفلك وعلم الحياة (البيولوجية) وغيرها من ميادين المعرفة التي سردناها فيما سبق . بل إن نزول الدين للعلم عن ميدان « علم النفس » ، قد يكون مفيداً للدين بقدر ما هو مؤلم له . لأن اللاهوت المسيحي قد تخلص بذلك من طائفة من تلك الغيبات التي تمثل الآلهة في طباع البشر . وقد ثبت في الماضي أنها كانت أمتع حاجز قام بين النفس الإنسانية وخالقها .

فإذا استطاع العلم أن يفعل ذلك ، لأثبت — حقاً — أنه بدلا من

أن ينتزع النفس البشرية من الله ، قد دفع بها خطوة إلى الأمام تقربها من بلوغ غايتها الأبدية البعيدة .

ولو أمكن للدين والعلم كلاهما أن يصطدما في المجالات التي خصت كلا منهما ، بحيث يكون التواضع حيث ينبغي والثقة بالنفس حيث تجب ؛ لو تم هذا ، لربما وجد العلم والدين أنفسهما في النهاية وقد التقيا عند صيغة تمهد لإعادة التوفيق بينهما . إلا أن الشعور الطيب وحده لا يغني عن السعي ؛ فإذا أراد كل من الدين والعلم تحقيق عودة التوفيق بينهما ، فإن عليهما البحث في سبيل هذه الغاية عن جهد مشترك .

وقد عرف العلم والدين ذلك في الماضي عند ما تصادمت المسيحية بالفلسفة الهلينية ، واصطدمت العقيدة الهندوكية بالفلسفة السندية . لكن الفريقين المتصادمين وفقاً إلى حل سلمى أوقف الصراع بينهما ؛ مداره إضفاء تعبير لاهوتي على الطقوس الدينية ، واستخدام التعبيرات الفلسفية في سرد الأساطير . بيد أن التوفيق بين الفلسفة والدين ، قام على تشخيص فاسد للعلاقة بين الحقيقة الروحية والحقيقة العقلية ؛ وجاء ذلك عن افتراض خاطئ بإمكان صياغة الحقيقة الروحية في عبارات فلسفية . وهذا ما يدفعنا في عالم القرن العشرين الغربي الطابع ، إلى بذل النصح للقلب والعقل بالحنر من التردّي في مثل هذه التجربة التي لن يكتب لها النجاح في النهاية .

وحقاً ؛ إن افترضنا أطراح اللاهوت الموروث للأديان الأربعة العليا الحالية ، وأن يحل محلها لاهوت مستحدث يعبر عنه بمصطلحات العلم الغربي الحديث ؛ لما كان نجاح هذا العمل الجريء إلا مجرد تكرار لخطأ سابق . وتفسير ذلك أن اللاهوت المصاغ صياغة علمية (بفرض تصور حدوثه) سيثبت قصوره وفنائه على طول المدى . مثله مثل ضروب اللاهوت التي صيغت من قبل صياغة فلسفية فأصبحت وقت كتابة هذه السطور

تتدلى كأحجار الرحي حول أعناق البوذيين والهندوكيين والمسيحيين والمسلمين . إن الصيغة العلمية قاصرة ، لأن لغة الفكر أضعف من أن تنقل فراسة النفس . وهذه الصيغة العلمية فانية ؛ لأن إحدى مزايا البحث العقلي أنه دائم التحول ، وأنه يطرح جانباً النتائج التي سبق أن توصل إليها .

إذن ؛ ما الذي ينبغي أن يفعله القلب والعقل للتوفيق بينهما ، مسترشدين بإخفاقهما في الماضي في الوصول إلى صيغة تجمع بينهما في صورة لاهوت ؟

وهل ثمة منفذ لعمل مشترك يقومان به في اتجاه آخر أدعى إلى الأمل ؟

إن العقل الغربي ما يزال حتى كتابة هذه السطور ، مأخوذاً بالانتصارات المتوالية التي حققها العلوم الطبيعية والتي توجت حديثاً بالانتصار الرائع ، ألا وهو تحطيم تركيب الذرة .

ولكن ؛ إن صح القول بأن ميلاً واحداً يقطعه الإنسان في طريق سيطرته على الطبيعة غير البشرية ، لا يعدل في أهميته للإنسان بوصة واحدة يحرزها طريق تعزيز طاقته على التعامل مع ذاته ومع رفاقه ومع الله . إذا صح هذا ؛ لاتضح أن أعظم مآثر الإنسان الغربي في القرن العشرين لميلاد المسيح وأبهر أعماله إذا قيس بالماضي ، مداره فتح أرض جديدة في ميدان النفوذ إلى حقيقة الطبيعة البشرية .

وقد يتيسر إدراك ومضة من ضياء في أبيات نظمها شاعر إنجليزي أريب معاصر :

ما عادت السفن تعود زاهية عبر المحيط

من أقصى الأرض ونهاية العالم

عائدة إلى الوطن ، إلى ركن صغير من أوروبا

وقد أثقلها ما أمدّها به عالم كشف حديثاً . . .

وحتى مع ذلك ورغماً عن كل تغيير

يبقى ثمة عالم واحد ، ما فتى الخيال مشدوداً إليه

بعيداً في بحر غامض وعلى شاطئ غير معروف

لم يكشفه الإلسان إلا حديثاً

عالم من الأشباح والضباب الخفيف المسكون بالأرواح

عالم لا يرتاده رجال البحر ، ولكن علماء النفس

عالم ليس فيه خط استواء ، ولا خط طول أو عرض ، أو قطب

ولكن فيه خليط مضطرب محجّباً عن النفس البشرية^(١).

لقد كان ولوج الفكر العلمى الغربى فجأة إلى هذا الميدان ، ميدان علم النفس ، إلى حد ما ؛ أحد النتائج الفرعية للحربين العالميتين الماضيتين اللتين استخدم فيهما أسلحة قيمة بإحداث نتائج مدمرة هزت النفس البشرية . وقد أمكن الفكر الغربى بفضل التجربة الإكلينيكية التى لم تسبق من قبل ، استبانة أعماق النفس والإحاطة بخفايا الشعور الباطن . فكان أن أحرز فكرة جديدة عن نفسه ، باعتباره حارساً يهيمن على هذه السّجة النفسية التى لا يسبر غورها .

ويمكن تشبيه الشعور الباطن بطفل أو بهمجى ، بل بحيوان وحشى ؛ إلا أنه كذلك وفى نفس الوقت ، أشد من الشعور فطنة وأكثر أمانة وأقل منه تعرضاً للخطأ . إن الشعور الباطن عمل من أعمال الخالق الثابتة الكاملة ، أقامها جل شأنه لتكون مراکز انتظار . أما الشخصية البشرية الشعورية فإنها أبدأ غير مكتملة النمو . إذ تقترب دوماً إلى كائن أعلى منها بما لا يقاس . فهو الكائن الأعلى ، خالق هاتين الأداتين المختلفتين - وإن كانتا متلازميتين - المعبرتين للنفس البشرية : الشعور واللاشعور . وإذا كان قد أتبح للعقل الغربى الحديث ،

أن يكشف اللاشعور (الشعور الباطن) ليرى فيه — فقط — مادة جديدة لعبادة الوثنية ؛ فإنه يكون بذلك قد أقام بينه وبين الله حاجزاً جديداً ، عوضاً عن إغتنامه فرصة جديدة تزيده من الله قرباً ؛ وإنها — دون شك — الفرصة الجديدة للعلم والدين ، أجدر بهما أن ينتهزاها معاً لتحقيق مزيد من القرب من الله . ويتأتى ذلك بأن يتوفراً معاً على تفهّم مخلوق الله المتغاير — أى النفس — فى أعماق لاشعورها ، وفى سلوكها الشعورى على السواء ؛ فإن تأتى ذلك ، فأى كسب يناله العلم والدين جزاء وفاقاً لهذا الجهد المشترك ؟

حقاً ؛ إن الجزاء سيكون رائعا ؛ فإن اللاشعور — لا العقل — هو أداة الإنسان ووسيلته إلى حياته الروحية . إنها ينبوع الشعر والموسيقى والفنون المرئية ، وهى السبيل الذى تسلكه النفس إلى الاتحاد مع الله :

إن الهدف الأول لهذه الرحلة الفاتنة التى ترتادها النفس — أن تتغلغل بعيداً فى نبضات القلب . فإن للقلب عللاً خاصة به لا يدركها العقل .

والهدف الثانى للنفس البشرية من هذه الرحلة — أن تكشف عن طبيعة الاختلاف بين الحقيقة المطابقة للفعل ، والحقيقة التى يدركها الحس ، وتتعرف عليها البدنية . ومبعث الخلاف ، إيمان كل من الحقيقتين وحدها بأنها تملك الحقيقة الأزلية .

والهدف الثالث — محاولة العثور على القاعدة الأساسية للحقيقة الأزلية ؛ تلك القاعدة التى ينبغى أن تقوم عليها : الحقيقة العقلية ، والحقيقة الحدسية ؛

والهدف الأخير للنفس البشرية فى هذه الرحلة الروحية — أنها بوصولها إلى الصخرة القابعة فى أعماق عالم النفس ، يتأتى لها أن تبلغ مزيداً من الإلهام الكامل بالله القيوم :

وللأسف الشديد ؛ يتجاهل علماء اللاهوت — بخلوص نية — التحذير

للقائل « إن الله لن يرضيه أن يمنح شعبه الخلاص عن طريق الجدل »^(١) وهذا ما تردده الأناجيل بقولها « كابدوا أيها الأطفال الصغار ولا تمنعواكم إن صدوكم عن القدوم إلىّ ، لأن هذا طريق ملكوت السماء . . ولن تدخلوا ملكوت السماء حتى تؤمنوا وتصبحوا كما لو كنتم أطفالا صغارا » .

والحق أن اللاشعور — من وجهة نظر العقل — مخلوق يشبه الطفل من ناحيتين :

الأولى — من ناحية أنه في بساطة تفكيره يتمشى مع الله ويستجيب إليه تعالى . وهذا أمر يعجز العقل عن مجاراته .

الثانية — من ناحية انتفاء روح المنطق منه ، وهذا ما ينبذه العقل . وعلى العكس من ذلك ؛ يرى العقل ، اللاشعور متعلما^(٢) لا قلب له ؛ الشئى معجزة السيطرة على الطبيعة بضمن قوامه خيانة النفس . إن اللاشعور قد جعل رؤياد له تتضاعل وتغنى في وضوح النهار العادى ؛

على أن العقل بالطبع ليس عدو الله ، مثلما أن الشعور الباطن (أى اللاشعور) ليس في الحقيقة خارج نطاق الطبيعة . إن العقل واللاشعور كلاهما من عمل الله ، ولكل منهما ميدانه وعمله المقسوم له . ولا يقتضى الأمر أن يشهر أحدهما بالآخر ، إن صدقا عن العدوان ؛

٤ — بشائر مستقبل الأديان

إن جاز للجيل الذى ولد في القرن العشرين من ميلاد المسيح أن يتطلع إلى يوم ، يعود فيه القلب والعقل إلى الوفاق ؛ فلعله يأمل كذلك في حث القلب والعقل على أن يتلاقيا في التعرف على دلالة ماضى العقائد الدينية .

(١) صفحة ٤٢ من الفصل الخامس من الكتاب الأول Ambrose : De Fide .

(٢) المتعلم : مدعى العلم أو المتظاهر به . (المترجم)

وهذه الدراسة ؛ تقدم لنا نقطة بداية فى المرحلة الأخيرة من بحثنا عن العلاقة بين الأديان والحضارات .

وبعد أن أبان لنا البحث أن الأديان ليست سرطانات ، وأنها لا تعدو أن تكون يفعات^(١) عَرَضية ؛ ما برحنا نعم النظر فى احتمال كونها أنواعا عليا من المجتمع . ولن يمكننا إصدار حكم فى هذه القضية دون أن نتساءل عن الضوء الذى قد يلقيه ماضى الأديان على بشائر مستقبلها . وعلينا هنا أن نتذكر قبل أى شىء آخر ، أن الأديان وما تتضمنه من عقائد — فى قياس الزمن التاريخى — ما تزال فتنة إلى أبعد حد ، ويذكرنا هذا القول بأشودة شاعت فى أماكن العبادة إبان العصر الفيكتورى ، تضمنت :

تواصل الكنيسة المسيحية طريقها

بعيداً على مدى العصور

أن رحلتها الآن على وشك التمام

وتتوق إلى بلوغ موطنها

وحكى عن أحد رجال الدين أنه أوصى رعايا أبروشيته بتغيير السطر الثالث وقراءته « تكاد تبدأ رحلتها » . وهذا تغيير يتفق تماماً مع حقائق الموضوع كما يفهمها كاتب هذه الدراسة . إن الحضارات ليست إلا مخلوقات الأُمس القريب ، إن قورنت بالمجتمعات البدائية ؛ وعقائد الأديان العليا ، لم تبلغ من العمر نصف ما بلغته أقدم الحضارات :

فما هو الطابع الذى انفردت به العقيدة الدينية عن الحضارة والمجتمع البدائى . على السواء ، والذى جعلنا نعلم إلى تبويب العقائد الدينية واعتبارها أنواعا تتميز عن الجنس الذى يضم بين دفتيه كل نماذج المجتمع الثلاثة السالفة الذكر ؟

(١) دور من أدوار الحشرة سيما الفراشة . (المترجم)

إن الطابع المميز للعقائد الدينية ، اتصالها جميعاً بالله الواحد الحق . وبفضل هذه الصحية للإله الواحد الحق (صحة حاولتها الأديان البدائية وبلغتها الأديان العليا) ؛ بفضل هذه الصحية ، تأتي لهذه المجتمعات أن أن تبرز على طائفة من الفضائل لم تدركها المجتمعات البدائية أو الحضارات . فلقد زودتها بطاقة للتغلب على الخلاف القائم فيها ، وهو أحد أرزاء المجتمع البشرى المتأصلة فيه . إنها قدّمت حلاً لمشكلة معنى التاريخ .

والخلاف خصلة متأصلة في حياة البشر ؛ لأن الإنسان أسخف مخلوقات الدنيا التي يضطر الإنسان إلى ملاقاتها ، فإنه حيوان اجتماعي ، وهو مزود في نفس الوقت بإرادة حرة . وموئدى اجتماع هذين العنصرين ، أنه في مجتمع لا يتألف إلا من البشر ، لا مناص من حدوث صدام دائم بين إرادات الأفراد . وينتهى المطاف بمثل هذا المجتمع ، إلى نهاية انتحارية ؛ إلا إذا صادفت الإنسان معجزة الهداية .

وهداية الإنسان ، أمر لا بد من توافره لنيله الخلاص . فإن إرادته الحرة المنهومة ، تزوده بطاقة روحانية تعرّضه لخطر إبعاده عن الله . وما كان هذا الخطر ليحلّ بهذا الحيوان الاجتماعي — قبل أن يستحيل بشراً — ما لم يكن مزوداً بفضيلة — أو برذيلة — امتلاك طاقة روحانية مرتفعة فوق النفس اللاشعورية . ذلك لأن النفس اللاشعورية تتمتع — دون جهد — بنفس الانسجام مع الله ؛ انسجام تؤكده براءة النفس اللاشعورية لكل المخلوقات في رحلتها السابقة للأدمية .

لكن هذه الحالة السلبية^(١) الهيئّة ما لبثت أن تبددت عندما استكملت

(١) وهي ما يعبر عنها الأستاذ المؤلف بحالة « الين » وتعني حالة السكون . في حين يستخدم اصطلاح « اليانج » للتعبير عن حالة الحركة والانطلاق . والاصطلاحان كما مر بنا القول ، من أصل صيني . (المترجم)

المخلوقات شعورها وشخصيتها البشريتين في حركة من الانطلاق والاضطراب «
« فرّق الله فيها الضياء من الظلام » .

على أن نفس الإنسان الواعية ، تستطيع أن تكون أداة الله المختارة
لتحقق للإنسان تقدماً روحانياً معجزاً . لكنها قادرة كذلك على أن تفقد
نفسها إلى هاوية مؤسفة ، إن قادها إدراكها بأنها خلقت على صورة الإله ،
إلى عبادة ذاتها .

وهذا الافتتان بالذات بمثابة انتحار ، وهو ثمن خطيئة الكبرياء ؛ ضلال.
تعرض له نفس الإنسان دوماً ، وسط هذه البلبلة التي هي السمة الأساسية
للشخصية البشرية . ولن تستطيع الذات أن تهرب من نفسها المضطربة ،
بالعودة إلى عالم السكون السلبي الهنيء التي يدعوها الهنود بالنيرفانا^(١) . لأن
هذا العالم الذي يلتمس فيه الإنسان خلاصه لنفسه ، لا يقدم سلاماً قائماً
على إفناء الإنسان لذاته — وقد تراخت أعصابه — لكنه سلام يقوم على توازن
منشود كما يشدّ الوتر .

إن النفس البشرية بعد أن نبذت « سلوك الأطفال » ، تبذل جهداً
للتعبد فضيلة من فضائل الأطفال : إن على الذات أن تسترجع وفاقها
الطفولي مع الإله . عن طريق ممارسة رجولية للإرادة التي زوّدها بها الإله
لتفدّ مشيئته . فتتال بذلك غفرانه تعالى .

فإذا سلمنا بأن ذلك هو طريق الإنسان لخلاص نفسه ، فإن الطريق
وعر شاق . ذلك لأن العمل الجليل الذي قام به الإله وهو إيجاد « الإنسان

(١) حالة النبطة الكاملة التي تتمتع بها الروح في العقيدة البوذية بعد سلسلة طويلة
من التناسخ البشري والحيواني . ومعنى هذه الحالة بقاء الروح في حالة سكون — أى بعيداً
عن عمليات التناسخ — إلى جانب الروح العظمى (أى البوذا) . (المترجم)

العاقل»^(١) ، جعل من المتعذر — بنفس العمل تحوله إلى «إنسان مستسلم»^(٢) . فتعيّن على ذلك الحيوان الاجتماعى الذى غدا «إنسانا صانعا»^(٣) ، أن يأخذ بنزعة التضامن ؛ وإلا دمر نفسه بنفسه .

ولقد أوتيت كل جماعة بشرية ، قدرة الإحاطة والشمول التامين بفضل ما جبّل عليه الإنسان من ألفة وحسن معاشرة . وإن لم يتأت لأية جماعة بشرية حتى كتابة هذه السطور عام ١٩٥٢ ، أن تشمل العالم بأسره فى جميع مجالات النشاط الاجتماعى ، إلا أن الحضارة العلمانية الغربية الحديثة قد بلغت مؤخرأ فى المجالين الاقتصادى والتكنولوجى مكانة عالمية الطابع دون أن تدرك نجاحاً مشابهاً فى المجالين السياسى والثقافى . بل أصبح توحيد العالم السياسى أمراً مشكوكاً فيه ، بعد ما كابده العالم من تجربة مدمرة خلال حربين عالميتين ، دون أن يتعرض لتلك الضربة القاضية المألوفة التى ما برحت الثمن التقليدى للوحدة العالمية فى تواريخ الحضارات .

لكن اتباع هذه الوسيلة الفظة ، لن يحقق — على أية حال — وحدة الجنس البشرى . إن الوحدة المرتجاة ، لن تتم إلا نتيجة عَرَضية لعمل يستند على الإيمان بوحداية الله ، وعلى النظر إلى المجتمع الأرضى الموحد على أنه جزء من ملكوت الله .

ولقد صورَ فيلسوف غربى محدث ، الهوة التى تفصل بين الملكوت الإلهى والفسيح الأرجاء ، والمجتمع الدنيوى المغلق الذى تبديه الحضارات جميعاً ، كما وصف القفزة الروحية التى لن يتيسر بدونها عبور هذه الهوة ؛ صورَ ذلك ووصفه فى قوله :

. homo sapiens (١)

. homo concors (٢)

. homo faber (٣)

« خُلِقَ الإنسان ليعيش في مجتمعات صغيرة جداً ، وكون المجتمعات البدائية على هذه الصورة ، حقيقة أصبح مسلماً به بصفة عامة . ولكن على الرغم من تطور الإنسان الحضارى ، ما تزال النفس البشرية تحيا في ذاته ، تخفى تحت تلك العادات التى اولاها ما قدر للحضارات أن تخرج إلى الوجود إن الإنسان المتحضر يختلف عن الإنسان البدائى بذلك القدر الهائل من المعرفة والعادات التى اكتسبها . . . غير أن الإنسان الطبيعى ما يزال يردد تحت تلك الطباع المكتسبة ، ولم يصبه تغيير من الناحية العملية . . . إن من الخطأ القول (ادفع الطبيعية بعيداً ، تأتلك ركضاً) ؛ فلن يتيسر لك التخلص منها ، لأنها هناك دوماً . أن الحصول المكتسبة أبعد من أن تُلقح أو أن تنقل نفسها بالوراثة كما يظن الناس عادة . . . إن الطبيعة البدائية - وإن تبدت خامدة مكبوتة - تبقى في أعماق الشعور . . . إنها تظل تنبض بالحياة في أرقى المجتمعات حضارة . . . إن مجتمعاتنا الحضارية رغم أنها تختلف عن نوع المجتمع الذى خُلِقنا لنعيش فيه أصلاً ، وتشابهه في ناحية جوهرية ، فهما جميعاً مجتمعان مغلقان . ورغم ما يبدو من إتساع الحضارات إن قورنت بالجماعات الضئيلة التى هُيئت لها بالغريزة ، فإن لها مع ذلك نفس الخاصية ، وهى أنها تضم بين ظهرانيها أقواماً وتُقصى آخرين . إن بين الأمة - أياً ما تكون ضخامتها - وبين البشرية ، من البعد ، ما بين المتناهى واللامتناهى ، بين المغلق والمفتوح .

« إن ثمة بين المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح ، أى المدينة والبشرية ، اختلاف ، لا من حيث الدرجة ، ولكن من حيث النوع . إن تضامن الدولة ، يُعزى أساساً إلى حاجتها للدفاع عن نفسها ضد عدوان الدول الأخرى . وإن الفرد يجب مواظبه لأنه يكره الأجانب . تلك هى الغريزة البدائية ، وما تزال راقدة هناك تحت قشرة الحضارة السطحية . إننا ما زلنا نشعر بحب طبيعى لذوى قربانا وجيراننا في حين أن حب البشرية حسن مكتسب : إننا نصل

إلى النوع الأول من المحبة مباشرة ، أما النوع الآخر ، فنبلغه بعد أمد . ذلك لأنه عن طريق الله وحده ، يهدى الدين الإنسان إلى محبة الجنس البشرى ؛ مثلما أنه عن طريق العقل وحده يلمتنا الفلاسفة ما للشخصية البشرية من عزة وكرامة ، وما للناس جميعاً من حق أن يكونوا موضع الاحترام . ولئن يتأتى لنا - سواء في الحالة الأولى أو الثانية - إدراك فكرة البشرية على مراحل : مرحلة العائلة ومرحلة الأمة ^(١) .

أجل ؛ لن نتحقق للبشرية وحدتها المرتجاة ، من غير مشاركة الله . فلو أسقطت البشرية المرشد العلوى من اعتبارها ؛ لاندفع الإنسان إلى الفتنة والتنافر ؛ وهو ما يخاف طبيعته القائمة على الألفة وحسن المعاشرة . ولعذبه ذلك الحس من العناء الكامن في نفسه ، بحكم كونه كائناً اجتماعياً ؛ ذلك العناء الذى يزداد حدة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعية ، طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره في مجتمع نبذ الإله الواحد الحق الصمد . وهذا العناء ناجم من أن الجهد الاجتماعى الذى يبذله المرء ليستكمل ذاته ، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض زماناً ومكاناً .

وعلى هذا ؛ يصبح التاريخ عند كل امرئ يشارك فيه - على حدة - مجرد « حكاية لا معنى لها يرويها أبله » . لكن هذا الشيء الذى لا معنى له ، يكتسب معنى روحياً ، عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو ؛ قد تكون الحضارة - أية حضارة - ميداناً للدراسة مفهومها بعض الوقت . إلا أن ملكوت الله ، هو ميدان العمل الوحيد المسلم به أخلاقياً . وتُهيئ الأديان العليا للنفس البشرية ، لإكتساب

(١) صفحات ٢٤ - ٢٨ و ٢٨٨ و ٢٩٣ و ٢٩٧

Bergson H. : Les Deux Sources de la Morale et de la Religion.

(١٣ - ٢ ج)

رعوية هذه الدولة الإلهية ، على الأرض ؛ ففتاح للإنسان - من ثم - المساهمة بقسط غاية في الضالة ، في سير التاريخ الديوى . قسط يكفل له تأدية دوره على الأرض ، ولكن على اعتبار أنه مساعد لإرادى لإله . يُضفى سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته على الدنيا ؛ يُضفى عليها قيمة ومعنى ربانيين ، بدون ذلك تصبح جهوده حقيرة تافهة . وليس أدل على عِظَم هذا الدور الإلهى ، أنه فى عالمنا الغربى الديوى الطابع ، نجد القائلين بالمذهب العقلى^(١) ممن نبدوا المسيحية . يستخلصون للتاريخ فلسفة يستخدمون فيها المصطلحات المسيحية . وقد فسر ذلك أحد المفكرين بقوله :

« ذلك لأن المسيحيين بإيمانهم بالإنجيل وبالكتاب المقدس وبقصة الخلق وإعلان ملكوت الرب ؛ استطاعوا الإقدام على تركيب « جماعية التاريخ »^(٢) أو شموله . ولم تفعل كل المحاولات التالية من نفس النوع ، إلا أنها أحلت محل الغاية السامية التى أكدت وحدة التركيب فى العصور الوسطى ، قوى ذاتية مختلفة استخدمتها كبديل لله ؛ ولكن بقيت جميع المحاولات فى جوهرها واحدة . وكان المسيحيون أول من أدركوا ذلك : وهو أن يقدموا لشمول التاريخ تفسيراً مفهوماً يفسر أصل البشرية ويحدد غايتها .

« يستند المذهب الديكارتى كله على فكرة وجود إله قادر على كل شيء ، أوجد بطريقة ما نفسه بنفسه . وخلق بطريق المصادفة^(٣) ، الحقائق الأزلية ومنها حقائق الرياضيات . وخلق كذلك الكون من العدم ؛ وهو يحافظ عليه بالخلق المتصل الذى بدوره تتردى جميع الأشياء إلى العدم من حيث انتشلتها مشيئته تعالى . . تأمل قضية ليبنتز^(٤) ... ماذا يبق من فلسفته

(١) المذهب العقلى ، مذهب لا يقر إلا ما يطابق العقل الحر . (المترجم)

(٢) من حيث الكل أو المجموع . (المترجم)

(٣) A fortiori .

(٤) ليبنتز : فيلسوف ألماني (١٧٦٦ - ١٨٤٠) . (المترجم)

لو استُصِفَت منها العناصر المسيحية الأصلية ؟ بل لن يبق منها وصفه لمشكلته الأساسية وهي ماهية الأصل الأول للأشياء وخلق الكون على يد إله كامل حر الإرادة . . . أن ثمة حقيقة غريبة - وإن كانت لا تساوى شيئاً - مؤداها أن معاصرنا إذا كانوا لم يعودوا يلجأون إلى « مدينة الله » وكتابه المقدس - على نحو ما لم يتردد لينتز في فعله - فإنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم خلصوا من تأثيرهما . إن كثيرين منهم إنما يعيشون على ما آثروا إنكاره » (١) .

وأخيراً ؛ لا تتحقق بشائر التطهر من الأدران ، في مجتمع يعكف على عبادة الإله الواحد الحق ؛ وهو ما وصفناه في موضع سابق من هذه الدراسة بـ « مجازفات المحاكاة » . إن نقطة الضعف في التشريع الاجتماعي للحضارة ، تكمن - كما رأينا - في اعتمادها على المحاكاة (أى التقليد) كوسيلة للتدريب الاجتماعي الذي يكفل اقتفاء جماهير البشرية إثر زعمائها .

وتتجه جماهير العامة إلى الاستعاضة عن محاكاة أجدادها ، بمحاكاة الشخصيات البشرية المبدعة في عصرها . ويتم ذلك عند تحول الحضارة من حالة الهدوء الراكد إلى حالة النشاط (٢) ؛ ذلك التحول الذي يحدث إبان نشوء حضارة ما بوساطة تبدل يلم بطابع المجتمع البدائي . بيد أن الطريق الواسع الذي يفتح للتقدم الاجتماعي بهذه الطريقة ، قد ينتهي إلى أبواب الفناء ؛ طالما لا يتيسر الإبداع لأى إنسان إلا في نطاق محدود ، ولن يستقر له الإبداع طويلاً . عندئذ لا مناص له - على طول المدى - من مجاهدة فشل محتوم بتولد عنه حتماً ، تبديد الأوهام التي سيطرت عليه طوال فترة تمتعه

(١) صفحات ٣٩٠ - ١ - و ١٤ - ١٧ من الترجمة الإنجليزية .

Gilson E. : The Spirit of Medical Philosophy.

(٢) أى من حالة الين الساكنة إلى حالة اليانج الحافلة بالحركة ، وفقاً لتعبير

الأستاذ المؤلف كما سبق لنا بيانه ، (المترجم)

بميزة الإبداع . هنا ينزع الزعماء ، وقد تجردوا من أهليتهم للزعامة المبدعة ؛ إلى اللجوء إلى القوة ، ليحتفظوا لأنفسهم بسلطان زال عنهم معنويا .

ويختلف الحال في ملكوت الرب عنه في المجتمعات الدنيوية . إذ يتيسر في ملكوت الرب اتقاء هذه المجازفة ، بفضل انتقال جديد حيوى للمحاكاة ؛ من محاكاة الجماهير لزعماء الحضارات الدنيوية - وهم بعد بشر محكوم عليهم بالفناء - إلى محاكاتهم إليها هو مصدر الإبداع البشرى بأسره .

وهذه المحاكاة للإله ؛ لن تعرض النفوس البشرية التى تنذر نفسها له تعالى ، لهذه الحالة من تبدد الوهم ؛ حالة لا بد وأن تلحق بأولئك الذين يحاكون حتى أشد البشر شبها بالله . لكن اتصال الروح بالله الواحد الحق ، محال أن ينحدر إلى عبودية لطاغية غشوم ، مثلما يحدث لمن يلتزم محاكاة البشر . وهذا ما يوضحه كل دين من الأديان العالمية بدرجات متفاوتة . ففى كل منها نجد روبا الله كقوة وسلطان ، تتجلى فى رؤياه تعالى كمحبة .

وإن إبراز هذا الرب العطوف كإله ميّت^(١) تجسّد فى إنسان ، يعتبر نضالا للعدالة الإلهية ضد الخطيئة ، تجعل لمحاكاة المسيح مناعة تجنبها المأساة التى تقترن بكل محاكاة للشخصيات الإنسانية الداوية .

الفصل السابع والعشرون

دور الحضارات فى حياة العقائد الدينية

(١) الحضارات افتتاحيات

إن أقنعنا الاستقصاء الآنف الذكر بأن العقائد الدينية العليا ، صور مختلفة على الأرض قريبة الشبه بملكوت الرب ، وأن نوع المجتمع الذى تمثله دولة الرب - وهو نوع فريد فذ - يعتبر أرقى روحانية من جميع الأنواع التى تمثلها الحضارات ؛ فإن إقتناعنا هذا ، ليشجعنا على المضى قدما فى تجربة أخرى تقوم على عكس افتراضنا القائل بأن دور الحضارات أعظم فى التاريخ سلطانا ، وأن دور العقائد الدينية هو دور التابع .

وبالتالى ؛ عوضاً عن بحث الأديان من خلال دراسة الحضارات سنجازف بالسير فى اتجاه جديد ، هو بحث الحضارات من بين ثنايا بحث الأديان ؛ فإذا بحثنا عن سرطان اجتماعى ، سنلقاه - وفقاً لهذا القياس - لا داخل ديانة تحل محل حضارة ، ولكن سنجدّه داخل حضارة تحل محل ديانة .

وإذا كان بحثنا الماضى قد قادنا إلى اعتبار الديانة يفعة تعيد من خلالها حضارة قديمة شخصيتها من جديد ؛ يتعين علينا الآن أن نفكر فى الحضارة الوليدة باعتبارها افتتاحية أو مقدمة لظهور عقيدة دينية ، وأن ننظر إلى الحضارة الفرعية على أنها نكوص^(١) عن المستوى الرفيع الذى بلغته الحياة الروحانية من قبل .

(١) النكوص : رجوع انحلالى إلى أحد الأطوار السابقة فى التطور الحضارى .
(المترجم)

ولو جعلنا من نشأة الكنيسة المسيحية اختباراً لصحة هذه القضية ،
مستشهدين في اختبارنا بالبيئة البسيطة - وإن كان لها دلالتها - التي يقدمها
تحول الألفاظ من نطاق المعنى والاستعمال الدنيوي إلى مجالها الديني ؛ لو اتبعنا
هذا ، لألفينا هذه البيئة اللغوية تؤيد الفكرة القائلة بأن المسيحية منهاج ديني
ذو افتتاحة دنيوية . وإن هذه الافتتاحة لا تتألف فقط من نجاح الرومان
السياسي في تشييد دولة عالمية هليئية ؛ لكنها تتضمن كذلك الحضارة الهلينية
بجميع أطوارها ومظاهرها .

وحقاً ؛ تدين الكنيسة المسيحية باسمها ذاته ، إلى مصطلح ففي سبق أن
استخدمته دولة مدينة أثينا للتعبير عن الجمعية العامة للمواطنين التي كانت
تعتقد لتبادل الرأي في الشؤون السياسية . لكن الكنيسة باستعارتها لفظ
« المجتمع ecclesia » قد أعطته معنى مزدوجاً كان بعكس النظام السياسي
للإمبراطورية الرومانية . إذ غدا الاستعمال المسيحي للفظ « المجتمع ecclesia »
يعني الجماعة المسيحية المحلية ، والدين العالمي على السواء .

وانعقدت الكنيسة المسيحية - في مدلولها المحلي ومستواها العالمي - على
طبقتين دينيتين : العلمانيون ، والأكليروس . ثم نُظِمَ الأكليروس في رتب
كهنوتية متدرجة .

عندما حدث هذا ؛ ولّت الكنيسة وجهها شطر الألفاظ الدنيوية
اليونانية واللاتينية ؛ تستعير منها ما يعوزها من مصطلحات فنية . وعلى
هذا النحو :

١ - اشتقت الكنيسة كلمة « غلماني » من كلمة Laos « اليونانية
وتعني جهرة الناس ، تمييزاً لهم عن يدهم الحكم والسلطان .

٢ - اقتبست كلمة الأكليروس للتعبير عن رجال الدين من كلمة
Klêros اليونانية . وتعني بصفة عامة ، النصيب المعين في ضيعة موروثه ؛

وقد تبنّت الكنيسة اللفظ اليونانى لتدل به على هذا البعض من الجماعة المسيحية التى اختصها الله لخدمته تعالى بوصفهم كهنته المحترفين .

٣ - استعارت الكنيسة ألقاب رجال الدين^(١) من ألقاب الطبقات المتمتعة بالامتيازات السياسية فى الجهاز الرومانى السياسى ، مثال ذلك ألقاب السناتو^(٢) .

٤ - أصبحت أعلى طبقات رجال الدين تعرف بالأساقفة ، والمعنى الحرفى للفظ هو « المراقبون » أى Eblscopos .

٥ - أن الكتاب المقدس للكنيسة المسيحية - حيث لا يشار إليه باسم « الكتب Biblia » - أخذ من مصطلح كان شائعاً بين مصطلحات الضرائب داخل الدولة الرومانية ، وهو Scriptura . أما بالنسبة للعهدين القديم والجديد ، فكان يطق عليهما لفظ Diathekai اليونانى و Testamenta اللاتينى . إذ اعتُبرا بمثابة وثيقتين شرعيتين أو عهدين ، أعلن الرب بهما إلى البشرية - على دفعتين - مشيئته ووصيته لتنظيم حياة البشر على وجه الأرض .

٦ - أن التدريب Ascêsis الذى أخذت به الصفوة الروحية المختارة من النساك فى أيام الكنيسة الأولى نفسها ، اشتق من التدريب الجسمانى الذى كان يخضع له الرياضيون الذين كانوا يُدرَّبون للاشتراك فى الألعاب الأولمبية وما فى حكمها من المباريات الرياضية الهلينية .

وفى القرن الرابع الميلادى ، استُبدل بتدريب المرء ليكون شهيداً ، تدريبه ليكون زهداً . وغدت الحنة التى يواجهها هذا النموذج الجديد نقي أبطال المسيحية ، أن يثبت تحمله عزلة الصحراء ، بدلا من مجابهة

(١) Ordines .

(٢) وكان يستخدم بمجلس الشيوخ الرومانى . (الترجم)

المثول علانية أمام القضاة أو حلبات الصراع . حينئذ وجدت الكنيسة طلبتها في الكلمة اليونانية Anachorêtês التي كانت تطلق في الأصل على الأشخاص الذين يعزلون حياة العمل ؛ إما لتكريس أنفسهم للتأمل الفلسفي ، أو احتجاجاً على الضرائب الفادحة . وأطلق هذا التعبير بصفة خاصة على النصارى الذين غمرتهم الحماسة وخاصة في مصر ؛ فانسحبوا إلى الصحراء (في أديرة يقطنها الزاهد أو الناسك Erêmos) إلتامساً للاتصال بالله واعتراضاً على آثام الدنيا . وعندما أخذ هؤلاء المتفردون أو الرهبان Monachoi (وهذا اللفظ يبين حقيقة المعنى الخرفي لإسمهم من العزلة والتفرد) يعيشون في جماعات منظمّة ؛ استعارت الجماعة اسمها اللاتيني « الدير Conventus » من كلمة جمعت في الاستعمال العلماني بين معينين هما : اجتماعات الحى والغرفة التجارية .

وعندما تبلورت الإجراءات الشكلية الأولى في الاجتماعات الدورية لكل كنيسة محلية في شكل طقوس شاقة عنيفة ، اشتقت هذه « الخدمة الدينية العامة (أى القداس Leitourg) » اسمها عن النفقات الاختيارية - اسماً - التي كانت تعرف في أثينا إبان القرن الخامس قبل الميلاد بهذا الإسم الشرفي المستعار ، إخفاء لحقيقة كونها بالفعل ضرائب إضافية إجبارية . وبلغت هذه الطقوس ذروتها في « القربان المقدس » ، ويعنى مشاركة المسيح في العشاء الربانى - وقوامه تناول الخبز وشرب النبيذ - والرمز إلى رفقة المسيح وصحبته . إن هذا العشاء الربانى المسيحى ، قد استعار اسمه Sacramentum من أحد الطقوس الرومانية الوثنية ، حين يُنذر المجند الحديد نفسه للجيش الرومانى . أما القربان المقدس (ويضلل إلى ذروته في العشاء الربانى) فقد اتخذ اسمه من كلمة تعنى من لفظها اليونانى Koinônia (وترجمته اللاتينية Communio) المشاركة في أية مصلحة اجتماعية ؛ ولكن في جماعة سياسية أولاً وقبل كل شئ .

إن استخلاص معنى روحى من معنى مادى ، عملية دعوناها بـ « الأثرية »^(١) فى موضع سابق من هذه الدراسة ؛ وسلّمنا بأنها دلالة التقدم والارتقاء . وهذا ما لجأت إليه الكنيسة المسيحية وقتما عمدت إلى « أثرية » الألفاظ اليونانية واللاتينية ذات الأصل المادى ؛ وهو أمر يمكن أن يستمر ، ويكفى هنا للتدليل على أن الهلينية كانت تحضيراً حقاً للعقيدة المسيحية . وأتينا فى بحثنا عن مبرر وجود الهلينية فى ضوء الخدمة التى أدتها الهلينية كتمهيد للمسيحية ، قد وقفنا - على أية حال - فى أول طريق يبشر بالأمل .

وعلى هذا النحو ، عندما تصبح حضارة تحضيراً لميلاد عقيدة دينية ، فإن انتهاء تلك الحضارة - التى أرهست بظهور تلك العقيدة - لا يكون كارثة ، ولكن خاتمة طبيعية للقصة .

(٢) الحضارات نكوص^(٢)

اعتنقنا فى دراستنا لتواريخ الأديان ، وجهة نظر تخالف النظرة الغربية الحديثة التى تهتدى بتاريخ العقائد الدينية خلال بحثها تاريخ الحضارة . فكان أن قادتنا وجهة النظر هذه ، إلى اعتبار حضارات الجيل الثانى مقدمات للأديان العليا التى لا تزال قائمة حالياً . ويتفرع عن ذلك ؛ النظر إلى هذه الحضارات ؛ لا على أنها انتهت إلى العجز الذى دمجها بالسقوط والتحلل ، بل على أنها حققت نجاحاً وتوفيقاً ؛ بما أسدته من عون لهذه الأديان العليا فى انبعاثها إلى الوجود .

وتصل بنا هذه المطابقة ؛ إلى اعتبار حضارات الجيل الثالث ،

(١) الأثرية : جعل قوام الشئ المادى أثرياً أى شفافاً . ويقصد به معنى : التناهي من المجال المادى إلى الروحانيات . (المترجم)

(٢) يقصد بالنكوص : الرجوع الانحلال إلى أحد الأطوار السابقة فى عملية الارتقاء . (المترجم)

«نكوصاً» عن الأديان العليا التي قامت من بين أطلال الحضارات السابقة . فإذا اعتُبرت النتائج الروحية التي ترتبت عن الحضارات التي انقضى أجلها ، شفيحاً لها عن فشلها في المحيط الدنيوي المادى ، فإن المآثر الدنيوية للحضارات الحالية في تفجيرها من أصولها الدينية ، واتجاهها إلى حياة دنيوية جديدة ، ينبغي بالمثل أن يحكم عليها وفقاً لمقياس تأثيرها على حياة الروح . وواضح أن هذا التأثير عكسى .

فإن جعلنا من تفجير الحضارة الدنيوية الغربية الحديثة عن الجماعة المسيحية إبان القرون الوسطى ، موضع تجربة - مستهدين بطرائق بحثنا الواردة في النصف الأول من هذا الفصل - فهأهنا نقفز أمامنا كلمات غدت تُستخدم في الحياة الدنيوية ؛ وكانت تستعمل في المجال الدينى من قبل . ولعل الاستشهاد بالتغيرات التي طرأت على معانى مواضع استخدامها ينير لنا سبيل البحث . من ذلك كلمة Cleric ؛ فقد استُخدمت في الأمور الدينية وفي الحياة الدنيوية حيث أُطلقت على الكاتب المتواضع الذي يؤدى في إنجلترا العمل الكتابي القليل الأهمية ، والذي يقبع في أميركا وراء منضدة في مخزن . وكلمة « التحويل » conversion « ، كانت تستخدم وقتاً ما بمعنى هداية النفس إلى الله ، أصبحت أكثر استعمالاً لتعنى تحويل الفحم إلى طاقة كهربية أو تحويل احتياطى ٥٪ إلى احتياطى ٣٪ . وإننا نسمع الآن القليل عن « علاج النفوس » بينما نسمع الكثير عن دور الأدوية في علاج الأجسام . وأصبحت كلمة اليوم المقدس Holy Day ، كلمة واحدة تعنى العطلة Holiday .

بشير هذا كله إلى عملية ارتداد من الأثرية إلى المادية ؛ عملية تُنبئ عن تحوّل - لا شك فيه - نحو الحياة الدُّنيا .

« كان فردريك الثاني^(١) تلميذاً روحياً للبابا اينوسنت العظيم الذى جعل من الكنيسة دولة ، كان رجلاً مثقفاً . ولن نستغرب إذ نجد فكرته عن الإمبراطورية ، انعكاساً لتنظيم الكنيسة . فإن الدولة الإيطالية لصقلية بأسرها التى اشتهاها الباباوات متلذعين بأنها ميراث آل إلهيم عن القديس بطرس ، قد استحوطت ميراثاً دنيوياً آل إلى هذا العاهل الموهوب عن قيصر . وقد عمل فردريك الثانى على أن يطلق عقال الطاقات العلمانية والثقافية التى كانت متمزجة بعضها ببعض ، فى الوحدة الروحية للكنيسة ؛ وعلى قاعدتها يشيد إمبراطورية جديدة . . . فلتفهم المغزى الكامل لدولة فردريك الإيطالية الرومانية وقوامها ملك إيطاليا جامع يضم بين ظهرانيه خلال فترة قصيرة ، عناصر جرمانية ورومانية وشرقية . ويقوم على رأسها فردريك نفسه — إمبراطور العالم ، السيد الكبير والطاغية العظيم — آخر من تقلد إكليل روما من الأمراء ، الذين لم تتمزج قيصريتهم بالملكية الجرمانية فحسب — كما كانت قيصرية برباروس — ولكنها امتزجت كذلك بالطغيان الصيقلى الشرقى . فإذ تفهمنا هذه الفكرة ، استبان لنا أن جميع الطغاة الذين أنجبهم عصر النهضة أمثال « سكالاسcala »^(٢) و « مونتفلتر Montefeltre »^(٣) و « فيسكونتى Visconti »^(٤)

(١) فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠) : توج فى سنة ١١٩٨ ملكاً على صقلية . وفى نفس السنة ماتت والدته فأصبح تحت وصاية البابا اينوسنت الثالث . وفى عام ١٢١٢ انتخب إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأصبح عام ١٢٢٥ حاكماً لألمانيا المطلق . وفى عام ١٢٢٨ اشترك فى الحروب الصليبية وأعلن نفسه عام ١٢٢٩ ملكاً على بيت المقدس . على أن البابا جريجورى التاسع استطاع خلال غيبته فى الأراضى المقدسة ، اجتياح أملاكه فى إيطاليا ، لكن فردريك استطاع بعد عودته استرداد أملاكه وعقد معاهدة سان جرمانو مع البابا . (المترجم)

(٢) سكالاسcala : اسم يطلق على عائلة إقطاعية حكمت فيرونا بإيطاليا ابتداء من عام ١٢٥٩ حتى عام ١٢٨١ . (المترجم)

(٣) مونتفلتر : إحدى العائلات الإقطاعية الإيطالية . (المترجم)

(٤) فيسكونتى : عائلة إقطاعية حكمت ميلانو بشمال إيطاليا منذ عام ١٢٦٢ .

(المترجم)

و « بورجيا Borgia »^(١) و « مديشى . . إلى من جاء بعدهم من صفار الطغاة : هم حفدة وخلفاء فردريك الثانى ، وهم بالنسبة إليه كقواد الإسكندر الأكبر^(٢) ، (٣) .

وفى مكنننا الاسترسال فى إيراد هذه القائمة من خلفاء فردريك هو هشتافن من أمثاله الطغاة ، حتى القرن العشرين من ميلاد المسيح . ولعل الحضارة الدنيوية للعالم الغربى الحديث ، هى فى جانب من جوانبها ، إنبثاق عن روحه . ومن السخف أن نلقى جميع الأخطاء التى ارتكبت إبان الصراع بين البابوية والإمبراطورية على عاتق أى من الفريقين دون الآخر . على أن ما يعنيننا فى هذا المقام ، هو أن نلاحظ كيف أن تفجير حضارة دنيوية من رحم الجمهورية المسيحية^(٤) ، قد تحقق عملياً بفضل انبعاث النظام الهليني الماثل فى الدولة « المطلقة السلطان » التى تجعل من الدين ، واحداً من فروع سياساتها .

هنا نوجه إلى أنفسنا السؤال التالى :

عندما تنبثق إحدى حضارات الجيل الثالث عن نظام دينى ، فهل

(١) بورجيا : عائلة إسبانية الأصل ، إستقرت بإيطاليا وأصبح أحد أفرادها عام ١٤٥٥ بابا تحت اسم كاليكس الثالث . كما تولى عرش البابوية فرد آخر هو إسكندر السادس . وأمكن العائلة بفضل نفوذ أفرادها الدينى واستمائها بكافة الوسائل ، تولي مناصب ضخمة فى أنحاء إيطاليا ، سيما فى المناطق التى خضعت لسلطانها .
(المترجم)

(٢) قواد الإسكندر الأكبر : يمرنون اصطلاحاً بـ « الديادوتشى Diadochi » . وقد حارب بعضهم بعضاً خلال أعوام ٣٢٣ - ٢٨١ ق . م لتقسيم إمبراطوريته الضخمة . وأهم هؤلاء القواد : أنتيباتر Antipater الوصى على مقدونيا وبطليموس الذى استأثر بملك مصر ، وسلوقوس الذى امتلك بابل . (المترجم)

(٣) صفحات ٥٦١ - ٢ و ٤٩٣ - ٤ من الترجمة الإنجليزية ، Kantorwicz : C : Frederick The Second .

(٤) الجمهورية المسيحية ترجمة لاصطلاح Respublica Christiana وتعنى الجماعة المسيحية . (المترجم)

يعتبر بعث حضارة تنتمي بأصولها إلى الجيل الحضارى الثانى ، أداة أكيدة لا غناء عنها للبلوغ غاياتها ؟ .

تتضح الإجابة عن السؤال ، إن أمعنا النظر فى تاريخ الحضارة الهندية . فلن نجد فيها مثيلا فى بعث إمبراطورية المورياس أو الجوبتاس . لكن أن تحولنا من الهند إلى الصين ، ونظرنا إلى تاريخ حضارة الشرق الأقصى فى موطنها - الصين - لاهتدينا بالفعل إلى شبيه لإنبعاث الإمبراطورية الرومانية يماثله تماماً . هذا الشبيه يتجلى لنا فى صورة مذهلة لا تخطئها الفراسة ، فى إنبعاث أسرى « سيوى Siu » و « تانج Tang » فى إمبراطورية هان . لكن ثمة اختلاف مداره فى الحالتين أن بعث الروح الإمبريالية فى الصين ، كان اعظم نجاحاً وأشد توفيقاً من حركة البعث الهليني للإمبراطورية « الرومانية المقدسة » . كذلك كان بعث الإمبريالية الصينية أكثر نجاحاً من قرينه ، البعث الهليني للإمبراطورية البيزنطية ، فى محيط المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الشرقى .

ومما له دلالة فى موضوع بحثنا الحاضر ؛ أن الحضارة المتنامية إلى الجيل الحضارى الثالث - وهى التى طفق تاريخها يحمل بين طياته نهضة الحضارة السالفة وينقلها على طول المدى - كان ينبغى لها - لذلك - أن توفى غاية التوفيق فى أن تخلص نفسها من شبك العقيدة الدينية التى بعثها الحضارة السالفة إلى الوجود . ويطالعنا فى هذا الشأن أن العقيدة البوذية المهايانية^(١) ، قد ظلت أمداً مكثها من الاستحواز على عالم صينى محتضر - مثلما حدث تماماً للعالم الهليني المحتضر الذى طوته المسيحية . لكن أصاب

(١) البوذية المهايانية : شعبة من العقيدة البوذية يتبعها الصين واليابان وكوريا وما إليها من بلاد آسيا الشمالية الشرقية . (المترجم)

الانحلال السريع ، البوذية المهايانية بعدما بلغت أوج مجدها في الشرق الأقصى ؛ وقبما شارفت فترة تعطل الحضارة على الزوال :

* * *

نخلص من الاستعراض السالف إلى نتيجتين :

الأولى : أن بعث حضارة خامدة إلى الوجود ؛ ينذر بعملية ارتداد من عقيدة دينية قائمة .

الثانية : كلما مضت حركة البعث في طريقها ، اشتدت حركة الردّة عنفاً .

الفصل الثامن والعشرون

تحدى الفطرة الحرية على الأرض

لاحظنا في الفصل السابق ؛ أن الحضارة الدنيوية التي تنبثق عن تنظيم ديني ، قينة بأن تشق طريقها بمعاونة جملة عناصر تستمدّها من حياة الحضارة السابقة على وجودها . بيد أنه لا يزال علينا أن نبحث كيف تتاح الفرصة لهذا الانبثاق . وواضح أن البحث عنها يعتبر « بداية المتاعب » ، يجب أن يتجه ؛ صوب نقطة ضعيفه في التنظيم الديني ، أو نحو إجراء خاطئ للعقيدة الدينية ، ترتبت عليه عملية الانبثاق .

إن إحدى المحن الرهيبة التي تواجه عقيدة ما ؛ كامنة في تبرير وجودها . فالعقيدة تدأب في الكفاح على الأرض بقصد اجتذاب هذا العالم إلى ملكوت الرب . ويعنى هذا ؛ أن لا مناص للكنيسة من أن تهتم بالأمور الدنيوية ، اهتمامها بالمسائل الروحية ؛ وبالتالي لا محيص لها عن أن تقيم نفسها على الأرض كنظام دنيوى . عندئذ تجد الكنيسة نفسها مرعومة على تغطية عُرْيها الأثيرى بلحاء مادي ، حتى تُحقّق رسالتها الروحية في بيئة نافرة . غير أن هذا اللحاء يجافى طبيعة الكنيسة الروحية . فلا عجب والحالة هذه ، إذا رأينا الكارثة تحلّ بالقواعد الأمامية للكنيسة . وهى لا تستطيع أن تؤدى واجبها الروحى ؛ إلا بعد أن تضطر إلى مكابدة المشكلات الدنيوية ، متدرعة بما تصطنعه للدول من سلاح .

وإن تاريخ البابا هيلدبراند Hildebrand لأشهر مأساة من هذا النوع . ولقد شاهدنا في موضع سابق من هذه الدراسة ؛ كيف أن سلسلة محتومة من الأسباب والنتائج ، قد ساقفت هيلدبراند إلى حافة الهاوية ؛ فقد اعتقد أن

إيمانه لن يكون حقاً ، إن لم يقذف بنفسه في خضم الصراع ليستخلص
الأكليروس من الانحلال الجنسي والفساد المالى . ورتب على ذلك فكرة
قوامها أنه لن يستطيع إصلاح الأكليروس دون إحكام نظام الكنيسة ، وأنه
لن يستطيع إحكام نظام الكنيسة من غير مجابهة موضوع الفصل بين
اختصاص كل من الدولة والكنيسة . وإذ كانت وظائف الكنيسة والدولة
خلال عصر الإقطاع متشابكة تشابكاً معقداً ، فقد عجز عن تحديد الخط
الفاصل بين الدولة والكنيسة تحديداً ترضى عنه الكنيسة ، من غير أن يتناول
على مجال سلطان الدولة . على نحو برر نفور الدولة . وهكذا نشب صراع
بدأ بحرب سلاحها المنشورات ، ثم استفحل الأمر ، فالتجأ الفريقان إلى
العنف مستخدمين مواردهما من « الأموال والسلاح » .

إن مأساة كنيسة « هيلدبراند » مثال بارز لنكوص روحاني دُفعت إليه
عقيدة دينية ، تجبّطت في أحاييل الأمور الدنيوية ، واستسلمت لأساليب العمل
الدنيوية ؛ كنتيجة حتمية لمحاولتها أن تقوم هى بشئونها بنفسها .

على أن ثمة طريقاً عريضاً آخر يقود إلى مثل هذه النزعة الدنيوية . التى
تعمل على تدمير الروحانية . فإن العقيدة الدينية تتعرض لخطر النكوص بفعل
تمسكها بمستوى حياتها ذاتها وتفسير ذلك أن الأهداف الاجتماعية المستقيمة
للمجتمعات الدنيوية تعبر عن مشيئة الله إلى حد ما . وهذه المشيئة العليا
الدنيوية تُصيب نجاحاً أوفى على يد أولئك الذين لا يهدفون إلى تحقيق هذه
المثل كغايات فى حد ذاتها ، وإنما إلى ما هو أسمى من ذلك .

يطالعا فى مجال تطبيق هذه القاعدة ، مثلاً قديمان ، يدوان فيما
حققه كل من القديس بندكت والبابا جريجورى الكبير . فلقد عكف
هذان القديسان على هدف روحاني تبلور فى التسامى بالحياة الديرية فى العالم
الغربي . على أن هذين الرجلين العزوفين عن الدنيا ، حقاً - إلى جانب
أعمالهما الروحية - مشروعات اقتصادية كانت فوق طاقة رجال السياسة .
ولإن المؤرخين المسيحيين والماركسيين على السواء ، ليحمدون مآثرهما

في الميدان الاقتصادي . ولو افترضنا أن هذا الثناء الإجماعي قد وصل إلى مسامع بندكت وجريجورى في العالم الآخر ؛ لتذكراً بالتأكيد قول معلمهما^(١) : « ويل لك إن أثني عليك الناس جميعاً » . ولتحوّل شكهما بلاريب إلى جزع ، أن أُتيحت لهما العودة إلى هذه الحياة الدنيا لي شاهدا بأعينهما العواقب المعنوية النهائية التي تمخضت عنها الآثار الاقتصادية الناجمة عن جهودهما الروحية إبان حياتهما على الأرض .

إن ثمة حقيقة محيرة ، وهي أن الثمار المادية التي وفدت عرضاً مع الجهود الروحية للملكوت الرب ؛ ليست إقراراً بتفوقها الروحي فحسب ، بل إنها كذلك شراك قد يتعرّض المرتاض^(٢) الروحاني في صورة أبشع شيطانية مما لحق بـ « هيلدبراند » المشهور ، من دمار ؛ بفعل تردّيه في حباثل السياسة والحرب . وإن حقبة الألف سنة من تاريخ الرهبنة ، الممتدة من عمر القديس بندكت إلى إنتهاب المؤسسات الدينية خلال ما يعرف بعصر الإصلاح الديني ، لقصة شائعة . وليس ثمة حاجة بنا إلى أن نصدق جميع مزاعم الكتاب البروتستانت والمناهضين للمسيحية عامة .

ونسوق فيما يلي استشهاداً من مؤلف لكاتب محدث يعلو عن شبهة التحيز ضد الرهبنة . ولعلنا نلاحظ أن وصفه لا ينسحب على الفترة التي سبقت الإصلاح الديني ، والتي ينعقد الرأي على أنها أسوأ وآخر مرحلة في تاريخ الرهبانية :

« إن الهوة البادية بين الراهب والدير ، تعزى - إلى حد كبير - إلى تكدّس الثروة . إذ طفقت أملاك الأديرة تتضخم على مرور الأيام ، حتى أثنى الراهب نفسه ، وقد كاد ينقطع كلية لإدارة أراضيه ولتصرف

(١) أى السيد المسيح عليه السلام . (المترجم)

(٢) المرتاض : من يحسن اللعب الرياضى . (المترجم)

المسئوليات المختلفة المتصلة بها . وفي نفس الوقت ؛ حدث تطور مشابه بين النساء أنفسهن ، وهو تقسيم الأعمال والأعمال ... فكان أن إنقسم كل دير - من الناحية العملية - إلى أقسام ينفصل إحداها عن الآخر ولكل دخله الخاص وواجباته الخاصة . ونجد « دوم دافيد نوليس Dom David knowles » يقول في هذا الشأن : إذا ما استثنينا أديرة مثل وينشستر Weínchester وكانتربري Canterbury وسنت ألبان Saint Alban حيث تعظم التأثيرات الثقافية والفنية ، غدت إدارة مثل هذه الأعمال ، الشغل الشاغل الذى استغرق جميع المواهب الإدارية^(١) .

ومع ذلك ؛ فإن الراهب الذى تحدّر إلى رجل أعمال ناجح ، لا يمثل أبشع صور « النكوص الروحي » . وأسوأ المغريات التى تصادف المواطنين فى ملكوت الرب على هذه الحياة الدنيا ، ليست الانغمار فى معترك السياسة أو انزلافهم فى خضم الأعمال ؛ لكن الشر الفادح كله ، مائل فى تمجيد النظام الديوى الذى اتخذته الكنيسة المحاربة على الأرض دون إتقان ؛ وإن لم تستطع تجنبه . وإذا كان « تحلل الأفضل هو أشد حالات التحلل شوّما »^(٢) ، فإن استحالة العقيدة الدينية إلى وثن ، أشد خطورة من الأوثان الأخرى التى تجسّمها خيلة الناس فيتعبدون لها واهمين إياها عمالقة وهى لا تعدو أن تكون ركاما من النمل البشرى .

إن أية عقيدة دينية تواجه خطر التردى فى عبادة الأوثان هذه ، وقبما يصل بها الأمر إلى حد الاعتقاد بأنها ليست فقط مستودع الحقيقة ، بل المستودع الأوحد للحقيقة المطلقة التى ألهمتها على أعلى وجه . وإن العقيدة الدينية لتعرض خاصة إلى الإنزلاق فى هذا المنحدر المؤدى إلى جهنم ، بعد ما تكابد

(١) صفحات ٢٧٩ - ٨٠ و ٢٨٢ و ٢٥٣ : Church Moorman. J. R. H.

.Life in England

(٢) . Corruptio Optimi Pessima

ألوانا من الضربات القاصمة ، وخاصة إذا جاءت من أناس ينتمون إليها . وأمامنا مثال مألوف هو الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أخذت بالإصلاح المضاد في مجمع ترنت^(١) في الصورة التي رآها عليها غير الكاثوليك . فإن أولئك الذين أوتوا موهبة الإدارة ولكنهم لم يوهبوا أى مُلك يطبقون فيه موهبتهم ، يجدون في الأديرة - بممتلكاتها الواسعة - مجالا لإظهار موهبتهم . ولقد ظلت تلك الكنيسة طيلة أربعائة سنة مضت منذ ذلك الوقت حتى كتابة هذه السطور ، تقف يقظي كما يقف الحارس ، واتخذت وضع التزمّت الشديد والسر والحذر ووضعت فوق رأسها خوذة البابوية ، وتدرعت بالرتب الكهنوتية . وهي لا تفتأ تقدم سلاحها إلى الله في إيقاع رتيب ، رتابة قداس مفروض .

ولقد كان الغرض اللاشعوري لذلك الهيكل الضخم في سلاحه الثقيل ، أن يثبت لأصعب النظم العلمانية المعاصرة مراسا ، ويعيش من بعدها . وإن في وسع أى ناقد كاثوليكي في القرن العشرين بعد الميلاد وفي ضوء أربعائة عام من تاريخ البروتستانتية أن يحتاج بقوة ، الرأى القائل بأن ما أبدته البروتستانتية من ضيق صدر بالكاثوليكية في عهدها السابق على مجمع ترنت على ما كانت عليه من ضعف العدة ، كان أمرا سابقا لأوانه . على أن ذلك الحكم - على إقناعه - ليس دليلا على أن طرح العوائق جانبا ، أمر خاطئ دائما أو أن مضاعفة تلك العوائق في مجمع ترنت لم يكن كذلك أمرا خاطئا^(٢) .

(١) مجمع ترنت : عقدته الكنيسة الكاثوليكية خلال الفترة ١٥٤٥ - ١٥٦٣ بمدينة ترنت لإجراء طائفة من الإصلاحات على نظام الكنيسة الكاثوليكية ، بعدما ثبت دعائم حركة الإصلاح الديني التي أسفرت عن انبعاث البروتستانتية . إذ خشيت الكنيسة الكاثوليكية أن يقود تزمّتها إلى انضمام مريديها إلى البروتستانتية . (المترجم)

(٢) عرضت هذه الفقرة - هي وبقية هذا الجزء من دراسة للتاريخ منسوخة على الآلة الكاتبة - على المستر مارتين ويت Martia Wight صديق المؤلف . وقد وضع طائفة من التعليقات على صيغة الكتاب بأسرها . من ذلك التعليق التالي : إن الناقد الكاثوليكي لجيبك هنا بكلمات - كثيراً ما اقتبسها - ألا وهي « ترقب النهاية Respite finem » . إذ تحمل =

كشفت لنا الاستقراء السالف الذكر عن طائفة من عوامل « النكوص » من الأديان العليا ، إلى حضارات دنيوية معادة لاغناء فيها . واستبان لنا في كل حالة درسناها ؛ أن الكارثة لا تقع بسبب ضرورة عاتية أو قوة خارجية ، وإنما تقع بفعل « خطيئة أصيلة » كامنة في طبيعة البشر على الأرض .

فإن سلّمنا بأن النكوص عن الأديان العليا جاء نتيجة للخطيئة الأزلية ، فهل يدفعنا ذلك إلى ترتيب نتيجة مؤداها أن لامندوحة عن حدوث مثل هذا النكوص ؟

فإن كان الأمر كذلك ، فعناه أن تحدّى روح الكفاح على الأرض ، يبلغ حداً من الصرامة القاطعة بحيث لا يكون في وسع أية عقيدة دينية الصمود لها على طول المدى . ويعود بنا هذا الاستقراء بدوره إلى الرأى القائل

= هذه الفقرة السابقة معنى الانتظار والتوقع ، لأن مضمونها لم يتحقق بعد . أليست الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في واقع الأمر أشد حيوية وأعظم نفوذاً في القرن العشرين منها في أى وقت مضى منذ انقراض مجمع ترنت Trent ؟ فلقد نادت الكنيسة عام ١٨٧٠ بعصمة البابا كجزء من معتقدها متحدة العالم الغربى . فبدأ له قرارها هذا كما لو كان نهاية مصيرها . في حين أنها في عام ١٩٥٠ كانت - تجدوها الثقة بالنفس - لا تزال قادرة على أن تمضى في تجريح العالم الغربى الدنيوى ، فأضافت إلى معتقدها مسألة صعود السيدة العذراء إلى السماء (أى تأليهها هى الأخرى) . ألا يحتمل بالمثل - وقت كتابة هذه السطور - أن تغدو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وقد تدرّعت بالسلاح الذى يزودها به مجمع ترنت ، النظام الغربى الحديث القادر - وحده - على تحدى الوثنية الجديدة الممثلة في الدولة الشيوعية الجماعية وعلى الصمود لها ؟ ألا يؤكد هذا شعور الخوف والحد الذي تكنه موسكو للفاشيكان ؟ فإن كان الأمر كذلك ، يصبح اختفاء الكنيسة ورا، دروعها ، أقل كفاية من الحصار الناجح الفعال الطويل الأمد . وهنا قد تبدو لنا مرحلة مجمع ترنت في التاريخ الكاثوليكي ، كمرحلة تشرشل في التاريخ البريطانى منذ سقوط فرنسا حتى يوم النصر . إنك تحكم على النتيجة مقدماً ، ترقب النهاية .

يعدم جدوى العقائد الدينية . إلا في قيامها بدور اليفعات القصيرة الأجل
لحضارة تكرر نفسها دون طائل .

فهل هذا هو الحكم الأخير ؟

قبل أن نسلّم أنفسنا للرأى القائل بأن القدر قد حكم على نور الله الوافد
بأن يغشاه دوما ظلام غشوم ، لنكرّ الفكر مرة أخرى إلى تلك التجليات
الروحية المتوالية التي جلبتها الأديان العليا إلى الوجود . فاقمّد تدلل هذه
الفصول من التاريخ الكنسي الروماني الماضي ، على أنها بشائر البرء الروحاني
من الاتناكاسات التي تتعرض لها العقيدة الدينية المكافحة .

ولقد لاحظنا أن معالم الطريق المتعاقبة في تاريخ ارتقاء الإنسان الروحاني
التي اقترنت بأسماء إبراهيم وموسى والأنبياء والمسيح ؛ تقف جميعها عند
مواضع تمكّن المتتبع لسير الحضارات الدنيوية من اكتشاف ثلمات في
الطريق وعقبات تعطل مسيرها . كما هيأ لنا الدليل التجريبي ، سبباً للاعتقاد
بأن تلافى المواضع العليا في تاريخ الإنسان الديني مع المواضع السفلى في تاريخه
الدنيوي في وقت واحد ، قد يكون واحداً من « قوانين » حياة البشر
على الأرض .

فإن كان الأمر كذلك ؛ فلنتوقع أيضاً أن ترى المواضع العليا في التاريخ
الدنيوي تتلاقى مع المواضع السفلى من التاريخ الديني في وقت واحد .
وعندئذ يتبين أن المعطيات الدينية التي تصاحب عصر الانحلال الدنيوي ،
ليست فقط ارتقاءات روحية ، لكنها كذلك بلسم روحاني . وطبيعي أن
تتكشف هذه الارتقاءات في صورتها التقليدية : إيلالاً من المرض .

فإن دعوة إبراهيم مثلاً ؛ تبدو في الأسطورة العبرية ، أثراً لتحدى
بناة برج بابل المغرورين بقوتهم ، لله القدير .

ورسالة موسى ؛ تبدو حركة لإنقاذ « شعب الله المختار !! » من التمتع الآثم بنجيرات مصر .

وقد أوحى إلى أنبياء إسرائيل ويهوذا للتبشير بتوبة بني إسرائيل من الانحدار الروحي الذي حلّ بهم عندما أصابوا نجاحاً مادياً في استغلال الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً ، وهي الأرض التي منحها لهم « ياهوى Yahweh » .

وإذا كان المؤرخ العلماني^(١) يفسّر آلام المسيح عند الصلب ، بأنها مغزى يحفل بجميع شذائد عصر الاضطرابات الهليني ؛ إلا أن الأناجيل تفسّرها بأنها تدخل من الله نفسه ابتغاء توسعة نطاق العهد الذي عقده جل شأنه فيما مضى من سالف الأيام مع بني إسرائيل ليشمل البشرية بأسرها ؛ سيما وأن خلفاءهم قد نقضوا العهد وقبّوا خلطوا تراثهم الروحي بالشكليات الفريسية^(٢) ، ومزجوه بمادية الصدوقيين^(٣) ، وتقبّلوا الانتهازية الهيرودية^(٤) ، وأخذوا بتعصب طائفة المندفعين^(٥) .

(١) مؤرخ علاني : أي المؤرخ الذي يخضع أحكامه للعلم أساساً ويستقرى الأحداث التاريخية على ضوء المنطق الفكري المجرد . (المترجم)

(٢) الفريسية : نسبة إلى كلمة Pharisees اليونانية الأصل . وأصلها العبري « باروص » وتعني لفّة الانفصال . والفريسيون - من حيث المعنى - حزب ديني

يهودي حقق في بداية الأمر مكانة مرموقة خلال النصف الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد . وقد عارضوا حركة تحول رجال الدين إلى علانين ، كما استمسكوا بحرفية الشريعة وتطبيقها على علائقها ، ونادوا بأنها أبدية وغير قابلة للتغيير أو التفسير ،

وأوجبوا الفصل بين اليهود وغيرهم من الأمم وعارضوا الآراء التحررية تماماً . (المترجم)

(٣) الصدوقية : إحدى طوائف اليهود الهامة أيام ظهور السيد المسيح . وتتسم تعاليمها بالنزعة المادية . وتتكبر طائفة الصدوقيين : خلود النفس ووجود الملائكة أو الأرواح . وثمة أوجه شبه قليلة بين هذه الطائفة وطائفة القرائين اليهودية في الوقت

الحاضر . (المترجم)

(٤) الهيرودية : شيعة يهودية سياسية تنتسب إلى هيرودس اليهودي (حاكم الجليل ٧٣ - ٤ ق . م) . وقد ناصبت العداء - هذه الطائفة هي وطائفة الفريسيين - السيد المسيح . (المترجم)

(٥) طائفة المندفعين Zealots : طائفة يهودية اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها . وكان ينسب إليها بطرس أحد حوارى السيد المسيح الإثني عشر . (المترجم)

وقصارى القول ؛ إن ثمة أربع سَوَرَات من التجليات الروحانية ترتبت عن حالات الأفول الروحاني ، بالإضافة إلى أنها صاحبت كوارث دنيوية . وعسانا نخدس بأن هذا لم يحدس بمحض الصدفة . وقد لاحظنا في جزء سابق من هذه الدراسة ؛ قدرة البعثات الشاقة مادياً ، لأن تصبح مشاغل ترعرع فيها المنجزات الدنيوية . وعلى أساس هذه المطابقة ، يتأتى للبعثات الروحية الشاقة أن يكون لها تأثيرٌ مثيرٌ على النشاط الديني . والبيئة الروحية الشاقة ؛ هي البيئة التي تغصّ فيها الرفاهية المادية بالتطلّعات الروحية . إذ تقود الرفاهية الدنيوية الدنسة إلى حيرة الجماهير ، وقد تستثير روحياً ، النفوس الحساسة العنيفة ، لتحدى مفاتن الحياة الدنيا .

فهل تعنى عودة الناس إلى أحضان الدين في القرن العشرين بعد الميلاد، ارتقاء روحانياً ؛ أو تصبح محاولة خسيصة للتملص - الغير المجدى - من حقائل الحياة الشاقة كما نعرفها .

إن إجابتنا عن هذا السؤال ، تعتمد إلى حد ما على تقديرنا لاحتمالات الارتقاء الروحاني :

لقد سبق أن ألمعنا إلى احتمال : أن يتخذ توسّع الحضارة الغربية الدنيوية الحديثة في آفاق الأرض جميعاً ، شكلاً سياسياً خلال زمن ليس بالبعيد . ويتم ذلك بقيام دولة عالمية تحقق في نهاية المطاف النظام المثالي لهذا النوع من الدول ؛ إذ ينتظم وجه الأرض كلها في دولة واحدة تنفّى منها الحدود المادية . كما قادنا الفكر إلى احتمال إدراك أتباع الأديان الأربعة العليا القائمة في الوقت الحاضر^(١) ، أن نظمهم المتنافسة ما هي إلا وسائل متعددة للاتصال بالله الحق الأحد في مسالك تقدّم لروادها ، ومضات مختلفة من رؤيا النعيم^(٢) .

(١) الإسلام والمسيحية والهندوكية والبوذية المهايانية . (المترجم)

(٢) أولاً - في النصرانية : تراه الملائكة والله يراه عند ولوج الجنة .

ثانياً - في الإسلام : ترى في وجوههم نضرة النعيم . (المترجم)

ولقد طرحنا جانباً الفكرة القائلة بأن في وسع الأديان التاريخية القائمة في الوقت الحاضر - على هدى هذا الضياء - أن تُعبّر في آخر الأمر ، عن هذه الوحدة بالتنوع . وذلك بأن تتطور معاً إلى عقيدة دينية واحدة مجاهدة - فلنفترض حدوث ذلك ، فهل يعنى تشييد ملكوت السماء على الأرض ؟ يبدو أن لا مناص من توجيه هذا السؤال في العالم الغربي في القرن العشرين بعد الميلاد : ذلك لأن تحقيق لون من الفردوس على هذه الأرض ، قد أصبح هدف معظم الأيدولوجيات الدنيوية . وفي رأى الكاتب أن الإجابة عن هذا السؤال بالنفي :

والسبب الواضح للرد على هذا السؤال بالنفي ؛ ظاهر في طبيعة الجماعة ، وفي سجية الإنسان . فإما الجماعة إلا الأرض المشتركة بين ميادين نشاط الشخصيات . وللشخصية البشرية طاقة فطرية على الشر ، كما للخير . ولن تتمكن هذه العقيدة الدينية الواحدة المجاهدة - مصداقاً لما تخيلناه - من تطهير الإنسان من الخطيئة الأزلية . فإن هذا العالم جزء من ملكوت الله ، بيد أنه جزء نائر . وسيظل كذلك ، وفقاً لطبيعة الأشياء .

الباب الثامن

عمور البطولة

الفصل التاسع والعشرون

سياق المأساة

(١) حاجز اجتماعي

تُهار الحضارة النامية بفعل سريان الفساد في أقليتها المُبدعة . إذ تفقد هُنتها ، فتتقلب إلى أقلية مَسيطرة بغيضة . هنا ينفر منها مريدوها السابقون من أعضاء المجتمعات التي كانت يوماً ما بدائية ، والتي كانت تتأثر بدرجات مختلفة بإشعاعات تلك الحضارة الثقافية ، في غضون مرحلة نموها . وبالأحرى ؛ تتبدل نظرة المريدين السابقين ؛ من الإعجاب الذي يعبرون عنه بمحاكاة الحضارة ، إلى عداوة تتفجّر إلى حرب تُسفر عن إحدى هاتين النتيجتين أو كلاهما :

الأولى - أن يتم إخضاع العناصر المتبربرة ، نهائياً . وذلك إن نُشبت الحرب على طول جبهة تتيح فيها البيئة المحلية للحضارة المعتدية ، الوصول إلى حدود طبيعية كبحر لم يطره أحد ، أو صحراء جرداء لم يسلكها مخلوق ، أو سلسلة من الجبال الوعرة . ولكن إن لم توجد مثل هذه الحدود الطبيعية ؛ تكون الجغرافيا في عون المتبربرين .

الثانية - أما إذا وجد المتبربرون في إنسحابهم طريقاً مفتوحاً يتيح لهم مجالا للمناورة غير محدود ؛ لا بد لجبهة القتال المتنقلة إن عاجلاً أو آجلاً ، أن تبلغ خطأً ينتهي عنده التفوق الحربي للحضارة المعتدية ؛ وذلك بسبب طول المسافة المتزايدة بين قاعدة عمليات القوى المعتدية ، وجبهة القتال .

وعندئذ تتحول حرب الحركة على طول خط القتال هذا ، إلى حرب ساكنة ؛ لا يحقق فيها أى من الجانبين نتيجة عسكرية حاسمة . بل يتخذان مراكز ثابتة ، فيعيشان جنباً إلى جنب . مثلما عاشت الأقلية المبدعة للحضارة ، مع مريديها المتطلعين ، قبل أن يفرق إنبهار الحضارة أحدهما عن الآخر .

يبد أن العلاقة السيكلوجية بين الفريقين ؛ لن تنكسر في هذه الحالة من البغضاء إلى سابق عهدها من التأثير^(١) الإبداعي . وبالمثل ؛ لن تتأتى إستعادة الأوضاع الجغرافية السابقة التى ترعرعت هذه العلاقة فى ظلها فى ماضى الأيام ، وقد امتد إشعاع الحضارة بالتدريج إبان مرحلة نموها إلى مناطق المتبررين المحيطة بها ، عبر واجهة عريضة تهيئ للغريب باباً يعبر منه إلى مباحج الداخل . لكن انقلاب الصداقة إلى عداوة ، من شأنه تحويل هذه الواجهة الثقافية الموصلة^(٢) ، إلى جبهة قتال منعزلة على « الثغور »^(٣) . إن هذا التغير ، هو التعبير للظروف التى تولد عصر البطولة . والحق إن عصر البطولة هو النتيجة الاجتماعية والسيكلوجية لبلورة خط الثغور . وهدفنا الآن ، أن نتقصى هذا التسايع للأحداث . وطبيعى أن قاعدة بحثنا هذا ، تصبح إستعراض عصابات الحرب من المتبررين التى جابهت قطاعات متعددة من ثغور عدة دول عالمية . وقد حاولنا القيام باستعراض من هذا النوع فى موضع من هذه الدراسة ؛ فكان أن طالعنا فى سياقها ، المآثر المميزة لعصابات الحرب هذه فى ميدانين :

الأول : الطائفية الدينية .

(١) التأثير : (أو التفاعل) تبادل الفعل أو التأثير الإبداعي . (المترجم)

(٢) التوصليل : اصطلاح نقصد به الشئ الذى يحرز خاصية التوصليل إلى المناطق

الأخرى . (المترجم)

(٣) الثغور فى التعبير الإسلامى - هى المدن ذات الصفة الحربية الواقعة على الحدود

(المترجم)

الثاني : الملحمة الشعرية^(١) .

ولعل استخدامنا الاستعراض السالف الذكر ، ينير أمامنا سبيل بحثنا الخالى دون أن نضطر إلى استطراد . إن الثغور يمكن تشبيهها بسد « مانع » يقع عبر وادٍ لم يعد شديد الانساع ؛ أو بنصب هائل من مهارات البشر وبأسهم ، يتحدى الطبيعة ؛ وإن كان تحدياً خطيراً . لأن تحدى الطبيعة عمل لا يجرؤ الإنسان على الإقدام عليه دون أن يفلت من القصاص .

« تتحدث الرواية العربية الإسلامية المأثورة ، عن وجود بناء مائى هندسى هائل باليمن عُرف فى سالف الزمان بسد أو خزان مأرب . وكان يحجز المباء المنحدرة من جبال اليمن الشرقية ، فتكوّن خزاناً ضخماً يروى رقعة فسيحة من البلاد ، فيبعث الحياة فى نظام للزراعة المكثفة ، ومن ثم يعمل عدداً كبيراً من السكان . وتستطرد الرواية فتحكى أن السد قد تصدّع بعد فترة من الوقت ، فاجتاح فى تصدّعه كل شىء وألقى بسكان البلاد إلى حالة من الضنك الشديد مما دفع بكثير من القبائل إلى الهجرة »^(٢) .

وقد استخدمت القصة لتفسير الدافع الكامن وراء الهجرات العربية التى اكنسجت شبه الجزيرة بأسرها يحدوها جافز^(٣) حملها إلى ما وراء جبال « تين شان Tien shan » والبرانس . فإن طبقنا مغزى هذه القصة على غيرها من الأحداث ، لكانت قصة كل الثغور فى كل دولة عالمية .

فهل هذه النكبة الاجتماعية التى تصاحب انهيار السد الحربى ، مأساة حتمية ، أو أنها مما يمكن تحاشيه ؟

(١) الملحمة الشعرية : قصائد شعرية تتضمن سير الأبطال الأسطوريين . (المترجم)

(٢) صفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (Caetani L : Studi Orientale (Milan))

(٣) يمثل هذا الحافز فى العقيدة الإسلامية . (المترجم)

يلزمنا للرد على هذا السؤال ، تحليل التأثيرات الاجتماعية والسيكلوجية لتطفل بناء السد ، على السير الطبيعي للعلاقات القائمة بين الحضارة وبروليتاريتها الخارجية :

طبيعى أن أول نتيجة لبناء سد ، هو إقامة خزان فوقه . بيد أن لمخزان حدوده ، مهما يكن متسعاً ؛ فهو لن يَغطّي أكثر من جانب من حوض تخزينه ، وبذلك سيكون ثمة فارق حاد بين البقعة المغمورة الواقعة وراء السد مباشرة ، وبين المنطقة الواقعة خلف البقعة الأولى - وهى أعلى منها - وقد تُركت خالية من المياه .

وقد لاحظنا - بالفعل - فى موضع سابق من هذه الدراسة ، التباين بين التأثير الذى تحدثه الثغور فى حياة المتبريرين الذين يعيشون داخل نطاقها ، وبين الركود الخيم على الأقوام البدائيين الذين يعيشون فى المناطق البعيدة . من ذلك ؛ أن السلاف قد واصلوا حياتهم البدائية مستكينين فى مستنقعات برييت Pripet على مدار ألفى سنة . وهذه الفترة قد شاهدت أولاً البرابرة الآخيين وقد هزت كيائهم معيشتهم بقرب الحدود البرية الأوربية لدولة « مينوس ذات السيادة البحرية »^(١) ، ثم شهدت هذه الفترة البرابرة الثيوتون يمرّون بنفس التجربة نتيجة لجوارهم للتخوم البرية الأوربية للإمبراطورية الرومانية .

فما الذى أوقع الاضطراب بالبرابرة المقيمين فى « الخزان » ؛ بصورة غير عادية ؟ وما هو مصدر تلك الطاقة التى تنفُذ إليهم بعدئذ ، والتى تمكّتهم دوماً من اختراق التخوم ؟ .

لعلنا نهتدى إلى الإجابة عن هذين السؤالين إذا ما تتبعنا مقارنتنا التشبيهية من حيث وضعها الجغرافى فى آسيا الشرقية .

(١) مركزها كريت . (المترجم)

فلنفترض تصور سد يرمز إلى الثغور في مقارنتنا التشبيهية ، وقد سُيِّد على جانبي وادٍ مرتفع في المنطقة التي يخترقها الآن « سور الصين العظيم » وتقع داخل الولايتين الصينيتين اللتين دعيتا حديثاً باسم شينسى Shinsi وشانسى Shansi .

فأين يقع المنبع الأصلي لهذه الكتلة المائية الهائلة التي تضغط بقوة متزايدة على سطح السد أعلى التيار ؟

أنه على الرغم من أن الماء كله ينحدر — بداهة — من أعلى السد ، فإن منبعه الأصلي لا يمكن أن يقع في هذا الاتجاه . وذلك بسبب قِصر المسافة الواقعة بين السدّ وخط تقسيم المياه . وتقع خلف هذا الخط ، الهضبة المنغولية الجافة . وبالتالي ، لن نعثر فوق السد على المنبع الأصلي للمياه المتدفقة ، ولكن نعثر عليه أسفله ، فهو ليس في الهضبة المنغولية ، ولكن في المحيط الهادئ الذي تُحوّل الشمس أمواجه إلى بخار تحملها رياح شرقية أعلى الجو ، حتى يكشفها الهواء البارد ، فتسيل أمطاراً تتجمع داخل حوض تخزين المياه . وبالمثل : لا تستمد الطاقة النفسانية التي تتجمع في الجانب البربرى من التخوم ، إلا كمية طفيفة من المنطقة الواقعة وراء حدود الثروات الاجتماعية الضئيل للبرابرة أنفسهم . أما الغالبية العظمى ، فتستمد من « مستودعات » الحضارة التي أقيم السد لوقايتها .

فكيف يتولد هذا التحوّل في الطاقة النفسانية ؟ .

إن عملية التحوّل ؛ عبارة عن تحليل إحدى الثقافات ، ثم إعادة تأليفها على نمط جديد . ولقد قارنا في موضع آخر من هذه الدراسة ، الإشعاع الاجتماعى للثقافة ، بالإشعاع المادى للضياء . ويلزمنا هنا إستعادة « القوانين » التي استخلصناها في سياق هذا البحث :

القانون الأول — أن شعاع الثقافة الكامل — كشعاع الضياء الكامل —

ينكسر إلى حلّ طيفي^(١) لعناصره المركبة . ويتم ذلك أثناء إختراقه مادة كاسرة للضوء .

القانون الثاني - أن الانكسار الضوئي ، قد يتم كذلك ؛ بدون أى تأثير لهيئة اجتماعية غريبة إذا كان المجتمع - صاحب الإشعاع - قد انهار فعلاً وأصابه التفسخ . إن الحضارة النامية يمكن تعريفها بأنها الحضارة التي يقوم التجانس بين الجوانب التي تتألف منها ثقافتها - سواء أكانت اقتصادية أم ثقافية بحثة - وبعضها بعضاً . ومصادقاً لنفس القاعدة ؛ تُعرف الحضارة المتحللة ، بأنها الحضارة التي تنحدر فيها هذه الجوانب الثلاثة إلى حالة التنافر .

القانون الثالث - أن سرعة إشعاع الثقافة المتكاملة وطاقتها المتغلغلة ، تعتبر معدلات للسرعات المختلفة وللطاقات المتغلغلة التي تُظهرها جوانبها الاقتصادية والسياسية والثقافية (البحنة) . ويتم ذلك ؛ وفقاً يرتحل بعضها بمنأى عن البعض الآخر ، نتيجة لانكسارها . فإن التيارين الاقتصادى والسياسى ، يسيران بأسرع من التيار الثقافى ، الذى لا يتعرض للانكسار ، وعلى ذلك ؛ فإن سير الجانب الثقافى من الحضارة يكون أبطأ من الجانبين الآخرين .

نخلص مما تقدم إلى القول بأن الإتصال الاجتماعى بين حضارة متفسخة وبروليتاريتها الخارجية - المتمردة على التخوم العسكرية - والإشعاع المنكسر للحضارة ، يكابد إجداباً يبعث على الأسى . وفعلاً لا يحدث إتصال قطعاً ، إلا فيما يتصل بالاقتصاد والسياسة ؛ ونعنى بهما : التجارة والحرب . ومن بين هذين ، تشدد شيئاً فشيئاً حدة القبود المفروضة على التجارة . لأسباب متعددة ؛ بينما تزداد حدة الحرب تأصلاً . وفى ظل هذه النذر المشؤومة ، تم أوجه المحاكاة الانتقائية التي تحدث بناء على دافع أو مبادأة من المتبربرين أنفسهم . إذ يظهرون ميلاً لمحاكاة تلك العناصر التي يتقبلونها ؛ على نحو يخفى الأصل الكربة لما حاكوه . ولقد أوردنا فعلاً فى فصل سابق

(١) الحل الطيفى : انحلال النور إلى ألوانه الأصلية من خلال منشور . (المترجم)

من هذه الدراسة ، نماذج ، للتوفيقات الواضحة والإبداعات الجديدة التي تنتجت عن تلك المحاكاة ، ولا نحتاج هنا إلا إلى تذكّر أن « المنبع » الذي ينزع البرابرة إلى الاغتراف منه ، يتمثل في شيئين :

الأول — دين أعلى ينتمى إلى حضارة متاخمة لهم ، ويعتقونه في صورة محرّفة (مثال ذلك اعتناق القوط ضرباً من المسيحية المحرّفة هو المسيحية الآرية) .
الثاني — نظام قيصرى للدولة عالمية تناخهم . وتم الاستعارة في صورة ملكية غير مسئولة ؛ لاتستند على القانون القبلى ؛ ولكن على المهابة العسكرية .
أما قدرة البرابرة على الإبداع المبتكر ، فتبدى في ملاحم شعر البطولة .

(٢) تجمّع الضغط

إن الحاجز الاجتماعى الذى أقامته الثغور ، يخضع لنفس قانون الطبيعة الذى يخضع له الحاجز المادى الذى أقامه السد . فإن المياه المتجمّعة أعلى السد ، تتجه إلى أن تعود فتصبح على مستوى المياه المتجمّعة أسفله . وهذا ما يدعو المهندس عند تشييد خزان مادى ، إلى إقامة صهائمات أمن تتمثل في فتحات يمكن فتحها أو إغلاقها حسبما تتطلبه الظروف . ومثل هذا التدبير الواقع ؛ لا يغفل عنه المهندسون السياسيون للثغور العسكرية ، كما سيتبين لنا . وليس من شأنه هذا التدبير — في هذه الحالة — إلا أن يعجّل بالطوفان .

ففي حالة إقامة سد اجتماعى وصيانته ، يكون تخفيف ثقل الضغط عنه بإطلاق المياه ، أمراً غير عملى . إذ لن يتيسر تفريغ قدر من الخزان من غير تعريض السد للانهدام ؛ طالما أن الماء أعلى السد ، في زيادة متصلة تحتتمها طبيعة الظروف ، عوضاً عن ارتفاعها وهبوطها وفقاً لتقلبات الجو — رطوبة أو جفافاً ؛

وبعبارة أوضح ؛ ففي السباق بين الهجوم والدفاع ، لا يعجز الهجوم

عن الفوز على طول المدى ؛ ويصبح الوقت بالتالى ، فى جانب المتبريرين .
[لكن الوقت قد ينقضى - بفترة طويلة - قبل أن يتمكن المتبررون خلف
الثغور ، من النفوذ إلى الأرض المُستَهْناة للحضارة المتحللة .

وهذه الفترة الطويلة التى تتحول [خلالها نفسية المتبريرين وتُتأثر تأثيراً
عميقاً - بتأثير الحضارة التى صُدّوا عنها - هى التمهيد اللازم لـ « عصر
البطولة » ، حين تنهار الثغور ويتدفق المتبررون .

إن إقامة ثغر من الثغور ، يدفع إلى الانطلاق ؛ قوى اجتماعية تُنذر
فى النهاية بالقضاء على بُناته . ويتعذر إطلاقاً ؛ إلتباع سياسة العزوف عن
الامتزاج بالمتبريرين وراء الحدود . إذ مهما يكن من أمر ما تقرره
الحكومة الإمبراطورية ، فلا مناص من أن ينجذب التجار والرواد
والمغامرون . . . ومن إليهم - بحكم مصالحهم - إلى ما وراء الحدود .

ويطالعنا تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية الرومانية وبدو الهون
Huns الأوراسيين الذين اخترقوا منطقة السهوب الأوراسية قبيل نهاية
القرن الرابع بعد الميلاد ؛ أجل يطالعنا بمثال صارخ لهذه النزعة التى تبدو
من سكان حدود دولة عالمية ، لعقد صلات مشتركة مع المتبريرين فيما وراء
الحدود . وانعقدت تلك الصلات على الرغم مما عُرِف عن المتبريرين
الهون من الشراسة الخارقة ، وعلى الرغم من أن سطوتهم على طول
الحدود الأوربية الإمبراطورية الرومانية ، لم تكن مطردة . وقد سجل
تاريخ تلك الصلات حالات فذة من التآخى ، ما برحت قائمة بين البقايا
القليلة للروايات المعاصرة لهذه الحقبة الوجيزة . وأشد هذه الحالات غرابة ؛
حالة مواطن روماني من مقاطعة بانّونيا Pannonia^(١) يدعى أوريستس

(١) مقاطعة رومانية قديمة . كان الدانوب يحدها شمالاً وشرقاً ، وتحدها غرباً جبال
نوريكوم Noricum وتقترب حدودها الجنوبية من نهر الساف Save . . . وكان يقطن هذه
المقانة جنس مجهول الأصل عرف بالبانورنيين . وقد أصبحوا على مرور الزمن مواطنين
رومانيين صالحين . (المترجم)

Orestes حقق ولده روميلوس أوجوستولوس Romulus Augustulus — كآخر أباطرة الرومان في الغرب — سمعة مشينة . (وهذا المواطن أوريسنس نفسه . قد استخدمه وقتنا ما سيد الحرب آتيلاً زعيم الهون ، سكرتيراً له) .

ومن بين جميع البضائع التي كانت نتجه نحو الخارج عبر الحدود المعزولة العديمة النفع ، لعل أسلحة الحرب أعظمها أثراً . فما كان في وسع المتبربر قطعاً ، توجيه هجوم فعال ، من غير استخدام الأسلحة المصنوعة في دور أسلحة الحضارة . ومصادفاً لهذا ؛ شُهِد على الحد الشمالي الغربي للإمبراطورية في الهند ابتداء من عام ١٨٩٠ وما بعده ؛ أن « تدفق البنادق والعتاد داخل أراضي القبائل . . . قد غير تماماً طبيعة حرب الحدود »^(١) . وبينما كان السطو المستمر على القوات الهندية البريطانية المعسكرة على الجانب الآخر من الحدود ، هو المصدر الأول للأسلحة الصغيرة الغربية الحديثة الطراز ، « لم يكن ثمة مبرر للخوف الفائق ، لولا استفحال تجارة الأسلحة في الخليج الفارسي ؛ تلك التجارة التي كانت أساساً — في كل من بوشهر ومسقط — في أيدي التجار البريطانيين »^(٢) .

وهذا مثال صارخ لانجاه المصالح الخاصة لرعايا الإمبراطورية إلى تبادل التجارة مع برابرة ما وراء الحدود متحدية المصالح العام للحكومة الإمبراطورية ، القائم على قمع البرابرة ..

على أن متبربر ما وراء الحدود ما كان ليقتنع بالوقوف عند حد ممارسة الأساليب الرفيعة التي تعلمها من حضارة متاخمة ، فكثيراً ما كان يُدخل تحسينات عليها . ومن قبيل المثال أن القرصان الاسكندناوين المقيمين

(١) Davies, C.C. : The Problem of the North-West Frontier : صفحة ١٧٦ : 1890-1908 (Cambridge 1939, University Press.

(٢) المرجع السابق صفحة ١٧٧ .

على الحدود البحرية للإمبراطورية الكارولنجية ولمملكة وسكس ، وقد اتجهوا إلى ممارسة أسلوب من بناء السفن وإتقان الملاحة ، لعلهم قد إكتسبوه من الفريزيين^(١) - وكانوا رجال حدود بحريين بالنسبة للمسيحية الغربية الوليدة في تلك المناطق - مكنتهم (أى القرصان الإسكندنافيين) من السيطرة على زمام البحر واتخاذ موقف المبادأة في الحرب الهجومية ، ففضوا في شنها قُدُماً على طول شواطئ بحار البلاد المسيحية التي وقعت فريسة هجائهم . حتى إذا ما تغلغلوا في الأنهار وبلغوا نهايات الملاحة ؛ راحوا يستبدلون سلاحاً مستعاراً بآخر ، ويواصلون القتال على ظهور الخيل المسروقة . ذلك لأنهم أتقنوا فنون الفروسية التي استعاروها من الفرنجة ، مثلما مهرروا في فنون الملاحة التي اقتبسوها من الفريزيين .

ويطالعنا التاريخ الطويل لحرب الخيالة ، بحالة هي أشدها تأثيراً ، حين استحوذ متبربر على هذا السلاح من حضارة فوجهه ضدها . حدث ذلك في العالم الجديد حيث كان الحصان مجهولاً إلى أن جلبه الدخلاء المسيحيون الغربيون بعد اكتشاف كولمبوس للعالم الجديد . وكان استئناسه ، طريقة حياة البدوى في العالم القديم . ونظراً لافتقار وديان حوض المسيسيبي إلى هذا الحيوان المستأنس ، فقد ظلت أمداً طويلاً منطقة تمارس فيها القبائل الصيد - بمشقة - على الأقدام ، على الرغم من أنه كان ينبغي أن تكون فردوساً لرعاة القطعان . ومن ثم كان لوصول الحصان في آخر الأمر إلى هذه الأرض المثالية لاستيلاده ، نتائج ثورية على حياة كل من المهاجر والوطني ؛ إنما اختلفت النتائج في كل حالة عن الأخرى :

فقد أسفرت تربية الحصان في سهول تكساس وفنزويلا والأرجنتين عن

(١) الفريزي : نسبة إلى قبيلة تيوتونية كانت تقطن هولندا . (المترجم)

تحويل سلالة مائة وخسين جيلا من المزارعين ، إلى بدو يتولون تربية الماشية .

بينما حدث في نفس الوقت أن تحولت القبائل الهندية الضاربة في السهول العظمى فيما وراء أملاك التاج الإسباني والمستعمرات البريطانية التي كانت فيما بعد « الولايات المتحدة » ؛ تحولت هذه القبائل إلى عصابات حربية متحركة على ظهور خيولها . إن هذا السلاح المستعار وإن لم يزود هؤلاء المتبربرين القاطنين فيما وراء الحدود بالنصر في نهاية المطاف ، غير أنه مكنتهم — زمناً — من تأجيل هزيمتهم النهائية .

وبينما شاهد القرن التاسع عشر الميلادى هنود البرارى في أميركا الشمالية وقد حولوا أحد أسلحة الأوربيين الدخلاء — الحصان المستورد — ضد أصحابه الأصليين الذين نازعوهم ملكية السهول ؛ كان القرن الثامن عشر قد شاهد بالفعل هندي الغابة يجعل من الغدارة الأوربية ، قوام حرب عُمدها الاقتناص ونصب الكمين . وهي حرب أثبتت — إلى جانب الغابة الساترة للهنود — أنها أكثر من ندية لأساليب الحرب الأوربية المعاصرة لها . إذ ثبت أن التشكيلات المغلقة والتحركات الدقيقة ووابل الطلقات المنظمة ، تحدث الدمار بأصحابها وقتما تستخدم على غير هدى ضد أعداء استخدموا الغدائر الأوربية بعد أن لاءموا بينها وبين ما يناسب ظروف الغابة الأمريكية . بل إنه حتى في العصور التي سبقت إختراع الأسلحة النارية ، وجدنا أن اصطناع الأسلحة التي كانت تستخدمها حضارة معتدية وتداولها ، وجعلها ملائمة لظروف الغابة ؛ قد مكّن المتبربرين القاطنين في غابات ما وراء الراين في شمال أوروبا من إنقاذ ألمانيا — وكانت الغابات لا تزال تكتنفها وقتذاك — من الفتح الروماني الذي كان قد اجتاحت بلاد الغال وقد أزيلت منها الغابات وزُرعت إلى حد ما أرضها ، فكان أن ابتلى الرومان بكارثة

ماحقة رادعة في موقعة تيوتبرجر والد Tentobuger Wald^(١) في العام التاسع بعد الميلاد .

وتلا ذلك إستقرار خطط الحدود العسكرية بين الإمبراطورية الرومانية وميتربزى أوروبا الشمالية طوال الأربعة القرون التالية . فأصبح هو بنفسه ، يفسر علة وجوده . فإنه هو الخط الذى تقع وراءه غابة ظلت لها السيطرة منذ دورة الجليد الأخيرة ، وكانت ما تزال متفوقة على جهود « الإنسان الزراعى »^(٢) . تلك الجهود التى مهدت الطريق أمام الفيالق الرومانية فى زحفها من البحر المتوسط حتى نهري الراين والدانوب . وعلى طول هذا الخط - الذى اتفق لسوء حظ الإمبراطورية الرومانية أن قارب طوله أطول خط يتأق رسمه عبر القارة الأوربية - كان على الجيش الإمبراطورى منذ ذلك الوقت ، أن يزيد قوته العددية باستمرار ليوازن الزيادة المطردة فى الكفاية الحربية لميتربزى ما وراء الحدود الذين كان على الجيش الرومانى الوقوف لهم بالمرصاد .

ولقد أمكن للتكنولوجية الصناعية الغربية الحديثة ، التفوق بالفعل على حليفين عنيدين من غير البشر . وذلك على الحدود المحلية القائمة ضد المتبريرين فى الدول الإقليمية الصغيرة التى لا تزال قائمة فى عالم اصطنع بالحضارة الغربية . وقد ضم هذا العالم بين دفتيه وقت كتابة هذه السطور ، كل ما على سطح كوكبنا من أرض مأهولة ومطروقة ، إلا القليل . فلقد تهاوت الغابة منذ زمن طويل أمام ضربات الصلب البارد ، بينما اجتاحت

(١) تيوتبرجر والد . سلسلة من التلال فى شمال غرب ألمانيا ، تمتد على طول حدود مقاطعتى هانوفر ووستفاليا . وتمتاز بشدة كثافة أشجارها . وكانت فى العام التاسع الميلادى مسرحاً لمعركة هزمت فيها القبائل الألمانية الفيالق الرومانية تحت قيادة كونتيليوس فاروس Quintillius Varus . (المترجم)

homo Agricolo (٢)

السيارة والطائرة ، السهوب . لكن الجبل حليف المتبربر ، أثبت شدة مراسه ؛ كما أظهر الجبل — حارس المؤخرة للبربرية — فى آماله الأخيرة اليائية ، براعة — تلفت النظر — فى أن يستغل لصالحه ، طائفة من المبتكرات الغربية الصناعية الحربية الحديثة . من ذلك أن قبائل الريف^(١) الجبلية ، أمكنها بفضل هذا الفعل القذ « فسخ » الحدود النظرية بين منطقى الاحتلال الاسبانية والفرنسية فى مراكش ، وإنزال كارثة « أنوال Anwal » بالإسبان عام ١٩٢١ ؛ وهى كارثة شبيهة بإبادة تشيروسكى Cherusci وجيرانه فى تيوتبرجروالد التيوتونية لفيالق « فاروس Varus » الرومانية الثلاثة فى العالم التاسع الميلادى . فى عام ١٩٢٥ ، زلزلت الهزيمة كيان الحكم الفرنسى فى شمال غرب إفريقيا . وبنفس المهارة ، طفقت قبائل « محصور » فى وزيرستان ، تحبط المحاولات البريطانية المتكررة لإخضاعها ، طوال ثمانية وتسعين عاما ابتداء من عام ١٨٤٩ — حين انتزع البريطانيون هذه الحدود من السيخ — حتى عام ١٩٤٧ ؛ وقما أزاح البريطانيون العبء عن كاهلهم بإلقائهم إياه على كاهل باكستان^(٢) ؛ تلك التركة الثقيلة ، هى « مشكلة الحدود الهندية الشمالية الغربية » التى لم تحلّ بعد .

فى سنة ١٩٢٥ ؛ أوشك هجوم قبائل الريف على قطع الممر الذى كان يصل بين الجزء الذى احتلته فعلا هذه القبائل من المنطقة الفرنسية فى مراكش ، والمنطقة الرئيسية التى تحتلها فرنسا من شمال إفريقيا الغربية الفرنسية . ولو كانت قبائل الريف قد نجحت فى محاولتها — وكان بينها وبين النصر قيد أئمة — لعرضت للهلكة ، كل إمبراطورية فرنسا على الساحل الجنوبى للبحر المتوسط . ولقد كانت مصالح السلطان البريطانى فى الهند

(١) الريف : منطقة الاحتلال الإسبانية — سابقاً — فى شمال المغرب . (المترجم)

(٢) لا تمثل الحدود الشمالية الغربية مشكلة لدولة باكستان . ذلك لأن إنتظام قبائل وزيرستان وغيرها فى دولة قومية إسلامية ، قد أزال الدافع الذى طفق يُغرى تلك القبائل المسلمة مائة عام ، على مناجزة الاستعمار البريطانى فى الهند . (المترجم)

— وهى لا تقتل قدرأ عن المصالح الفرنسية — فى كف القدر إبان اختبار القوة بين قبائل المحصود والقوات المسلحة للإمبراطورية فى حملة وزيرستان عام ٢٠/١٩١٩ . وفى هذه الحملة — كما كانت الحال فى حرب الريف — كانت قوة « المتبريرين »^(١) المقاتلة كامنة فى مواءمتهم الحاذقة بين الأسلحة والأساليب الغربية الحديثة ، واستراتيجية منطقهم التى كانت غير ملائمة للأسلحة والأساليب المألوفة لدى مخترعها الغربيين . وقد ظهر أن العتاد المتقن الصنع الباهظ التكاليف الذى ابتدع فى جهات القتال الأوروبية خلال حرب ١٨/١٩١٤ واستُخدم فى عمليات جرت بين جيوش منظمة على نفس المستوى ؛ هذا العتاد ظهر أنه أضعف فعالية وقما استُخدم ضد فصائل من القبائل ترصد فى جبال متشابكة .

إن على الدولة الواقعة خلف الحدود المهددة ، أن تبذل لهزيمة « المتبريرين » فيما وراء الحدود ، وهم الذين بلغوا من التدريب العسكرى ما بلغته قبائل المحصود عام ١٩١٩ وقبائل الريف عام ١٩٢٥ ؛ على هذه الدولة أن تبذل جهداً — سواء أكان مقيسا بالقوة البشرية أو بالعتاد أو بالمال — أعظم كثيراً بما لا يقاس ، من الموارد الواهية لخصومها الشبيهين بالذباب .

وحقاً ؛ إن ما دعاه مسستر جلاستون عام ١٨٨١ م « موارد الحضارة »^(٢) ؛ يمكن أن يكون عائقا بقدر ما هو معين ، فى حرب من هذا النوع . ذلك لأن طاقة القوات الهندية البريطانية على الحركة ، قد عوقها حشد الأجهزة التى استندت إليها لتوكيد تفوقها . وأيضاً ؛ إذا كانت المغالاة

(١) يعنى الأستاذ المؤلف بالمتبريرين هنا ، الأقوام الذين لم يصطبغوا بعد بأساليب الحضارة الغربية وإن كانوا قد اقتبسوا أسلحتهم . (المترجم)

(٢) وبالمثل فإن الجنود المهنكين الذين خاضوا غمار حرب ١٨٠٨ - ١٨١٤ ، مستخدمين أساليب هزمت نابليون المرة بعد الأخرى ، قد كسروا كسرة مضحكة المرة تلو المرة فى نيو أورليانس عام ١٨١٤ ، بفضل أساليب رجل الحدود التى استخدمها ضدهم آندرو جاكسون .

في الوفرة قد عرقلت القوات البريطانية الهندية عن الضرب بسرعة وفعالية ،
فقد كانت قبائل « المحصود » من القلة بحيث لم تكن شيئاً جديراً بتوجيه
الضربات إليه . إن المراد من الحملة التأديبية ، توقيع العقاب . لكن كيف
يتسنى عقاب مثل هؤلاء القوم ؟

هل يُعمد إلى عزلهم وإفقارهم ؟ !!!

إنهم معزولون وفقراء فعلاً . وإنهم قد تقبلوا طريقة الحياة هذه على
علاقتها وسلموا بها ، حتى وإن لم يستمرئوها . إن حياتهم هي بالفعل كما
وصف توماس هوبز Thomas Hobbes « حالة الطبيعة » : منعزلة ،
فقيرة ، قذرة ، خشنة ، قصيرة الأجل ؛ وما كان لتييسر — إلا بمشقة —
جعل هؤلاء القوم ؛ أكثر عزلة ، وفقراً ، وقذارة ، وخشونة ، وأقصر
أجلاً . ولو كان هذا ممكناً ، فهل يتأكد المرء من إكترائهم لذلك كثيراً ؟

هنا نصل إلى نقطة جاءت في سياق الحديث بموضع سابق من هذه
الدراسة ، ألا وهي أن الهيئة الاجتماعية البدائية تستعيد كيانها بسرعة أشد
وسهولة أعظم مما تستطيعه هيئة اجتماعية تستمتع بحضارة مادية رفيعة . إن
الهيئة الاجتماعية البدائية ، كدودة متضعة ، إن تقطعت نصفين ، لالتقي إلى
ذلك بالا ، وتمضى كحالتها من قبل .

ولكن يجب أن ندع جانباً الريفيين والمحصودين الذين أحفقوا — إلى
حداً ما — في الوصول بإغاراتهم على الحضارات^(١) إلى نتيجة موفقة ،
ونستأنف بحثنا لسير المأساة في حالات شقت طريقها إلى فصلها الخامس .
إن الزيادة المطردة في حدة حرب الثغور — بما تُسفر عنه من تحول
مطرّد في ميزان القوى الحربية — تُضعف بالتدرج الحضارة التي تورطت في

(١) ليس عدلاً من المألوف أن يعتبر دفاع هؤلاء الأقوام عن أوطانهم عدواناً على
الحضارة . (المترجم)

تلك الحرب : وذلك بما تلقى على إقتصادها النقدي من عبء الارتفاع المطرد في الضرائب . ومن الناحية الأخرى ، فإنها لا تشع إلا إثارة شهية المتبررين للحرب . ولو أن المتبررين فيما وراء الحدود قد بقوا على بدائيتهم ؛ لأمكنهم تكريس نسبة أعظم كثيراً من جُمُاع طاقاته لفنون السلام . ولأمكن بالتالى نجاح الضغط عليهم ، بمعاقتهم بتدمير نتائج نشاطهم السلمى ؛ إن مجتمعاً كان بدائياً حتى وقت قريب ؛ تتمثل مأساة نفوره الأدبى من الحضارة المجاورة ، فى أن يطرح المتبرر طاقته الإنتاجية السلمية السابقة ليتخصص فى حرب الثغور تحقيقاً للدفاع عن النفس فى بداية الأمر ، ثم لتصبح هذه الحرب بعد ذلك للمتبرر بديلاً أشد إثارة لاكتساب معيشته ، وهو أن يحرق ويحصد مستخدماً السيف والرمح .

وهذا التفاوت المذهل فى النتائج المادية لحرب الثغور — بالنسبة للفريقين المتنازعين — يتمثل فى التفاوت العظيم والمطرد بينهما فى الروح المعنوية . فإن حرب الثغور التى يمارسها أبناء الحضارة المتحللة ، تلقى عليهم عبئاً مالياً مطرد الضخامة . أما فى الناحية الأخرى ؛ فإن هذه الحرب نفسها لا تشكل عبئاً على كاهل المحاربين المتبررين ؛ بل إنها تبعث فى نفوسهم بهجة ، لا الجرع ؛ فلا يستغرب والحالة هذه ، أن نجد الفريق الذى هو صانع الثغور وضحيته ، لا يستسلم لمصيره ، قبل أن يحاول تجربة آخر وسيلة فى جعبته لاجتذاب خصمه المتبرر إلى صفه . ولقد درسنا بالفعل نتائج هذه السياسة فى موضع سابق من هذه الدراسة ، ولن نحتاج هنا إلا إلى إسترجاع ما استكشفناه من قبل ، وهو أن تحاشى انهيار الثغور ؛ وسيلة تعجّل — فعلاً — بوقوع الكارثة ، وهى التى كانت قد أعدت (أى الثغور) لتحاشيها .

فى تاريخ كفاح الإمبراطورية الرومانية لوقف الرجحان العنيف للميزان إلى جانب متبررى ما وراء الحدود ، نرى أن سياسة اصطناع طوائف

من المتبربرين لصد عدوان إخوانهم ؛ هذه السياسة — إذا صدقنا ما قاله
نفاذ خصم لإدارة الإمبراطور تيودوسيوس ، قد حملت بين طياتها عوامل
إخفاقها ؛ إذ لقنت المتبربرين فن الحرب الرومانى ، وأوقفهم فى الوقت نفسه
على ضعف الإمبراطورية .

« انقضى الآن عهد النظام فى القوات الرومانية ، وتحطم كل فارق بين
الرومانى والمتبربر ، فلقد تمازجت تماماً فرقى الفئتين إحداهما بالأخرى فى جميع
الرتب ، بل إن السجلات التى تقيّد أسماء الجنود المحسوبين على قوة الوحدات
الحربية لم تعد تمثلها فى حالتها الفعلية . فإن الفارين ألفوا أنفسهم وقد غدوا
— بعد أن تم إدراجهم فى التشكيلات الرومانية — أحراراً فى العودة إلى ديارهم
وإرسال آخرين يخلّون مكانهم ، إلى أن يطيب لهم الحال ، فيؤثرون العودة
إلى الخدمة الشخصية فى جيش الرومان . ولم تكن هذه الفوضى المطلقة التى
باتت تسود التشكيلات العسكرية الرومانية بخافية على المتبربرين . فقد كان
فى وسع الجنود الفارين من الخدمة العسكرية — وقد تُرك باب الاتصال
بالمتبربرين مفتوحاً أمامهم على مصراعيه ، أن يقدموا للمتبربرين معلومات
كاملة عن الرومان . ومن هذا كله قدّر المتبربرون كيف أن الكيان السياسى
للدولة الرومانية أصبح سيئ الإدارة إلى درجة تُغرى بالهجوم عليها» (١) .

وإذا ما تحوّل مثل هؤلاء الجنود المرتزقة المدربين تدريباً عالياً من معسكر
لآخر فى شكل جماعات ضخمة ، فلا عجب أن يغدو فى وسعهم توجيه
ضربة قاضية إلى إمبراطورية مترنحة . على أنه ما يزال علينا أن نفسّر
الأسباب التى كانت تدفع هؤلاء الجنود إلى الانقلاب على سادتهم .

ألا تتطابق مصلحتهم الشخصية مع التزامات حرقهم ؟
إن الأجر المنتظم الذى يحصلون عليه ، أعظم عائداً وأكثر ضماناً من

(١) صفحات ١ - ٣ من الفصل الحادى والثلاثين من الكتاب الرابع

الأسلاب التي يستولون عليها من إغاراتهم العارضة . فلم إذن يستحيون إلى خونة .

مناط الإجابة أن الجندى المرتزق من القبائل المتبريرة ، بانقلابه ضد الإمبراطورية التي استوَجِر للدفاع عنها ، يعمل — حتماً — ضد مصالحه المادية الذاتية . لكنه بفعلته هذه ، لا يرتكب شيئاً فذا ؛ ونادراً ما يهتدى الإنسان بنزعة « الإنسان الاقتصادي »^(١) وحدها . وعلى هذا فإن سلوك الجندى المرتزق الخائن يحدده دافع أقوى لديه من أى اعتبار اقتصادى . إن الحقيقة العارمة أنه يكره الإمبراطورية التي يتناول أجره منها ؛ وأن الصدع المعنوى القائم بين الفريقين ، لا يمكن رأيه نهائياً ، عن طريق إتفاق مالى لا تدعمه أية رغبة حقيقية من جانب المتبريرين للمشاركة فى الحضارة التي تعهدوا بالذود عن حياضها . إن موقفه من تلك الحضارة لم يعد متسماً بالتبجيل ، مثلما كانت حال أسلافه ، إبان أيام سعيدة مضت ؛ وقتما كانت تلك الحضارة نفسها فى مرحلة الازدهار التي يجعل النفوس تهوى إليها .

حقاً ؛ قد انعكس منذ زمن طويل ، إتجاه تيار المحاكاة . فلم تعد الحضارة هي التي تبث روح التبجيل فى نفوس المتبريرين ، بل بات المتبررون هم الذين يستمتعون بالاعتبار فى أعين أصحاب الحضارة .

« لقد وُصف التاريخ الرومانى المبكر بأنه تاريخ شعب عادى أنجز أفعالا خارقة . أما فى عهد الإمبراطورية المتأخر ، فقد غدا الرجل الفذ لا يستطيع أن ينجز أى شئ ، إلا العمل الرتيب . ولما كانت الإمبراطورية قد كرتت جهدها طوال قرون لإعداد الرجال العاديين وتدريبهم ، أصبح الرجال غير العاديين فى صورتها الأخيرة — مثل ستيلشو Stilcho وأيتيوس Aetius وأصراهما — يُستقون باستمرار من دنيا المتبريرين »^(٢) .

(١) homo Economicus

(٢) صفحة ٣٠٧ Collingwood, R.O. in Collingwood R.O. and Myers.

g.N.L. Roman Britain and the English Settlements.

(٣) الجائحة وعُقبها

عندما يتفجر الخزان ؛ تندفع إلى أسفل المنحدر ، كتلة المياه التي كانت قد تجمعت فيما وراء السد ، وتنحدر صوب البحر . ويترتب على إطلاق القوى التي ظلت محبوسة أمداً طويلاً ، كارثة ذات ثلاث شعب :

الأولى — أن الفيضان يدمر العمل الذي شاده الإنسان في الأراضي المزروعة الواقعة أسفل الخزان المهار .

الثانية — أن الماء الذي يُضفي الحياة ، يتدفق إلى البحر . فيتبدد سُدى دون أن يخدم الإنسان في أغراضه العمرانية .

الثالثة — أن إنطلاق المياه يدع الخزان فارغاً ، وجوانبه مرتفعة جافة ، فيُحكّم بالموت على أى نبات يمكن أن يمدّ جذوره في تلك الأراضي .

وصفوة القول ؛ إن المياه التي كانت تبعث الخصب والإثمار — طالما بقي الخزان قائماً — ما أن يطلقها إنهيار الخزان من أسره ؛ حتى تنطلق ناشرة الخراب كل مكان ؛ سواء في الأرض التي خلقتها قاحلة ، أو في الأرض التي أغرقها .

هذه القصة في نضال الإنسان ضد الطبيعة المادية ، تشبه ما يحدث عندما تنهار الحدود الحربية . فإن الطوفان الاجتماعي الذي يترتب على ذلك ، يشكل كارثة على جميع الأطراف ، ولكن أثر التخریب على كل طرف منها ليس متساوياً ، بل هو عكس ما كان متوقعاً . إذ لن يشقى بالإنهيار الاجتماعي الرعايا السابقون للدولة العالمية الراحلة ، ولكن يشقى به المتبررون بصفة خاصة ؛ وهم الفريق المنتصر . حقاً ؛ إن ساعة انتصارهم هي بادرة نكبتهم .

تُرى ما هو تفسير هذه المتناقضات ؟

إن الثغور الحربية لم تُنشأ فقط لتكون حصناً للحضارة ؛ لكنها كذلك

حماية شاعتها العناية الربانية للمتبريرين المعتدين ، لتحصين أنفسهم من عوامل التخريب الشيطانية الكامنة في ذواتهم . ولقد رأينا من قبل ، كيف أن القرب من الثغور الحربية ؛ يبتث نوعاً من الإعياء بين المتبريرين فيما وراء الحدود ؛ القاطنين داخل مجالها . إذ يتحالم نظامهم الاقتصادى وتنفك عرى نظمهم البدائية ! بفعل وابل من الطاقة النفسانية التى تولدها الحضارة داخل الثغور وهى تنساب عبر حاجز ، هو - فى حد ذاته - عقبة تحول دون قيام إتصال أكمل وأعظم إثماراً ، وهو الاتصال الذى تتسم به العلاقات بين حضارة مطردة النمو ، وبين مريديها البدائيين القاطنين وراء ثغورها المفتوحة التى تغريهم باقتحامها . كما رأينا أن المتبريرين طالما ظلوا قابعين وراء أسوارهم ، استطاعوا أن يحولوا - على الأقل - بعض هذا الفيض المتدفق من تلك الطاقة النفسية الغريبة عنهم ، إلى إنتاج ثقافى وسياسى وفنى ودينى ؛ بعضه مقتبس من نظم متحضرة ، وبعضه لإنتاج أبداعه المتبريرون أنفسهم .

والواقع أنه طالما ظل السد متماسكاً ، بقى القلق النفسى الذى يتعرض له المتبريرون محصوراً فى نطاق ؛ يستطيع من هو داخله ، أن يحدث أثراً ليس كله شديعاً . ومن شأن وجود هذه الثغور الحربية ، إتاحة قيام هذا الصمام الواقى الذى ينزع المتبرير إلى تقويضه . ذلك لأن هذه الثغور طالما بقيت قائمة - إلى حد ما - بديلاً للنظام الذى يفتقر إليه الإنسان البدائى ، بعد إذ استحال - بسبب انهيار عاداته البدائية - إلى « متبرير » ما وراء الحدود . وتفسير ذلك : أن الثغور تعمل على تدريبه ، بتقديمه أعمالاً يقوم بها وأهدافاً يسعى لبلوغها ، وعقبات يصارعها ؛ فتظل جهوده دائماً متحفزة يقطى .

حتى إذا انهارت هذه الحدود فجأة واكتسحت معها هذا الصمام ؛ انتهى هذا التدريب . وفى الوقت نفسه دعى المتبرير إلى أداء أعمال هى فى جملتها ، تشق عليه . وإذا كان هذا المتبرير الرابض فيما وراء الحدود ، أكثر وحشية وأشد تعقداً من سلفه البدائى ، فإن المتبرير - على عهده الأخير - الذى اندفع

عبر الحدود بعد تخطيطها ، وصنع لنفسه دولة اقتطعها من حطام الإمبراطورية الراحلة ؛ يغدو أكثر تحللاً وفساداً من ذي قبل . فعندما كانت الثغور الحربية لا تزال قائمة ، يصرف المتبربر على نزوات خوله ، ما غنمه من إغارة موفقة . لكن يقتضيه ذلك مواجهة الشدائد والأهوال التي يتطلبها الدفاع ضد الحملة التأديبية التي لا بد وأن تستثيرها إغارته . حتى إذا دُمّرت الثغور ، طالت فترة بطلانه وتواصلت نزواته ؛ فيتصل استمتاعه دون أن يناله القصاص (١) .

وكما لاحظنا في موضع سابق من هذه الدراسة ، أن المتبربرين قد حكموا على أنفسهم أن يؤدوا دوراً خسيساً ؛ دور النصور التي تتغذى على الجيفة ، أو اللويذات التي تدب في الجثة المتعفنة . فإن بدت هذه المقارنة ممعنة في القسوة ؛ فلعلنا نعهد إلى تشبيه حشود المتبربرين المتصرين إذ يركضون دون وعى بين خرائب حضارة يعجزون عن إدراك حقيقتها ؟ نشبههم بعصابات من أراذل المراهقين الذين تحللوا من قيود البيت والمدرسة ، فأصبحوا يمثلون في القرن العشرين من العصر المسيحي إحدى مشكلات الجماعات الحضرية المفرطة في النمو .

« إن الصفات التي تهبها هذه المجتمعات — سواء أكانت فضائل أم نقائص — واضح أنها تنسب إلى طور المراهقة . . . فإن سميتها البارزة هي التحرر — سواء أكان اجتماعياً أم سياسياً أم دينياً — من قيود شريعة القبيلة . . . أما خصائص عصر البطولة ، فإنها بصفة عامة ، لا تمت إلى الطفولة أو إلى النضوج . . . إن الفرد الأنموذجي من العصر البطولي هو إلى الشباب أقرب . . . ولكي تصبح المجانسة أقرب إلى الواقع ، علينا أن نأخذ في الاعتبار حالة شاب تجاوز في نموه آراء والديه وسلطانهما . . .

وهذه حالة قد نجد لها في أبناء والدين غير معقدين ، وقد اكتسبوا بتأثير خارجي - في المدرسة أو في غيرها - المعرفة التي تبوئهم مكانة تسمو بهم على أفكار محيطهم (١) .

إن إحدى نتائج لإحلال العادات البدائية بين الأقوام البدائيين الذين استحالوا إلى متبررين ، هي أن السلطة التي كانت تمارسها قبلاجماعات العشيرة ، تنتقل إلى فئات من الأفراد المغايرين الذين يتجهون بولائهم الشخصي إلى زعيم . وطالما بقيت الحضارة محتفظة في نطاق دولتها العالمية بمظهر السلطان ؛ كان في وسع هؤلاء القادة المتبررين - هم ورجاؤهم - أن يؤدوا بنجاح - عند الاقتضاء - صنيعا ، وذلك بإقامة دول حاضرة (٢) .

ولعل تاريخ قبائل الفرنجة حماة حدود الإمبراطورية الرومانية على الراين الأدنى منذ القرن الرابع حتى منتصف القرن الخامس الميلادي ، مثال من أمثلة متعددة لتوضيح هذه الفكرة . على أن مصائر الدول المستخلفة التي يشيدها الفاتحون المتبررون في نطاق أملاك - سابقة - لدولة عالمية مندرسة ؛ تبين أن هذا الإنتاج الغلظ لعبقريه سياسية متبربرة قاحلة ، لا يتناسب بأية حال من الأحوال مع عبء إحتمال أعباء تلك الدول وحل مشكلاتها . تلك الأعباء والمشكلات التي ثبت فعلا أنها فوق . متناول القدرة السياسية لدولة مسيحية عالمية .

إن الدولة البربرية المستخلفة ، تمارس أعمالها عن جهل ، مستخدما أرصدة ضخمة باتت عديمة القيمة لدولة عالمية فعلية . إن هؤلاء الأجلاف المتربعين في مناصب الدول ، يعجلون بأنفسهم مصيرهم المحتوم ،

(١) صفحات ٤٢٤-٤٢٥ : Chadwick, H.M.: The Heroic Age (Cambridge 1912)

(٢) الدولة الحاضرة : دولة تقع بين دولتين أكبر منها ، فتحد بالتالي عوامل الاحتكاك بينهما . (المترجم)

وذلك بخيانتهم أنفسهم بفعل قوى مهلكة خداعة ، كامنة في ذواتهم ؛
تنطلق تحت ضغط محنة أخلاقية . فإن نظاما يقوم كله على ولاء مذبذب
تبذله عصابة من المتهورين المسلحين لزعيم عسكري غير مسئول ؛
مثل هنا النظام غير جدير بتسيير دفعة حكومة أية جماعة ، حتى ولو كانت
هذه الجماعة قد بذلت محاولة - غير ناجحة - للاتجاه صوب التحضر .
وهكذا نرى أن انحلال رابطة الجماعة البدائية في مجتمع المتبربرين ،
قد تبعه - على وجه السرعة - انحلال الجماعة نفسها .

حقاً ؛ إن المعتدين المتبربرين بعدوانهم ، قد حكموا على أنفسهم
بمكابدة إنهار معنوي ، كنتيجة حتمية لعدوانهم . على أنهم لا يذعنون لمصيرهم
من غير صراع روحاني ؛ تخلّفت آثاره في سجلاتهم الأدبية الحافلة بالأساطير
والطقوس ومعايير السلوك . ومصادقا لهذا الرأي ؛ يتردد في جميع الأساطير
البربرية الرئيسية ، وصف صراع البطل الظافر مع جبار أسطوري في سبيل
الاستحواز على كنز ، يحتجزه العدو الغير الآدمي عن البشر . تلك هي حبكة
حكايات قتال بيولوف Beoulof^(١) مع جريندل Grendel ومع أم جريندل ،

(١) بيولوف : ملحمة شعرية تعتبر من أهم نماذج الأدب الألماني المبكر ، وقد كتبت
حوالي عام ١٥٠٠ ميلادية . وتحكي الملحمة أفعال بيولوف ابن أخ أحد الأمراء الألمان .
وقد أبحر إلى الدنمرك يصحبه أربعة عشر صديقاً لمعاونة أخيه ملك الدنمرك الذي اجتاج
ملكته غول جبار في صورة آدمى يدعى جريندل . وقد أمكن بيولوف في أول لقاء مع عدوه ،
إنزاع يده عن جسده . ففر جريندل الجبار مشحناً بالجراح ، وعاد الملك الشرعي إلى
عرشه . على أن والدته جريندل خطفت أحد النبلاء الدنمركيين ، فتبعها بيولوف
محاولاً استخلاص النبيل المأسور . وأخيراً أمكنه قتلها في إحدى البحيرات الدنمركية
حيث وجد جثة جريندل الغول . وقد كوفئ بيولوف على بطولته بتنصيبه ملكاً على
الدنمرك بعد وفاة أخيه الملك . (المترجم)

وقتل سيجفريد^(١) مع البنين ، وشجاعة برسوس Perseus^(٢) في قطع رأس جورجون Gergon ، ثم عمله الفاره بعد ذلك من فوزه بآندروميذا Andromeda بعد ذبحه جبار البحر الذى هدد بافتراسها . وتعود نفس الحكمة الروائية إلى الظهور في انتصار جاسون Jason^(٣) على الأفعى حارسة « العهن الذهبى »^(٤) . كما نجدها في خطف هرقل Herakles^(٥) لـ « سربروس Cerberus » .

وتبدو هذه الأسطورة للعالم الخارجى ، انعكاسا للصراع السيكولوجى فى أعماق نفس المتبرر ذاتها . إذ أن استخلاص الكنز الأسى للإنسان : ألا وهو إرادته العقلية الحرة ، من إसार قوة روحية شيطانية أطلقها فى أعماق النفس اللا شعورية ، تجربة مضطربة ؛ هذه التجربة تتضمن العبور بقفزة واحدة ، من أرض

(١) قصة سيجفريد هى إحدى القصص التى تتضمنها مجموعة الملاحم الشعرية لأهالى شمال أوروبا . وتذكر القصة أن سيجفريد كان ابن ملك هولندا ، استطاع الاستحواز على كنز ثمين ، إلا أن أحد أعدائه قتله واستولى على الكنز وأخفاه فى نهر الراين . وأخيراً استطاعت أرملة سيجفريد بفصل زوجها من آتيل زعيم الهون ، الانتقام له بذبحه قتلته . (المترجم)

(٢) برسوس - فى الأسطورة اليونانية - أوفده والده زيوس كبير أرباب الأولمب ليأتيه برأس جورجون النول الجبار . ونجح برسوس فى مهمته وأمكنه تخليص آندروميذا (وهى بنت ملك حبشى كما تذكر الأسطورة) من جبار البحر ؛ واتخذها زوجة له . (المترجم)

(٣) جاسون . فى الأساطير اليونانية ابن ملك أيولكا . طرده أخوه غير الشقيق من المملكة . فلما حاول أن يدخل المملكة متنكراً أرسله أخوه - وقد أصبح ملكاً - للحصول على العهن الذهبى ونجح فى هذا كما وفق إلى دخول المملكة منتصراً . (المترجم)

(٤) العهن : الجزة الصوفية للغنم - الوبر . (المترجم)

(٥) هرقل : فى الأساطير اليونانية ، أحد أبناء الرب اليونانى زيوس . وقد اشتهر بقوته البدنية الحارقة حتى أنه قتل أسداً وهزم جيشاً برمته . . . إلى غير ذلك من أعمال البطولة البدنية التى توجت بخطفه سردسروس من العالم السفلى . (المترجم)

لا صاحب لها خارج الحدود ، إلى عالم مسحور فتح انهباز السند أبوابه . وقد تكون الأسطورة - حقاً - تعبيراً بأسلوب القصص الأدبي ، عن طقوس دينية . إذ تستهدف طرد الأرواح الشريرة من بطل متبربر انتصر في ميدان القتال ولكن روحه أصيبت ؛ فهو يلتمس علاجاً عملياً لهذا المرض النفسى الذى استبد به .

أما إن إنبتقت للسلوك مقاييس خاصة يتيسر تطبيقها على الظروف الخاصة بعصر بطولى ؛ يصبح فى وسعنا - باتخاذ أسلوب آخر للبحث - أن نعثر على محاولة جديدة تستهدف وضع قيود أخلاقية على نزعات شيطان مريد يكمن فى نفوس زعماء المتبربرين مثلما يربض فى نفوس أصحاب حضارة متداعية ، وقد أطلقت سراحه الحواجز المادية التى أقامتها الحدود الحربية .

ويطالعنا مثالان بارزان لتلك القيود الأخلاقية يبدوان فى صفتى « المعرة » و « السخط »^(١) فى أساطير هوميروس ؛ وفى صفة « الحلم » التى تؤثر عن الأمويين .

« إن الخاصية الكبرى لصفى « المعرة » و « السخط » كما هى للشرف بصفة عامة ، أنهما لا يظهران ولا يعملان وقتما يكون الإنسان حراً ، أى عندما ينتفى عامل الإرغام . إنك أن بحث حالة أناس انقلتوا من ارتباطاتهم القديمة ، واخترت من بينهم صنفاً من الزعيم القوى التأثير الذى لا يهاب أحداً ؛ فسيقرّ فى ذهنك للوهلة الأولى ، أن مثل هذا الرجل حر فى تنفيذ ما يجول فى خاطره . ثم سترى بطبيعة الحال أنه فى إبان تمرده ، تنبث بعض أفعال ستدفعه - بطريقة ما - إلى الشعور بالضيق ، فإن كان هو مرتكب هذا الفعل ، استبد به القلق والإحساس بالندم على إتيانه . فإن لم يكن هو بالذات مرتكبه فإنه يحجم عن إتيانه . يحدث هذا ، لا لأن أحداً أرغمه ، أو لأن

(١) المعرة والسخط تعبران للكلمتين اليونانيتين : Aidos, Nemeais .

نتيجة معينة سوف تترتب على إثبات الفعل ، ولكن مجرد شعوره بـ « المعرة » .
 « . . . إن المعرة هي ما نحس به عن فعل اقترفته أنت . أما السخط ،
 فتعبير عما نحس به تجاه فعل ارتكبه آخر . . أو غالباً ما يكون . . . تصورك
 إحساس الآخرين تجاهك . . لكن افترض أن أحداً لم يرك ، يظل الفعل —
 كما تعلم جيداً — شيئاً نحس نحوه بالسخط ، لكن ليس ثمة أحداً يحس به .
 ومع ذلك ، فلو أنك شخصياً كرهت ما ارتكبه فشعرت بـ « المعرة »
 لارتكابه ، فإنك تشعر حتماً أن هناك أحداً أو شيئاً ما ، يأنف منك أو يستقبح
 فعلك . . . إن الأرض والماء والهواء حافلة بالعيون اليقظة . . . فهي التي
 رأتك وسخطت عليك بسبب الشيء الذي ارتكبه »^(١) .

وفي إبان عصر البطولة — الذي تلا الحضارة المينوية والدى صورته
 ملحمة هوميروس — تتمثل الأفعال التي استثارت إحساسى « المعرة »
 و « السخط » في تلك الأفعال التي تتضمن « الخيانة » ، « الكذب » ، « الحلف
 كذباً » ، الافتقار إلى التوقير ، الجور على البائس أو خداعه :

« هناك طبقات معينة من الناس أشد تأثيراً في إشعار غيرهم بإحساس
 « المعرة » . فإن ثمة أناساً يحس الإنسان في حضورهم بالحجل والشعور
 بالذات الباعثة على الخوف ، وشعور أشد من المعتاد بأهمية التخلق بالخلق
 الحسن . أى نوع من الناس يثير في النفس بالذات شعور المرء بـ « المعرة » ؟
 هناك بالطبع : الملوك ، المستون ، الحكماء ، الأمراء ، السفراء . . ومن
 إليهم . إنهم جميعاً أناس تشعر تجاههم — بالطبع — بالتوقير ، ولرأيهم
 الطيب — أو السيئ — أهميته في العالم . . . لكنك ستجد أن ليس هؤلاء
 الناس ، بل غيرهم بالكلية هم المشحونون بطاقة تدفعك إلى الشعور
 بـ « المعرة » قلباً وقالباً . . . أولئك الذين تشعر أمامهم بأنك ما تزال أشد

إحساساً بتفاهتك ، والذين لرأيهم الحسن أو السيئ وزن في نهاية المطاف لا يمكن تفسيره بحال . . . ألاإنهم المستضعفون في الأرض ، من يحل بهم الضيم ، هم العاجزون . . . ويدخل في سربهم أشد العاجزين بما لا يقاس . . . أى الموتى» (١) .

وعلى النقيض من صفتي « المعرة » و « السخط » اللتين تطرقان جميع مناحي الحياة الاجتماعية : فإن الحلم فضيلة أهل السياسة (٢) . إنها صفة أشد — نوعاً ما — قيداً من صفتي « المعرة » و « السخط » وهى أقل — تبعاً لذلك — جاذبية . وليس « الحلم » تعبيراً عن الضعة .

« بل إن هدفه إذلال خصم بوساطة إرباكه بإظهار سمو خلق الحلم على غير ما يتوقعه الخصم ، وإبراز ما يتحلّى به من هدوء وإباء ... إن الحلم في حقيقته كعظم الصفات العربية فضيلة يُبتغى منها الزهو والتفاخر . إذ تتضمن المباهاة أكثر مما تحويه من جوهر أصيل . . إن الاشتهار بالحلم قد يُنال بثمن بخس كإيماءة رشيقة أو لفظ رنان مما يتناسب ومجتمع مضطرب ؛ كما كانت حال المجتمع العربي ، حيث يستثير كل فعل عنيف الثأر القاسى . . . إن الحلم كما مارسه خلفاء معاوية الأموى ، قد يسّر لهم مهمة تربية العرب تربية سياسية .. إنه قد لطّف لتلامذتهم مرارة التزامهم بتضحية حريتهم الصحراوية الفوضوية لصالح حكام أوتوا قدراً من المجاملة مكّتهم من إسدال قفاز من الخمل على البلد الحديدية التى حكموا إمبراطوريتهم بها» (٣) .

هذا الوصف الدقيق لطبيعة صفات : « الحلم » و « المعرة » و « السخط » ؛ يُظهر كيف أمكن مواءمة مقاييس السلوك هذه — بدقة — مع الظروف الخاصة

(١) صفحتا ٨٧ و ٨٨ من المرجع السابق .

(٢) صفحة ٨١ في Étude II : Etudes sur la Règne du

. Calife Omayyade Mo'awia Ier

(٣) المرجع السابق صفحات ٨١ و ٨٧ و ١٠٣ .

لعصر البطولة . وإذ كان عصر البطولة - مصداقاً لما ذكرناه من قبل - هو في جوهره طور إنتقال ؛ فإن العلامات المؤكدة لحلوله وانحساره تتجلى في ظهور مثله المميزة له ، وخسوفها . وإذ تحتفى صفتنا « المعرفة » و« السخط » يستثير اختفاؤهما صيحة القنوط .

« إن الألم والشجن ، هما النصيب الذى قسم للإنسان الفانى ، ولن يكون ثمة دفاع عن يوم السوء »^(١) . إن هسيود Hesiod^(٢) قد أمضه اعتقاده الواهم ، بأن اختفاء هذه الأضواء التى أنارت الطريق لأبناء العصر المظلم ، نذير ببداية الظلمة الدائمة . وغاب عليه أن انطفاء أضواء الليل ، بشرى بعودة النهار .

والحق ؛ إن « المعرفة » و« السخط » يعودان فیرتقيان إلى الملأ الأعلى بمجرد أن تحتل الحضارة الجديدة الوليدة وجودها على الأرض ؛ حين تبدأ عملية انبثاقها القصيرة ، قصر لا يدرك . وتلقى إلى التداول شيئاً لا قيمة له بين الناس : فضائل أخرى هى أجدى على الإنسانية من الوجهة الاجتماعية ، وإن كانت أقل جاذبية ، من ناحية الجمال . وإن « العصر الحديدي » الذى أبدى هسيود أسفه لأنه ولد فيه ؛ هو بالفعل العصر الذى بزغت فيه حضارة يونانية جديدة حية ، من بين أنقاض حضارة مينووية راحلة . وغدت صفة « الحلم » التى كانت سر الحكم الأموى ، عديمة النفع لخلفائهم العباسيين . والعباسيون هم الساسة الذين وضعوا حداً نهائياً لمحاولة الأمويين الإفادة من عملية استئصال الثغور السورية للإمبراطورية الرومانية ، رجاء استعادة الدولة العالمية السورية .

حقاً ؛ إن الشيطان الذى يملك روح المتبربر بمجرد أن تطأ قدمه الثغور

(١) السطور ١٩٧ - ٢٠٠ Hesiod : Works and days .

(٢) هسيود Hesiod أو هسيودوس Hesiodus . أقدم شعراء اليونان القديمة التريبيين . ظهر في إبان القرن الثامن عشر الميلاد . وأول أشعاره ما ظهر تحت عنوان « الأعمال والأيام » ويتضمن نصفها نصائح وجهها إلى أخيه المنحرف ، رافماً إياه إلى العمل الشريف . أما بقية أشعار الديوان فتبحث في أيام العمل الوزاعى السعيد منها والشقى . وأجمل ما ورد في أشعاره ، وصفه الشتاء . (المترجم)

المهارة ، يصعب طرده منها . إذ يتحايل الشيطان على إفساد الفضائل نفسها التي احتفى بها ضحيته . ولعل أحدهم يقول - بحق - عن « المعرة » ما قالته مديام رولان عن الحرية « كم من الجرائم ترتكب باسمك » . إن حاسة الشرف لدى المتبربر « تهدر مثل الوحش الضارى الذى لا يدرك على الإطلاق متى يملاً معدته » (١) .

وإن الفطائع الجماعية هي السمة البارزة لعصر البطولة في التاريخ والأسطورة على السواء . حتى لقد اعتاد عليها المجتمع البربرى المتحلل أخلاقياً . وأصبحت مألوفاً عنده ؛ إلى درجة أن المنشدين الذين أخذوا على عاتقهم إضفاء الخلود على ذكرى سادة الحرب ، لم يترددوا في تحميل أبطالهم وبطلاتهم آثاماً قد يكونون أبرياء منها تماماً ؛ إعتقاداً منهم بأن تشويه صفاتهم على هذا النحو ، من شأنه تضخيم شجاعة أبطالهم . ولا يقتصر هؤلاء الأبطال على توجيه فطائعهم المفزعة إلى أعدائهم الرسميين وحدهم . فإن أهوال استباحة طروادة لا يفوقها بشاعة إلا الشقاق العائلى بين أفراد بيت آترويس Atreus (٢) ؛ ومنه نستخلص الحكمة القائلة بأن العائلات التي تنقسم على نفسها ، لا يقدر لها البقاء طويلاً .

حقاً ؛ إن السمة البارزة للدول المتبربرة المنتمية إلى عصر البطولة ، هو سقوطها الفجائى المثير من حائق . وبطالعتها التاريخ بأعجب الأمثلة ،

(١) صفحة ٣٠٥ من المجلدين الثانى والثالث : Gronbech, V : The Culture of the Teutons.

(٢) آتروس . في الأساطير اليونانية ، كان أحد ملوك اليونان وقد أغوى زوجة أخيه . فعند الأخ إلى إرسال ابن آتروس من زوجته الأولى ليقال أبيه . إلا أن آتروس قتل ولده دون أن يعلم . وانتقم آتروس من أخيه بقتله ولدى هذا الأخ . وأخيراً كان القتل نصيب آتروس على يد أخيه . وجدير بالذكر أن الشاعر هوميروس لم يذكر شيئاً من هذه الأسطورة ، لكن سوفوكليس أورد هذا في مسرحيتين من مسرحياته كما عرض لها أوربيديس في إحدى مسرحياته . (المترجم)

كالأفول الذى أصاب الهون بعد وفاة آتيل ، والوندال بعد وفاة جنسريك Genseric . ويؤكد هذان المثالان وغيرهما من الأمثلة التاريخية الواضحة ، القول المأثور بأن موجة الفتح الآخى قد انطلقت ثم انهارت بعد ابتلاع طروادة ، وأن أجامنون المقتول كان آخر قواد الحرب فى العالم الآخى الكبير .

ومهما بلغ من اتساع فتوحات قادة الحرب هؤلاء ، فلقد عجزوا عن إبداع التنظيمات . ولا شك فى أن مصير قائد من هؤلاء بالغاً ما بلغه حاكم كشرلمان من التعقيد والحضارة النسبية ، ليوضح هذا العجز توضيحاً درامياً .

(٤) الوهم والحقيقة

إذا كانت الصورة التى عرضها الفصل السابق لم تعد الحقيقة ؛ يصبح لا مناص من أن يكون حكمنا على عصر البطولة صارماً . بل إن أكثر الأحكام اعتدالاً ، تصمه بأنه مغامرة جوفاء . فى حين يدينه الحكم الصارم ، بأنه عصر الاغتصاب الإجراى . إننا نستمع إلى الحكم على هذا العصر بانتفاه فى شعر رخم لأديب من العصر الفيكتورى ، لامتد به العمر ليشهد صقيع عصر بربرى جديد^(١) :

اتبع طريق أولئك المحاربين الشقر ، القوط الفارعين

منذ اليوم الذى قادوا أهلهم زرق العيون

بعيداً عن مراعى الفيستولا الباردة ، حيث وطنهم المعتم .

سالكين شاطئ بحر البلطيق الموشى بالعنبر

تملأهم عزمات الرجولة النقية

(١) . يقصد الأستاذ المؤلف بالعصر البربرى الجديد ، عصرنا الحاضر الذى حفل

بمجرىين عالميتين وبظهور النازية والفاشية وأضرابهما . (المترجم)

يتحسسون طريقهم الغامض إلى أرض ميعاد مجهولة
يشقونه عند الأهداب المفككة للدولة الأرجوانية
ويطئون نخومها العريضة ، وهزمون جيوشها
ويذبجون إمبراطورها ويحرقون مدنها
لقد سلبوا أثينا وروما ليعزلوا قيصر
لأنهم قد حكموا العالم ، حيث حكم الرومان من قبل
ولكن بعد تلك القرون الثلاثة الطويلة من الغضب والدماء
وقسوة القلب ووحشية اليد المجازفة
لم يبق إلا التليل ؛ وهؤلاء القوط كانوا أشداء ، ولكن في التخريب
لم يكتبوا قط ولم يصنعوا فكرة أو يبدعوا شيئاً
لكن طالما كان الميدان زنفًا بالشيلم والقمح الغض
فقد نال حصدهم بعض التمجيد ، وإلا ما خلفوا وراءهم أثراً^(١) .
ومن العسير أن يكون هذا الرأي المتزن الذى قيل منذ خمسة عشر قرناً ؛
موضع الرضا من شاعر هلىنى ؛ كان لا يزال يشعر بمرارة طاغية إذ يرى ،
نفسه فى مجتمع قدر شاده المتبربرون الذين خلفوا دولة مينوس التى سادت
البحار^(٢) . فإن هسيود لم يقتصر على إلصاق وصمة التفاهة بعصر البطولة
الذى تلا الحضارة المينوية والذى كان فى إبان أيامه يرهص بحضارة هلىنية
وليدة ؛ بل اتهمه بالإجرام . حقاً إن حكم هسيود قاس خلا من الرحمة ؛

(١) السطور ٥٣٥ - ٥٥ من الكتاب الأول Bridges : The Testament

of Beauty

(٢) دولة مينوس البحرية - كانت الدولة العالمية للحضارة المينوية وكان مركزها

جزيرة كريت . (المترجم)

« أوجد الإله زيوس جنسا ثالثاً من الرجال الفانين - جنسا يتألف من البرونز - لم يكن في حكمة عنصر الفضة ، شُكِّلَ من رماد الجدوع ؛ جرى ومروع . كانت بهجتهم أن يمارسوا أفعال آريس Ares^(١) المفجعة وآثام العتو . لم يجاوز الخبز شفاههم قط لكن قلوبهم التي في صدورهم قدّت من الفولاذ ؛ وما كان في وسع أحد الدنو منهم . قوتهم هائلة التي انبعثت من أكتافهم القائمة على هياكلهم المتينة ، لا تغلب . من البرونز صُنعت دروعهم ومن البرونز شُيِّدت منازلهم ، وبالبرنز يحرثون أرضهم (لم يكن الحديد الأسود قد عرف بعد) . ومضوا وقد خفّضوا أدواتهم بأيديهم ، إلى بيوت لا تحمل إسما ، شُيِّدت من العالم البارد لأرواح الموتى . ورغما عن جرأتهم المفرطة ، أسرهم الموت في قبضته السوداء ، فبارحوا ضياء الشمس المنير^(٢) .

وكان ينتظر أن تكون هذه الفقرة من شعر هسيود ، الكلمة الأخيرة في حُكم الأعقاب على ما كابدوه من طوفان المصائب التي جلبها التبر برون على أنفسهم بحماقاتهم الإجرامية ؛ لولا أن الشاعر نفسه يستطرد فيقول :

« والآن عند ما توارى الأرض هذا الجنس ، يخلق زيوس بن كرونوس Cronos مرة أخرى على سطح الأرض أم الجميع ، جنسا رابعا ؛ جنسا أفضل وأكثر استقامة ؛ جنسا مقدساً من الرجال الأبطال ، يطلق عليهم أنصاف الآلهة ؛ جنسا كان على الأرض الفسيحة في الأزمان الغابرة . هؤلاء قد دمرتهم حرب منحوسة ؛ فقضى بعضهم نحبهم بأسفل بوابات طيبة السبعة

(٣) آريس : إله الحرب في الأساطير اليونانية . ويمادل مارس في الأساطير الرومانية . وقد اشتهر في تلك الأساطير بقوته وشدة بطشه . (المترجم)

(٤) السطور ١٤٣ - ٥٥ من ديوان هسيود - الأعمال والأيام .

فى أرض كاداموس Cadmus^(١) وقتما حاربوا مع جماعات أوديب Oedipus^(٢).
بينما نُقل آخرون فى سفن على خليج البحر الكبير ليُبادوا فى طرواده، فى سبيل
هيلين ذات الشعر الفتان ، وهناك يقيناً واجهوا نهايتهم وتواروا فى أحضان
الموت . على أن ثمة قلة أوهبها زيوس بن كرونوس الحياة ووفر لأفرادها
مسكناً بعيداً عن البشر ، وجعلهم يُقيمون فى أطراف الأرض فى جزائر
السعداء . وهناك يظنون إلى جانب دوامات المحيط العميقة وقد خلت قلوبهم
من الشجن ، خالى البال ، أبطال سعداء تغلّ لهم الحقول المثمرة ثلاث
مرات كل سنة محصولاً من العسل الحلو^(٣) .

فأهى العلاقة بين هذه الفقرة والفقرة التى سبقتها مباشرة ، وما
هى بالذات علاقتها بقائمة الأجناس التى تضمنتها ؟

إن سياق القصة يوقف إطراد القائمة ، فى موضعين :

فى المحل الأول - أن الجنس الذى مرّ فى هذا العرض ، لم يُرمر

(١) كاداموس فى الأساطير اليونانية - أحد أرباب اليونان ، وينسب إليه نقل
ستة عشر حرفاً هجائياً من مصر إلى اليونان . وتعتبره تلك الأساطير ، مخترع الفنون النافذة
وكبدع الحضارة بصفة عامة . (المترجم)

(٢) أوديب : فى الأساطير اليونانية - كان ابن أحد ملوك طيبة فى اليونان القديمة .
أنذرت والده إحدى النبوءات بهلاكه (أى هلاك الوالد) بيدي عقبه . فكان أن أمر الوالد
بإلقاء ابنه أوديب على جبل ييموت . إلا أن أحد رعاة ملك كورنث أنقذه ، واتخذه
هذا الملك ولداً . ولما أصبح أوديب شاباً نصحه ساحر مغيبد دلفى بأن لا يعود إلى وطنه
لأن القدر يحتم قتله والده واتخاذ أمه زوجة له . فهالته تلك النبوءة فبارح كورنث . على
أنه فى طريقه إلى طيبة تشارك مع رجل فقتله ، وكان والده دون أن يعلم ، وتزوج أمه
جاهلاً بحقيقتها وجاهلة حقيقته . فعاقب الإله المملكة بنشر الطاعون فى أرجائها . هنا ظهرت
نبوءة بقرر ضرورة عقاب المعتدى ليرفع الإله نقمته عن المملكة . فبحث أوديب الأمر فكتشف
أنه قتل والده وتزوج أمه . فانتحرت الوالدة وهجر أوديب العرش وهام على وجهه وأقام منفياً
بإختياره بمدينة كولونوس . وقد كانت مأساة أوديب محور مسرحيات كتبها يوريبيديس
بؤاشيلوس وسوفوكليس وغيرهم من الكتاب المحدثين . (المترجم)

(٣) هسيود : السطور ١٥٦ - ١٧٣ من ديوانه . الأعمال والأيام .

إليه بأى معدن ، خلافاً للأجناس السالفة من الذهب والفضة والبرونز ، فضلاً عن عنصر الحديد .

وفي المحل الثانى - جعلت الأجناس الأربعة الأخرى بحيث يتبع أحدها الآخر فى ترتيب تنازلى من حيث الجدارة : هذا إلى أن مصائر الأجناس الثلاثة السالفة الذكر بعد الموت ، جاءت متفقة وحياتهم على وجه الأرض . ومصدافاً لهذا رأى ؛ تطور عنصر الذهب بفعل إرادة زيوس « العظيم » إلى أرواح طيبة تطفو على الأرض ، تقوم على حراسة الرجال الفانين وتهمهم « الثراء » . أما عنصر الفضة الأقل من الأول قيمة ، فما برج يكتسب بين البشر الفانين لقب المباركين « تحت الأرض » . وهو رغم أنه يتلو عنصر الذهب فى الشرف ، لكنه مسربل بالمجد أيضاً . حتى إذا ما وصلنا إلى عنصر البرونز ، وجدنا مصير أفرادهِ بعد الموت قد انقضى فى صمت مشؤوم . ولا ريب أنه فى قائمة نُسجت على هذا النمط ، نتوقع وجود العنصر الرابع مقضياً عليه - بعد الموت - بمكابدة آلام الملعونين . على العكس من ذلك ، نجد بُنْأى عن جمهرة أفرادهِ ، قلةٌ مختارة ، ينتقل أفرادها بعد الموت إلى دار الخلود^(١) ، حيث يعيشون - فوق الأرض - الحياة نفسها التى كان يحياها عنصر الذهب .

وواضح أن إدراج « جنس الأبطال » بين « عنصر البرونز » و « عنصر الحديد » ؛ فيكر طارئ ، يَجِبُ مغزى الشُّعر ، ويُخلُ بتناسق فكرته ، ويزعزع مبناه .

فما الذى دفع بالشاعر إلى اللجوء إلى هذا الإدراج السخيف ؟

مناطق الإجابة : إن الصورة الممثلة هنا لجنس الأبطال ، قد إنطبعت فى

(١) فى الأصل Elyium وهو فى الأساطير اليونانية دار أرواح أبطال اليونان.

بعد الموت . (المترجم)

مخيلة الشاعر وجمهوره إلى درجة حتمت البحث عن موضع توضيح فيه . إن عنصر الأبطال ، إن هو إلا عنصر البرونز أعيد تقييمه في عبارات ليست من أسلوب الشاعر هسيود في جِدِّيَّة حقائقه ، ولكنها استعارة من خيال هوميروس المقتن .

إن عصر البطولة إذا نظرنا إليه من الناحية الاجتماعية ؛ ليعتبر عصر حماقة وإجرام . إلا أنه إذا نظرنا إليه عاطفياً ، يُعدّ تجربة كبرى . إنه تجربة مثيرة ؛ تجربة النفوذ بين تضاعيف الحاجز الذي طالما أعجز أسلاف الغزاة المتبربرين أجيالاً ؛ والانفلات إلى عالم يبدو ولا حدّ له ، يقدم لهم إمكانيات تبدو لا حدود لها . على أن هذه الإمكانيات ما تليث أن تستحيل إلى إجداب ، خلا شيئاً واحداً مجيداً . ومع ذلك فإن الإخفاق التام المثير الذي أصاب البرابرة على الصعيدين الاجتماعى والسياسى ، يُهيء - على النقيض - التوفيق لإبداع شعرائهم .

ذلك لأنه في دنيا الفنون ، يكون الفشل في الإبداع الفنى ، أبعث على الإبداع أكثر من النجاح . فقصّة نجاح ، لن تبلغ ما تبلغه مأساة . فإن الحماسة التي تولّدها هجرة الشعوب ، تتحلل إلى فساد يسرى في النفوس السكّرى للرجال الفعّالين ، بينما هي تُلهم الشاعر المتبربر ليعبر عن ذكرى أبطاله ، بأغنية خالدة . بما هم عليه من إثم وفدامة ، وفي هذا الملكوت المسحور - ملكوت الشعر - يحقق الغزاة المتبربرون - بالإناة - المجد الذي عجزوا عن بلوغه في حياتهم الواقعية . وهكذا يتجه التاريخ وجهة عاطفية يكتب لها الخلود .

وإذا كان شعر البطولة يخلب لباب المعجبين المُحدثين ، فهو يصرفهم عن رؤية الحقيقة ، وهى أنه كان فاصلاً كثيراً من فناء حضارة ومولد أخرى لتخلفها ؛ هذا الفاصل الذى أطلقنا عليه في هذه الدراسة في تهكم مقصود ، تعبير : عصر البطولة أو عصر الأبطال .

وأول ضحايا ذلك الوهم هو - كما رأينا - شاعر « عصر مظلم » ،
هو نتاج لعصر البطولة . ومصدراً لما أبدته اللحظة الماضية ؛ ليس للعصور
المظلمة أن تخجل من ظلمتها ، وهي ظلمة تعنى أن المشعلات^(١) البربرية
الحارقة قد خبّت بعد ما أحرقت في النهاية نفسها . وعلى الرغم من أن سطح
الأرض وعليه آثار اللهب - قد اختفى تحت ركام من الرماد ، إلا أن
العصور المظلمة تظهر قدرتها الإبداعية ، بينما لم تكن عصور البطولة
كذلك . حتى إذا مضى الزمن واكتمل ، أشرقت في الوقت المناسب حياة
جديدة ، تكسو حقل الرماد بالنبت الغض ، وشعر هسيود على حوشيته -
إن قورن بشعر هوميروس - إرهاب بعودة الربيع . لكن هذا القصاص
الأمين لعهد الظلام قبل بزوغ الفجر ، كان لا يزال مهوراً بشعر أوحته
إليه نزعة التحريق بالليل ؛ نزعة إعتنقها هوميروس كحقيقة تاريخية ،
وتخياها صورة للجنس الأبطال .

وتبدو أوهم هسيود متسمة بالغرابة . وذلك إن أخذنا بعين الاعتبار
أنه في الصورة التي رسمها لعصر البرونز ؛ قد حفظ لنا وصفاً قاسياً لا رحمة
فيه للمتبربر على حقيقته . ثم نرى أنه قد أعاد إلى الأذهان مرة أخرى ،
صورة المتبربر في خيال هوميروس . بيد أنه حتى بانتفاء هذه الدلالة ،
في وسع البيئة الباطنية نفس الأسطورة البطولية . فإذا ما أطفأنا جميع
الأنوار المصطنعة وعلى ضوء النهار الساطع وحده ، ورحنا نفحص ذلك
الاستعلاء الشعري للقتال النائر والمآدب الصاخبة ؛ تبدى لنا مثوى الأبطال
وقد عاشوا حياة شريرة ، وماتوا الميتة الشنيعة التي ماتها جنس البرونز ،
وتبدى لنا مثوى الأبطال وقد استحال إلى حي قدر . إن المحاربين
الجديرين بالقبول في مثوى الأبطال ؛ ليسوا إلا أشباه الشياطين الذين
صب عليهم هؤلاء المحاربون جرأتهم . وأن المتبربرين إذ يتلاشون من
على وجه البسيطة ، قد خلصوا العالم من مجمع الشياطين ؛ وحين هلكوا

(١) المشعلة : نار لإحراق هشم أو غيره . (الترجم)

جميعاً وحطم بعضهم بعضاً وفنوا ، قدموا للعالم صنيعاً قدره كل إنسان ما عداهم .

ولعل هسيود هو الأول — لكنه لم يكن الأخير قطعاً — الذى خدعته بهجة الملاحم البربرية . فإننا فى القرن التاسع عشر الميلادى — الذى يُفترض أنه عصر إستنارة — نشاهد فيلسوفاً مدّعياً يقدم أسطوره عن جنس نوردى متبربر خير ، يفعل دمه فى البدن فعل إكسير الشباب إذا لُقِّح به مجتمع أثقلته السنون . ولعل نياط قلوبنا ما تزال تنقطع إذ نراقب « لعبة الروح »^(١) الأرستقراطية الفرنسية الرشيقة ، تتحول إلى أسطورة عنصرية على أيدي دعاة البربرية الشيطانية الألمانية الجديدة . وحقاً ؛ فإن إصرار أفلاطون على إستبعاد الشعراء من جمهوريته ، يكتسب معنى واضحاً إذا ما تبعنا السبب والأثر بين مؤلفي الأساطير النوردية ومؤسسى الرايخ الثالث^(٢) .

على أن المتبربرين المتطفلين قد سنحت لهم الظروف ليقدموا خدمة متواضعة للأجيال اليالية . ففي إبان الانتقال من حضارات الجليل الأول إلى حضارات الجليل الثانى ؛ صنع المتبربرون المتطفلون فى بعض الأحيان ، حلقة وصّلت بين الحضارة الراحلة وخليفتها الوليدة . وهى حلقة تماثل تلك التى هياها الأديان اليقينية لتعبّر فى مرحلة الانتقال التالية : من حضارات الجليل الثانى ، إلى حضارات الجليل الثالث . ويطالعنا على سبيل المثال :

أولاً — إرتباط الحضارتين السريانية (السورية) والهلينية بحضارة سابقة

(١) يقصد الأستاذ المؤلف ما نادى به الكونت جوبينو الفرنسى فى مستهل القرن التاسع عشر من سمو العنصر النوردى — انظر صفحات ٨٨ — ٩٠ من الجزء الأول من ترجمة هذه الدراسة . (المترجم)

(٢) أى المفكرون الألمان فى العهد هتلرلى وقد نادوا بسمو الجنس النوردى على غيره من الأجناس ، بل واعتبروا طائفة من الأجناس منحطة يحق للجنس النوردى السيطرة عليها لمنفعته أو إبادتها عند الاقتضاء . (المترجم)

عليهما - وهى الحضارة المينوية - بواسطة حلقة تتمثل فى البروليتاريا الخارجية لهذا المجتمع المينوى^(١).

ثانياً - وكذلك قيام الحضارة الحيثية بنفس العلاقة بالنسبة لحضارة سابقة عليها هى الحضارة السومرية .

ثالثاً - نشوء الصلة بين الحضارة الهندية والثقافة السندية المتقدمة عليها فى الزمن ، وفقاً لنفس الأسلوب . وذلك مع إفتراض أن الحضارة السندية عاشت حياة مستقلة عن الحضارة السومرية .

وهكذا تبدى ضآلة الخدمة التى أداها المتبربرون ، إن قورنت بالدور الذى أدته الأديان اليفعات :

فإن البروليتاريا الداخلية - وهى التى تُشيد العقائد الدينية - والبروليتاريا الخارجية - وهى التى تستولد عصابات الحرب - وإن اجتمعتا فى الأصل المشترك ، بحسبانهما كليهما خلف انشقاق سيكلوجى عن حضارة متحللة ؛ إلا أن البروليتاريا الداخلية تمتلك وتخلّف للأجيال التالية - كما هو ظاهر - تراثاً من الماضى أخصب بكثير من التراث الذى يمتلكه وتخلّقه البروليتاريا الخارجية . ويتجلى هذا بوضوح إن قارنا ما تدين به الحضارة المسيحية الغربية للحضارة الهلينية ، بما تدين به الحضارة الهلينية للحضارة المينوية . فلقد اصطبغت الكنيسة المسيحية بصبغة هلينية إلى حدّ التشبع ؛ فى حين جهل الشعراء الهومريون^(٢) تماماً بالمجتمع المينوى . فكأنهم صوروا عصر

(١) البروليتاريا الخارجية فى هذه الحالة . البرابرة الآخيون كما مر بنا بموضع سابق من هذه الترجمة . (المترجم)

(٢) نسبة إلى هوميروس الشاعر اليونانى الذى تنسب إليه صياغة ملحمة الإلياذة والأوديسية ، وقد بسط فيهما بطولات المتبربرين الآخمين . (المترجم)

البطولة في «خلاء» ؛ إلا من إشارة عابرة إلى الجيفة^(١) الضخمة التي أولم عليها الأبطال النور - أبطال في شعر الشعراء - نهابو المدن ؛ كما كانوا يفخرون بتسمية أنفسهم :

وفي ضوء ما تقدم ؛ يلوح أن الخدمة التي أداها الآخيون وغيرهم من متبرري جيلهم الذين أدوا نفس الدور الانتقالي ، تتضاءل إلى حد العدم .

فما هو مبلغ ما وصل إليه هذا الصنيع بالفعل ؟

تتجلى حقيقته ؛ وقما تقارن سائر الحضارات المتتمة إلى الجيل الثاني - تلك التي تنتسب أسلافها بوساطة هذه الحلقة المتبربرة الواهية - بمصائر بقية الحضارات الثانوية . وأية حضارة ثانوية لا تنتسب إلى سلفها الحضارى بوساطة البروليتاريا الخارجية للحضارة السالفة ، لابد أن يكون انتسابها عن طريق الأقلية المسيطرة للحضارة التي انبعثت هي منها . هذان هما الحلان البديلان ؛ طالما لم تنبعث عقائد دينية يَفْعَعة عن الأديان العليا الأساسية للبروليتاريا الداخلية للحضارات الأولى .

وهكذا تصبح لدينا مجموعتان من حضارات الجيل الثاني :

الأولى - مجموعة الحضارات التي تنتسب إلى أسلافها عن طريق البروليتاريات الخارجية .

الثانية - مجموعة الحضارات التي تتم عملية انتسابها بوساطة الأقليات المسيطرة لأسلافها .

وتقف هاتان المجموعتان - من وجهة نظر أخرى - على طرفي نقيض :

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بهذا التعبير الحضارة المينوية التي أجهزت عليها عصابات الحرب البربرية الآخية . (المترجم)

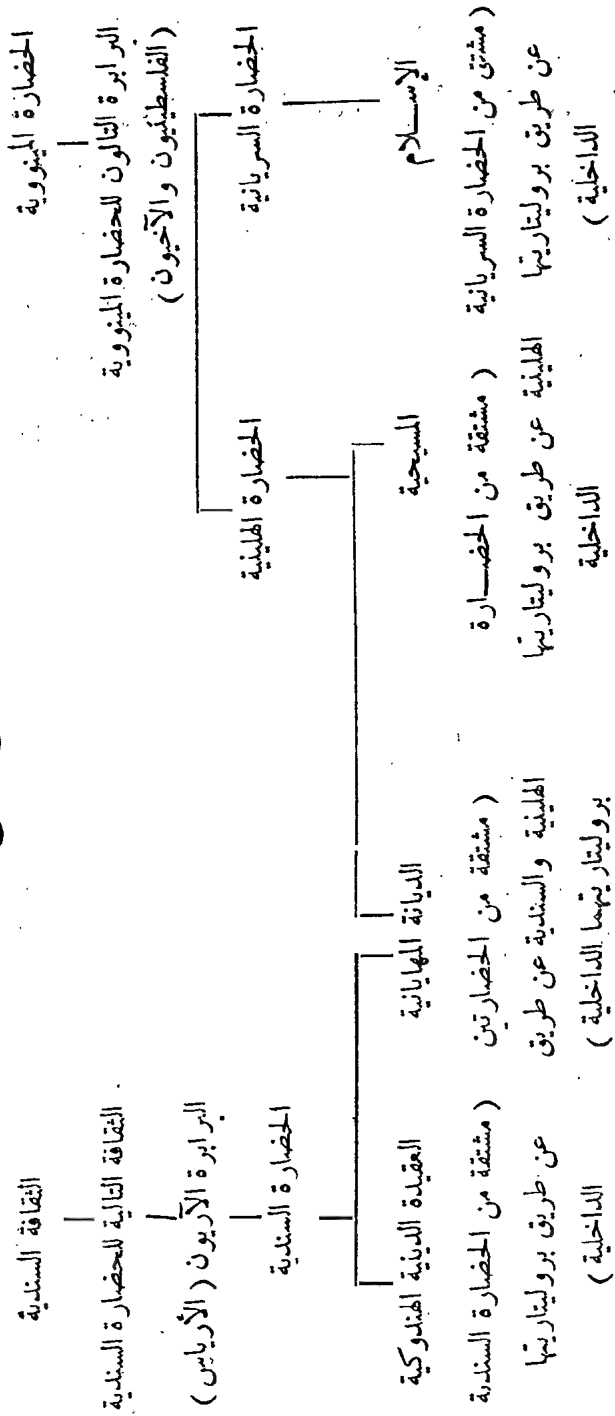
أولاً - أن حضارات المجموعة الأولى تباين عن الحضارات السالفة إلى درجة تجعل نفس حقيقة إنتسابها ، موضع شك .
ثانياً - أما المجموعة الثانية ، فهي شديدة الارتباط بأسلافها إلى حد قد يجعل من إدعائها كياناً منفصلاً ، موضع نقاش . وتطالعنا أمثلة ثلاثة لهذه المجموعة : في الحضارة البابلية التي يمكن إعتبارها ؛ إما حضارة منفصلة ، أو امتداداً للحضارة السورية ؛ وفي الحضارتين الياكويتية والمكسيكية اللتين تمتآن بالمثل إلى الحضارة المايانية .

وعسانا بعد تنسيق هاتين المجموعتين أن نمضي قدماً ، فنلاحظ تبايناً آخر بينهما . ذلك لأن مجموعة الحضارات الثانوية « فوق المنتسبة » (أى الجدوع الميتة للحضارات الأولى) قد منيت جميعها بالفشل ، في حين قيض النجاح لحضارات المجموعة الأخرى : الهلينية ، السريانية (السورية) ، السندية .
وحقاً ، ما من حضارة « فوق المنتسبة » قد أفلحت في إنجاب دولة عالمية ، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة .

فإذا أعدنا إلى الأذهان النتيجة التي انتهينا إليها ؛ وهي أن ترتيبنا المسلسل للماذج المجتمع المتتابعة زمنياً ، هو في نفس الوقت ترتيب تصاعدي من حيث قيمتها ، بحيث تبلغ الأديان العليا أقصى درجة ؛ إذا فعلنا ذلك ، لاحظنا أن يفعات الحضارات المتبريرة المنتمية إلى الجيل الثاني (لا إلى الجيل الثالث) ، لها أن تفخر بشرف المشاركة في تطوير العقائد العليا .

وفي وسعنا بوساطة الجدول التالي ، عرض القضية بأجلى بيان :

جدول تسلسل نماذج المجتمع المتابعة



ملاحظة - كتيبة النساء المريعة

لعل من المتوقع أن يكون عصر البطولة ، عصر مُذكر في المكان الأول .

ألا تدينه الشواهد بأنه عصر قوة بهيمية ؟

وإذا أطلق العنان لهذه القوة العارمة ، فأى حظ للنساء أن يتناسكن إزاء

الجنس الآخر المتفوق عليهن من الناحية الجسمية ؟

ولكن هذا المنطق المضمح لا تنقضه الصورة المثالية التي يعرضها

شعر البطولة ، بل تفتنه كذلك وقائع التاريخ .

ففي عصر البطولة ، قُدّر للكوارث الفادحة أن تكون من صنع النساء ،

حتى وقتما كان دورهن فيها سلبيا . فإذا كانت رغبة آلبيون Albion^(١) في

روزامند Rosamund - وهي رغبة لم تتحقق - كانت السبب في استئصال مملكة

آل جيبيدائي Gepidae ، فإن من المعروف أن تخريب طرواده Troy سببه

إشباع رغبة باريس Paris في هيلانه Helen . وأكثر من ذلك شيوعاً ؛ أن

نجد النساء - أصل الكوارث بلا موارد - يدفعن حقدن الأبطال إلى ذبح

بعضهم بعضاً . وما الشجار - الذي ترويه الأسطورة - بين برونهيلد^(٢)

Brunhild و كريمهيلد Kriemhild ، وظهر في النهاية في عملية الذبح التي تمت

في باحة آتيللا على الدانوب ؛ إلا قطعة من الأحداث الحقيقية في الصراع بين

(١) آلبوين Aibom . ملك اللومبارد ٥٦٥ - ٥٧٣ مكنه بمعاونة الأفاريين اجتياح مملكة جيبيدائي وقتل ملكها . ثم اتخذ من ابنة القتيل - وتدعى روزامند - زوجة له . وحوالي عام ٥٦٨ م أغار على إيطاليا ، وفي عام ٥٧٣ م قتله عشيق زوجته بتحريض منها لأنه (أى الملك البروين) أرغمها أن تحتسى الخمر في كأس صنعت من بحجمة والدها . (المترجم)

(٢) برونهيلد Brunhild ؛ في الأساطير الشمالية - كانت ملكة ايسلندا . طلب سيغفريد Siegfried يدها الملك جونتر Gunther ملك بورجاندى Burgundy . لكن كريمهيلد Kriemhild أخت الملك جونتر وزوج سيغفريد أثارت الحقد في نفس الملكة على زوجها . وكان للملكة صديق يدعى هاجين Hagen من أتباع الملك جونتر ، فحرضت صديقها على سيغفريد فقتله . (المترجم)

شخصية برونهيلد التاريخية^(١) وعدوها فريدجوند Fredegund . وهو صراع اقتضى مملكة الميرفنجيين (إحدى الممالك التي انبثقت عن تفتت الإمبراطورية الرومانية) أربعين سنة من الحرب الأهلية .

وبالطبع ؛ لا يقتصر تأثير النساء على الرجال - إبان عصر البطولة - على تحريض رجال عشيرتهن على قتال بعضهم بعضا . فها من امرأة خطت في التاريخ أثراً أعمق مما خطته أولمبيا أم الإسكندر ؛ وهند أم معاوية بن أبي سفيان ؛ وكلتاها قد خلدتا نفسيهما بنفوذهما الأدبي طوال حياتهما على ولديهما الجبارين . ولكن في الوسع إيراد قائمة تطول إلى ما لا نهاية ؛ تضم نساء من سجلات التاريخ المؤكدة ، من طراز جونيريل Gonereel وريجان Regan واللادى ماكبث .

ولعل ثمة اتجاهان لتفسير هذه الظاهرة : أحدهما اجتماعي والآخر سيكولوجي :

ويقوم التفسير الاجتماعي على أن عصر البطولة ، عصر فراغ اجتماعي تحطمت في غضونه العادات الاجتماعية للحياة البدائية . بينما لم تتولد بعد عادات جديدة عن حضارة وليدة أو ديانة عليا ناشئة . وهكذا ؛ تتولى ملء الفراغ الاجتماعي - في هذا الموقف القصير الأجل - روح فردية مطلقة يبلغ من قوتها أن تنسخ الاختلافات الكامنة بين الجنسين . ومن العجيب أن نجد هذه الفردية المطلقة العنان ، تحمل ثماراً لا يكاد يمكن تمييزها عن ثمار تحملها روح أنثوية غير واقعية ؛ تجاوز في جملتها ، المجال العاطفي والأفق الثقافي للنساء والرجال الذين عاشوا في مثل هذه العصور .

(٣) برونهيلد في التاريخ . كانت ابنة آثاناجيلد Athanagila أحد ملوك القوط الغربيين . إقترنت بـ Sigbert ملك أوستراسيا . وكانت أختها في نفس الوقت زوجاً لملك نوستريا ، إلا أنه قتلها وسمى إلى قتل أخت زوجته كذلك (أى قتل برونهيلد) إلا أنها أمكنها تفادى قصاصه واستطاعت بعد وفاته أن تؤدي دوراً هاماً في تاريخ الممالك الفريجية . وقبض لها عدة مرات النجاة من أعدائها . إلا أنها سقطت أخيراً في أيديهم فأماطوها شر ميتة . (المترجم)

وإذا ما اقتربنا من جانبها السيكولوجى ، فلقد يقال أن الأوراق الراجحة فى صراع المتبررين المميت فى سبيل البقاء ، لا تتمثل فى قوة بهيمية ؛ لكنها تتجلى فى صفات : الدأب ، الثأر ، التأجج ، الاحتياى ، الغدر ؛ وتلك هى نزعات زُوِّدت بها الطبيعة البشرية الآثمة : ذكراً أكانت أم أنثى .

فإذا ما تساءلنا فيما إذا كان النساء اللاتى مارسن هذه النزعات فى « جحيم » عصر البطولة ، هن بطلات أم أفاقات أم ضحايا ؛ فلن نوفق إلى إجابة صريحة . أما الواضح ، فهو أن مأساة تناقضهن المعنوية ، تجعل منهن موضوعات للشعر مثالية . فلا يُستغرب إذن : أن يصبح ما يدعى بـ « قوائم النساء » ، واحداً من « الإيقاعات » المحببة فى تراث ملاحم عصر البطولة الذى أعقب لإنهيار المجتمع المينوى . وفى هذه القوائم يبرز القصاص إلى العيان أسطورة جريمة ارتكبتها امرأة مسترجلة ، ويصف آلامها . ويمضى فى سرده الشعرى لسير النساء من تلك الطبقة ، الواحدة بعد الأخرى .

ولارىب أن النساء الحقيقات اللاتى عشن فى التاريخ وردد هذا الشعر مغام آتهن الشريرة ، يتسمن متضجرات ، لو علمن — مُسبقاً — أن هذه الذكريات ستثيريوما ما قصيدة من الشعر فى خيال أحد شعراء العصر الفيكتورى . وهن يشعن بكل تأكيد براحة تامة فى جو المشهد الثالث من الفصل الأول من مسرحية ما كبت .

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات في المكان

الفصل الثلاثون

امتداد ميدان الدراسة

تستند الفكرة الأساسية لدراسة التاريخ هذه ، على أن الحضارات التاريخية هي ميادين للدراسة متعددة ، قابلة للفهم . وإن مهمتنا لتصبح عاجزة إن أثبتت الفكرة صلاحيتها للتطبيق في جميع مراحل تواريخ الحضارات . ولكننا رأينا أن حضارة ما ؛ تبدو قابليتها للفهم ، طالما نبحت نشوؤها ونموها وانهارها . إلا أنها تفقد قابليتها للفهم ، إن انتقلنا إلى دراستها في مرحلة التحلل . ولن يتأتى تفهّم هذه المرحلة الأخيرة في التاريخ الحضارى إلا إن وسّعنا مجال بصرنا الذهني إلى أبعد من حدوده المألوفة ، وأخذنا في اعتبارنا تأثير العوامل الخارجية . وهنا يحضرنا مثال واضح فرد ، وهو أن الإمبراطورية الرومانية هيأت المهد الذي فيه ترعرعت المسيحية ، المستوحاة من الحضارة السريانية (السورية) .

ويفسر أحد الأمكنة الشائعة في الجغرافية التاريخية ، أهمية الدور الذي أدّاه التصادم بين مختلف الحضارات ، في عملية تكوين الأديان العليا . وللتدليل على صحة هذا الرأي ؛ أن خارطة أماكن إنبعاث الأديان العليا ؛ تبين تكديسها في - أو حول - رقعتين صغيرتين نسبياً من مجموع مسطح الأرض في العالم القديم وهما :

أولاً - حوض نهر سيحون وجيحون - كان مسقط رأس البوذية المهابانية على الصورة التي انتشرت بها في عالم الشرق الأقصى . ولربما نشأت بذلك الموضع قبلئذ ، عقيدة زرادشت .

وثانياً - سوريا - ونقصد بذلك الاصطلاح معنى أوسع دلالة ؛ يشمل منطقة تحدّ بالسهوب العربية الشمالية وبالبحر المتوسط والمنحدرات الجنوبية للهضبتين الأناضولية والأرمنية .

وفي أنطاكية بسوريا : تبلورت المسيحية في الشكل الذي عمّت به - من هناك - العالم الهليني ، بعد ظهورها في الجليل في بداية الأمر كضرب من اليهودية الفريسية . وفي سوريا الجنوبية^(١) ؛ انبعثت اليهودية وشقيقتها الديانة السامرية^(٢) . وفي سوريا الوسطى^(٣) نشأت المسيحية المارونية المؤمنة بالإرادة الواحدة^(٤) ، وكذلك الشيعة الدروز الذين يعبدون الحاكم^(٥) .

ويتبدّى هذا التركيز الجغرافي للأماكن التي ولدت بها الأديان العليا في صورة أوضح ، إن نحن وسّعنا مجال أفقنا ليتناول مناطق متاخمة . فإن الحجاز وهو امتداد سوريا صوب الجنوب على طول المرتفعات التي تطرّز البحر الأحمر يحتوي على البقاع التي نشأ فيها الإسلام العقيدة الدينية الجديدة^(٦) .

(١) أي فلسطين .

(٢) لا نعرف العقيدة السامرية إلا بالأسفار الخمسة الأولى أي : التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية . ولا تؤمن ببقيتها وتبلغ ٣٤ سفرأ . (المترجم)

(٣) أي لبنان .

(٤) الكنيسة المارونية : أسسها القديس مارون قبل عام ٤٢٣ ميلادية . وكانت تؤمن بأن للمسيح إرادة واحدة . وهذا عكس المذهب الشائع عند معظم المسيحيين القائل بأن للمسيح إرادتين : إرادة بشرية وأخرى إلهية . وفي سنة ١١٨٢ م إتحدت الكنيسة المارونية مع كنيسة روما ، ثم أصبح المارونيون منذ عام ١٢١٦ م راسخين في العقيدة الكاثوليكية . (المترجم)

(٥) أي الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله . (المترجم)

(٦) إن اعتراف الإسلام بالسيد المسيح عليه السلام - عكس اليهودية التي تنكره بحلة وتفصيلا - وإن اقتصر ذلك الاعتراف على الطبيعة البشرية إطلاقاً ، قد حدا بالامتناد المؤلف إلى القول في بعض مواضع كتابه بأن الإسلام مسيحية من نوع خاص . وردنا على ذلك أن الإسلام ينكر طائفة من قواعد المسيحية الأساسية التي يستند عليها جوهرها المميز وفيها يتخذ شكلها المعروف :

وإذا نحن وسعنا كذلك أفق نظرتنا لحوض نهري سيجون وجيجون ؛
اكتشفنا المكان الذى ولدت فيه المهايانا فى أول ظهورها فى حوض السند ، وهو
مسقط رأس البوذية البدائية . وكذلك وقعنا فى الحوض المتوسط لنهر الجانج
على المكان الذى ولدت فيه العقيدة الهندوكية التالية للبوذية .
نُرى ما هو التفسير ؟

= أولاً - فكرة الصلب - فلا يعترف الإسلام بصلب السيد المسيح . وفى هذا يقول الله
فى محكم آياته : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . فالإسلام ينكر بالتالى فكرة القداء
وهى ركن المسيحية الركين .

ثانياً - إنكار ألوهية السيد المسيح والأقانيم الثلاثة بالتالى ، إنكاراً باتاً .
ثالثاً - عدم اعتراف الإسلام بفكرة الخطيئة الأزلية التى انحدرت إلى البشرية من آدم
فأصبحت ترزح تحتها وهى التى تطلبت - وفقاً للمبادئ المسيحية - تجسد الإله فى صورة بشرية
لاقتداء الإنسان . إذ ينادى الإسلام بمسئولية كل فرد عن عمله (كل نفس بما كسبت رهينة -
من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

رابعاً - يعترف الإسلام بالدنيا ؛ وعلى نوع عمل الإنسان فيها يتوقف جزاؤه فى
الآخرة . وهذا عكس المسيحية التى تجعل من الحياة الدنيا رمزاً للخطيئة الأزلية . فهى لا تعترف
بالدنيا وترنو إلى الآخرة حيث ملكوت الرب .

خامساً - ترى المسيحية أن نزول آدم إلى الأرض ، عقاب له على خطيئته التى باتت
أزلية بانقلاها إلى أخلافه الذين يكابدون فى الحياة الدنيا بفعل ذنب ارتكبه جدهم الأعلى
ولم يرتكبه هم بالذات .

أما الإسلام فإنه وإن سلم بخطيئة آدم ، إلا أنه وحده المشغول عنها . بل إن الله تعالى
قد تاب عليه بعد أن لقته كلمات التوبة والغفران : « فتلق آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه
هو التواب الرحيم » . أما فنزول آدم إلى الأرض فإنه لإظهار إبداعه وقدرته تعالى « إلى
جاءل فى الأرض خليفة » .

ومن ثم نجد القرآن الكريم يدفع المؤمنين إلى العمل الصالح ، وهو لا يقتصر على
العبادات وحسن معاملة الناس لبعضهم بعضاً ، بل يمتد إلى تعمير الأرض بالأعمال المنتجة .
فبادئ الإسلام والحالة هذه أصيلة ، غاية فى الأصالة . وإن اعترفت بطائفة من
المبادئ والآراء المسيحية واليهودية التى تتفق والتعاليم الإسلامية الأساسية ولا تتناقض مع
الرسالة الإسلامية السامية . وهذا الإعترا فمصدق لقوله تعالى « مصدقاً لما بين يديه من
التوراة والإنجيل » . وهذه الأصالة يعترف بها الأستاذ المزلت فى مواضع أخرى من كتابه ،
ونجد نظرتة إلى الإسلام أشد وضوحاً فى كتابه **A Philosopher Approach to Religion** .

(المترجم)

إذا ما نظرنا إلى خصائص حوض سيحون وجيحون من ناحية ، وسوريا من الناحية الأخرى ، وقارنا أحدهما بالآخر ، نجد أن الطبيعة قد منحت كلا منهما القدرة على القيام بدور « دائرة التلاقى » حيث يمكن لأية حركة انتقال آتية من المنطقة ، أن تتحول إلى أية نقطة أخرى في المنطقة ؛ في خطوط لانهاية لها .

ففي دائرة التلاقى السورية : تتلاقى الطرق الآتية من حوض النيل ومن البحر الأبيض المتوسط ومن الأناضول (مع ظهرته الأرض الأوربية الجنوبية الشرقية) ومن حوض دجلة والفرات ومن السهوب العربية .

وكذلك تتلاقى — في دائرة التلاقى من آسيا الوسطى — الطرق الآتية من حوض دجلة والفرات عن طريق الهضبة الإيرانية ، وتلك الآتية من الهند عبر الممرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ومن الشرق الأقصى ، عن طريق حوض نهر ناريم : وكذلك الطرق الآتية من السهوب الأوراسية المتاخمة ، التي أخذت مكان « منطقة بحر متوسط أخرى » وورثت خاصية التوصيل هي الأخرى ؛ وشهد على وجودها فيما مضى ، بقاياها الماثلة في بحر قزوين وفي بحر آرال وفي بحيرة بالكاش .

فالدور الذى رسمه القدر — والحالة هذه — لهذين المركزين القويين لحركة التجارة ، وقد أداه كل منهما في واقع الأمر ، المرة بعد الأخرى . وذلك في غضون الخمسة آلاف أو الستة آلاف سنة منذ انبعاث الحضارات الأولى :

فقد ظلت سوريا خلال فترات متعاقبة ، مسرحاً للمصادمات بين الحضارتين : السومرية والمصرية ؛ وبين الحضارات : المصرية والحيشية والمينوية ؛ وبين الحضارات : السريانية (السورية) والبابلية والمصرية والهلينية ؛ وبين الحضارات : السريانية (السورية) والمسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية . وفي نهاية المطاف ، شهدت هذه المنطقة الاتصالات بين الحضارات : العربية والإيرانية والغربية .

وكذلك كان حوض سيحون وجيحون مسرحاً للمصادمات خلال فترات متعاقبة بين الحضارتين : السريانية والسندية ؛ وبين الحضارات : السريانية والسندية والهلينية والصينية وبين : الحضارة السريانية وحضارات الشرق الأقصى .

وترتب على هذه المصادمات : أن كلا من هاتين المنطقتين الحاملتين للإشعاع الديني ، قد دخلت في نطاق الدول العالمية التي انتظمت في عدد من الحضارات المختلفة . وهذا التمازج الفعال الذي لا نظير له بين الحضارات في هاتين المنطقتين ؛ يفسّر التركيز الغير العادى — داخل حدودهما — لمواطن انبعاث الأديان العليا .

ولعلنا نجازف — مستندين على متانة هذه الحجة — باستنباط قانون مداره أنه — لدراسة الديانات العليا — ينبغى توفير أضال قدر ممكن فهمه من ميدان الدراسة . على أن يكون هذا القدر أوسع عند دراسة الأديان ، منه عند دراسة حضارة بمفردها . ففي ميدان العقيدة الدينية العليا ، تتصادم حضارتان أو أكثر .

لهذا ستكون خطوتنا التالية ، القيام بعرض لتلك المصادمات ، أوسع نطاقاً . وهى المصادمات التي عملت — في ظل أوضاع تاريخية خاصة — على إبراز الأديان العليا إلى الوجود .

والمصادمات التي نحن بصددھا ؛ هى اتصالات في البعد المكاني بين الحضارات التي — وفقاً للفرض — يجب أن تكون كل منها معاصرة للأخرى . ولكن قبل أن نصل إلى هذه النقطة من الجزء الحالى من هذه الدراسة ، عسانا ننوه بأن للحضارات اتصالات — إحداها بالأخرى — في البعد الزماني كذلك .

وهذه الاتصالات من نوعين :

الأول : يتضمن علاقة التبني والانتفاء بين الحضارات المتعاقبة . وهو موضوع رافقنا طوال هذه الدراسة .

الثاني : يشمل العلاقة بين الحضارة اليابعة و« طيف » الحضارة السابقة عليها في الوجود ؛ والتي انقضى أجلها منذ أمد طويل ؛ ولعلنا نطلق على الحضارات التي من هذا الطراز اسم « البعث » Renaissance مقتبس من الاسم الذي ابتكره في القرن التاسع عشر ، كاتب فرنسي لوصف مثال خاص - ليس هو الوحيد بأية حال من الأحوال - لهذه الظاهرة التاريخية .

وستفرد القسم التالي من هذه الدراسة للمصادمات بين الحضارات في الزمن .

الفصل الحادى الثلاثون

عرض للمصادمات بين الحضارات المتعاصرة

(١) خطة العمل

إذ نضطلع بإجراء عرض للمصادمات بين الحضارات المتعاصرة^(١) ،
تواجهنا متاهة من التاريخ معقدة تعقيداً رهيباً ؛ مما يجعل من سداد الرأى
البحث عن موضع مناسب نلج منه إلى تلك المتاهة .

ولقد بلغت عدّة الحضارات التى حددنا أصلاً مواقعها على خارطتنا
الثقافية واحداً وعشرين حضارة . وإذا ما كشفت لنا الحفائر الأخيرة عن
صدق فكرة أن الثقافة السندية تكوّن مجتمعا قائماً بنفسه منفصلاً عن الحضارة
السومرية ، وأن ثقافة شانج « Shang » كانت - كحضارة - سابقة على
الحضارة الصينية . عندئذ ينبغى على هذا التغير فى عدتنا ، لإزدياد مجموع
الحضارات إلى ثلاثة وعشرين . على أن من الواضح ؛ حتى لو سلمنا بأنه
لا يمكن وقوع تصادم من النوع الذى تعيننا دراسته هنا بين حضارتين
متعاصرتين لم يحدث بينهما اتصال ؛ حتى لو سلمنا بهذا ، فإن عدد المصادمات
بين الحضارات المتعاصرة ، قد يتجاوز بشكل مفرط - وهو الحاصل
بالفعل - عدد الحضارات نفسها .

وقد أسفرت دراستنا - كما لاحظنا دائماً - عن وجود ثلاثة أجيال
من الحضارات . وإذا كانت حضارات الجيل الأول قد تلاشت تزامنيا^(٢)

(١) . المتعاصر : الواقع معاً فى عصر بعينه . (المترجم)

(٢) . التزامنى : أى فى نفس الوقت والزمن . (المترجم)

ولآقت حضارات الجليل الثانى نفس المصير ؛ عندئذ تصبح خيوط المصادمات فى البعد المكافى بين الحضارات ، أكثر بساطة . وبالأحرى ؛ علينا التمعن فى المصادمات المتبادلة لحضارات متممة إلى الجليل الحضارى الأول :

ا ، ب ج ، د ، هـ ؛ ذن أن نسلّم بإمكان وقوع تصادم بينها وبين حضارات متممة إلى الجليل الحضارى الثانى : و ، ز ، ح ، ط ى .

وهذا بالطبع لم يحدث فعلا .

فلئن كانت الحضارة السومرية مثلا ، قد استسلمت برفق لنهاية متواضعة قبل أن يُقَيِّض لها مواجهة أية حضارة فتية من الحضارات المنتمة إلى الجليل الحضارى ؛ فقد سلكت الحضارة المصرية — تلك الحضارة المشعة المنتمة إلى الجليل الأول — سلكا طريقا يختلف تماما عن الطريق الذى سلكته الحضارة السومرية .

وكان ثمة — حتى العصور الحديثة — عامل واحد ، جعل عدد المصادمات التى وقعت فعلا بين الحضارات المتعاصرة فى المكان ، يقصر كثيرا عن بلوغ أكبر عدد ممكن من الوجهة الحسابية . ولعل مرد ذلك ، إتساع البعد المكافى ؛ أو أنه من طبيعة خاصة تحول دون وقوع التصادم التبادلى . فليست هناك — من قبيل المثال — مصادمات بين حضارات العالم القديم وحضارات العالم الجديد ، قبلما تتمكن الحضارة الغربية من السيطرة على فن الملاحة عبر المحيط ؛ خلال الفصل الحديث من تاريخها (حوالى ١٤٧٥ — ١٨٧٥) . وتعتبر هذه المأثرة معلما تاريخيا من معالم الطريق ، لعله يزودنا بدلالة تهدينا إلى مدخل ننفذ منه إلى متاهة التاريخ التى أخذنا على عاتقنا أن نرتادها .

وحقاً ؛ عندما تمكن الملاحون الأوربيون الغربيون فى إبان القرن الخامس عشر للميلاد من فن الملاحة فى المحيط ، كسبوا بذلك وسيلة إستخدامها فعلا للوصول إلى جميع الأراضى المأهولة والصالحة للسكن على وجه هذا الكوكب . وهكذا غدا تأثير الغرب — بالتدريج — هو القوة الاجتماعية الطاغية على حياة جميع المجتمعات الأخرى . وكلما ازداد الضغط الجاثم عليها ،

إنقلبَت حياة تلك المجتمعات رأساً على عقب . وبدأ للوهلة الأولى ؛ كما لو أن حياة المجتمع الغربى فى غضون عُمر كاتب هذه الدراسة — من بين ثنايا تلاقى الغرب بالمجتمعات المعاصرة له ، تلاقى كدّر سماء المجتمع الغربى نفسه .

ولقد كان الدور الطاغى للغرب الذى جاء نتيجة تلاقى الغرب وبناء اجتماعى غريب ، ظاهرة مستحدثة فى التاريخ الغربى فى عهده الأخير .

فلقد ظل الغرب — إجمالاً — منذ فشل الهجوم العثمانى على فيينا عام ١٦٨٣ م حتى هزيمة ألمانيا فى الحرب العامة ١٩٣٩/١٩٤٥ ، يحظى بالقوة والتفوق على بقية أنحاء العالم . إلى درجة جعلت الدول الكبرى الأوربية ، لا تحسب — أساساً — حساباً لأية دولة خارج دائرتها . لكن إحتكار الغرب لمظاهر التفوق ، إنقضى أجله عام ١٩٤٥ . إذ ظهر إلى الوجود منذ ذلك التاريخ وللمرة الأولى منذ سنة ١٦٨٣ ، تصادم فى السياسات الدولية ، وكان أحد الطرفين فيه — مرة أخرى — دولة عظمى ذات ملامح غير غربية .

وفى الحق ؛ يكتنف الغموض علاقة الاتحاد السوفيتى والإيدلوجية الشيوعية ، بالحضارة الغربية . فالاتحاد السوفيتى هو الوريث السياسى للإمبراطورية الروسية التى شادها بطرس الأكبر ، التى تقبلت عن طواعية واختيار ، أسلوب الحياة الغربية ، فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر الميلاديين . وشاركت منذ ذلك الحين فى ممارسة « اللعبة السياسية الغربية » وفقاً لتفاهم ضمنى مداره قبول المنضم إلى اللعبة ، قواعدها المقررة ؛ كما وضعها الغرب . ثم كانت الشيوعية — أصلاً — مثل المذهب الحر والفاشية — إحدى الإيدلوجيات الدنيوية التى انبعثت فى الغرب الحديث بديلاً عن المسيحية .

ومن ثم ؛ نجد وجهتى نظر لتفسير الموضوع :

الأولى — تنظر إلى المنافسة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على

زعامة العالم — وبين الشيوعية والمذهب الحر بالتالى — على اجتذاب ولاء البشرية ؛ تنظر إليها دوماً كموضوع نزاع عائلى داخل أسرة المجتمع الغربى .

الثانية — تعتبر الاتحاد السوفيتى — كسلفه امبراطورية بطرس الأكبر — دولة عالمية روسية أرثوذكسية تشبث بأسباب الحياة بارتدائها ثوباً غريباً اصطنعته رداءً تنكرياً وكأداة . وبنفس النظرة ؛ يمكن اعتبار الشيوعية بديلاً أيدلوجياً للمسيحية الأرثوذكسية الشرقية ، اختارته وفضلته على المذهب الحر . لأن المذهب الحر نتاج غربى أصيل ، فى حين أن الشيوعية ، وإن انتسبت بأصلها إلى الغرب ، هى فى نظر الغرب ردة كريمة .

ومهما يكن من أمر تلك الآراء ؛ فما لا يقبل الجدل ؛ أن إحياء النزعة المناهضة للغرب — فى صورة حادة — فى الشعور والفكر الروسين ، كان إحدى نتائج ثورة عام ١٩١٧ الشيوعية الروسية . وكذلك كان قيام الاتحاد السوفيتى كإحدى الدولتين العالميتين المتنافستين الباقيتين ، مؤدياً — مرة أخرى — إلى قيام صراع ثقافى ، انضم إلى حلبة السياسة ؛ تلك الحلبة التى لبثت نجومائين وخمسين عاماً مقصورة على الخصومات العائلية بين دول كبرى ذات ملامح ثقافية واحدة (١) .

ويلاحظ كذلك أن الروس يعودتهم إلى ميدان الصراع ضد التأثير الغربى ، بعد انقضاء وقت طويل منذ تسليمهم بخسارة المعركة ، قد قدّموا أنموذجاً احتذاه الصينيون بالفعل بعد واحد وثلاثين عاماً . ويحتمل كثيراً أن يحتذيه اليابانيون والهنود والمسلمون . بل قد تتبعه مجتمعات كانت قد اصطبغت بصبغة غربية عميقة ، مثل الكتلة الأساسية للمسيحية الأرثوذكسية

(١) أى البلاد التى اصطبغت أساساً بالحضارة البيزنطية واعتنقت المذهب الأرثوذكسى وهى بلاد البلقان . ثم أخذت الحضارة الغربية مع اختلاف فى حظه من التأثير . وتحكمها الآن جميعها — عدا اليونان — أجزاب شيوعية . (المترجم)

في جنوب شرق أوروبا . وقد تتبعه أيضاً الحضارات الثلاث في العالم الجديد التي كانت قائمة قبل كشف كولمبوس ، ثم عمرتها الحضارة الغربية^(١) .

وُتنبئ هذه الاعتبارات بأن بحث التلاقى الذي وقع بين الغرب الحديث والحضارات الأخرى القائمة ، قد يصلح أن يكون نقطة ملائمة لبداية البحث . وطبيعي والحالة هذه ؛ أن تتضمن المجموعة التالية من التلاقى الذي نتولى دراسته : تلاقى المسيحية الغربية في مرحلتها المبكرة — وهي ما ندعوه بالعصور الوسطى — مع جيرانها من حضارات هذا العصر .

ومن ثم ؛ تبلور خطتنا في أن نستخلص من بين الحضارات المدرسة ، تلك التي أحدثت تأثيراً على الحضارات المناوحة لها ؛ تأثيراً تمكن مقارنته بتأثير الحضارة الغربية على الحضارات المعاصرة لها . وذلك دون أن نلتزم بدراسة كل تلاقى على حدة ، مما قد تكشفه دراسة تاريخية مُغرقة في التقصي .

ولزام علينا قبل المضى في خطة العمل هذه ، أن نحدد التاريخ الذي يبدأ عنده الفصل « الحديث » من التاريخ الغربي .

إن الباحثين من غير الغربيين يوثرون إتخاذ بداية للتاريخ الغربي ؛ اللحظة التي وصلت فيها السفن الغربية الأولى إلى شواطئ بلادهم . فإن الإنسان الغربي ، في نظر غير الغربيين ، مثله مثل الحياة نفسها ترجع — طبقاً لفرض علمي — إلى أصل بحري . من ذلك أن علماء الشرق الأقصى عندما وقعت أبصارهم على النماذج الأولى للإنسان الغربي أيام عصر أسرة مينج Ming ، أطلقوا على القادمين الجدد إسم « برابرة البحر الجنوبي » ؛ إستناداً على الجهة التي منها جاءوا ، وعلى مستواهم الثقافي الواضح . وفي هذا التلاقى وغيره ؛

(١) هي الحضارة الأنديانية والحضارة المايانية وحضارة أميركا الوسطى . وتتكون الحضارة الأخيرة من امتزاج الحضارتين الياكوتية والمكسيكية . (المترجم)

من الملاحون الغربيون المنتشرون في أرجاء المعمورة ، بسلسلة من التحولات في نظر ضحاياهم الذين استبد بهم الاضطراب . فعندما رسا الغربيون على شواطئهم لأول مرة ، بدا وكأنهم ملاحون مسالمون ، واعتقد الصينيون أنهم ينتسبون إلى فصيلة حيوانية من سلالة سابقة مجهولة . لكن لم يلبث القناع أن سقط عن وجوه هؤلاء الغربيين ، فبدوا على حقيقتهم غيلاناً متوحشين ، جاءوا من البحر ثم ظهر أنهم لصوص بحرور ؛ قادرين على الحركة على وجه الأرض ، قدرتهم على الحركة على سطح البحر الذي منه جاءوا .

أما من وجهة النظر الغربية الحديثة ؛ فإن تاريخ الغرب الحديث ، قد بدأ منذ اللحظة التي قدّم الإنسان الغربي شكره ، لا لله ، ولكن لشخصه هو ؛ على أنه قد جاوز مرحلة التدريب المسيحي الذي أَلَفَ الخضوع له طوال القرون الوسطى . وكانت إيطاليا هي البلد الذي بدأ فيه هذا الكشف . ومن قبيل المصادفة ، أن يكون الجيل الذي عاصر صبغ غالبية الشعوب الأوروبية فيما وراء الألب بصبغة إيطالية ، هو نفس الجيل الذي شاهد إقحام الشعوب الأوروبية الغربية ، المحيط الأطلسي .

فعلى هدى هذين المعلمين التاريخيين ، قد نحدد واثنين ، بداية الفصل الحديث من التاريخ الغربي ، عند الربع الأخير من القرن الخامس عشر .

على أننا إذا ما أقبلنا نتأمل نتائج التلاق بين الغرب الحديث وسائر أنحاء العالم ، سنرى كم هي قصيرة فترة الأربعة القرون ونصف القرن التي إنصرفت منذ فاتحة الرواية . كما سندرك أننا نطالع قصة لم تتم فصولا . وتتضح معالم هذه الصورة إن حولنا اهتمامنا إلى الماضي ؛ إلى قصة سابقة من نفس النوع . بمعنى أننا إذا ما قارنا تاريخ تأثير الغرب الحديث على الحضارات التي عاصرتة حتى وقتنا هذا ، بتاريخ تأثير الحضارة الهلينية على

المجتمعات . الحثيية ، السريانية (السورية) ، المصرية ، البابلية ، السندية ، الصينية .

وإذا ما عادلنا - بقصد تحقيق هذه الموازنة الزمنية - إجتياز الإسكندر للدردنيل عام ٢٣٤ ق . م . بعبور كولومبوس المحيط الأطلسي عام ١٤٩٢ ميلادية ، فإن فترة الأربعمئة والستين عاماً تصل بنا منذ التاريخ الأخير إلى سنة ١٩٥٢ . فإن أضفنا هذه الفترة إلى التاريخ الأول (أى إلى عام ٣٣٤ ق . م .) ، لا نصل إلا إلى عام ١٢٦ ميلادية . وهذا تاريخ يتأخر ببضع سنوات عن تاريخ المراسلات التي تبوّدلت بين الإمبراطور تراجان Trajan ومندوبه السامى بلىنى Pliny بشأن موضوع معاملة طائفة غامضة بمقاطعة بثينيا Pithynia وبونطس Pontus ، وهى طائفة المسيحيين .

فن ذا الذى كان يوسعه وقتذاك أن يتنبأ انتصار المسيحية بعد ذلك ؟ إن هذا القياس التاريخي ، ليظهر كيف أن المستقبل محجّب قطعاً فى عام ١٩٥٢ ، عن البصر العقلى لبحاثه غربى يتعرف تأثير الغرب على بقية العالم . ولما كان التلاقى الذى جرى بين الحضارة الهلينية والحضارات المعاصرة لها قد انتهى أمره منذ زمن طويل وقت كتابة هذه السطور فى القرن العشرين من ميلاد المسيح ، فقد تأقّى للمؤرخ والحالة هذه ، تتبع القصة من البداية حتى النهاية ، لكن أين تكون النهاية ؟

إن معرفة ذلك لا يقتضى من الباحث أن ينقب فى الماضى إلى أبعد من القرن الثانى عشر الميلادى ، وقتما كان عالم الشرق الأقصى والعالم السريانى يواجهان تأثير الحضارة الهلينية برد فعل عارم لا ريب فيه . ولقد كانت الفنون المرئية فى عالم الشرق الأقصى ما تزال تستوحى وقتذاك المؤثرات الهلينية . وكانت فلسفة وعلم أرسطو ما يزالان وقتذاك يستثيران المفكرين من المشاركة عن طريق الترجمة العربية لمؤلفات أرسطو .

وبعد ؛ فإن مثل هذه الاعتبارات التي يتييسر إحكامها وتعزيزها بسرد أمثلة مستقاة من مصادر أخرى ، لتذكر الأذهان بالقول الحكيم المأثور : إن كتابة التاريخ المعاصر أمر متعذر . بيد أنها في نفس الوقت أحد هذه الأشياء المستحيلة التي يرفض المؤرخون - ولهم كل الحق في ذلك - الكف عن محاولتها . وإننا مصداقاً لهذا الرأي ؛ نلج هذا الميدان بالذات فنقدم على هذه المحاولة العسيرة ، بعينين مفتوحتين ؛ مندرين القارئ مقدماً .

وهذه هي المهمة التي نبذوها في التو :

(٢) عمليات وفقاً لمنهاج

١ - تلاقى مع الحضارة الغربية الحديثة

أولاً - الغرب الحديث وروسيا :

في أثناء العقد الثامن من القرن الخامس عشر تم تشييد الدولة العالمية الروسية للمسيحية الأرثوذكسية ؛ وذلك بإدماج جمهورية نوفوجورود Novogorod بدوقية موسكو العظمى . وجاء هذا الحدث معاصراً لبدء الفصل « الحديث » من التاريخ الغربي . على أن المسألة الغربية (١) كانت مألوفة فعلاً لأذهان الروس قبل ذلك التاريخ . إذ أن حكم بولندا وليتوانيا قد إمتد خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على مساحات واسعة من الإرث الأصلي للمسيحية الأرثوذكسية الروسية . وفي خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ؛ توطد سلطان الحضارة الغربية على الأهالي الروس في مملكتي بولندا وليتوانيا - وقد اتحدا في عام ١٥٦٩ م .

(١) المسألة الغربية . تعبير يجانس فيه الأستاذ المؤلف بتعبير « المسألة الشرقية » الذي صكه المؤرخون في إبان القرن التاسع عشر للدلالة على مشكله أوروبا مع قيام دواة تركية في جنوبها الشرق . (المترجم)

• قد نجحت بعثات اليسوعيين التبشيرية في تحويل عدد كبير من ملاك الأرض الأرستقراطيين إلى الكاثوليكية ؛ في حين أصبح جانب كبير من الفلاحين أعضاء في كنيسة ذات استقلال ذاتي Uniate^(١) ، التي سمح لها — في تحفظ كبير — بالاحتفاظ بأكثر طقوسها التقليدية ونظمها ودعيت باسم « الكنيسة الشرقية الكاثوليكية » .

واستمر الصراع المرير ناشباً بين موسكو والغرب حول ولاء سكان أوكرانيا وروسيا البيضاء الذين انفصلوا عن إخوانهم الروس الأرثوذكس الشرقيين ، حتى نهاية الحرب العالمية ١٩٣٩/٤٥ ، عندما سبقت بقاياهم الأخيرة عنوة واقتداراً إلى داخل نطاق الحظيرة الروسية مرة أخرى^(٢) . ومع ذلك ؛ فإن هذه الأرض الروسية الأصل الواقعة على الحدود — وقد كانت نصف غربية حتى عهد قريب — لم تكن الميدان الرئيسي الذي اتخذ التلاقى بين روسيا والغرب الحديث سبيله فيه . إذ بلغ الانعكاس البولندي للثقافة الغربية حداً من الإعتام ، حال بين الثقافة الغربية وبين أن تتمكن من طبع النفوس الروسية بطابعه العميق . فكانت الشعوب البحرية الغربية القاطنة على الشاطئ الأطلسي ، هي محور التلاقى الرئيسي ؛ وهي شعوب انتحلت نفسها من الإيطاليين ، زعامة العالم الغربي . وأقبلت تلك الجماعة المتفوقة ؛

(١) uniate لقب يطلق على أتباع الكنائس الشرقية التي تعترف بسيادة البابا ، لكنها تستبقي طقوسها وتختار رؤساء كنائسها . (المترجم)

(٢) وذلك بعد تعديل الحدود الروسية على حساب بولندا وجعلها وفقاً لخط « كيرزن » . ورغم أن الدولة السوفييتية تناهض الدين إلا أنها ترفض بتاتاً أن يكون لرعاياها الكاثوليك أية رابطة تربطهم ببابا روما . بل تناهض الكشلكة ذاتها وتعتبرها لا تتفق مع القومية الروسية . مما يوحي بأن فكرة الأرثوذكسية الروسية هي طابع هام للقومية الروسية ما يزال كاماً في اللاشعور عند قادة السوفييت ، رغم أن اتجاههم اللاديني . ولقد نشطت الدولة السوفييتية عقب إنهاء الحرب إلى تعيين بطريوك جديد للكنيسة الأرثوذكسية . (المترجم)

لتضم بين طبائها جبران روسيا الأقربين ، على طول ساحل البلطيق الشرق .
ورغمًا عن التأثير الذى أضفته الطبقة الأرستقراطية الألمانية والطبقة
البورجوازية فى مقاطعات البلطيق على الحياة الروسية - وهو تأثير يجاوز نسبة
الطبقتين العديدة - إلا أن تأثير شعوب الأطلسى الذى تشرب عبّر موانئ
الدخول - التى عمدت الحكومة الإمبراطورية الروسية إلى فتحها لاستقبال
ذلك التأثير - كان أعظم كثيرًا من تأثير هاتين الطبقتين .

وفى هذه العلاقة ؛ كان التفاعل بين الطاقة التكنولوجية الغربية
وتصميم النفوس الروسية على الاحتفاظ باستقلالها الروحى : هو الذى
صاغ حبكة الرواية . فلقد وجد الاقتناع الروسى بفكرة تفرّد مصير
روسيا ؛ تعبيراً فى الإيمان بأن التراث الذى خلفته القسطنطينية - وهى روما
الثانية - قد ألقته المقادير على عاتق روسيا^(١) . وهكذا انتحلت موسكو
لنفسها دوراً فريداً هو أنها وحدها مستودع الكنيسة الأرثوذكسية وقلعها
الفريدة ؛ وتوجت ذلك بتشيد بطريكية موسكو عام ١٥٨٩ ، فى نفس
الوقت الذى كانت انتصارات التكنولوجيا الغربية الحديثة تهدد منطقة
الثقود الروسى : بعد أن انتقص منها الزحف الغربى كثيراً ، فى إبان
القرون الوسطى .

واتخذت استجابة روسيا للتحدى الغربى ثلاثة مظاهر متباينة :

(١) ولهذا كانت بإبنت بطرسبرج عاصمة روسيا قبل عام ١٩١٧ (وتدعى الآن
ليننجراد) تسمى روما الثالثة ، أى خليفة روما الثانية (القسطنطينية التى استولى عليها
الأتراك عام ١٩٥٣) ، وهى بدورها خليفة روما الأولى التى اجتاحتها المتبربرون الأوربيون
الشماليون . وإن إيمان الروس بدور بلادهم الذى يبينه المؤلف ، هو الذى جعلهم يطلقون
اسم سانت بطرسبرج (أى مدينة القديس بطرس) على عاصمتهم تشبهاً بروما وهى مدينة
القديس بطرس أحد حواري المسيح ، لدفته فيها . (المترجم)

الأول - رد فعل جماعى على نسق طائفة المندفعين^(١) وجد هذا المنحى مريديه فى شعبة دُعيت باسم « قُداىى المؤمنين » . ويستمسكون بأن مجتمعهم يحمل بين طياته آمال البشرية .

الثانى - رد فعل يشابه تماماً النزعة الهيرودية^(٢) ؛ وتمثل فى عبقرية بطرس الأكبر . وقد إتجهت سياسة بطرس إلى تحويل الإمبراطورية الروسية من دولة علمية مسيحية أرثوذكسية ، إلى دولة من الدول القومية الإقليمية المنتمة إلى العالم الغربى الحديث . واعتبر الروس الرضوخ لسياسة بطرس ، تسليماً بأنهم فعلاً كسائر الشعوب . ويعنى هذا ضمناً ، تجريد موسكو من إدعائها بأن القدر قد جعل منها وحدها قلعة الأرثوذكسية ؛ أو هى وحدها - كما نادى قداىى المؤمنين - المجتمع الذى يحمل فى أحشائه ، آمال البشر . وعلى الرغم من التوفيق البين الذى لاقته السياسة البطرسية طوال فترة جاوزت المائتى سنة ؛ إلا أنها لم تنل أبداً تأييد الشعب الروسى ، تأييداً قلبياً خالصاً . فلما حلت الكارثة العسكرية المشينة بروسيا خلال الحرب العالمية ١٩١٤ / ١٩١٨ ؛ قدمت دليلاً أظهر أنه بعد انقضاء أكثر من مائتى عام على سياسة الاقتباس عن الغرب ، لم تكن هذه السياسة فقط مناهضة للروح الروسية ، بل لقد أثبتت فشلها كذلك فى إنقاذ « الأخيار » .

الثالث - رد فعل نشأ فى ظل الظروف السالفة الذكر وتمثل فى عودة نزعة التصميم على أن القدر يدّخر لروسيا دوراً فريداً . وهى النزعة التى

(١) يشبه الأستاذ المؤلف هذا المنحى فى استجابة روسيا للتحدى الغربى ، بمنحى طائفة المندفعين Zealots وهى طائفة اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها . (المترجم)

(٢) نسبة إلى هيرود الأكبر حاكم الجليل (حوالى ٧٣ - ٤ ق . م) . وقد أعاد بناء المعبد ، وكان يعنى خاصة بتشديد المباني الفخمة . ويشبه الأستاذ المؤلف عهد بطرس الأكبر بعهد هيرود لعناية القصر بمظاهر الأبهة والفخامة فى حكمه . (المترجم)

تمضى عليها وقت طويل محجوبة بفعل الكبت ، قد قادت لتؤكد نفسها مرة أخرى ، عن طريق الثورة الشيوعية .

فالثورة الشيوعية إذن ؛ محاولة لتوفيق هذا الإحساس العارم بالمصير الروسى ، مع الضرورة التى لا غناء عنها لمجازاة التفوق التكنولوجى الغربى الحديث . وإن تبنى الروس هذه الأيدولوجية الغربية الحديثة^(١) — رغماً عن كونها أيدولوجية متمرّدة على المذهب الليبرالى الغربى الذائع — طريقة متناقضة ، إصطنعتها روسيا لتؤكد من جديد فى مواجهة الغرب الحديث — دعواها بأنها الوريثة الوحيدة لركة لا نظير لها . ولقد تكهّن لينين وخلفاؤه بأنه لن يَرجى النجاح لسياسة تقوم على منازلة الغرب بأسلحة مُستقاة من صنعه ؛ إن كان المقصود منها أن تكون مجرد أسلحة مادية . فإن سر النجاح المُذهل الذى حققه الغرب الحديث ، كامن فى إصطناعه فى براعة وحذق ، كلا السلاحين : الروحى والحسى . فحقاً ؛ إن الفجوات التى فجّرتها لفحة التكنولوجيا الغربية الحديثة ، قد شقّت يالمثل الطريق لليبرالية الغربية الحديثة .

فإذا أُريد لرد الفعل الروسى تجاه الغرب أن ينجح ؛ فلا مناص لروسيا من الظهور بمظهر حامى حى عقيدة تستطيع أن تقف على قدم المساواة ، فى منازلتها للمذهب الحر . وإن روسيا إذ تسلح بهذه العقيدة ، عليها أن تنافس الغرب للفوز بالولاء الروحى لجميع المجتمعات القائمة التى لا تنتمى بترائها الثقافى الغربى ، لا إلى الغرب ولا إلى روسيا . فإذا لم تقنع روسيا بهذا ، يصبح عليها أن تُقدّم على نقل الحرب إلى معسكر العدو ، بالتبشير بالعقيدة الروسية فى عقر دار الغرب نفسه .

(١) أى الشيوعية باعتبار أنها نبتت فى الأصل عن الفلسفة الماركسية التى استمدت جذورها بدورها من المذاهب الفلسفية الغربية . (المترجم)

وهذا موضوع ؛ لا مناص لنا من العودة إليه في قسم تال من هذه الدراسة .

ثانياً - الغرب الحديث والكتلة الرئيسية من العالم المسيحي الأرثوذكسى^(١) :

كان دخول الثقافة الغربية في بلاد الكتلة الرئيسية من العالم المسيحي الأرثوذكسى ، معاصراً لدخولها روسيا . ففي حوالى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ؛ بدأت حركة الاقتباس من الغرب . وفي كلتا الحالتين ، أظهرت حركة الاقتباس من الغرب ردّة عن موقف عدائى طال أمده . وفي كلتا الحالتين كذلك ؛ كان مما دفع المسيحيين الأرثوذكس إلى تغيير موقفهم ، تحول سيكلوجى سابق في موقف الغرب نفسه ؛ تحول من تعصّب دينى صارخ إلى تسامح لا دينى ، وهو تحول عكس ما شاع في الغرب - إثر الحروب الدينية - من تبدد الأوهام .

على أن هاتين الحركتين المنفصلتين ، اللتين قامت بهما المسيحية الأرثوذكسية للاقتباس من الغرب ، قد سلكتا - على الصعيد السياسى - سبيلين متباينين :

(١) يقصد الأستاذ المؤلف من تعبير « الكتلة الرئيسية من العالم المسيحي الأرثوذكسى » ، بلاد جنوب أوروبا الشرقية - أى البلقان - حيث يعتنق بجمهرة السكان المسيحيين مذهب الروم الأرثوذكس . وفي البلقان - وفي اليونان بالذات - نشأت المسيحية الرومية الأرثوذكسية ، وتبلورت سياسياً في دولة إمبراطورية هى الدولة البيزنطية التى تهافتت تحت ضربات الأتراك العثمانيين التى توجت في عام ١٤٥٣ بالاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة . فكان أن خضع المسيحيون المعتنقون مذهب الروم الأرثوذكس للسلطنة العثمانية . وظلوا كذلك إلى أن أخذوا يكونون دولا قومية مستقلة بدأت باليونان عام ١٨٣٠ ثم رومانيا عام ١٨٧٨ . . . ومن القسطنطينية انتشر المذهب المسيحي الأرثوذكسى إلى روسيا . (المترجم)

فلقد كان المجتمعان المسيحيان الأرثوذكسيان كلاهما — وقتذاك — مشدودين معاً في دولتين عالميتين . لكن الدولة العالمية الروسية كانت نتاجاً وطنياً . في حين كانت البولة العالمية التي انتظمت الكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية ، قد فرضت من خارجها على أيدي الأتراك العثمانيين . وبالتالي ؛ قُصد من وراء حركة الاقتباس من الغرب في روسيا ، تقوية دعائم الحكومة الإمبراطورية القائمة . ولهذا ؛ فقد بدأت الحركة من أعلى متجهة إلى أسفل ، على يد عبقرية ثورية تمثلت في القيصر نفسه . أما حركات الاقتباس من الغرب في داخل الإمبراطورية العثمانية ، فقد رنت إلى إستعادة الاستقلال السياسى للصرب واليونان وغيرهم من الشعوب المسيحية الأرثوذكسية الخاضعة ؛ وذلك بخلع النير العثماني . فإنها — والحالة هذه — حركات اندفعت من أسفل إلى أعلى ، بفضل جهود أشخاص فرادى ؛ لا بفعل أمراء ينفذون أعمال السيادة .

وإذا قارن المرء بين درجة العداوة السابقة التي كان يكنها للغرب كل من الفريقين ؛ لألنفي أن الانقلاب الذي شهده القرن السابع عشر في موقف المسيحيين الأرثوذكس تجاه الغرب ، كان يعنى بالنسبة للصرب واليونان ، تغييراً أعظم منه بالنسبة للروس . ففي القرن الثالث عشر الميلادي إنبعث عن اليونانيين ردّ فعل عنيف ضد ما كان يدعى بالإمبراطورية اللاتينية التي فرضها عليهم طوال نصف قرن ، « فرنجة » الحرب الصليبية الرابعة . وفي القرن الخامس عشر ، رفض اليونانيون إتحاد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ؛ وهو الاتحاد الذي أبرم على الورق في مجمع فلورنسا عام ١٤٣٩ . على الرغم من أن هذا الاتحاد كان فرصة اليونانيين الوحيدة لكسب تأييد الغرب ضد إغارات الأتراك . بل لقد آثر اليونانيون ، الباديشاه على البابا . وتنبدى هذه الروح حتى وقت متأخر ، كما تنعكس في البيان

الذي أصدره بطريرك القدس في سنة ١٧٩٨ ونشرته صحافة القسطنطينية ،
ويذكر فيه لقرائه مايلي :

« عندما شرع آخر أباطرة القسطنطينية في إخضاع الكنيسة الشرقية
للاسترقاق البابوي ، أرسلت العناية الربانية الإمبراطورية العثمانية لتحمي
اليونانيين من الهرطقة ، ولتقوم حاجزاً ضد السلطان السياسي للأمم الغربية ،
ولتكون حامى حى الكنيسة الأرثوذكسية^(١) .

على أن هذا الاستعراض لموضوع نزعة الاندفاع التقليدية ، ليس
إلا طليقة فاصلة في معركة ثقافية خاسرة ، كانت قد بدأت تتحول تحولا
حاسماً منذ أكثر من مائة عام مضت . وأن تاريخ بدء هذا التحول في
الولاء الثقافي للمسيحيين الأرثوذكس من سادتهم العثمانيين إلى جيرانهم
الغربيين ، تدل عليه قائمة التغيرات ذات الدلالة السيكولوجية في طُرُز
الهندام . وتعزز هذه الشهادة المادية ، دلالات أخرى في الميدان الثقافي .
ففي العقد السابع من القرن السابع عشر ، كان تأثير العثمانيين لا يزال
هدف الطموح الاجتماعي لرعية السلطان ؛ مصداقاً لما لاحظته في ذلك
الوقت السكرتير الأريب للسفارة الإنجليزية في القسطنطينية ، السير بول
ريكوت Paul Rycant في قوله :

« مما هو جدير بملاحظة الرجل الحصيف ، كيف يسعد المسيحيون
اليونانيون والأرمن بمحاكاة اللباس التركي ، فهم يقتربون منه إلى أدنى
درجة ممكنة . وكيف يتبهون عندما تمنحهم الدولة في بعض المناسبات
فوق العادية ، حظوة الظهور في غير ما يميزهم كمسيحيين »^(٢) .

(١) صفحات ٢٨٤ - ٥ من المجلد الخامس Finlay, G. A History of
Greece from B.C. 146 to A.D. 1864 .

(٢) صفحة ٨٢ Rycot, Sir P. The Present state of the Ottoman Empire
(London 1663).

يبد أن النبيل المسيحي الرومي الأرثوذكسي ديمتريوس كانتيمير Demetrus Cantemir الذى عينه الباب العالى عام ١٧١٠ م أميراً على البغدان (ومنها فر في السنة التالية إلى روسيا) ظهر في صورة عصرية مرتدياً شعراً اصطناعياً وسترة وصدرياً ويحمل مفكراً^(١) . وطبيعى أن تكون مثل هذه التغيرات في الهندام ، دلالات خارجية لتغيرات مماثلة في عقلية الناس . ومن قبيل المثال ؛ كان كانتيمير مُلمّاً باللاتينية والإيطالية والفرنسية قراءة وكتابة . وكان الرؤساء الأتراك في القرن الثامن عشر يُقَوِّمون الفناريين من الروم الأرثوذكس الذين في خدمتهم ، بنسبة إلمامهم بطرائق الحياة الغربية ، في عصر أُلْفَتِ الحكومة العثمانية نفسها - مضطرة - إلى استخدام ديبلوماسيين مكرّنين للتعامل مع الدول الغربية ، التي أصبحت الدولة تعجز عن هزيمتها في ميادين القتال .

ويردّ الجانب الأعظم مما كابده رعايا الباب العالى من المسيحيين الأرثوذكس خلال القرن الثامن عشر ، إلى فساد الحكم . ذلك الفساد الذى انغمرت فيه الإمبراطورية وهى تنحدر على طريقها إلى التصدع . وعلى التقيض من ذلك ؛ صاحب شينوع مذهب « الشككية »^(٢) في المسيحية الغربية ، ازدهار الكفاية الإدارية وبزوغ فجر الاستنارة السياسية .

(١) المفكر : سيف ذو حدين مستقل الطرف . (المترجم)

(٢) الشككية أو فلسفة الإرتياب والشك Scepticism ، تقوم على فكرتين أساسيتين :

الأولى - لبلوغ الحقيقة ؛ على المرء تكذيب كل شيء ، إلا أن تقوم الحجة على صدته . ويعنى هذا إنكار الفطرة البدائية التى تؤمن بالتقيض .
 الثانية - لا يتأتى للمعرفة البشرية إطلاقاً الوصول إلى الحقيقة . ويعنى هذا إنكار المعرفة الموضوعية . وظاهر أن هذه الفلسفة تتناقض على طول الخط مع فلسفة اليقين Dogmatism . والواقع أن فلسفة الشك قد انبثقت كرد فعل لثقال أصحاب فلسفة اليقين في بسط آرائهم . (المترجم)

ومصدقا لهذا ؛ أبطلت ملكية هابسبرج الكاثوليكية إضطهاد رعاياها من غير الكاثوليك ، وسمحت للاجئين من رعايا الإمبراطورية العثمانية من المسيحيين الأرثوذكس الصريين بالاستقرار في المناطق العثمانية السابقة التي غزتها ملكية هابسبرج في البحر . فغدا هؤلاء اللاجئين ، الواسطة السيكولوجية التي نَقَدَت عن طريقها الثقافة الغربية الحديثة إلى الشعب الصربي في مجموعه .

وثمة مجرى آخر للتأثير الثقافي الغربي امتد عبر البندقية . والبندقية ظلت طوال أربعة قرون ونصف سابقة لعام ١٦٦٩ م تحتل جزيرة كريت المسيحية الأرثوذكسية اليونانية . كما سيطرت طوال فترات أقصر على أجزاء من أرض اليونان نفسها .

وهناك مصدر آخر للتأثير الثقافي الغربي تمثل في البعثات الدبلوماسية الغربية في القسطنطينية . فلقد استغلّت المبدأ العثماني التقليدي بمنح جميع الطوائف حق إدارة شؤونها الخاصة داخل نطاق الإدارة الإمبراطورية (١) . ولم تكتف تلك البعثات الدبلوماسية ببسط سلطتها على رعاياها المقيمين في ربوع الإمبراطورية العثمانية ، بل تجاوزت ذلك إلى الهيمنة على الرعايا العثمانيين الذين استظلوا بحمايتها .

ثم افتتحت الجاليات التجارية اليونانية ممراً آخر ، أقامته في العالم الغربي في أماكن متفرقة وصلت إلى لندن وليفربول ونيويورك .

فالتأثير الغربي الحديث الذي بات يشع على الكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية عبر هذه الممرات البرية والبحرية ، كان يحدث تأثيره في

(١) يعرف هذا في الاصطلاح السياسي بالعبارة اللاتينية *imheria in imheria* (دولة داخل دولة) . (المترجم)

مجتمع يعيش في كنف دولة عالمية دخيلة . وعلى هذا ؛ فقد تمت محاولة اقتباس أسلوب الحياة الغربية الحديثة على صعيد التعليم ، قبل أن تمتد المحاولة إلى الصعيد السياسي . وحقاً ؛ فإن العمل الأكاديمي الذي أنجزه في باريس أغامانديوس كوراس Adhamandios Korais وفي فيينا فوك قره جيتش Vok Karadzić ، قد سبق ثورات قره نجورج Qara George وميلوس أوبرينوفتش Milos Obrenovic على الدولة .

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي ؛ كان في وسع المرء أن يتنبأ — عن ثقة — بأن المناطق الأوربية من الإمبراطورية العثمانية ، قينة بالتعرض لنوع من التحول صوب الثقافة الغربية . لكن شكل هذا التحول ، ما برح وقتذاك محاطاً بالغموض .

ففي سياق القرن الذي انتهى بعام ١٨٢١ م ؛ عمدت حاشية البطريك المسكوني من اليونانيين الفناريين^(١) إلى تحويل حلمهم القديم ببعث شبح الإمبراطورية الرومانية الشرقية من بين الأموات ، إلى حلم جديد يستند على حل للمسألة الغربية ذي طابع سياسي^(٢) . وذلك بتحويل الإمبراطورية العثمانية — مثلاً حول بطرس الأكبر الإمبراطورية الروسية — إلى صورة مُعادة من « الملكيات المستنبرة » المعاصرة في الدول الغربية المتعددة القوميات ، مثل ملكية هابسبرج على الدانوب . وشجعت اليونانيين الفناريين على التطلع إلى تحقيق مظهرهم هذا سلسلة من الانتصارات المتعاقبة :

فإن السلطان العثماني ؛ بتنصيبه البطريك المسكوني رئيساً على جميع

(١) الفناريون : نسبة إلى كلمة فنار التي كانت تطلق على الحى اليوناني في الاستانة . وأصبحت تطلق بعد ذلك على أفراد رجال الدولة العثمانية من اليونانيين . (المترجم)

(٢) أى مشكلة التأثير الغربي على المسيحيين الأرثوذكس مما يهدد بصهر خصائصهم القومية في البوتقة الغربية . (المترجم)

رعاياه المنيحين الأرثوذكس الشرقيين في إمبراطوريتهم الممتدة الانتفاع ،
 قد جعل الأسقف القسطنطينية هذا ؛ سلطاناً سياسياً على شعوب مسيحية
 لم يسبق لها منذ الفتح العربي لسوريا ومصر خلال القرن السابع الميلادي ،
 أن دخلت في حكم أى إمبراطور من القسطنطينية . ثم امتد السلطان السياسى
 للفنار في إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أبعد من ذلك ، نتيجة
 لأعمال قام بها - عن غير قصد - رعايا الدولة من الأحرار المسلمين . فإنهم
 بضغوطهم على الحكومة السلطانية (وكان قوامها العبيد)^(١) طوال المائة
 عام بعد وفاة السلطان سليمان القانوني عام ١٥٦٦ م ، قد أروعوها على
 إشراكهم في إدارة الدولة ؛ واتبعوا هذا النصر السياسى باتخاذهم الرعاية
 اليونانيين شركاء معهم . وانشئت مناصب ترجمان الباب العالى وترجمان
 الأسطول ، وذلك بقصد الإفادة من كفاية اليونانيين العثمانيين في إدارة
 شئون الإمبراطورية . وتلا ذلك اتخاذ إجراءات أخرى في صالح اليونانيين ،
 على حساب الرعايا المسيحيين من غير اليونانيين .

ولعل اليونانيين قد خُيِّلَ إليهم في نصف القرن السابق لعام ١٨٢١ م ،
 أنه قد بات في متناول أيديهم سلطان في الإمبراطورية العثمانية ، من ذلك
 النوع الذى كان الملك المعاصر جوزيف الثانى يعطى لكفأته للعنصر الألمانى في
 ملكية هابسبرج الدانوبية . لكن ما لبث حلم السيطرة القنارية أن بددته الأحداث
 الثورية في الغرب . إذ قفزت فكرة الروح القومية إلى مركز الصدارة ، وغدت
 الفكرة السياسية المسيطرة ؛ وحلت بذلك محل فكرة الملكية المستديرة ..
 هنا لم يجد رعايا الإمبراطورية العثمانية من المسيحيين الأرثوذكس غير
 اليونانيين ، في إخلال سيطرة اليونانيين القناريين محل الأتراك المسلمين ؛
 ما برضى طموحهم القومى الناهض . فلا بدع والحالة هذه ، أن نحد السكان

(١) وهم ما يعرفون اصطلاحاً بالانكشارية . (المؤرخ)

الرومانيين في ولايتي الداوبيا ووقلوا جربوا حكم اليونانيين الفناريين .
مائة وعشرين ثوباً يعملون على إحباط ثورة هيسلاندى (١) Hzpeilandi
على الإمبراطورية العثمانية ، بإعارتهم أذنبا ضمياء لنداء هذا اليوناني لهم
بالإلتفاف حوله ، بحسبانهم زملاء طائفة مسيحية أرثوذكسية واحدة ،
نهضت لتحرير نفسها — وحمل السلاح تحت قيادة اليونان الفناريين .

وكان تصدع الفكرة العظمى التي دعا إليها الفناريون ، بشراً بأن
السكان المسيحيين الأرثوذكس المتعددين القوميات في الإمبراطورية العثمانية
قد عقدوا العزم على اقتباس أسلوب الحياة في الغرب — قد تعين
عليهم أن ينظموا في مجموعة من الدول الإقليمية من : يونانية ورومانية
وضربية وإلبانية وكرجية ؛ وفقاً لنماذج الدولة الإقليمية الغربية : فرنسا ،
إسبانيا ، البرتغال ، هولندا . حيث يتكلم الناس لغة خاصة بهم ،
وتكون هذه اللغة الخاصة — لا الدين الخالص — المقوم الذي يوحد بين
المواطنين ويفرق بينهم وبين الأجانب .

لكن كان من الصعب في بداية القرن التاسع عشر ، إدراك مقومات
هذا النموذج الغربي الدخيل . إذ لا تكاد نجد إلا بضعة مقاطعات من
الإمبراطورية العثمانية في ذلك الوقت متجانسة في قوميتها اللغوية ،
أو مالكة للمقومات الأساسية في تكوين الدولة .

إن العملية الجذرية في إعادة التخطيط السياسي ليمشئ مع التصميم
الثوري الغربي الحديث ؛ قد حملت بين ثناياها البؤس للملايين البشر
واستفحل البلاء وزادت حدة انتشاره ، كلما طبقت هذه العملية المتزمنة
تطبيقاً أعمى ، المرة تلو الأخرى ، على أراض وسكان ثبت ضعف

(١) هيسلاندى أو بيسلاندى : زعيم يوناني فناري ، قاد ثورة فاشلة ضد
السلطنة العثمانية . (المترجم)

صلاحياتهم للتنظيم السياسي على أساس قومي . وتبدأ القصة المروعة منذ استئصال اليونانيين للأقلية العثمانية المسلمة في المورة عام ١٨٢٢ ، ممتدة إلى الفرار الإجماعي للأقلية اليونانية المسيحية الأرثوذكسية من غربي الأناضول عام ١٩٢٢ (١) .

وما كان في وسع الدول القومية المسيحية الأرثوذكسية التي برزت إلى الوجود في الظروف المشوومة ووفقاً لهذا المقياس النافه ، أن تقتدى بالإمبراطورية الروسية بعد اصطناعها ثقافة الغرب . فتطمح إلى أن تؤدي أمام الغرب الحديث ، الدور الذي سبق للإمبراطورية الرومانية الشرقية إبان القرون الوسطى ، القيام به في وجه العالم المسيحي الغربي . ذلك لأن طاقاتها الواهنة قد امتصتها المنازعات المحلية على شذرات من الأرض . وكانت تلك الدول تضمّر لبعضها بعضاً ، أشد ألوان الضغائن مرارة .

أما عن علاقاتها بالعالم الخارجي ؛ فقد ألفت نفسها في موقف

(١) كانت نسبة الأتراك المسلمين إلى مجموع سكان المورة حوالى الخمس قبل عملية استئصال الأقلية الإسلامية من تلك المنطقة . وتكررت عملية استئصال الأقلية الإسلامية عقب الاستيلاء على كريت عام ١٨٩٨ وأجزاء من مقدونيا عام ١٩١٢ ، ولم أجد شخصاً مسلماً واحداً في هاتين المنطقتين خلال زيارتي لما عام ١٩٥٣ . أما ما يذكره الأستاذ المؤلف عن فرار اليونانيين من غرب الأناضول ، فيلاحظ :

أولاً - أن اليونان قد احتلت هذا الجزء عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى بمعاونة الحلفاء (وانجلترا بالذات) الذين رسموا سياسهم وقتذاك على طرد الأتراك من المنطقة واستيلاء اليونان عليها تحقيقاً لحلم استعادة الدولة البيزنطية ولو جزئياً .

ثانياً - تمت عملية ترحيل اليونانيين وفقاً لاتفاقية تبادل السكان بين الطرفين التي أبرمت عقب انتصار الأتراك عام ١٩٢٢ .

وجدير بالذكر أن عمليات ترحيل الأقليات الإسلامية في البلاد البلغانية الأخرى بدأت عقب حصولها على استقلالها مباشرة ، وظلت مستمرة إلى عهد قريب . (المترجم)

لا يختلف عن موقف أسلافها خلال القرون التي سبقت مباشرة تشييد الإمبراطورية العثمانية^(١) .

ففي ذلك الوقت ؛ جابه اليونانيون والصربيون والبلغاريون والرومانيون ، إختياراً بين قبول سيطرة بنى دينهم مسيحيي الغرب ، وبين سيطرة العثمانيين عليهم . أما في العصر الذي أعقب تصدع الإمبراطورية العثمانية ، فكان عليهم أن يختاروا أحد أمرين :

الأول - الانتظام في كيان إجتماعي لا ديني غربي حديث .

الثاني - الخضوع لروسيا القيصرية أولاً ثم الشيوعية ثانياً .

وفي عام ١٩٥٢ ؛ كانت أغلبية هذه الشعوب المسيحية الأرثوذكسية - بالفعل - تحت سيطرة روسيا العسكرية والسياسية ، باستثناء اليونان ويوجوسلافيا . ففي اليونان ، أخفق الروس في حرب لم تُعلن (بعد الحرب العالمية الثانية) بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ؛ تاب اليونانيون - أنفسهم - فيها ، عن المعسكرين المتحاربين الأجنيين^(٢) . أما يوجوسلافيا ؛ فلقد أثبت بعد الحرب ، قبول السيطرة الروسية ، ورخبت بالمعونة الأمريكية . وظاهر بالنسبة للدول التي تقع تحت السيطرة الروسية ؛ أن ممارسة روسيا لسيطرتها حتى بطريق غير مباشر ، أمر بغض

(١) أر السلام العثماني Pax Ottomanica . باعتبار أن تشييد الإمبراطورية قد حقق السلام في ربوعها بفضل النظام الذي تفرضه على شعوبها فرضاً . والاصطلاح يستخدم في الأصل عند الكلام عن السلام الروماني الذي حققته إقامة الإمبراطورية الرومانية .
(المترجم)

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الصراع المساح الذي نشب عقب الحرب الأخيرة مباشرة بين الشيوعيين اليونانيين يؤيدهم الاتحاد السوفيتي ، والملكيين اليونانيين تناصرهم الولايات المتحدة وبريطانيا . وقد أسفر الصراع عن انتصار مؤيدي الكتلة الغربية .
(المترجم)

إلى نفوس سكانها ؛ اللهم إلا أقلية ضئيلة من الشيوعيين 'حكام تلك البلاد .

وإن هذا النفور من السيطرة الروسية ، لقصة قديمة تبدو معالمها من إستعراض تاريخ علاقات روسيا برومانيا وبلغاريا وصربيا في القرن التاسع عشر قبل قيام الثورة الشيوعية في روسيا بزمان طويل . فلقد تطلعت روسيا - مثلاً - غداة الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ / ٨ إلى كسب نفوذ مطلق على صربيا التي كانت قد أنقذتها وشيكاً من هزيمة على يد الجيوش التركية ، كذلك رومانيا التي قدمت لها منطقة دوبروجة Dobruja . وفوق هذا كله ؛ حاولت روسيا بسط نفوذها على بلغاريا التي بعثتها إلى الوجود من العدم ، بفضل قوة الجيوش الروسية العارمة . لكن برهنت الأحداث التالية ، كما ظهر ذلك مرات كثيرة قبلئذ وفي مواطن كثيرة مختلفة ؛ على انتفاء وجود ما يدعى بعرفان الجميل في السياسات الدولية .

وقد يبدو - لأول وهلة - هذا الشعور المناهض للروس في البلاد المسيحية الأرثوذكسية غير الروسية ، شيئاً مستغرباً ؛ في عصر كانت المسيحية الأرثوذكسية ما تزال العقيدة الدينية المقررة في الدولة الروسية ؛ وفي وقت كانت اللهجة السلافية القديمة لا تزال تهيء لغة مشتركة للطقوس الدينية ، تستخدمها الكنائس الروسية والرومانية والبلغارية والصربية الأرثوذكسية . فلم بدت فكرة الجامعة السلافية والجامعة الأرثوذكسية ، بمثل هذا العُقم بالنسبة للروس ، في تعاملهم مع هذه الشعوب التي أسدت إليها مثل هذا الصنيع الفعّال ، في صراعها لتخليص نفسها من النير العثماني ؟

يبدو أن الجواب عن ذلك ؛ أن المسيحيين الأرثوذكس العثمانيين قد وقعوا تحت سحر الغرب . وأنهم عندما فُتتوا بروسيا دهرأ ، لم يكن

ذلك بسبب كونها سلافية أو أرثوذكسية ، بل لكونها رائدة في الاقتباس من الغرب ؛ ذلك الاقتباس الذي عقدوا هم عليه أيضاً العزم . . . لكن كلما ازدادت هذه الشعوب الغير الروسية ، الآخذة بالثقافة الغربية معرفة بروسيا ، ازدادت إدراكاً لسطحية حركة الاقتباس من الغرب في روسيا وزيفها ؛ مصداقاً للمثل القائل « حك جلد الروسى ينكشف الثرى »^(١) .

وفي الاستطاعة إبراز قدر ضخم من الأدلة الواردة في الوثائق القيصرية لتثبت صدق القول بأن المكائنة الثقافية التي تمتعت بها روسيا بين المسيحيين العثمانيين ، قد بلغت الذروة في عصر كاترين الكبرى (حكمت ١٧٦٢ - ١٧٩٦) ، وأن هذه المكائنة قد جنحت إلى الأفول كلما ازدادت روسيا تدخلاً في شئون الإمبراطورية العثمانية^(٢) ، وكلما زادت هذه « الشعوب المسيحية المضطهدة »^(٣) معرفة بالخصائص الروسية ؛ تلك الشعوب التي سعت روسيا لتنصيب نفسها حامية لها .

(١) هذا مثل شائع في البلاد الغربية ويعلن عن شدة مراس التأثيرات الآسيوية على الشعب الروسى إلى درجة جعلت التأثيرات الغربية سطحية . . . لكن هذا القول مغرض ، لأن الواقع أن الشخصية الروسية من القوة بحيث صمدت لضغط التأثيرات الغربية فيما عدا ما تنقله روسيا من التراث التكنولوجى الغربى في الإنتاج المادى . بل إن الآراء الماركسية - وهى نتاج غربى أصيل - قد حورث عملياً لتتلام مع البيئة والوسط الروسين . (المترجم)

(٢) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف في هذا الرأى على علته . فإننى أعتقد وفقاً لمشاهدات الشخصية في بلاد البلقان أن شموها تفتتها حقاً الثقافة الغربية بوجه عام ، إلا أن فكرة القومية تأسرها تماماً . فإنها لتعزى بقوميتها اعتزازاً شديداً يتضاد مع تأثير فكرة الجامعة السلافية أو فكرة الرابطة الدينية المذهبية المشتركة ، بل والإيدولوجية الاشتراكية أن تعارضت مع روحها وخصائصها القومية . والحق أن تلك الشعوب قد استخدمت تلك التبعيرات السياسية للحصول على المساعدة الروسية لنيل مطامعها القومية . (المترجم)

(٣) إذ كانت الشعوب البلقانية تنادى باضطهاد الدولة العثمانية للمسيحيين استجلاباً لمعطف الشعب الروسى الذى كان يتفق في الجنس والمذهب الدينى مع تلك الشعوب ، ليعزير تدخل روسيا - من الناحية الأخرى - في شئون الدولة العثمانية . (المترجم)

ثالثاً - الغرب الحديث والعالم الهندى :

تشابهت ظروف تلاقى العالم الهندى ، تشابهاً ملحوظاً فى بعض النقاط ؛ مع ظروف التجربة التى اجتازتها الكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية : فلقد كانت كلتا الحضارتين قد دخلت بالفعل فى دور دولتها العالمية . وفى كل من الدولتين ؛ تولى فرض هذا النظام ، بناءً إمبراطورية دُحلاء ، هم أبناء الحضارة الإيرانية الإسلامية . فى العهد المغولى بالهند - مثلاً كان الحال فى المسيحية الأرثوذكسية العثمانية - شعر رعايا هؤلاء الحاكمين المسلمين ، بالانجذاب نحو ثقافة سادتهم ؛ فى وقت تراءت لهم فى الأفق ثقافة الغرب الحديث . وبالتالي ؛ اتجه هؤلاء الرعايا بولائهم صوب هذا النجم الصاعد ؛ كلما أخذت شأن الغرب يتعاظم ، ووصولة المجتمع الإسلامى تضعف .

لكن بحث أوجه التشابه هذه بين المجتمعين الأرثوذكسى والهندى ، يبرز إلى اللبان بعض نقاط اختلاف لا تقل عن سابقاتها أهمية .

فن قليل المثال :

أن المسيحيين الأرثوذكس من رعايا العثمانيين عندما ولّوا وجوههم شطر الثقافة الغربية ؛ كان عليهم أن يتغلبوا على النفور التقليدى الذى كوّنته فى أنفسهم تجربتهم التعسة السابقة مع الحضارة الغربية ، وقمّا تلافوا معها إبان القرون الوسطى .

فى حين لم يحمل الهنود فى قلوبهم - وقت اتجاههم صوب الحضارة الغربية - مثل هذه الذكريات التعسة يجترونها . إذ أن التلاقى بين العالم الهندى والغرب ، الذى بدأ وقمّا رسا فاسكو دى جاما فى كاليكوت عام ١٤٩٨ ؛ كان حقاً أول اتصال حدث بين هذين المجتمعين .

هذا إلى أن الاختلاف في نتيجة التلاق كان أهم بكثير من الاختلاف في الأوضاع التي سبقتها . وبيان ذلك ؛ أن الدولة العالمية الدخيلة التي انضوت في ظلها المسيحية الأرثوذكسية ، ظلت في أيدي مؤسسيها المسلمين حتى تصدعت . في حين أن الإمبراطورية التي أخفق الخلفاء الضعاف لنيصور من سادة الحرب للغول ، في المحافظة على تماسكها ؛ قد أعاد تشييدها رجال الأعمال البريطانيون الذين اقتضوا إثر « السلطان أكبر » . حينما انضج لهم أن أحداً من أهل الغرب لن يستطيع أن يمارس نشاطه في الهند ، إلا في ظل القانون والنظام ، وأنهم — أي البريطانيون — إن لم يقوموا هم بإعادة القانون والنظام في الهند ، فسيقوم الفرنسيون عنهم بذلك .

وهكذا مرت حركة الاقتباس من الغرب في الهند مرحلتها الحرجة ، في وقت وقعت فيه الهند تحت حكم الغرب . وترتب على هذا ، أن اقتباس الثقافة الغربية الحديثة في الهند — كما حدث في روسيا — جاء من أعلى إلى أدنى . ولم يأت من أدنى إلى أعلى ، كما حدث للمسيحيين الأرثوذكس في الدولة العثمانية .

وفي هذه الحالة ؛ نجحت في المجتمع الهندي طبقا السادة^(١) والتجار — فيما بينهما — في تأدية دور في التاريخ الهندي ، فشل في تأديته اليونانيون الفناريون في تاريخ المسيحيين الأرثوذكس من غير الروس . ففي جميع العهود والأنظمة السياسية التي مرت بالهند ؛ كان تقلد البراهما مناصب وزراء الدولة ، من الامتيازات التي تمتعت بها هذه الطبقة ، فقد أدوا هذا الدور في العالم السندي ، قبل أن ينهضوا به في المجتمع الهندي الذي نج عنه . ثم وجد حكام الهند من المسلمين السابقون للحكم المغولي — بل

(١) أي البراهما — وإن كانت تعني في الأصل طبقة كبار رجال الدين . لكن الإلفظ غداً يشمل كذلك طبقة السادة . وطبقة البراهما هي أعلى طبقة في التنظيم الهندوسي المطبق . وأما طبقة التجار فهي المعروفة اصطلاحاً بـ « بانيّا Banja » . (الترجم)

والمغول أنفسهم فيما بعد - أن من الخير أن يسيروا على نهج الدولة الهندية .
التي دخلوا مجملها . وكان اشتراك الوزراء من البراهمة والموظفين الأقل منهم
مقاماً في الحكم ، عاملاً في التقليل من يشاعة هذا الحكم الأجنبي في نظر
الهنود . ثم سار الحكم البريطاني على نهج الحكم المغولي في هذا الشأن .
هذا بالإضافة إلى ما أتاحت مشروعات البريطانيين الاقتصادية لطبقة التجار
من فرص .

وترتب عن انتقال حكم الهند إلى أيدي البريطانيين ، أن أقدمت
السياسة البريطانية على إحلال اللغة الإنجليزية محل الفارسية كلغة رسمية .
لإدارة الإمبراطورية* . فأصبحت للآداب الغربية الأفضلية على الآداب
الفارسية والسانسكريتية كأداة للثقافة في التعليم العالي . وكان لهذا كله
تأثير على اتجاه التاريخ الثقافي للهند ؛ مماثل تأثير سياسة الاقتباس من الغرب
- التي جرى عليها بطرس الأكبر - على تاريخ روسيا الثقافي .

وفي كلتا الحالتين ؛ برزت إلى الوجود - بقرار حاسم من حكومة
أوتوقراطية علمانية - قشرة من الحياة الغربية . لقد احتاج أفراد الطبقة
الهندوكية العليا إلى التزوّد بالتعليم الغربي ؛ لأن الحكومة المسيطرة قد فرضت
هذا التعليم مفتاحاً للانتحاق بالخدمة البريطانية الهندية العامة .

وترتب على اصطناع الأساليب الغربية في دوائر الأعمال والحكومة
بالهند ، ظهور مهنتين غريبتين لبرائيتين وهما :

الأولى - الكلية الجامعية .

الثانية - التقاليد القضائية .

وما كان ليتأق في دوائر الأعمال المصطنعة للأساليب الغربية والقائمة
على النشاط الفردي الحر ؛ أن تكون أكثر المجالات فيها ربحاً ، حكراً
للعابا البريطانيين .

فأصبح لا مناص لهذا العنصر الجديد في المجتمع الهندي أن يتطلع
مثلاً تطلع اليونانيون الفناريون في الكتلة المسيحية الأرثوذكسية الخاضعة
للدولة العثمانية - إلى الاستيلاء على أزمّة السلطان في الإمبراطورية العامة
التي يعيشون في ظلها . من الأبدى الأجنبية التي شيّدتها ، وأن يحيلوها
إلى واحدة من الدول الإقليمية التي يحفل بها عالم مصطبغ بالصبغة الغربية .
على أن تسير الدولة العتيبة على النمط الدستوري الشائع في هذا العصر .

وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، كان الفناريون
يحلمون بتحويل الإمبراطورية العثمانية إلى ملكية مستنيرة من ملكيات القرن
الثامن عشر . بينما آمن الزعماء السياسيون في الهند المتشبعون بالثقافة
الغربية ، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، بالتحوّل الذي
ظروا على المثل العليا في الغرب . فأخذوا على عاتقهم عبئاً أشق ، وهو
تحويل الإمبراطورية البريطانية في الهند إلى دولة قومية ديمقراطية على
النسق الغربي .

وبعد انقضاء فترة تقل عن خمس سنوات ، منذ تم نقل حكم
الهند من أيدي البريطانيين في ١٠ أغسطس سنة ١٩٤٧ ، كان
التنبؤ بنتيجة هذا العمل لا يزال غامضاً . لكن يمكننا القول فعلاً ، بأن
الخبرة لدى زعماء الهند ، أصابت توفيقاً جاوز آمال خيرة المتفائلين
من الأجانب . وذلك بفضل الجهود التي بُذلت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه
من وحدة البلاد الأساسية ؛ هذه الوحدة التي لعلها أضمن هبة قدمتها
بريطانيا لشبه القارة الهندية . فلقد تنبأ كثير من البريطانيين ممن راقبوا
تطور الأحداث ، بأن لا مناص من أن يتلو نهاية الحكم البريطاني ، تحوّل
شبه القارة الهندية بأسرها إلى « بلقان »^(١) أخرى . فكان أن ثبت خطأ

(١) بمعنى إنبعاث دول إقليمية متنازعة على الصورة التي حدثت في شبه جزيرة البلقان
- عقب انهيار الإمبراطورية العثمانية . (المترجم)

النُبوءة ، وإن شِوءة ، الوحدة - من وجهة النظر الهندية - انفصال باكستان .

ويرد إصرار الهنود المسلمين على تكوين باكستان ، إلى خوف إنبعث عن شعور بالضعف . فإنهم لم ينسوا كيف أن سلطان المغول قد أخفق خلال القرن الثامن عشر الميلادي ، في الدود بالسيف عن مُلك ناله بالسيف وحده . وكان المسلمون مدركين أنه لولا التدخل العسكري البريطاني الذي حوّل مجرى التاريخ السياسي الهندي وجهة مختلفة ؛ لولاه ، لآل - بحد السيف - الجزء الأكبر من المُلك المغولي السابق ، إلى دوتى الماهراتا والشيخ اللتين كان يُقدّر أن تخلفنا الدولة المغولية . كما علم المسلمون كذلك أنهم بتهاونهم وهم في ظل الحكم البريطاني ، قد مكثوا الهندوس من التفوق عليهم . لأن الحكم البريطاني كان قد قضى بأن يحل العلم مكان السيف ، أداة للمنافسة ، في الصراع الدائم الناشب بين هاتين الطائفتين .

فلهذه الأسباب ، أصرّ المسلمون الهنود عام ١٩٤٧ م على أن تكون لهم دولة منفصلة . وكان تنفيذ فكرة التقسيم نذيرا بإحداث نتائج مفعجة تتماثل ما أعقب تقسيم الإمبراطورية العثمانية خلال القرن الماضي .

إذ أن محاولة تصنيف طوائف متشابهة جغرافيا في دولتين منفصلتين ، أدّى إلى تخطيط حدود تُجافي الأوضاع الإدارية والاقتصادية ، ورغمما عما يُبدل في هذا الشأن ، خلّف التقسيم أقليات جسيمة محتشدة في كل من الدولتين وراء الحدود التي فصلت بينهما . فكان أن اضطرّ ملايين اللاجئين إلى الفرار مذعورين ، مخلّفين دورهم وأملأ كههم . فاغتصبها منهم أثناء رحلتهم بالرهبة ، خصوم تخصّ قلوبهم بالحقد . حتى إذا بلغوا مذعورين نهاية المطاف وفقدوا كل شيء ، كان عليهم أن يبدأوا حياتهم من جديد في بلاد غريبة عليهم .

وأسوأ من ذلك ، أن ثمة قسما من الحدود بين الهند وباكستان ، تشبّث فيه حوب لم تُعلن للاستيلاء على كشمير . على أنه مع جلول عام

١٩٥٢ء ، كان السياسة الهنود والباكستانيون ، قد بذلوا في كل من دلهي وكراتشي ، جهوداً مفضية لإنقاذ شبه القارة الهندية من التردّي في المصير الرهيب الذي لاقته الإمبراطورية العثمانية من قبل .

وهكذا كان الموقف في الهند وقت كتابة هذه السطور ، باعثاً على الأمل بوجه عام^(١) ؛ إن نُظر إليه من الجانب السياسي القريب . وإذا كان تأثير الغرب ما يزال يهدد العالم الهندي بمخاطر جديّة ، فهذه المخاطر ينبغي أن يتجه البحث عنها إلى ما تحت الأوضاع الاقتصادية ، وإلى داخل الأعماق الروحية ، أكثر من أن يتجه إلى سطح الحياة السياسية . وقد يحتاج الأمر إلى بعض الوقت حتى يتسنى إبراز هذه المخاطر إلى العيان .

وثمة خطران واضحيان ترتبا على حركة الاقتباس من الغرب ، كان على العالم الهندي أن يعمل لهما حساباً :

ففى المكان الأول — أن الحضارة الهندية والحضارة الغربية لا تكادان تجدان لهما أساساً ثقافياً مشتركاً .

وفى المكان الثانى — أن الهنود الذين تملّكوا جوهر الثقافة الغربية الحديثة التى كانت دخيلة على الهند ؛ أملية ضئيلة ، اعتلت ظهور جماهير ضخمة من الفلاحين الجهلة المعدمين . حقاً ؛ لم يكن ثمة ما يدعو إلى الظن بأن عملية التغلغل الثقافى الغربى ستقف عند ذلك المستوى ، بل كان ثمة أسباب قوية تدعو إلى التنبؤ بأن هذه العملية — يوم أن تختمر بها جماهير الفلاحين — سوف تبدأ كذلك فى إحداث نتائج جديدة وثرورية بين هذه الجماهير .

وما كانت الهوة الثقافية بين المجتمع الهندي والغرب الحديث مجرد تباين بينهما ، بل كانت تناقضاً صارخاً .

وتفسير ذلك أن الغرب الحديث قد لفتّ صيغة علمانية لثقافته ،

(١) لم تحل مشكلة كشمير حتى اليوم ، وما زالت هذه المشكلة تشوّع العلاقات بين الهند وباكستان . (المترجم)

الاستبعاد منها الدين . في حين ما انفك الدين يسيطر على المجتمع الهندي حتى أعماقه ؛ إلى درجة تعرضه يقيناً لتهمة التزمّت الديني ؛ إن أُعتبر التغالي في التركيز على أعظم مطالب الإنسان أهمية ، تهمة . إن هذا الطَبَّاق (١) بين نظرة للحياة متأثرة بالانفصال الديني ، وأخرى تتطلع إليها بعين دنيوية محضة ؛ هذا الطَبَّاق قد عمل على إيجاد فاصل عميق بين جوانب الحياة الهندية ، أعمق مما يترتب على التباين بين دين وآخر .

وحقاً ؛ نجد في هذه النقطة بالذات ، أن الثقافات الهندية والإسلامية والمسيحية في الغرب الوسيط ، كانت أكثر وفاقاً مع بعضها بعضاً ، من اتفاق أى منها مع الثقافة الزمنية للغرب الحديث . وبفعل قوة هذا الأساس الديني المشترك ، كان من الميسور للهنود أن يعتنقوا الإسلام أو المسيحية الكاثوليكية الرومانية ، دون أن يعرضوا أنفسهم لتوتر روحي لا تحتمله . وهذا ما بدا في حالة المسلمين في شرق البنغال والكاثوليك في جوا Goa . وهذه المقدرة التي أظهرها الهنود على شق طريقهم إلى أرض ثقافة غربية ، عن طريق الدين ؛ هذه المقدرة لها دلالتها . ذلك لأنه إذا كانت نزعة التدين هي السمة المميزة لحضارتهم ، فإن التعالي يكون مظهرها البارز التالي للدين في الأهمية .

ولا شك أن نزعة التعالي قد تغلب عليها — في المجال الفكري من حياتهم الروحية — هذا الفريق من الهنود الذين حصلوا تعليماً غربياً زمنياً . فأهلهم هذا إلى القيام بنصيب في إعادة تشييد الجوانب السياسية والاقتصادية من حياة الهند على أساس غربي حديث . لكن هذا الفريق من الطبقة المثقفة المتعسة ؛ إنما أدى خدماته النافعة بثمن باهظ هو ذلك الانفصال الذي حدث في نفوسهم . فقد بقيت هذه الطبقة المثقفة الهندية — التي وُجِيت في أحضان الحضارة البريطانية — تنأى بقلوبها عن الطرائق الغربية التي

(١) الطَبَّاق : اجمع بين متضادين . (الترجمة)

ألفها عقولها... فأدى هذا التنافر إلى غثيان روحاني عميق للجنود... لم يشفهم تريباق سياسي ، هو إحراز الاستقلال لدولة قومية هندية تنظم على النمط الغربي .

ونزعة التعالي الروحي المتأبئة هذه - التي أبدأها الهنود الذين تثقفوا بالثقافة الغربية - واجهت نزعة أخرى من التعالي الروحي الحاد في نفوس الحكام النرييين الذين كان على الطبقة الهندية المثقفة أن تتعامل معهم في ظل الحكم البريطاني . وفي خلال الفترة الواقعة بين عام ١٧٨٦ م - وفيه تقلد كورنواليس Cornwallis منصب الحاكم العام مفوضاً لإصلاح الإدارة - وعام ١٨٥٨ م - الذي شاهد إستكمال نقل السيطرة السياسية البريطانية من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطاني - كان ثمة تحوّل عميق شاق بوجه الإجمال ؛ في موقف الطبقة الحاكمة البريطانية الأوربية المولد ، تجاه زملائهم في الإدارة من رعاياهم الهنود الأقحاح .

ففي أثناء القرن الثامن عشر ، اصطنع الإنجليز في الهند عادات البلاد ؛ لم يستثنوا منها عادة إساءة استعمال السلطة . وكانوا على علم بأساليب الاتصال الشخصي مع الهنود ، وكانوا في الوقت نفسه يغشونهم ويظلمونهم . أما في خلال القرن التاسع عشر ، فقد أنجز الإنجليز إصلاحاً أدبياً فذاً . فإن الانتشاء بالسلطان الذي أجزره الإنجليز فجأة ، هذا الانتشاء الذي وصّم الجيل الأول من الحكام الإنجليز في البنغال ؛ تغلب عليه مثل أعلى جديد يقوم على انزاهة الأدبية التي تطلبت من الموظف الإنجليزي في الهند ، أن يعبر سلطته أمانة عامة وليست كسباً شخصياً .

ولكن تخليص الإدارة البريطانية المعنوى ، قد صاحبه تناقص الاتصال الشخصي بين الإنجليز المقيمين في الهند وجيرانهم الهنود . وظلت الحال على هذا المنوال ، إلى أن تحول حكام الأيام السوداء ، السالفة من الإنجليز

« المهتدين » : ذوى النزعة الإنسانية المفرطة ؛ تحول إلى ذلك الطراز الجديد من الموظفين البريطانيين الذين لا تلحقهم في عملهم شائبة والذين كانوا يتعاملون فلا يخالطون أحداً . وهذا الطراز من الموظفين البريطانيين هم الذين ودّعوا الهند في سنة ١٩٤٧ بعد أن كرّسوا لها حياتهم العاملة دون أن يتخذوا منها وطناً :

فلم انقضت تلك العلاقات الشخصية الطليقة السهلة ، فزالت — لسوء الحظ — في زمن ما كان ليتيسر فيه تعويض فقدان تأثيراتها الطيبة ؟

إن مردّ التغيير — بلاريب — عدد من الأسباب :

ففي المحل الأول — قد يستطيع الموظف الرسمي البريطاني في الحكومة الهندية أن يتعلل — بحق — بأن تعالیه كان الثمن الذى لا يحصى عنه لزاوته الخلقية في تأديته لواجباته . إذ كيف يتوقع من رجل يقوم بعمله كإله ، دون أن يصطنع في علاقاته الاجتماعية تعالى الآلهة ؟

وهناك سبب آخر لذلك التغيير وإن كان أقلّ وجاهة ، وهو الغطرسة التى ولدها الفتح في نفوس البريطانيين . إذ لم يحل عام ١٨٤٩ ، أو في الواقع عام ١٨٥٣ حتى كانت القوة الحربية والسياسية للبريطانيين في الهند ؛ قد غدت أقوى بصورة محسوسة ، مما كانت عليه خلال القرن الثامن عشر .

ولقد حفل تأثير هذين العاملين السابقين الذكر تحليلًا قويا ، باحث إنجليزي في القرن العشرين في تاريخ العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الهند والبريطانيين :

« بينما كان القرن (الثامن عشر) يقترب من نهايته ، طرأ على جو العلاقات الاجتماعية تطور تدريجي . إذ أخذت الولائم الكثيرة المتبادلة يتناقص عددها ، وتوقف عقد الصداقات الوثيقة بالهنود ... وشغلت مناصب الدولة بموظفين

جلبوا من إنجلترا ، واستفحلت النزعة الإمبراطورية . وغدا سلوك هؤلاء الموظفين أشد علواً واستكباراً . والهوة التي استطاع أن يمتازها — وقتاً ما — «النواب»^(١) المسلمون ، والموظفون الإنجليز المقبلون على الحياة ، والديبلوماسيون العارفون لغات الهند ودياناتها وتقاليدها ، والباحثون الإنجليز ... هذه الهوة عادت تتسع مرة أخرى . فقد تكونت عند البريطانيين « عقدة التفوق » وبها نظروا إلى الهند على أنها ليست فقط بلداً نظمه سيئة وأهله فاسدون ، ولكنه بلد عاجز أبداً — بطبعه — عن تحقيق حياة أفضل .

« إن من سخریات القدر في تاريخ العلاقات بين الأوروبيين والهنود في الهند أن تطهير الإدارة قد صاحبه توسيع شقة الهوة العنصرية ... إن أيام موظفي الشركة الفاسدين والثروات المغتصبة والجور على الفلاحين والاعتداء على حرمان البيوت والاتصالات الجنسية المحظورة ، كانت — كذلك — أياماً أولع الإنجليز خلالها بالثقافة الهندية . فكتبوا الشعر بالفارسية ، واجتمعوا بكرام الهنود ورجال الدين والحكام ، على صعيد من المساواة الاجتماعية والعدالة الشخصية . إن مأساة كورنواليس Cornwallis^(٢) أنه باتزاعه جذور الفساد المسلّم بها ، قد قلب التوازن الاجتماعي رأساً على عقب ، وهو التوازن الذي استحال بدوره تحقيق أي تفاهم متبادل ... لقد أنشأ كورنواليس طبقة جديدة بإقصائه جميع الهنود عن مناصب الحكومة العالية . أجل ؛ أزيل الفساد ، لكن على حساب المساواة والمشاركة . ولقد قرّ في ذهنه ، كما أصبح من الأمور الشائعة المسلم بصحتها ، أن ثمة ارتباطاً لازماً بين التدبيرين ، وكان يقول « إنني أعتقد يقيناً بأن كل هندي فاسد » .. ودار في خلدّه أن الفساد المتفشى بين الإنجليز يمكن أن يعالج عن طريق منح أجور معقولة . ولم يفكر

(١) النواب : هو الحاكم المسلم لإحدى الولايات الهندية . وكان يقابله الزاجا والمهراجا عند الهندوس . (المترجم)

(٢) أول حاكم للهند وعهد إليه إصلاح الإدارة ، والتفهاء على مفاسد شركة الهند الشرقية . (المترجم)

لحظة في أن نوابه الطبية نحو الهنود ، كانت — على الأقل — قينة بأن تجعله يحاول تجربة ذلك الدواء في علاج الفساد بين الهنود أيضاً . إنه لم يفكر على الإطلاق في إيجاد بيروقراطية هندية في حكومة الإمبراطورية ، على طراز نظيرتها في حكومة السلطان أكبر . وهي بيروقراطية كان من الممكن — بفضل التدريب الخاص والأجور المناسبة وتشجيعها عن طريق مساواة أفرادها في المعاملة والترقي وآيات التكريم — أن تبذل للشركة ولاءها ، مثلما بذله موظفو المغول للإمبراطور « (١) » .

وسبب ثالث لما حدث من تحوّل في العلاقات الاجتماعية بين الهنود والإنجليز ، يتمثل في تزايد سرعة المواصلات بين إنجلترا والهند . إذ تسنى للبريطانيين السفر ، جيئة وذهاباً ، مراراً وتكراراً ؛ بين إنجلترا والهند ، مما ترتب عليه شعور الإنجليز — سيكولوجياً — بأنهم يعيشون في وطنهم وهم على أرض إنجليزية (أى الهند) :

على أن ثمة سبباً رابعاً لعله أقوى من سائر الأسباب ؛ وبه كان الإنجليز في الهند المحبى عليه لا الجانى . ولعل هندياً ضاق ذرعاً بتعالى الإنجليز المقيم في الهند في العهد الأخير من الحكم البريطاني ، بات أشد إحساساً بالعطف على هذا الإنجليزى الدخيل ؛ إن قطن إلى أن شبه القارة الهندية كانت قبل مجيء الإنجليز إليها بزمان طويل — لعله ثلاثة آلاف سنة — مكبلة بنظام «الطائفية» ؛ وأن المجتمع الهندى قد أعلى من شأن آفة ورثها عن سلفه المجتمع السندى . وما يزال شعب الهند بعد رحيل الإنجليز — مثلما كانت الحال قبل قدومهم — مبتلياً بآفة اجتماعية من صنع يديه . وبالأحرى ؛ إذا نُظر إلى الانعزالية التي التزمها الإنجليز ونمّوها طوال المائة والخمسين سنة ، بمرآة التاريخ

(١) صفحات ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤٥ : Sieff, J. B.P. : The Nabobs-A Study of the Social life of the English Eighteenth - Century India.

الهندي على طول المدى ، لأمكن تشخيص تلك الانعزالية ، بأن الإنجليز أصيبوا إصابة خفيفة بوباء هندي متوطّن .

ولما كان إنهاء الحكم البريطاني قد يُخلّص الهند من الآثار السيئة لتعالى الإنجليز في العهد الأخير من حكمهم ، فإن التأثير الإصلاحي للإدارة البريطانية على أحوال الفلاحين الهنود وآمالهم ، تراث بريطاني لعله يبقّى حجر الرقى حول أعناق موظفي الحكومة من الهنود الذين تسلّموا الإدارة من البريطانيين .

وفي ظل « السلام البريطاني » نَمَت الموارد الطبيعية لشبه القارة بصورة متعددة مثل : إنشاء السكك الحديدية — تحسين الري . . وفوق هذا كله ، الإدارة القديرة الواعية . ولعل الفلاحين الهنود عند رحيل حكامهم البريطانيين ؛ قد أصبحوا يُدركون بالكاد ، فضل المنجزات التكنولوجية الغربية الحديثة والمُثل السياسية الديمقراطية التي تستند في صميمها إلى المسيحية الغربية ؛ بالتقدير الذي يدفعهم إلى الارتباب في عدالة وحتمية الفاقة ، التي رزح تحتها أسلافهم أجيالا .

لكن الفلاحين الهنود إذ تراءى لهم هذه الأحلام ، يرتكبون في نفس الوقت أسوأ ما في قدرتهم إرتكابه للحيلولة دون وضع أحلامهم موضع التحقيق . وذلك بمتابعتهم الاستيلاء ، متجاوزين حدود العيش الكفاف . مما ترتب عليه أن الفائض من موارد الطعام الذي تحقق بفضل المشروعات البريطانية ، اتجه إلى مواجهة الزيادة المطردة في عدد الفلاحين ، عوضا عن تخصيصه لتحسين دخل كل منهم . لقد ارتفع عدد سكان الهند — قبل التقسيم — من ٢٠٦ ملايين نسمة عام ١٨٧٢ إلى ٣٣٨ر١١٩ر١٥٤ نسمة عام ١٩٣١ ثم إلى ٣٨٨ر٩٩٧ر٩٥٥ نسمة عام ١٩٤١ ؛ وما يزال الفيضان آخذًا في الارتفاع (١) .

(١) يقدر عدد سكان الهند وباكستان في الوقت الحاضر بستائة مليون نسمة تقريباً . ويتزايد سكان الدولتين تقريباً بمعدل إثني عشر مليون نسمة سنوياً . (المترجم)

والعلاج التقليدى الذى جرى عليه الهنود لمواجهة التضخم فى عدد السكان ، هو التسليم بالجماعات والأوبئة واختلال الأمن والحروب ؛ بغية اختزال السكان ثانية إلى رقم ، يتيح للأحياء أن يتزودوا بأسباب الحياة التقليدية فى مستواها المنخفض المألوف .

وإن المهاتما غاندى — فى سعيه بوسائله الخاصة — لاستقلال الهند ؛ فد أراد لها مصيراً يقوم على مبدأ « مالتوس Malthus »^(١) نفسه .

فإن قُدِّرَ الفشل للسياسات التى ينتهجها مثل هؤلاء الساسة الهنود ذوى العقلية الغربية ؛ فليس هناك شك فى أن ترياقاً روسيا سيتخذ سبيله إلى سجل الهند القومى . ذلك لأن روسيا الشيوعية قد ورثت عن ماضيها الثقافى — مثلما ورثت الهند المصطبغة بالصبغة الغربية — مشكلة وجود طبقة معدمة من الفلاحين . وقد استجابت روسيا بالفعل — على عكس الهند — لهذا التحدى بأساليب من صنعها . وقد تكون هذه الأساليب الشيوعية من العنف والثورية ، بحيث يعجز الفلاحون أو المثقفون الهنود عن إتباعها راضين ؛ لكن لما كانت هذه الأساليب بديلاً عن مصير أشد تدهوراً نتيجة لإتباع الأساليب القديمة لإنقاص عدد السكان ، فثمة إحتمال بأن يجد الحل الشيوعى — فى يوم منحوس — طريقه إلى برنامج الحكومة الهندية .

رابعاً — الغرب الحديث والعالم الإسلامى :

عند بداية الفصل الحديث من التاريخ الغربى ؛ كان هناك مجتمعان

(١) نسبة إلى العالم الاقتصادى الإنجليزى « مالتوس الذى قرر بأن السكان يتزايدون وفقاً لمتوالية هندسية : ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ - ٦٤ . . . الخ »
بينما تتزايد موارد الطعام وفقاً لمتوالية حسابية : ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ . . . الخ .
الأمر الذى يقود فى النهاية إلى المجاعات وفناء البشر ، إن لم يجد من تزايد السكان بإيجاد التناقص بين تزايد السكان من جهة ، وموارد الطعام من الجهة الأخرى . (المترجم)

إسلاميان شقيقان وقد انتصبا ظهرا لظهر ؛ يسدان جميع مسالك الاتصال بين مملكات المجتمعين الغربي والروسي ، وبين سائر بقاع العالم القديم :

١ - إذ كانت الحضارة العربية الإسلامية ما تزال - عند نهاية القرن الخامس عشر - تهيمن على الشاطئ الأفريقي المطل على المحيط الأطلسي والممتد من بوغاز جبل طارق حتى السنغال .

فكان العالم المسيحي العربي - والحالة هذه - مقطوع الصلة - برا - بإفريقيا الاستوائية . بينما كانت موجات التأثير العربي تندفع إلى القارة السوداء ، لا على طول حدها الشمالي في السودان خارج الصحراء الكبرى فحسب ، ولكن كذلك على طول ساحلها الشرق المعروف بـ « السواحل »^(١) على شاطئ المحيط الهندي . والحق إن هذا المحيط قد غدا بحيرة عربية ، لم يكن للبناقة - شركاء الوسطاء المصريين في التجارة - سبيل إليه . وكانت السفن العربية لا تقنع بارتداد الشاطئ الأفريقي في كل مكان من السويس حتى سوفاالا ، وإنما كانت تشق طريقها كذلك إلى إندونيسيا . فانتزعت مجموعة الجزائر من الديانة الهندوسية وضممتها إلى حظيرة الإسلام . ثم اندفعت شرقا لتقيم مركزا في غرب المحيط الهادي ؛ إذ هدت إلى الإسلام سكان جنوبي الفلبين ، من عنصر الملايو .

٢ - وكانت الحضارة الإيرانية الإسلامية تشغل في الوقت نفسه مركزاً استراتيجياً ، بدأ أقوى من ذلك الذي تمتعت به الحضارة العربية . فلقد احتل بُناة الإمبراطورية « العثمانيون » القسطنطينية والمورة وقرمان وطرابزون . وحولوا البحر الأسود إلى بحيرة عثمانية ، باستيلائهم على مستعمرات « جنوا » في شبه جزيرة القرم . ومدت الشعوب الإسلامية الأخرى التي تتحدث

(١) يضم هذا الإقليم في الوقت الحاضر شواطئ إريتريا والصومال بأجزائه . وتشيع هناك اللغة العربية أو لغة تعرف بالسواحلية ، هي خليط من العربية واللهجات المحلية . (المترجم)

التركية ، سلطان الإسلام من البحر الأسود إلى المجرى الأوسط لنهر الفولجا ، ومن خلف هذه الجهة الغربية ؛ اتسع العالم الإيراني صوب الجنوب الشرقى حتى وصل إلى المقاطعتين الصينيتين « كانصو Kansu » و « شنسى Shensi » ، الواقعتين فى شمال غرب الصين . كما امتد الإسلام عبر إيران والهند ، إلى البنغال والدكن .

كانت هذه الكتلة الإسلامية الضخمة — الحاجزة — تحدياً ، إستثار رد فعل قوى بين الجماعات الرائدة فى المجتمعين المسيحيين المتعاصرين :

ففى العالم المسيحى الغربى ؛ ابتكرت الشعوب الساكنة على شاطئ الأطلسى — فى القرن الخامس عشر — طرازاً جديداً من السفن العابرة للمحيطات ، يتكون من ثلاث صواري وموثق حبال مربع للأشرعة يحتوى على رشاش . وتألف موثق الحبال فى بداية الأمر من شرع سثلث الشكل ، ثم اشتمل فيما بعد على أشرعة السفينة من مقدّمها حتى مؤخرها ، ومكّن هذا الاختراع ، السفينة من البقاء فى عرض البحر شهوراً بدون انقطاع ، دون أن تضطر إلى أن ترسو على ميناء . وباستخدام هذا الطراز من السفن ، استطاع الملاحون البرتغاليون — بفضل نجاح تجاربهم فى الملاحة فى أعلى البحار — كشف جزائر ماديرا حوالى ١٤٢٠ م وجزائر الآزور عام ١٤٣٢ م . ثم نجحوا فى تطويق الجهة العربية البحرية على الأطلسى بدورانهم عام ١٤٤٥ حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الاستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت Calicut على الساحل الغربى للهند ، وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا ، واندفاعهم فى غربى المحيط الهادى ليرفعوا علمهم فى كانتون Canton عام ١٥١٦ وعلى شاطئ اليابان عام ١٥٤٢ — ١٥٤٣ .

وهكذا فى لحظة البصر ؛ اختطف البرتغاليون من أيدى العرب ، السيادة البحرية على المحيط الهندى . بينما كان الرواد البرتغاليون المتجهون شرقاً

يحدقون - بحركة خاطفة من التوسع البحرى للغرب - بالعالم العربى الإسلامى من الجنوب ، كان ملاحو الأنهار من القوازي يتجهون شرقا ويوسعون حدود العالم الروسى ، بنفس السرعة والاكتساح ؛ وذلك بإحداقهم بالعالم الإيرانى الإسلامى من الشمال . ولقد فتح الطريق أمام القوازي ، القبصر المسكونى إيفان الرابع حين استولى على قازان عام ١٥٥٣ . إذ كانت قازان قلعة العالم الإيرانى الإسلامى عند حدوده الشمالية الشرقية . وبعد سقوطها ؛ لم يعد ثمة عقبة - عدا الغابات والصقيع ، وهما حليفان تقليديان عرفهما البدو من محاربى القوازي - تحول بين طلائع المسيحية الأرثوذكسية الروسية ، وبين عبور الأورال ، وشرق طريقهم شرقا على طول الممرات المائية فى سيبيريا . حتى انتهى بهم المطاف إلى التوقف ؛ لعثورهم مصادفة فى عام ١٦٣٨ على المحيط الهادى ، وفى ٢٤ مارس ١٦٥٢ على المستنقعات الشمالية الشرقية لإمبراطورية المانشو . وهكذا استطاع العالم الروسى المنتشر - بوصوله إلى تلك الحدود الجديدة - الإحداق ؛ لا بالعالم الإيرانى وحده ، ولكن بالسهب الأوراسية كلها كذلك .

وهكذا ؛ فى غضون فترة تقل عن القرن ، لم يقتصر الأمر على الإحداق بالعالم الإسلامى - الذى كان شركة بين المجتمعين العربى والإيرانى - ولكن أمكن تطويقه تماما . فى أواخر القرنين السادس عشر وأوائل السابع عشر ، وضع الطوق حول رقبة الفريسة .

على أن المفاجأة التى تم بها إيقاع العالم الإسلامى فى تلك الحبال ، لم تكن شيئاً خارقاً للعادة . كما انقضى وقت طويل ، قبل أن يتنبه المسلمون أنفسهم إلى ما يجب عليهم عمله لمجابهة الموقف . وتبلور هذا العمل بالنسبة للجانبين الغربى والروسى ، فى الانقضاخ على فريسة عاجزة عجزا واضحا . أما بالنسبة للجانب الإسلامى ، فحالة الإفلات من تلك الضائقة العvisية . على أن دار الإسلام كانت فى عام ١٩٥٢ سليمة الجوهر . فلم ينتقص

منها سوى يضع مقاطعات من أطرافها . أما لُبيها الأساسى الممتد من مصر إلى أفغانستان ، ومن تركيا إلى اليمن ؛ فكان حراً من أى حُكم سياسى أجنبى ، أو حتى سيطرة أجنبية . إذ لم تأت سنة ١٩٥٢ ، حتى كانت مصر والأردن ولبنان وسوريا والعراق ، قد انتشلت نفسها من طوفان الامبريالية البريطانية والفرنسية التى غمرتها واحدة بعد أخرى ؛ من عام ١٨٨٢ ، وفى غضون الحرب العامة ١٩١٤/١٨^(١) .

لكن رواسب التهديد لقلب العالم العربى ، لم تعد تَفِدُ من الدول الغربية فى الملابس الثلاثة الآتية :

الأولى - فى الوقت الذى أصبح فيه ضغط الثقافة الغربية الحديثة الشغل الشاغل للشعوب الإسلامية - كما كان الروس ، وعلى عكس ما كان عليه المسيحيون الأرثوذكس فى الإمبراطورية العثمانية إبان نفس الأزمة من توارينهم - كانت تلك الشعوب الإسلامية ، ما تزال - من الناحية السياسية - صاحبة مصيرها ؛ كما كان المسلمون ورثة تقليد حربى مجيد ، كان هو البيئنة على قيمة الحضارة الإسلامية فى أعين أبنائها . ومن ثم كان انكشاف تضعفها العسكرى فى العهد الأخير - بفعل منطق عجز عن تبرير الهزيمة فى معركة - كان هذا أمراً مفاجئاً بقدر ما كان مهيناً لهم .

ذلك لأن رضاء المسلمين عن إقدامهم العسكرى التاريخى ، قد بلغ من عمق تأصله فى نفوسهم ، أن الدرس الذى تَضمَنه تحوّل المدّ الحربى ضدهم عقب إخفاقهم أمام فيينا عام ١٦٨٣ م ، لم يؤثر بعد فى نفوسهم تأثيراً

(١) تعزز موقف العالم الإسلامى بعد عام ١٩٥٣ باستقلال تونس والمغرب عام ١٩٥٤ والجزائر عام ١٩٦٢ . ثم استقلت معظم البلاد الإفريقية وبعضها أكثرية مسلمة مثل الصومال والسنغال ومالى وغينيا ونيجيريا ، أو أقلية إسلامية ضخمة فى البعض الآخر . بالإضافة إلى ما حدث من حصول باكستان وإندونيسيا والملايو على الحرية . (المترجم)

ذابال ، إلا حين بلغ ذلك الدرس مداه — بعد ذلك بنحو قرن — فوصل الأمر إلى حد تهديد المسلمين بطردهم من عتقر ديارهم . وحدث ذلك عقب نشوب الحرب بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا عام ١٧٦٨ . إذ قيل للأتراك إن الروس عزموا على جلب أسطول من بحر البلطيق . ينزلونه إلى المعركة فكان أن رفض الأتراك — بعناد — أن يصدقوا أن ثمة طريقا بحريا يصل ما بين البلطيق والبحر المتوسط ، حتى وصل هذا الأسطول فعلا . وشبهه بذلك ؛ أن مراد بك القائد العسكري المملوكي ، حين حذّره تاجر بندقي من أن استيلاء نابليون على مالطة قد يكون مقدمة لنزوله مصر ، انفجر ضاحكا من سخف هذه الفكرة .

الثانية — أعقبت هزيمة العالم العثماني في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر على يد أداة الحرب الغربية الحديثة — على نحو ما حدث في العالم الروسي قبل ذلك بقرن — حركة إقتباس غربية إندفعت من أعلى المجتمع إلى أدناه . وهي حركة بدأت بإعادة تشكيل القوات المسلحة على النظم الغربية .

لكن كان ثمة على الأقل نقطة واحدة ذات أهمية رئيسية اختلفت فيها السياسة العثمانية عن السياسة البطرسية . فإن بطرس الأكبر قد حذر — بفراسة العبقرى — بأن سياسة الاقتباس من الغرب ، يجب أن تشمل « كل شيء أو لا شيء البتة » . إذ أدرك أنه لكفالة النجاح لتلك السياسة ، عليه تطبيقها ؛ لا على الجانب العسكري وحده ، ولكن على سائر مرافق الحياة . ولم ينجح النظام البطرسي قط في تحويل ، أكثر من ظواهر الحياة في المدن إلى الأساليب الغربية . ثم انتهى به الأمر إلى تأديته جزاء إخفاقه في التأثير في جموع أهل الريف ؛ تأثيرا يقيهم سحر الشيوعية فيما بعد . وعلى الرغم من فشله ؛ فإن ما حدث إذ ذاك من وقف المدّ الثقافي لنظام بطرس الأكبر قبل أن يبلغ أهدافه كاملة ؛ لا يرجع إلى قصر نظر القيصر نفسه ،

بقدر ما يرجع إلى إفتقار الجهاز الإدارى الروسى ، إلى قوة دافعة كافية .
وأما فى تركيا ؛ فإن المؤمنين - عن كره منهم - بسياسة تنظيم القوات المسلحة العثمانية على النسق الغربى ، قد لبثوا طوال قرن ونصف قرن منذ إندلاع الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ؛ يتشبثون بوهم إمكان الانتقاء والاختيار ، من العناصر الثقافية الأجنبية التى يعتقونها . هذا رغمًا عن المظاهر المتتابعة المؤلمة لهذا الضلال الذى أوغلوا فيه . وحكمتنا على العثمانيين فى كل حركات الاقتباس من الغرب التى تجرعوا غصصها ، جرعة بعد أخرى - بوجوه متجهمة - خلال هذه الحقبة من الزمن ، هو : « من كل جرعة قليل لا يكاد يكفى وفى وقت متأخر غير مناسب » . ولبثت الحال على هذا المنوال حتى جاء مصطفى كمال ورفاقه عام ١٩١٩ ، فاندفعوا دون أن تحفظ - على غرار المهاج البطرسي - نحو سياسة شاملة للاقتباس من الغرب .

الثالثة - أن الدولة القومية التركية التى أقامها مصطفى كمال على النسق الغربى تبدو - وقت كتابة هذه السطور - عملاً ناجحاً ، لم يتحقق مثله حتى ذلك الوقت فى أى بلد إسلامى آخر . فإن عملية صبغ مصر بالصبغة الغربية التى بدأها المغامر الألبانى محمد على خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر ، وإن كانت أكثر شمولاً من أية محاولة سعى إليها أو أنجزها السلاطين الأتراك فى الحقبة نفسها ؛ هذه العملية تحولت إلى فساد إبان حكم خلفائه . وأظهرت فى مجملها أنها « هجين » غربى إسلامى ، يضم على السواء طائفة من أسوأ مظاهر الحضارة الأصلية والحضارة المقلدة . وحاول أمان الله خان فى أفغانستان أن يحاكي - كالقرد - ما أنجزه مصطفى كمال فى تركيا ؛ فى ميدان أشد وعورة بمملكة شبه همجية . فكانت تجربة ، نُظر إليها - وفقاً لوجهات النظر المختلفة - كمأساة أو ملهاة ؛ لكنها على أى الحالتين ، لا تنجو من الحكم عليها بالفشل .

على أن نجاح أو إخفاق تجارب من نوع تجربة أمان الله خان ، ليس هو الذى سيقدر مستقبل العالم الإسلامى فى العالم الذى نعيش فيه فى منتصف القرن العشرين بعد ميلاد المسيح . ذلك لأن طالع العالم الإسلامى فى المستقبل القريب ، متوقف — على أى حال — على نتيجة اختبار القوة بين العالمين الغربى والروسى اللذين يطوقان العالم الإسلامى فيما بينهما . ولقد تعاظمت أهمية العالم الإسلامى فى نظر هذين المتحاربين منذ إختراع محرك الاحتراق الداخلى .

فالعالم الإسلامى أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية ، وكمعبر للمواصلات الرئيسية . ويضم العالم الإسلامى ثلاثة مواطن من الحضارات الأربع الرئيسية فى العالم القديم^(١) . والثروة الزراعية التى انتزعتها فيما مضى هذه المجتمعات — التى بادت اليوم — من وديان : النيل الأدنى ، ودجلة والفرات ، والسند ؛ تلك الوديان التى استعصت فى ماضى أيامها على الاستغلال ؛ هذه الثروة قد زادت فى مصر والبنجاب ، واستعيدت جزئياً فى العراق . وتم ذلك بفضل تطبيق الطرائق الغربية الحديثة فى ضبط المياه . على أن أهم إضافة لموارد العالم الإسلامى الاقتصادية ؛ جاءت نتيجة اكتشاف والانتفاع بمستودعات الزيت الكامنة فى بطن أرض ، لم تكن لها فى يوم من الأيام ، قيمة زراعية ذات شأن . إن التفجرات الطبيعية التى أحالها التدين الزرادشتى فى العصر السابق للإسلام إلى قيمة دينية — إذ استعان بها لىبقى ضياء الشعلة الخالدة تمجيداً للنار المقدسة — قد حذرت فى عام ١٧٢٣ عين بطرس الأكبر المطلعة ، كرصيد إقتصادى كامن . وإذا كان الأمر قد استلزم انقضاء مائة وخمسين سنة أخرى قبل أن يؤكّد الاستغلال الإقتصادى لحقوق الزيت فى باكو صدق فراسة هذه العبقرية ، فلقد أظهرت — بعد

(١) أى الحضارات : المصرية — السورية — الهندية . والحضارة الرابعة هى الحضارة الصينية . (المترجم)

ذلك - الكشف الجديدة المتعاقبة باستمرار ، بأن باكو ليست إلا حلقة في سلسلة ذهبية تمتد صوب الجنوب الشرقي عبر كردستان وبختيارستان الإيرانية^(١) ، حتى مناطق من الجزيرة العربية اشتهرت بمجدها .

وقد أسفرت النتائج التي تلت التدافع نحو الزيت ، عن وضع سياسى متموتر . طالما كان نصيب روسيا من تلك الغنيمة فى القوقاز وأنصبة الدول الغربية الكبرى فى إيران والبلاد العربية ، تقع فى نطاق سلسلة متصلة الحلقات .

ولقد زاد من حدة هذا التوتر ، تجدد أهمية العالم الإسلامى كنتقطة التقاء للمواصلات العالمية . فإن أقصر الطرق بين روسيا والعالم الغربى - على طرفى المحيط الأطلسى - من ناحية ، والهند وجنوب شرق آسيا واليابان من الناحية الأخرى ، إن أقصر هذه الطرق ، يخترق أرضاً ومياهاً وأجواء إسلامية . وما برح الاتحاد السوفيتى والغرب على خارطة المواصلات وعلى خارطة الزيت ، يقفان - موقف الخطر - متجاورين وجهاً لوجه .

خامساً - الغرب الحديث واليهود :

مهما يكن من الحكم النهائى للبشرية على الحضارة الغربية فى فصلها الحديث من تاريخها ، فواضح أن الرجل الغربى قد وصم نفسه باقتراف جريمتين لن يمحى عازهما :

الأولى - شحن العبيد الزنوج من إفريقيا للعمل فى مزارع العالم الجديد .

الثانية - استئصال اليهود المنتشرين فى مواطنهم الأوروبية .

وإن التلاقى المُنْفَجع بين اليهودية والعالم الغربى ، جاء نتيجة تفاعل بين :

(١) مقاطعة تقع فى جنوب غرب إيران وعاصمتها عبدان ، وتبين عليها قبيلة بختيار . (المترجم)

خطيئة أزية ، وملابس اجتماعية من نوع خاص . وسنكرس جهداً لإيضاح هذه النقطة الأخيرة :

كانت اليهودية في الشكل الذي اصطدمت به مع المسيحية الغربية ، ظاهرة اجتماعية شاذة . بحسبانها فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت في كل مظاهرها . فلقد كانت دولة يهودا Judah الإقليمية السريانية - وعنها انبثقت اليهودية - واحدة من الطوائف : العبرانية ، الفيدقية ، الأرامية ، الفلسطينية . ولكن بينما فقدت الطوائف الأخرى شقيقات طائفة يهودا كيانها - كما فقدت كذلك صفتها كدولة - بفعل المصائب القاتلة التي توالى على المجتمع السورى نتيجة لمصادماته المتعاقبة مع جاريه البابلي والهليني ، فإن هذا التحدى نفسه الذي واجهه اليهود ، قد استثارهم ليبدعوا لأنفسهم طرازاً طريفاً من الكيان الطائفي . وفي داخل نطاق هذا الطراز الجديد ، استعاضوا عن فقدان دولتهم وبلادهم ، بالاحتفاظ بذاتيتهم - في صورة تشتت^(١) - بين ظهرائي أغلبية أجنبية ، وفي ظل حكم أجنبي .

وليس رد الفعل اليهودي الموفق هذا ، بالشئ الفريد في نوعه . فإن لتشتت اليهود في أرجاء العالمين الإسلامى والمسيحي ، ما يماثله في تشتت طائفة « البارسى » في أنحاء الهند . وهذه الطائفة ، هي كذلك بقية متحجرة من بقايا المجتمع السورى نفسه .

والبارسيون هم بقايا من تحولوا إلى الحضارة السورية ، التي منحت المجتمع السورى دولته العالمية ، في شكل إمبراطورية أخيمينية . إن طائفة البارسيين - كاليهود - رمز حي لإرادة الحياة ، بعد أن فقدت الدولة والوطن . وهذه الخسارة للدولة والوطن جاءت - مثلما حدث لليهود -

(١) الانتشار أو التشتت : ترجمة اصطلاح الـ *Diaspora* . ويطلق على اليهود بعد تشتتهم عقب قضاء الرومان على دولتهم في فلسطين وانتشارهم بين شعوب العالم تقريباً . (المترجم)

نتيجة مصادمات متتالية بين العالم السورى والمجتمعات المجاورة له . وكما
يبدل اليهود من تضحيات خلال القرون الثلاث المنتهية فى عام ١٣٥ ميلادية ،
ضحى الآباء الأولون للبارسيين من أتباع زرادشت ، بأنفسهم فى محاولة
فاشلة للتخلص من تأثير دخيل للحضارة الهلينية . وكما دفع اليهود الثمن الذى
اقتضته منهم الإمبراطورية الرومانية جزاء فشلهم ؛ كذلك دفع الإبرانيون
من أتباع زرادشت جزاء فشلهم ، الثمن الذى اقتضاه منهم الفاتحون العرب
المسلمون فى القرن السابع الميلادى .

وحافظ اليهود والبارسيون فى إبان هاتين الأزمتين المتماثلتين من تاريخيهما ،
كل على ذاتيته ؛ بفضل استنباطه نظما جديدة ، والتخصص فى مجالات
جديدة من العمل . ولقد وجد كل منهما فى أحكام شريعته الدينية ، وشيعة
اجتماعية تربط بين أفراد الطائفة . ونجوا من عواقب الكارثة الاقتصادية
التي أنزلها بهم ، إنتزاعهم من أرض آبائهم . وذلك بتنميتهم - وهم فى المنفى -
مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية ؛ فاستعاضوا
بهما عن الفلاحة ، التي لم يعد يتيسر لهؤلاء المنفيين المجردين من الأرض ،
ممارستها .

ولم يكن هؤلاء المشرّدون من اليهود والبارسيين وحدهم ، هم البقايا
المتحجرة التي خلفها وراءه المجتمع السورى البائد . إذ أخرجت البدع
الدينية المسيحية المناهضة للهلينية التي ظهرت خلال الحقبة الواقعة بين
تأسيس المسيحية وقيام الإسلام ؛ أخرجت بقايا متحجرة فى شكل الكنيستين
« النسطورية » و « المينوفيستية » .

كما أن المجتمع السورى ، لم يكن وحده المجتمع الذى وُفقت الطوائف
المنبثقة عنه فى أن تعيش بفضل الجمع بين التنظيم الروحاني والعمل التجارى ،
بعد أن فقدت دولتها وأخرجت من ديارها . فإن الطائفة اليونانية المسيحية
الأرثوذكسية التي خضعت لنظام عثمانى غريب عليها ، وأخرجت من

ديارها - إلى حد ما - قد استجابت لتحدى هذا النظام ، بإحداثها تغييرات ، في تنظيماتها الاجتماعية ومناحي نشاطها الاقتصادى . الأمر الذى سار به شوطاً بعيداً فى مصير « التشتت » ؛ من نفس النوع الذى سبق ذكره ؛

وحقاً ؛ كانت الطوائف الدينية فى الامبراطورية العثمانية^(١) ، مجرد صيغة أخرى للبناء الطائفى فى المجتمع . ذلك البناء الذى نما تلقائياً فى العالم السورى بعد أن سُحقت الدولة السورية ، واختلطت الشعوب السورية اختلاطاً معقداً بفعل عدوان العسكرية الأتورية . وأسفر ذلك عن إعادة وصل ما انقطع من أجزاء المجتمع فى شكل شبكة من الطوائف المختلطة جغرافياً ، عوضاً عن التنظيم السابق لهذا المجتمع فى شكل مَرَقَّة^(٢) من الدول الإقليمية المعزولة جغرافياً ؛ وورث هذا الأسلوب فى إعادة تشكيل المجتمع عن المجتمع السريانى (السورى) ، خلفاؤه المسلمون من العرب والإيرانيين . ثم فرضه فيما بعد بُناة الإمبراطورية العثمانية - أتباع الحضارة الإيرانية - على الشعوب المسيحية الأرثوذكسية التى خضعت لحكمهم .

وعلى هدى هذه النظرة التاريخية الشاملة ؛ يتضح لنا أن التشتت اليهودى ، كان فى تلاتيه بالمسيحية الغربية ، أبعد من أن يكون ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها . بل كان على العكس « عَيْتَة » لنموذج « من طائفة ؛ غدا الطراز المألوف فى أرجاء العالم الإسلامى الذى تشتت اليهود فيه ، وفى العالم المسيحى الغربى .

لهذا قد يتساءل المرء بحق ؛ عما إذا كان الوضع الاجتماعى الخاص الذى أسفر عنه التلاقى المفجع بين اليهودية والمسيحية الغربية ، لا يرجع إلى

(١) كان يعرف فى الإمبراطورية العثمانية بـ « ملت » من كلمة « مله » العربية . (المترجم)

(٢) المرقمة : ما يؤلف من رقع أو أجزاء مختلفة - تلمصية . (المترجم)

خصائص معينة في جانب المسيحية الغربية ، لا تقل عما يوجد منها في الجانب اليهودي . وفي وسعنا - إذ نطرح هذا السؤال - أن نستبين أن التاريخ الغربي قد تميز - بحق - بثلاثة اعتبارات تتصل جميعها بتاريخ العلاقات اليهودية الغربية :

أولاً - أن المجتمع الغربي قد نظم نفسه في شكل مُرَقَّعة من الدول الإقليمية المنعزلة إحداها عن الأخرى جغرافياً .

ثانياً - أن ذلك قد طور نفسه تدريجياً من مجتمع مُغرق في اقتصاده الزراعي ، يتكون من فلاحين وملاك أرض ؛ إلى مجتمع مُغرق - نزعتة الحضرية ، قوامه الصناع والبورجوازية .

ثالثاً - هذا المجتمع الغربي في شكله الأخير القائم على الفكرة القومية وعقلية الطبقة الوسطى ؛ إنبعث من بين طبقات الظلام النسبي الذي ران عليه إبان القرون الوسطى ، ثم مضى سريعاً ليبسط ظله على سائر الدنيا .

ويُفصّل تاريخ تشتت اليهود في شبه جزيرة أيبيريا ؛ عن الارتباط الكامن بين النزعة المعادية للسامية ، وبين المثل الأعلى للمسيحية الغربية ، وقوامه : تجانس الجماعة التي تنتظم جميع السكان في إقليم معين .

فما أن التأمّت الهوة بين طائفتي الرومان والقوط الغربيين - بفضل تحوّل القوط الغربيين عام ٥٨٧ م من المسيحية الآرية إلى المسيحية الكاثوليكية - حتى بدأ في بلاد القوط الغربيين توتر بين الجماعة المسيحية الموحدة والطائفة اليهودية التي زاد - تبعاً لذلك - شعورها بذاتيتها ؛ وتسجل تزايد حدة التوتر ؛ سلسلة من التشريعات المناهضة لليهود ، تناهض تماماً التشريع الإنساني الذي صدر في نفس الوقت عن القوط الغربيين لحماية العبيد من استبداد سادتهم . على أن هذه التشريعات : السامية منها والمنحط على السواء ، دليل على نفوذ الكنيسة على الدولة .

وفي تلك الظروف ؛ تأمر - في نهاية الأمر - يهود شبه جزيرة أيبيريا مع إخوانهم في الدين في شمال أفريقيا ، ليحصلوا على تدخل العرب المسلمين لصالحهم . ولعل العرب كانوا يعتزمون - بلا شك - القدوم بصرف النظر عن إغراء اليهود لهم . وعلى أية حال ؛ وفد العرب ، وتلا هذا قيام نظام إسلامي في شبه الجزيرة لبث خمسمائة عام (٧١١ م - ١٢١٢) . وفي الحكم الإسلامي ، لم تعد الطائفة اليهودية - وقد أصبحت تستمتع بالحكم الذاتي - قوماً « لهم طابع خاص » .

حقاً ؛ إن الأثر الاجتماعي للفتح العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية هو شعور الطائفة اليهودية بأنها آتت إلى وطنها . هذا التأثير الاجتماعي ، مائل في إعادة تشييد المجتمع أفقياً ؛ وهو ما جلبه العرب الفاتحون معهم من عالمهم السوري . لكن لم تستمر هناءة الطائفة اليهودية في شبه الجزيرة بعد انهيار الحكم الإسلامي . فإن برابرة القرون الوسطى من المسيحيين الكاثوليك الذين غزوا أملاك الخلافة الأموية الأندلسية ، قد نذروا أنفسهم لتحقيق المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة . فكان أن أضطر اليهود في الفترة الواقعة بين عامي ١٣٩١ و ١٤٩٧ إلى الخروج إلى النفي أو الاعتراف باعتناق المسيحية .

وهذا المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة الذي كان الدافع السياسي لضيق المسيحية الغربية ذرعاً بوجود الأغراب اليهود بين ظهرانيها ، عززته تطورات اقتصادية واجتماعية على مر الأيام :

فما الوطن الذي نشأ فيه المجتمع الغربي ، إلا بقية قصبة من العالم الهليني ؛ أخفقت فيه الثقافة الحضرية الهلينية في تأصيل جذورها . والحياة الحضرية الظاهرة على سطح المجتمع والتي أقيمت على أسس زراعية بدائية ، قد ظهر أنها عامل معوق بدلا من أن تكون عامل دفع واستثارة . فما أن تقوَّض - تحت

ثقل نفسه - هذا البناء السطحي الغريب الذي شيّده الرومان ، حتى عاد الغرب فارتدّ إلى نفس المستوى الاقتصادي الواطئ الذي كان عليه قلما تسمى الحضارة الهلينية إلى غرس بذورها وراء جبال الابنين ، أو عبر البحر التيرانى . وترتبت - بالذات - على هذا التأخر الاقتصادي نتيجتان :

الأولى - إنتشار اليهود المشتتين في أرجاء العالم المسيحي الغربى . إذ عثر اليهود على ثغرة في الغرب ، نفذوا منها إلى العمل لتدبير معاشهم . وذلك بتزويد المجتمع الغربى الخليط ، بأدنى حد من الخبرة التجارية والتنظيم . وما كان في وسع أى بلد زراعى قح ، أن يعيش بدون هذا الحد من الخبرة التجارية والتنظيم ؛ بل لم يكن هذا البلد ليستطيع - في ظروفه وقتذاك - القيام به بموارده الخاصة .

المرحلة الثانية - وطمح خلالها المسيحيون في المجتمع الغربى إلى أن يحلّوا محل اليهود عن طريق إتقانهم الفنون اليهودية المُرَبَّجة .

وعلى مرّ الأجيال ؛ بذل المسيحيون في الغرب جهودا جبارة في هذا الميدان الاقتصادي الذي كان إحتكارا لليهود ، أجدت عليهم في النهاية أرباحا مثيرة . فلم يحل القرن العشرون للميلاد حتى كانت المؤخرة الشرقية^(١) من « طابور » الشعوب الغربية - في زحفها الطويل نحو هدانها الذى تتطلع إليه وهو بلوغ الكفاية الاقتصادية - تمر في عملية تحوّل حقيقته قبلها بألف عام ، شعوب شمال إيطاليا والفلمنك ؛ وقد كانوا الرواد الأول لحركة يمكن أن نطلق عليها دون أن نجاوز الحقيقة في كلا الحالين : التصرّ^(٢) أو « اليهود »^(٣) .

وكان ظهور طبقة من المسيحيين أهل لإنجاز جميع الأعمال التى تخص

(١) أى بولندا والمجر وليتوانيا . (المترجم)

(٢) التصرّ : الأخذ بالأساليب الحديثة Modernization . (المترجم)

(٣) لليهود gudaizatism : اصطناع الأساليب اليهودية . (المترجم)

فيها اليهود^(١) ثم تطلّعهم بالتالى إلى طرد اليهود ؛ عاملا فى التاريخ الغربى تدلّ على بلوغ هذه المرحلة الاجتماعية من التقدم العصرى .

ولقد مرّ الصراع الاقتصادى بين اليهود والمسيحيين فى الغرب فى ثلاثة فصول :

فى الفصل الأول - كان اليهود موضع الكراهية ، بقدر ما كانوا طائفة لا غنى للمجتمع عنها . بيد أن سوء المعاملة التى كانوا يلتقونها ؛ كان يحدّ منها عجز مضطهدينهم من المسيحيين عن تدبير شئونهم اقتصادياً ، بدون اليهود .

واستهل الفصل الثانى فى البلاد الغربية - الواحد تلو الآخر - بمجرد أن استحوزت البورجوازية المسيحية الناشئة ، على قدر كاف لنفسها من الخبرة والمهارة ورأس المال ؛ بث فيها شعور القدرة على انتزاع المكانة التى يحتلها اليهود المحليون . وعند هذه المرحلة ؛ استخدمت البورجوازية المسيحية قوتها التى فازت بها - حديثاً - لتؤمن طرد منافسيها اليهود . وهذه الموحلة ؛ بلغتها انجلترا فى القرن الثالث عشر ، الميلاى وأسبانيا فى الخامس عشر ، وبولندا والمجر فى القرن العشرين .

وفى الفصل الثالث - كانت البورجوازية المسيحية قد وطدت مكانتها ، وتمكّنت تماماً من الفنون الاقتصادية لدى اليهود . إلى درجة ؛ لم يعد خوفها التقليدى من عواقب الاستسلام للمنافسة اليهودية ، يمنعها من الإفادة من المقدرة الاقتصادية عند اليهود لخدمة الاقتصاد القومى المسيحى .. وبهذه الروح ؛ أجازت حكومة توسكانا عام ١٥٩٣ وما بعده للاجئين

(١) فى الأصل : طبقة « أنطونير تحمل محل شيلوك . ويشير الأستاذ المؤلف هنا إلى مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » التى رمز فيها إلى المسيحى الساذج بأنطونير الذى وقع فى براثن اليهودى الماكر شيلوك حتى اقترض منه متعهده بوفاء الدين رطلاً من لحمه إن عجز عن وفاة الدين نقداً . (المترجم)

اليهود الوافدين من أسبانيا والبرتغال ، الاستقرار في لجهورن . وكانت هولندا منذ عام ١٥٧٩ قد فتحت أبوابها لهم . أما إنجلترا التي أحست في نفسها القوة الكافية لطرد اليهود منها عام ١٢٩٠ ، عادت فشعرت بمثل هذه القوة لتجيز لهم العودة إليها منذ عام ١٦٥٥ .

وسرعان ما تلا هذا التحرر الاقتصادي لليهود في العصر الحديث من تاريخ الغرب ، تحررهم اجتماعياً وسياسياً ؛ نتيجة الثورات الدينية والأيدلوجية المعاصرة في العالم المسيحي الغربي . فإن الإصلاح البروتستانتي قد حطّم جهة الكنيسة الكاثوليكية الموحدة ، والمعادية لليهودية . ومصدّقاً لهذا ؛ نجد إنجلترا وهولندا في إبان القرن السابع عشر ، ترحبان باللاجئين من اليهود ، باعتبارهم ضحايا الكاثوليكية الرومانية عدوة هذين البلدين البروتستانتين . وترتب على هذا ، أن شارك اليهود - بصفة عامة - ثمرات روح التسامح المطرد في النمو ، في البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وما أن حل عام ١٩١٤ ، حتى كان تحرر اليهود - رسمياً - في جميع مجالات النشاط البشرى - حقيقة مقررة منذ أمد طويل ؛ في جميع بقاع العالم الغربي الحديث . باستثناء تلك الأراضي التي كانت تكوّن فيها مضي ، المماكة المتحدة لبولندا وليتوانيا ؛ والتي ضُمَّت أخيراً إلى الإمبراطورية الروسية .

ولقد قرّر في الأذهان عند هذه المرحلة ؛ كما لو أن المشكلة اليهودية قد وجدت حلاً يقوم على امتزاج الجماعتين المسيحية واليهودية - إحداها بالأخرى - عن طريق اتحاد قائم على حرية الاختيار من كلا الفريقين . لكن ما لبث أن دخلت في فصل رابع أشدّ هولاً من أى شئ سبقه . فما الذي قاد إلى هذا المصير ؟ .

لقد نكأ الجرح القديم ، ذلك الحاجز السيكلوجي الذي ما برح قائماً بين المسيحيين من أهل الغرب واليهود . وحتى بعد أن أزيلت - رسمياً - القوارق

القانونية بينهما ، كان لا يزال ثمة « جيتو »^(١) . استمر المسيحيون يحصرزون اليهود داخل نطاقه . كما تابع اليهود - من ناحيتهم - عزل أنفسهم عن المجتمع المسيحي الغربى . وما انفك اليهودى وهو يعيش فى مجتمع موحد من الوجهة الرسمية - يجد نفسه - شخصاً منبوذاً ، بمختلف الأساليب المتتوبة . بينما ألغى الإنسان المسيحى نفسه ما يزال يجابه تضامناً وثيقاً - ماسونية - يربط اليهود بعضهم ببعض . كما يواجه طموحاً يهودياً إلى المطالبة بالمزايا التى يسبغها المجتمع الموحد على جميع أفرادها ، بما فى ذلك اليهود : لكن اليهود - من جانبهم - ما كانوا على استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا .

فكان أن واصل الفريقان كلاهما إتباع مقياس للسلوك مزدوج : فكان ثمة سلوك رفيع لتعامل المرء مع أفراد طائفته ؛ وسلوك آخر أقل مستوى يتعامل به مع بقية مواطنيه - بالاسم - الساكنين فى الجانب الآخر وراء الحاجز الاجتماعى ، الذى كان مفروضاً أنه لم يعد قائماً . وإن هذا الرداء الجديد من النفاق ، الذى تحفظ فى طياته رذيلة الجور القديمة ؛ غمق شعور الازدراء والاستهانة الذى يشعر به كل فريق لإزاء الآخر . ومن ثم جعل الموقف بينهما أشد توتراً وأقل احتمالاً .

وأظهر تجدد النزعة المناهضة للسامية ، ذقة العلاقات بين الطائفتين ، حينما كثرت نسبة اليهود العددية إلى مجدوع السكان من العنصر المسيحى . فبدأ هذا الاتجاه واضحاً للعيان عام ١٩١٤ فى لندن ونيويورك ، نتيجة للهجرة اليهودية التى تدفقت منذ عام ١٨٨١ من الأراضي البولندية واللوانية السابقة ، التى ضمت إلى الإمبراطورية الروسية ؛ هجرة تحت ضغط الاضطهاد الروسى . واشتدت هذه النزعة ضراوة فى النمسا الألمانية وفى الرايخ الألمانى ، نتيجة

(١) الجيتو ghetto : حى اليهود . وكان لا يسمح لهم بالإقامة خارج حدوده .
(المترجم)

لهجرة يهودية أخرى ، وفدت إليهما خلال الحرب العالمية الأولى من غاليسيا وبولندا ومن المقاطعات الشرقية لما يسمى به الحظيرة الروسية . ولم تكن هذه النزعة المناهضة للسامية في ألمانيا أضعف العوامل التي حملت الاشتراكيين الوطنيين الألمان^(١) إلى تقلد زمام الحكم . ولا لزوم هنا لتفصيل ما تلا ذلك من استئصال اليهود ، على أيدي الاشتراكيين الوطنيين الألمان . إذ تبلغ الوقائع من قبح الذكر ، ما تبلغه من الهول ، وتقيم للإثم معرضاً على مستوى قوى ، لعل التاريخ لا يجد له حتى الآن نظيراً .

وهاجت الروح القومية الغربية الحديثة فكرة الانتشار اليهودي في العالم الغربي على جبهتين في وقت واحد :

فإن الروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية وضغطها في الوقت نفسه من ناحية أخرى ، قد دفعت اليهود الغربيين إلى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم . ويمكن وصفها بأنها شكل جماعي للاقتباس من الغرب ؛ إذا قورن بالشكل الفردي من هذا الاقتباس الذي يقترن — عند اليهود — بعصر الليبرالية الذي بلغ أوجه في القرن التاسع عشر .

وإذا كان المثل الأعلى في التأثير بالغرب ، هو تحويل الفرد اليهودي إلى بورجوازي غربي يدين باليهودية ؛ فإن المثل الأعلى البديل له ، يهدف إلى تركيز اليهود المشتتين — أو جانب منهم — في دولة قومية خاصة بهم لا تنتظم إلا سكانا متجانسين من اليهود . هذان الاتجاهان دليان على أن تحرير اليهود كان من الصدق بحيث مكّنتهم من الاستجابة للأفكار الغربية الشائعة .

وكذلك كانت الصهيونية ، في الوقت نفسه — بشهادة مؤسسها تيودور هرزل Theodor Herzl — قريبة على قلق اليهود من إغلاق الطريق الذي

(١) أي النازي . (المترجم)

يؤدى إلى استيعابهم ، كأفراد فى المجتمعات الأخرى ؛ بتأثير العصبية القومية بين المسيحيين الغربيين . تلك العصبية التى وفدت سريعا ، فى أعقاب النزعة الليبرالية . وقد لا يكون من قبيل المصادفة - والحالة هذه - أن تنبعث على النتائج : الصهيونية اليهودية ، والنزعة الجديدة المناهضة للسامية ؛ فى نفس المنطقة الجغرافية ؛ وهى الأراضى التى يتحدث أهلها الألمانية من الإمبراطورية النمساوية ، قبل تفككها عام ١٩١٨ .

ومن بين جميع سخریات التاريخ الكثيرة ؛ لا يَلْبِغُ أى منها ضياء نافذا على الطبيعة البشرية ، مثلما تَلْقِيهِ تلك الحقيقة السافرة . وهى أنه غداة أفطع ألوان الاضطهاد المتعددة التى حلت بالشعب اليهودى فى تاريخه ، نجد اليهود أصحاب النموذج القومى الجديد - وهو الصهيونية - يُقِيمُونَ على أنفسهم الحجة بأن الدرس الذى تعلمه الصهاينة من الفظائع التى قام بها النازى ضد اليهود؛ لم يدفعهم إلى تنكّب ارتكاب نفس الجريمة التى كانوا هم ضحاياها . بل راحوا يضطهدون شعبا أضعف منهم ، وهم الفلسطينيون العرب ، الذين كانت كل جريمتهم لدى اليهود ، أن فلسطين كانت وطن أجددهم . وإذا كان اليهود الإسرائيليون لم يقتفوا آثار النازيين إلى درجة إبادة العرب فى معسكرات الاعتقال وحجرات الغاز ، فإنهم استصفوا غالبيتهم - وقد جاوزوا نصف المليون (١) - بطردهم من الأراضى التى شغلوها وزرعوها أجيالا هم وآباؤهم من قبل ؛ والاستيلاء على المتاع الذى عجزوا عن حمله أثناء فرارهم . ومن ثم أصبح العرب ؛ فى حالة العدم ، وغدوا « قوماً لاجئين » .

وأثبتت هذه التجربة الصهيونية فيما أثبتت من نتائج ، نقطة وردت فى

(١) يجاوز عدد اللاجئين الفلسطينيين فى الوقت الحاضر المليون . وإن فظائع اليهود فى دير ياسين وغيرها . لا تقل عن فظائع النازيين ضد اليهود ، مع فارق أن الألمان فعلوا ما فعلوه فى وطنهم وضد جماعة شاذة أضرت بنقضيتهم إبان الحرب العالمية الأولى . وفى حين أن الصهاينة قوم غرباء عن فلسطين ، وضعهم الاستعمار رأس رمح فى العالم العربى . (المترجم)

مكان سابق من هذه الدراسة . ألا وهى أن الخصائص « اليهودية » التى طامأ
ألصقها المسيحيون منذ أمد طويل باليهود المقيمين بين ظهرانيهم ، هى
حصيلة الملابس الخاصة التى صاحبت تشتت اليهود فى أنحاء العالم الغربى ؛
ولا ترجع - أى الخصائص اليهودية - إلى أية خلة عنصرية خاصة موروثة .
إن تناقض الصهيونية ، أنها إذ تبذل جهدها الشيطاني لتشييد صرح جماعة
يهودية لحما ودما ؛ ما برحت تعمل بنفس القدر من النشاط لانخراط اليهود
فى عالم غربى . مثلما دأب الفرد اليهودى على التطلع إلى أن يصبح بورجوازيًا
غريبًا يهودى العقيدة ، أو بورجوازيًا لا أدريًا (١) .

إن اليهودية فى تاريخها ، عبارة عن تشتت . وإن الطبع اليهودى والنظم
اليهودية - من ولاء مغرق فى الحذر لشرعية موسى ، والتزام تام لقواعد
وأحكام التعامل التجارى والمالى - كانت من الأعمال التى جعل منها التشتت
اليهودى على مر العصور ؛ طلاسمة إجتماعية ، منحت هذه الطائفة
المتفرقة جغرافيا ، قدرة سحرية على البقاء . ولكن يهودا محدثين إصطبغوا
بالصبغة الغربية - سواء انتموا إلى المدرسة الليبرالية أو إلى الصهيونية -
خرجوا على هذا الماضى التاريخى . وكان خروج الصهيونية عليه أشد عنفا ؛
مما فعله اليهود ، مريدو الليبرالية .

فإن الصهيونية بنبذها تقاليد « التشتت » اليهودى جملة ، لتقيم أمة جديدة
مستقرة جديدة على ظهر الأرض ؛ على غرار ما فعله الرواد البروتستانت
المحدثون من المسيحيين الغربيين الذين أقاموا الولايات المتحدة الأمريكية
واتحاد جنوب أفريقيا وأستراليا ونيوزيلند ؛ أجل إن الصهيونيين بفعلهم

(١) مذهب اللاأدرية Agnosticism : صكه هكسل عام ١٨٦٩ . ويقول مجهل
الإنسان - بحكم طبيعة الأشياء - بكل ما يتصل بالوجود للروحى ، سواء اتصل هذا الوجود
الروحى بالله أو بالإنسان نفسه . وبالأحرى تقتصر معرفة الإنسان على الظواهر المادية
وخلدها . (المترجم)

هذه ، كانوا يلجئون أنفسهم في الوسط الذي يطلقون عليه « الأُمى » (١) .
وإذا كانوا يقولون بتلقيهم الوحي من أسفارهم ؛ فإن هذا الوحي ، ليس
هو الوحي الذي تلقوه عن شريعة موسى ، ولا هو وحي الأنبياء ؛ لكنه
وحي تلقوه من القصص الواردة في سفرى الخروج ويشوع (٢)

وبهذه الروح ؛ اتجهوا في تحد وحماة ، إلى إحالة أنفسهم إلى عمال يدويين ،
عوضا عن عمال ذهنيين ؛ إلى قوم ريفيين ، عوضا عن سكان مدن ؛ إلى
منتجين ، عوضا عن وسطاء ؛ إلى زراع ، عوضا عن صيارفة ؛ إلى
محاربين ، عوضا عن تجار ؛ إلى إرهابيين ، عوضا عن شهداء .

وقد أظهر اليهود في أدوارهم الجديدة ، مقاومة للضغط وصلابة
مذهلتين ، مثلما أظهروه في أدوارهم القديمة . لكن ما تحبسه الأيام للإسرائيليين

(١) الأُمى Gentile : لقب يطلقه اليهود - على سبيل الإزدراء - على من عدام
من البشر . (المترجم)

(٢) ورد في سفر الخروج - آية ٣٦ إصحاح ١٢ - أن اليهود سلبوا المصريين
الفضة والذهب والأمتعة والثياب . كذلك جاء في الآيات ٢٩ - ٣١ من نفس الإصحاح
أن الرب - رب اليهود - غرّب المصريين جميعاً من فرعون إلى الأسير في السجن ؛
بل ضرب كل بهيمة ، حتى لم يكن بيت ليس فيه ميت .

وورد في سفر يشوع - ويشوع خلف موسى بعد موته - أن الرب أمره بالاستيلاء
بالقوة على كل أرض تدوسها أقدام بنى إسرائيل من البرية ولبنان إلى نهر الفرات
وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس . وورد في الإصحاح السادس من هذا السفر -
آيات ٣١ - ٣٥ - تفصيل ما فعله اليهود بمدينة أريحا عند دخولهم إياها بقيادة
يشوع . إذ سلبوا المدينة وقتلوا أهلها ولم ينج منهم - كما تقول الآية ٣١ - رجل
وامرأة وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ذبحها اليهود . ولكن نجت امرأة تصفها
التوراة بأنها زانية وتدعى راحاب لأنها خبأت لديها جاسوسين إسرائيليين بعدما أمضيا
الليلة في فراشها - كما تقول التوراة . ولقد خلدت حكومة إسرائيل اسم هذه المرأة
الزانية بإطلاق اسمها على مدينة « راحابوت » . وفعل اليهود بالمدن الأخرى
التي دخلوها بقيادة يشوع ما فعلوه بأريحا من سلب وذبح وتخريب .

ويعى الأستاذ المؤلف بعباوتة السالفة الذكر أن الصهيونية لم تستلهم في أنفعا
شريعة موسى ، لكنها استلهمت ما ورد في سفرى الخروج ويشوع من سلب وذبح
وتخريب في معاملتها لعرب فلسطين . (المترجم)

— وهو الاسم الذى يطلقه يهود فلسطين على أنفسهم — رهن بما سيظهره المستقبل وحده . إذ يبدو أن الشعوب العربية المحيطة بهم مصممة على طرد الدخلاء من بين ظهرانيها . وهذه الشعوب العربية فى الهلال الخصيب يفوق عددها ، عدد الإسرائيليين بكثير ؛ وإن كان تفوقها العبدوى يحدّ فى الوقت الحاضر نقصها فى الطاقة والكفاية (١) .

وفوق هذا ؛ فقد أصبحت جميع المسائل عالمية الطابع :

فإلى أى جانب يجد كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة مصالحه فى الشرق الأوسط حين يجدّ الجدل ؟

هذه هى المسألة ! !

فن ناحية الاتحاد السوفيتى ، يصعب التنبؤ .

وأما فيما يتصل بالولايات المتحدة ؛ فما برح العامل المحدد لسياساتها الفلسطينية كامناً حتى اليوم ، فى التفاوت الكبير فى عدد وثراء ونفوذ كل من العنصرين اليهودى والعربى فى مجموعة سكان تلك البلاد . إذ يبدو الأمريكيون العرب — إن قورنوا باليهود الأمريكيين — كمّاً مهملاً ؛ حتى وإن أخذ فى الحسبان أولئك العرب اللبنانيون ذوو الأصل المسيحى . أما الجانب اليهودى من كتلة المواطنين الأمريكيين ؛ فإنه يمارس سلطاناً سياسياً ، لا يتناسب إطلاقاً مع عدد أفرادهِ . ذلك لأن اليهود الأمريكيين يتركزون بمدينة نيويورك . وهذا أمر له وزنه فى معترك المنافسة على كسب

(١) نلاحظ على هذه العبارة ما يلى :

أولاً — أنها كتبت قبل ثورة ١٩٥٢ . ومنذ ذلك التاريخ والبلاد العربية بعامة ومصر بخاصة تدير بخطى سريعة فى طريق التقدم المادى والمعنوى . فأصبحت مصر تتفوق على إسرائيل تماماً اقتصادياً وتكنولوجياً وعسكرياً .

ثانياً — لا تقتصر منافسة إسرائيل على دول الهلال الخصيب ، بل أصبح للعرب بعد استقلال دولهم فى الشرق والغرب يجمعون على فكرة القضاء على إسرائيل .

(المترجم)

لأصوات في السياسة الأمريكية المحلية في دولة رئيسية . على أن تقديرات السياسة من المسيحيين الأمريكيين المستمترين ، لأصوات اليهود في الانتخابات ، ليست هي - كما يتجه إليه إعتقاد بعض المراقبين الذين لا يقلون عن هؤلاء السياسة حقاً - التفسير الكامل للتأييد الساحق الذي بذلته حكومة الولايات المتحدة لإسرائيل ، خلال السنوات الحرجة التي أعقبت مباشرة انتهاء الحرب العالمية الثانية . إذ لم تكن هذه السياسة إنعكاساً لمجرد تقديرات جافة لاعتبارات داخلية ؛ وإنما كانت أيضاً إنعكاساً بشعور الرأي العام في أمريكا بالامبالاة ، ومثاليته ، وتشويه معلوماته .

لقد ألنى الأمريكيون أنفسهم قادرين على التدخل في المصائب التي أنزلها النازي في أوروبا باليهود . لأن يهوداً آخرين كانوا يمثلون نماذج بشرية مألوفة في حياتهم اليومية . أما العرب ، فلبسوا منتشرين في الحياة الأمريكية ، يذكرون الأمريكيين بنكبات عرب فلسطين .

« إن الغائبين دائماً مخطئون » .

سادساً : الغرب الحديث وحضارة الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية الوطنية الأصلية :

إن الحضارات الحالية التي استعرضنا - حتى الآن - تلاقيها مع الغرب الحديث ؛ كان لها جميعها تجاربها مع المجتمع الغربي ، قبلما تبدأ هي في تلقي تأثيراته ، في غضون مرحلته الحديثة . وصدق هذا القول حتى على المجتمع الهندي ؛ وإن كانت إتصالاته بالغرب ضئيلة نسبياً . وعلى العكس ؛ كان وجود الغرب في الأمريكتين ، مجهولاً تماماً . وكان مجهولاً تقريباً في الصين واليابان ، إلى أن وصل البرواد الأول من الغربيين شواطئهما . وترتب على الجهل بالغرب ، أن استقبل مبعوثوه في بداية

الأمر من غير استراحة بنوايا الغربيين ؛ وكان لما جلبوه معهم ،
فئة الطرافة .

على أن القصتين اتخذتا بعد ذلك ، وجهتين مختلفتين اختلافاً حاداً .

فإن الحضارات الأمريكية لم توفّق في مواجهة الموقف العصيب ،
بينما أصابت حضارتنا الشرق الأقصى توفيقاً في مواجهته .

فإن الفاتحين الأسبان لوسط أمريكا وجنوبها ؛ سرعان ما سحقوا بقوة
السلاح ، ضحاياهم الأبرياء السيئ العادة والعتاد . واستأصل الفاتحون بالفعل ،
تلك العناصر من السكان التي حافظت على الثقافة الوطنية الأصيلة . ونصبوا
أنفسهم أقلية مهيمنة دخيلة ، وأنزلوا السكان الفلاحين إلى وضع بروتاريات
داخلية للمجتمع المسيحي الغربي . وذلك بوضعهم عملهم ؛ رهن تصرف
رجال الأعمال الأسبان المسيحيين ، ممن سيرتهم نزعة تجمع بين الاقتصاد
والدين ! إذ كان من المتفق عليه أن هذه الإرساليات التبشيرية
الغارسة ؛ تجعل من بين واجباتها تحويل هذه القطعان البشرية إلى المسيحية
في شكلها الكاثوليكي . ورغمّا عن ذلك ؛ لا يمكن النظر بعين التأكيد
— وقت كتابة هذه السطور — إلى أن الثقافات الوطنية الأصيلة ،
التي تُبعث في صورة من الصور في آخر الأمر ؛ مثلما عاد المجتمع السوري
إلى الوجود ، فاستعاد كيانه الذاتي بعد انقضاء ألف سنة من السيطرة
الهيلىنية .

وصعد مجتمعا الشرق الأقصى في الصين واليابان — من الناحية الأخرى —
لما تعرضا له من خطر داهم ، جلبه عليهما جهلها البدائي . فلقد حاولا
تقييم الحضارة الغربية بالميزان ، فبدت لهما قاصرة ، فكان أن وطّنا النفس
على نبذها . وعندئذ حشدا قدرا من الطاقة قينا بتطبيق سياسة مرسومة ، تقوم
على تحاشي الإتصال الفعّال بالغرب . ولكن ذلك — كما ظهر — لم يكن
نهاية القصة .

فإن الصينيين واليابانيين ، بفصمهم علاقاتهم بالغرب ، بالشكل الذى عرضه عليهم الغرب فى بداية الأمر ؛ لم يتخلصوا إلى الأبد من « مشكلتهم الغربية » . فإن الغرب الذى نبذوه ؛ عمد بعد ذلك إلى تغيير مراءه . وعاد إلى الظهور على مسرح الشرق الأقصى بعرض هديته الأساسية فى شكل أساليبه التكنولوجية ، عوضا عن عقيدته الدينية . عندئذ ألقى مجتمعا الشرق الأقصى نفسيهما يجاهان إختيارا بين أمرين :

الأول - إتقان هذه التكنولوجية الغربية المستحدثة .

الثانى - أو الاستسلام لسيطرتها .

وفى مأساة الشرق الأقصى هذه ؛ كان سلوك الصينيين واليابانيين فى بعض النواحي متشابه ، كما كان متباينا فى البعض الآخر :

فثمة نقطة تشابه تلفت النظر . فى الفصل الثانى من المأساة ؛ إنحصر استقبال الثقافة الغربية الدنيوية الحديثة فى بداية العهد بها - فى الصين واليابان . كليهما - فى طبقات المجتمع الدنيا ، ثم صعد إلى طبقاته العليا . فقد أخفقت إمبراطورية المانشو فى الصين مثلما فشلت شوجونية توكوجاوا Tokogawa (١) . فى إقتناص المبادأة ؛ عكس ما فعلته القيصرية البطرسية فى روسيا .

لكن اليابان - عكس الصين - جنحت خلال المنظر الثانى من هذا الفصل إلى أسلوب بطرس الأكبر .

ومن الناحية الأخرى ؛ فى الفصل الأول - أى أثناء تلاقى المجتمعين بالحضارة الغربية إبان القرن السادس عشر - اتخذ مجتمعا الشرق الأقصى.

(١) شوجونية : نسبة إلى كلمة « شوجن » . وكان الشوجن حاكم اليابان الفعلى فى عهدا الإنطاعى ، فى حين لم يكن لإمبراطورها - الميكادو - من السلطة سوى الاسم فقط . ونجد هذا النظام نظيراً فى العالم الإسلامى ، وقتما استأثر السلاطين السلاجقة بالحكم تاركين للخليفة للعباسى اللقب فقط . وانتهى عهد الشوجن فى اليابان عام ١٨٥٣ باستعادة الإمبراطور سلطته - وكان ميجى وقتئذ جد الإمبراطور الحالى (هيروهيتو) . وهذا العام تفرخ نهضة اليابان الحديثة . (المترجم)

منذ البداية ، سبيلين مختلفين . ففي غمار المحاولات المترددة لاستقبال ثقافة الغرب الحديثة في ثوبها الديني الذي تزيت به في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وما تلا ذلك من نبذها ؛ جاءت المبادأة — في مجموعها — في الصين من الطبقات العليا ثم هبطت إلى الدنيا . أما في اليابان فقد بدأت من الطبقات الدنيا ، ثم صعدت إلى العليا .

ولو قد أتيج لأحد أن يرسم في خطوط بيانية ، ردود فعل مجتمعي الشرق الأقصى لتأثير الغرب الحديث في غضون الأربعة القرون الأخيرة ؛ لتبين له أن المنحنيات اليابانية ، أشد تقلباً من المنحنيات الصينية . فالحق أن الصينيين لم يبلغوا قط المدى الذي بلغه اليابانيون ؛ سواء في استسلامهم للثقافة الغربية في كل سائحة ، أو في اعتزالهم إياها ؛ خلال الحقبة التي تخللتها كراهية الأجانب .

وفي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر — حين لم تكن اليابان قد استكملت وحدتها السياسية — تعرضت البلاد لخطر داهم هو الخوف من أن تفرض الوحدة السياسية عليها من خارجها على أيدي أجناب غلاظ . فإن الغزو الأسباني للفلبين بين عامي ١٥٦٥ و ١٥٧١ ، والغزو الهولندي لفورموزا عام ١٦٢٤ ، كانا درسين موضوعيين للمصير الذي قد يحل باليابان .

وعلى التقيض من ذلك ؛ لم يمثل وصول قرصان ذلك العصر الغربيين إلى الصين ، خطراً جدياً تحشاه شبه القارة الصينية المتسعة الأرجاء . فإن هؤلاء المغيرين البحريين الذين تعوزهم الأساليب الآلية — مهما يكن من أمر ما أحدثوه من إزعاج — لم يكن من المتوقع أن يتحولوا إلى غزاة فاتحين . أما المخاطر التي أحدثت قلقاً جدياً للحكومة الإمبراطورية الصينية في ذلك الوقت ، فقد انحصرت في خطر الغزو البري الوافد من السهوب الأوراسية . ولكن بعد أن ولّى عصر أسرة مينج

Ming وحل مكانها - في غضون القرن السابع عشر - المانشو الأقوياء - أنصاف المتبربرين ؛ زال الخطر من داخل القارة طوال مائتي سنة أخرى .

إن هذا التباين في الوضع السياسى الجغرافى لكل من الصين واليابان ؛ يذهب بعيدا في تحليل السبب الذى من أجله تأخر سحق المسيحية الكاثوليكية الرومانية في الصين ، حتى نهاية القرن السابع عشر . ولم يأت ذلك نتيجة للملابسات سياسية ، لكنه جاء نتيجة لمحاولات دينية . وهذا نقيض ما حدث في اليابان ، من القضاء على المسيحية الكاثوليكية الرومانية ، في حدة وقسوة بالفتن ؛ ثم قيام اليابان في نهاية الأمر بقطع كل ما يربطها بالعالم الغربى ، عدا خيط هولندى منعزل . وبدأت الضربات المتعاقبة التى وجهتها الحكومة اليابانية المركزية الجديدة عام ١٥٨٧ ، بأمر أصدره هيديوشى Hideyoshi بإخراج جميع البعثات التبشيرية المسيحية من اليابان . وبلغت إجراءات الحكومة اليابانية الأوج بالأوامر الصادرة خلال الأعوام ١٦٣٦ - ٩ بمنع الرعايا اليابانيين من السفر إلى الخارج ، والرعايا البرتغاليين من الإقامة في اليابان .

وفى اليابان - كما فى الصين - جاء انعكاس عن سياسة الانعزال ؛ من طبقات المجتمع الدنيا ، ثم صعدت الفكرة إلى طبقاته العليا . وكان مبعث هذا العدول ، التوق إلى تذوق ثمار المعرفة العلمية الغربية الحديثة . وقد كابد كثيرون من رواد هذه الحركة ، الاستشهاد - إيمانا منهم بالأساليب التكنولوجية - طبقا للقرارات التى صدرت بين عامى ١٨٤٠ - ١٨٥٠ م ؛ أى قبيل ما دعى باسم « فتح اليابان أبوابها » عام ١٨٥٣ . واتسمت الحركة في اليابان ببُعدها المطلق عن الدين .

أما فى الصين ؛ فإن الحركة المناظرة والمعاصرة لحركة اليابان فى القرن التاسع عشر ، كانت مرتبطة بنشاط بعثات التبشير البروتستانتية التى رافقت.

التجار البريطانيين والأمريكيين إلى الصين . مثلما رافقت - قبل ذلك - البعثات المسيحية الكاثوليكية الرومانية ، التجار البرتغاليين في رحلتهم إلى اليابان . فلقد كان صن - يات - صن مؤسس الكيومنتانج^(١) ابن رجل تحول إلى المسيحية البروتستانتية . كما قامت أسرة مسيحية أخرى بدور كبير في تاريخ الكيومنتانج التالي ، في شخص : حرم صن - يات - صن ، وشقيقها حرم تشيانج كاي شيك ، وأخيهما ت - ف - سوونج .

وواجهت حركتا الاقتباس من الغرب في اليابان والصين - عبثا ضعفا هو استصفاء نظام علماني وطني وطيد الأركان ، والحلول مكانه . لكن دُعاة الاقتباس من الغرب في اليابان ؛ كانوا أكثر من الصينيين يقظة ، وعزما ، وكفاية . ففي غضون خمس عشرة سنة من ظهور قطع من الأسطول الأمريكي في عام ١٨٥٣ بقيادة الكومودور برى Perry في مياه اليابان الإقليمية ؛ لم يقتصر اليابانيون على خلع نظام مُلك توكوجاوا Tokogawa الذي أخفق في الارتفاع إلى مستوى الأحداث ، بل لقد أنجزوا كذلك عملا أشق من ذلك بكثير ألا وهو إقامتهم محل النظام القديم ، نظاما جديدا قادراً على أن يضع موضع التنفيذ ، حركة اقتباس شاملة من الغرب تسير من أعلى إلى أسفل .

أما الصينيون فقد استغرقوا مائة وثمانية عشر عاما ليحتمقوا - سلبيا - نصف هذا القدر من العمل . فما كان وصول سفارة اللورد ماكارتنى Macartney إلى بكين عام ١٧٩٣ ؛ مظهرة ؛ لا تقل في دلالتها على صولة الغرب المتزايدة ، عن وصول الكومودور برى إلى خليج « يديو Yedo » بعد ذلك بستين عاما . لكن لم يعقب ذلك - كما حدث في اليابان بعد ذلك -

(١) الكيومنتانج : هو الحزب الذي أنشأه صن - يات - صن . وبعد وفاته . تولى رئاسته تشانج كاي شيك . وظل الحزب يحكم الصين حتى عام ١٩٤٨ وقبلا استولى الحزب الشيوعي على مقاليد الحكم في البلاد . (المترجم)

إسقاط النظام القديم ؛ الذى لبث قائماً حتى عام ١٩١١^(١) . ولم يحل مكانه نظام جديد فعال مصطبغ بالصبغة الغربية ؛ ولكن انتشرت فوضى ، أخفق الكيومتانج فى القضاء عليها طوال ربع قرن (١٩٢٣/٤٨) ، وكانت — طواله — حركة الاقتباس الغربية الليبرالية « المزعومة » فى متناول يده .

ويمكن قياس الاختلاف بين البلدين بدرجة التفوق العسكرى الذى أحرزته اليابان على الصين طوال الخمسين سنة التى تلت إندلاع الحرب الصينية اليابانية عام ١٨٩٤ — ١٨٩٥^(٢) . فإن الصين كانت طوال ذلك النصف قرن ، تحت رحمة اليابان الحربية . وإنه وإن ظهر فى الجولة الأخيرة من هذا الصراع ، أن أفتح الصين بأسرها فوق ما تطيقه موارد اليابان ؛ فتمتد ثبت بالمثل ، أنه لولا تحطيم الولايات المتحدة أداة الحرب اليابانية ؛ لما تمكن الصينيون وحدهم بأية حال من الأحوال من أن ينزعوا من أيدي اليابانيين ؛ الموانى التى استولوا عليها ، والمناطق الصناعية والسكك الحديدية . وهذه كلها ، فى الصين ؛ مقومات حركة الاقتباس من الغرب .

ومع هذا ؛ فما أن بدأ النصف الثانى من القرن العشرين ، حتى كان الأرنب اليابانى والسلاحفة الصينية قد بلغا — فى نفس الوقت تقريباً — ذات الهدف المروع . فقد سقطت اليابان صريعة تحت أقدام الاحتلال العسكرى لأعظم الدول الغربية شأوا . بينما اجتازت الصين — عن طريق الثورة — الفوضى ، ووصلت إلى نقيض الثورة ، فى شكل سيطرة النظام الشيوعى على البلاد بيد من حديد . وسواء اعتبرنا هذا النظام نظاماً غريباً ، أو حركة مناهضة للمثُل الغربية — وهى نقطة سبقت لنا مناقشتها — فإنه على أية حال ؛ أيولوجية دخيلة ، من وجهة نظر الشرق الأقصى .

(١) أعلن الزعيم صن — يات — صن الجمهورية فى تلك السنة . (المترجم)

(٢) يصور رسم كاريكاتورى نشر بمجلة بنش Punch عن هذه الحرب وعنوانه « لليابانى قاتل المارد » ، الموقف الودى السخيف الذى وقفه الرأى البريطانى فى ذلك الوقت . (المؤلف)

فما هو تفسير هذه الكارثة الواحدة التي انتهت بها المرحلة الأولى من التلاقى الثانى ، بين مجتمعى الشرق الأقصى بالغرب الحديث ؟

للكارثة فى كل من الصين واليابان جذورها التي تمتد إلى مشكلة مألوفة ، بقيت دون حل فى آسيا وأوروبا الشرقية . وهى مشكلة طفرت إلى ذهننا بالفعل عند بحثنا تأثير الغرب على العالم الهندى .

فإذا عساه يكون تأثير الحضارة الغربية على قوم من الفلاحين البدائيين ، ألقوا - أجيالا - أن يتكاثروا حتى وصلوا إلى حد الكفاف ، والذين لفتحو الآن بلفاح جديد من السخط والقلق . وهم لم يشرعوا بعد ، فى مواجهة حقيقة مدارها ؛ أن إمكانيات التحسين الاقتصادى لن يتيسر تحقيقها إلا بإحداث ثورة اقتصادية واجتماعية ؛ وثورة سيكلوجية فوق كل اعتبار ؟

لكى يحققوا الوفرة المنشودة^(١) ؛ على هؤلاء الفلاحين - الذين تلتصق جلودهم بعضهم - إحداث ثورة فى أساليبهم التقليدية فى استغلال الأرض وفى نظم حيازتها ، وعليهم كذلك تنظيم إنسالمهم .

ولقد أمكن تثبيت الحياة الاقتصادية والسياسية لليابان فى ظل حكم توكوجاوا - إلى المدى الذى وصلت إليه خلال تلك المدة - بفضل وجود أساس لاستقرار معدل الزيادة فى السكان . إذ أبقي المعدل لا يتأخر ولا يتقدم - فى حدود الثلاثين مليون نسمة - باستخدام وسائل مختلفة تضمنت فيما تضمنته : الإجهاض ، ووآد الولد^(٢) .

(١) فى الأصل : إحداث ثقب فى قرن آمالثيا Amalthea . وآمالثيا فى الأساطير اليونانية كانت مرضعة زيوس كبير آلهة اليونان القديمة وقتما كان طفلا . وكانت تمثل فى صورة عذرة . ومن أسطورة آمالثيا اشتقت أسطورة أخرى هى قرن الثور Cornu Copiae الذى كان يمثل تنافيا بكل ما يشبه حائزته . (المترجم)

(٢) المقصود بالولد هنا ، الطفل من ذكر وأنثى . (المترجم)

وعندما استُصفي هذا النظام ، تفكك هذا الكيان الاجتماعي المصطنع الذي شهدته اليابان . وأخذ تعداد السكان يزداد عدواً وقفزاً . وخلافاً للتغيرات التي حدثت على الصعيدين السياسي والاقتصادي ، لا ترجع العودة إلى التناسل دون قيد ، إلى تأثير الغرب . ولكنه يُعزى إلى مجرد إرتداد إلى العادات التقليدية لمجتمع ريفي ، كبحت جماعه سياسة سيكلوجية بارعة ، إبان عصر الجلود الذي فرضه حكم توكوجاوا . بل إن النزعة المعاصرة للاقتباس من الغرب قد زادت من التأثير الديموجرافي لهذه العودة إلى العادات البدائية ؛ وذلك بتقليلها معدل الوفيات .

وفي هذه الظروف ؛ كان على اليابان : إما أن تتوسع ، أو تنفجر . وانحصرت أشكال التوسع التي يمكن تحقيقها ، في أمرين :

الأول - ترغيب بقية العالم في الاتجار معها .

الثاني - الاستيلاء بقوة السلاح ، على أرض وموارد وأسواق إضافية من أصحابها الحاليين ؛ الذين كانوا أضعف من الدفاع عن أملاكهم ، ضد عدوان ياباني مسلح على النسق الغربي .

وإن تاريخ سياسة اليابان الخارجية منذ عام ١٨٦٨ حتى عام ١٩٣١ م ، هو تاريخ التآرجح بين هذين الأمرين . ولقد كان لاشتداد نزعة الحماية الاقتصادية وانتشارها في العالم بأسره ، تأثير في إندفاع الشعب الياباني - بالتدريج - صوب اختيار التوسع العسكري . وهذا ما أكدته التجربة المريرة التي أسفرت عنها الكارثة الاقتصادية التي حطت على حى المال والأعمال في نيويورك Wall Street في خريف ١٩٢٩ ؛ ثم جرفت أمامها بعد ذلك ، بقية العالم . فلم يكده يمضى على ذلك سنتان بالضبط ؛ حتى بدأت اليابان بهجومها على موكدن Mukden في ليلة ١٨ / ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ ، مغامراتها العدوانية التي انتهت باستسلامها عام ١٩٤٥ .

ولما كان الصيبنون لا يتكلمون - مثل اليابانيين - في عنقود من

الجزائر الصغيرة نسبياً ؛ لكنهم ينتشرون في شبه قارة ضخمة ؛ فليس لمشكلة السكان بالصين ذلك الطابع الحاد الذى اتخذته باليابان^(١) . ولم تقتض معالجتها استخدام الإجراءات القاسية التى بلّأت إليها اليابان . لكنها مع ذلك تماثلها في المدى البعيد ؛ ووقعت مسئوليتها في الوقت الحاضر على كامل الحزب الشيوعي الصينى^(٢) .

وإن الغزو الأيدلوجى الذى حققته الشيوعية في الصين ، هو الخطوة الأخيرة في الهجوم الروسى على الكتلة الرئيسية من مجتمع الشرق الأقصى . ذلك الهجوم الذى ما برح يتقدم يوماً بعد آخر طوال الثلاثمائة سنة تقريباً . ولن نستقرئ هنا مراحل الأولى ؛ أما في القرن التاسع عشر - في وقت لم تكن اليابان فيه منافساً له خطره - فقد ظهرت روسيا والدول الغربية بمظهر المعتدين المتنافسين ، الذين راحوا يقضمون جيفة إمبراطورية صينية مختصرة .

وفي هذه المرحلة ؛ كان مدار السؤال : عما إذا كان قد قُدِّرَ لهونج كونج وشانغهاى أن تصبحا نقطتي إنطلاق في بناء الإمبريالية البريطانية في الصين ؛ على غرار الدور الذى قامت به بومباى وكلكتا للإمبريالية البريطانية في الهند . ومن الناحية الأخرى ؛ أحرزت روسيا السيادة على فلاديفستوك عام ١٨٦٠ ، وحصلت عام ١٨٩٧ على حق استئجار ميناء آخر أكثر

(١) كان للدعاية التى ما برحت تبذلها الهيئات الحكومية والجمعيات المختلفة ضد التغال في الإنجاب - بالإضافة إلى تيسير الحصول على العقاقير المضادة للحمل - أثرها في هبوط معدل المواليد في اليابان خلال العشرين سنة الأخيرة . وثمة عامل آخر هو تزايد سكان المدن على حساب الريف تزايداً هائلاً حتى أصبح ٦٠٪ من سكان اليابان يقطنون بمدن باتت تضيق بالسكان ، الأمر الذى دفع الناس إلى تقليل نسلهم . ولقد أصبح هبوط معدل الزيادة في الوقت الحاضر ، يقلق طائفة من الاقتصاديين اليابانيين الذين أخذوا يحشون أن لا تجد اليابان في عام ١٩٧٥ رصيماً كافياً من القوة العاملة الضرورية لتابعة نشاطها الاقتصادي المتزايد . (الترجم)

(٢) يقدر عدد سكان الصين في الوقت الحاضر بسبعائة مليون نسمة . ويقرر الخبراء أن عددهم سيصل إلى ألف مليون نسمة في نهاية القرن العشرين . (الترجم)

توسطاً وأعظم أهمية ، وهو ميناء بورت آرثر . وكانت اليابان هي التي انتزعت ثمرة الجهد الروسى قبل أن تكتمل ، بعد أن هزمت روسيا في الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ - ٥ .

وشهدت نهاية الحرب العالمية الأولى مرة أخرى ، روسيا وقد استحوالت إلى فوزى واضحة . في حين حصلت اليابان على مكاسب مفرطة ؛ باعتبارها شريكاً دائماً - بشكل أو آخر - في تحالف غربى منتصر . على أنه حينما أخفقت القيصرية الروسية ، وفُتت الشيوعية الروسية لأسباب عرفناها - في شكل أو آخر - خلال هذه الدراسة . وهى أسباب ترجع إلى نوع من المتناقضات تنسم بالتفاهة ، وتُجمعها عبارة مأثورة تقتبسها الكتب وتلك هى « البراع أقوى من السيف » . فإن لإنجيل ماركس الديوى قد زوّد روسيا بإغراء سيكلوجى افتقرت إليه القيصرية المجردة . ومن ثم تسنى للاتحاد السوفيتى أن يوجد في الصين - كما فعل في أماكن أخرى - طابوراً خامساً . فإذا كانت روسيا الشيوعية الآن تقدّم أدوات العمل كلها أو بعضها لمريديها ، فإن في إمكانها أن تعتمد على المعجبين بها في تنفيذ مآربها^(١) .

سابعاً - خصائص التلاقى بين الغرب الحديث ومعاصريه :

إن أبرز خاتمة يُتوصل إليها بمقارنة ضروب التلاقى ، هى أن كلمة « حديثة » الواردة في اصطلاح « حضارة غربية حديثة » ، يمكن إضفاء مفهوم عليها أكثر دقة وتماسكاً ، وذلك بترجمته إلى اصطلاح « طبقة

(١) حدث تطور خطير في العلاقات السوفيتية الصينية منذ عام ١٩٦٠ خاصة . إذ نشأ صراع مذهبى بين الدولتين تزداد حدته بمرور الوقت ، على الرغم من تقديم روسيا للصين مساعدات مادية ضخمة . الأمر الذى أصبح يهدد علاقات الدولتين الشيوعيتين . وهذا النزاع الأيدلوجى ، هو فى الواقع مرآة لتباين المصالح القومية بين الدولتين . بل إن الأصوات تتعالى في الصين شيئاً فشيئاً ، مطالبة بإعادة الحدود بين روسيا والصين إلى ما كانت عليه قبل استيلاء روسيا خلال القرن التاسع عشر على أراضي صينية شاسعة .

وسطى . فإن الجماعات الغربية لم تصبح « حديثة » إلا بمجرد أن أبرزت إلى الوجود طبقة « بورجوازية » كانت أهلاً لتصبح العنصر المسيطر في المجتمع .

وإننا ننظر إلى الفصل الحديث من التاريخ الغربى الذى بدأ فى نهاية القرن الخامس عشر باعتباره « حديثاً » . ذلك لأن هذا العصر ؛ شهد لدى الجماعات الأكثر تقدماً ، شروع الطبقة المتوسطة فى تسلّم زمام القيادة . ويترتب على ذلك ؛ أنه إبان سير العصر الحديث للتاريخ الغربى ، ظهر أن قابلية غير الغربيين للأخذ بالأساليب الغربية ، إنما تتوقف على قدرتهم على الانخراط فى سلك الحياة الغربية القائمة على وجود الطبقة الوسطى . فإذا ما تفحصنا أمثلة سبقت الإشارة إليها لعملية الاقتباس من الغرب ، بدأت من أدنى فئات المجتمع وارتفعت إلى أعلاها ؛ نجد — من قبيل المثال — أنه كانت هناك بالفعل فى الكيان الاجتماعى الذى سبق وجود المسيحية الأرثوذكسية الروسية ، وحياة الصينيين واليابانيين ؛ عناصر من الطبقة الوسطى ، ربت بتأثير خيرة الاقتباس عن الغرب .

ومن الناحية الأخرى ؛ فى الحالات التى اتجهت فيها عمليات الاقتباس من الغرب ، من فئات المجتمع العليا إلى فئاته الدنيا ، لم ينتظر الأوتوقراطيون الذين أخذوا على عاتقهم صيغ رعاياهم — بالأمر — بالصبغة الغربية ؛ لم ينتظروا حتى تزودهم عملية تطور خال من الإرغام ، بعملاء من الطبقة الوسطى ؛ أصيلين ، ويمتّون إلى أصل وطنى قُح . ولكنهم وجدوا أنفسهم مسوقين بالحرص على بديل لهذه الطبقة الوسطى ، التى تتكون وتنمو فى تربة الوطن . ذلك البديل هو إصطناع طبقة مثقفة .

وطبيعى أن هذه الطبقات المثقفة التى ظهرت إلى الوجود — على هذا النحو — فى روسيا والعالم الإسلامى والعالم الهندى ؛ قد وُقتى خالقوها فى تزويدها بصبغة أصيلة من طباع الطبقة الوسطى فى الغرب . على أن هذه

الصبيغة — كما ظهر في حالة الطبقة المثقفة في روسيا — قد ثبت أنها صبيغة لا تدوم .
فإن الطبقة المثقفة الروسية التي ظهرت أول ما ظهرت على أيدي القيصر
بطرس الأكبر لتدفع بروسيا إلى مجال الطبقة المتوسطة الغربية ؛ قد ثارت
في سريرتها على كل من القيصرية وعلى المثل البورجوازية الغربية .
وحدث هذا قبل انفجار ثورة عام ١٩١٧ م بوقت طويل .

وكان من الميسور ، أن ما حدث في روسيا ؛ قد يحدث للطبقات المثقفة
في جهات أخرى . وعلى ضوء هذه النزعة المناهضة للبورجوازية — التي
اعتنقتها الطبقة المثقفة الروسية — قد يكون جديرا بأن نقف هنا لإنعام
النظر في أوجه الشبه والاختلاف بين الطبقات المثقفة في غير البلاد الغربية ،
والطبقة الوسطى في الغرب . وهذه الطبقات المثقفة ؛ هي التي آلت على عاتقها
في البيئات غير الغربية ، أن تنهض بدور الطبقة الوسطى .

والظاهرة المشتركة في تاريخ هاتين الفئتين (أى الطبقات المثقفة الغير
الغربية من ناحية ، والطبقة المتوسطة الغربية من الناحية الأخرى) ؛ أن كلا
منهما ، قد جاء من خارج نطاق المجتمع الذي وطئت مكانتها فيه . فقد
شاهدنا المجتمع الغربي — عندما انبعث لأول مرة من وراء حُجُب
العصور المظلمة — مجتمعاً زراعياً ؛ كان النشاط الحضري غريباً عليه . حتى
إن بعض وجوه نشاطه ، كانت تمارسها طوائف يهودية دخيلة ؛ إلى أن
أزاحتها طبقة مسيحية متوسطة ، انبعثت إلى الوجود بفضل توفيق المسيحيين
إلى الحلول محل اليهود .

وثمة تجربة أخرى مشتركة بين الطبقة المتوسطة الحديثة في الغرب ،
والطبقات المثقفة المعاصرة . وهي أن كلاهما قد أحرز التفوق في المجتمع ،
بفضل انتقاظه على سادته الأولين . ففي بريطانيا وهولندا وفرنسا وغيرها
من بلاد الغرب ، أحرزت الطبقة المتوسطة السلطان . إذ جاءت في زكاب

الملوك ، وكونت ثرواتها في ظل رعايتهم لها^(١) . وشيبه بذلك ما حدث بالنسبة للنظم الحكومية في البلاد الغير الغربية ، إبان العصور الحديثة المتأخرة . فإن الطبقة المثقفة ؛ إنما أحرزت السلطان بفضل ثورتها على الحكام المستبدين الذين اصطنعوا أساليب الغرب ، وهم الذين دبّروا خلق هذه الطبقة .

فإذا ما ألقينا نظرة شاملة على هذا الفصل المشترك من تاريخ روسيا البطرسية ، والإمبراطورية العثمانية في أيامها الأخيرة ، والبريطانية في الهند ؛ سنرى أن ثورة الطبقة المثقفة ، لم تشمل هذه الأقطار الثلاثة جميعاً فحسب ؛ وإنما وقعت الثورة في كل قطر منها كذلك ، بعد أن مضى عليها نفس القدر من الزمن .

ففي روسيا : اندلعت ثورة الديسمبريين^(٢) - التي أجهضت - في عام ١٨٢٥ . وكانت هذه الثورة بمثابة إعلان حرب من جانب الطبقة المثقفة الروسية على النظام البطرسى . وقد انفجرت بعد ١٣٦ سنة من تسلّم بطرس الأكبر زمام السلطة فعلاً عام ١٦٨٩ .

وفي الهند ؛ بدأ الاضطراب السيانى يظهر في أواخر القرن التاسع عشر .

(١) ومن قبيل المثال ؛ ما هو شائع في تاريخ إنجلترا وهو أن السلطة التى منحها ملوك التيودور لأعضاء مجلس العموم ، قد استخدمها هؤلاء ضد الملوك من أسرة ستيوارت . (المؤلف)

(١) الديسمبريون : اسم أطلق على حركة قام بها في ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، طائفة من المثقفين الروس من المدنيين والعسكريين . واتجهت الثورة إلى التخلص من الحكم الملكى الفاسد . وتبلورت مبادئ الحركة في تحقيق المساواة القانونية بين المواطنين جميعاً ، وإتاحة التقاضى على قدم المساواة بين جميع المواطنين . كما رنت الثورة إلى إلغاء الاحتكارات والمستعمرات العسكرية وتنفيذ الإصلاحات اللازمة في الجيش والكنيسة . وفشلت الحركة على الرغم من شجاعة القائمين بها . وعاقبهم القيصر فيقولا الأول عقاباً قاسياً ، فشنت خمسة من زعماء الحركة ثورةً محاكمة ، وتوفى الباقين إلى سيريا . (المترجم)

أى بعد انقضاء فترة تقل عن ١٤٠ سنة من إقامة الحكم البريطانى .
فى البنغال .

وفى الإمبراطورية العثمانية ؛ خلعت جمعية الاتحاد والترقى السلطان
عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٨^(١) . أى بعد انقضاء ١٣٤ سنة على اضطرار
الباب العالى للمرة الأولى - عقب صدمة هزيمته فى الحرب الروسية التركية
٧٤/٢٧٦٨ - إلى البدء بتدريب عدد لا بأس به من رعاياه المسلمين ، على فنون
الحرب الغربية الحديثة .

بيد أن نقاط التشابه هذه ؛ يقابلها اختلاف واحد كبير على الأقل .
إذ كانت الطبقة المتوسطة الغربية عنصراً وطنياً أصيلاً فى المجتمع الذى بُعثت
لتطلّته بسيادتها . فكانت تشعر - سيكلوجياً - بأنها فى بيتها . وعلى العكس ؛
رزحت الطبقات المثقفة تحت وطأة قيد مزدوج : الشعور بأنهم رجال محدثون
من ناحية ، ودخلاء على المجتمع من ناحية أخرى . فهم ليسوا ثمرة نمو
طبيعى ؛ ولكنهم ثمرة مخاض كابده مجتمع غريب عليه ، هو الغرب الحديث .
وهكذا ؛ لم تكن الطبقات المثقفة بشائر قوة ، لكن علامات
ضعف . وكانت الطبقات المثقفة - من جانبها - شديدة الإحساس بهذا
الاختلاف الباعث على الحقد . فإن الرسالة الاجتماعية التى أنشئت هذه الطبقة
لتؤديها ، جعلت من أفرادها دخلاء على المجتمع الذى يعملون فيه . وتضافر
شعورهم ببحرود المجتمع جهودهم ، مع إرهاق عصبي لا يريم - نتيجة ما فى
وضعهم الاجتماعى من قصور - ؛ تضافر هذا وذاك ، ليولّد فى نفوسهم كراهية
دقيقة للطبقة المتوسطة الغربية التى كانت بالنسبة لهذه الطبقات المثقفة سيدة ،
وسمّاً فى الوقت نفسه ؛ وبينما هى نجمها الهادى ؛ فهى الغول الذى تخشاه .
وإن موقف الطبقات المثقفة فى شعورها المعبّذ وأفكارها المبلبلّة ، إزاء هذه

(١) خُلِعَ السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ بعد أن دبر انقلاباً على الدستور الذى
اضطر إلى إعادة العمل به فى العام السابق . (المترجم)

الشمس الآسرة التي جعلت هذه الطبقات المثقفة تسير في فلكها ؛ إن هذا الموقف قد صورته بمحذق الشاعر كاتولوس^(١) في هذا المقطع :

أكرهك وأحبك

لعلك تتساءل عن السبب - لا أعرفه

لكن هذا ما أحس به ، وإن كان يعذبني .

وبقدر ما تشعر به الطبقة المثقفة الدخيلة إزاء الطبقة الوسطى الغربية، من المقت الشديد ؛ يكون قياس توقعها العجز عن مجاراة الطبقة الوسطى الغربية في نشاطها . وهناك مثل تقليدي ما تزال له حتى اليوم جدته ، يدل على صدق هذا الشعور بالمرارة . ذلك هو كارثة إخفاق الطبقة المثقفة في روسيا - عقب أولى ثورتى عام ١٩١٧م الروسيتين - في وضع الرسالة الخيالية التي أخذتها على عاتقها - موضع التنفيذ ؛ ألا وهي : إحالة حطام القيصرية البطرسية إلى دولة برلمانية ، وفقاً للأنموذج الغربي في القرن التاسع عشر . فقد أثبت نظام كيرنسكى^(٢) فشله ؛ « لأنه حاول إعداد الإاجر بدون القش » .. بمعنى أنه حاول إقامة حكومة برلمانية ، مع خلو البلاد من طبقة متوسطة : متينة البنيان ، مقتدرة ، محشكة ؛ تستمد منها حاجتها . وعلى التقيض من ذلك نجح لينين ؛ لأنه أخذ على عاتقه ، تحقيق نظام مناسب .

وحقاً ؛ ما كان حزب لينين « الحزب الشيوعى لجميع الاتحاد » ، فريداً في نوعه إطلاقاً . ففي التاريخ الإبرانى الإسلامى ؛ نجد إرهاباً به نظام

(١) كاتولوس (catulus Quintus) : قائد روماني وشاعر ، عين قنصلاً بالاشتراك مع ماريوس عام ١٠٢ ق . م . لكن ماريوس غدر به ، فأقدم كاتولوس على الانتحار . (المترجم)

(٢) كيرنسكى : رئيس الحكومة التي خلفت النظام القيصرى بعد سقوطه عام ١٩١٧ . وسعى كيرنسكى إلى تطبيق النظام البرلمانى الغربى . وتألف مجلس نيابى كان أتباع لينين فيه أقلية . لكن هذه الأقلية البلشفية استطاعت إحداث ثورة على الثورة ، انتهت بتسليم البلاشفة زمام الحكم في روسيا . (المترجم)

أرقاء قصر الباديشاه العثماني^(١)؛ ونجده في الأخوة المائلة في طائفة « قزل باش »^(٢)، أنصار الصفوية ؛ والتآخي الذي جمع بين أتباع طائفة « خالصة » التي أنشأها السيخ لمحاربة النسلط المغولي بأسلحته .

ففي هذه الجماعات المتآخية ؛ لا تخطئ العين أن تدرك بوضوح « طابع » الحزب الشيوعي الروسي . إن دعوى لينين بإصالة فكرته ، تستند إلى أنه ابتكر من جديد هذه الأداة السياسية الرهيبة لمنفعته ، وإلى أنه كان أول من طبقها لخدمة هدف خاص وهو : تمكين المجتمع الروسي — وهو مجتمع غير غربي — من الاحتفاظ بذاتيته في مواجهة الغرب الحديث . ويتم ذلك بإتقان آخر ما ابتكرته التكنولوجيا الغربية ؛ مع اجتناب — في نفس الوقت — أيولوجية الغرب التقليدية الشائعة .

وإن ظهور عدد من مقلدي نظام لينين القائم على ديكتاتورية الحزب الواحد ، دليل على نجاح هذا النظام . فإذا ما تجاوزنا عن أولئك المقلدين الذين يعتقدون الشيوعية ويدعون أنفسهم شيوعيين ؛ لا يبقى إلا أن نشير إلى النظام الذي أنشأه مصطفى كمال أتاتورك لتجديد شباب تركيا تجديداً قوياً ؛ وإلى نظام موسوليني الفاشي في إيطاليا ؛ وإلى نظام هتلر الاشتراكي الوطني في ألمانيا . ومن بين هذه النظم الثلاثة ذات الحزب الواحد — غير الشيوعية — يُعتبر نظام تركيا الجديد فذاً في نوعه . إذ استطاع أن يتحوّل — بالوسائل السلمية — إلى نظام يقوم على حزبين وفقاً للأساليب الغربية الليبرالية . عوضاً عن أن يتعرض لكارثة ، كتمن لهذا التحول .

(١) المعروفون بالانكشارية . (المترجم)

(٢) هم أتباع وعلماء الشيعة الصفويين في الأناضول ؛ وقد عمل السلاطين العثمانيون على استئصالهم . (المترجم)

(ب) التلاقى مع مسيحية القرون الوسطى الغربية

أولاً - مدة الحروب الصليبية وجزرها :

إن مصطلح « الحروب الصليبية » يُطلق عادة على تلك الحملات العسكرية الغربية التي خرجت من أوروبا الغربية بتحريض البابا وبركاته ؛ لتحقيق إنشاء مملكة مسيحية في بيت المقدس ، أو لدعمها ؛ أو لإنشائها مرة أخرى .

على أننا هنا نستخدم الاصطلاح بمعنى أوسع ؛ ليشمل جميع الحروب التي خاضها العالم المسيحي الغربي على حدوده ، إبان العصور الوسطى :

- ١ - ضد الإسلام في أسبانيا وسوريا ، سواء
- ٢ - ضد مسيحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية .
- ٣ - ضد البرابرة الوثنيين على الحدود الشمالية الشرقية .

ويمكن أن تسمى هذه الحروب « حروباً صليبية » . لأن المحاربين المشتركين فيها ، حسبوا أنفسهم - عن شعور وقصد ، لاعن نفاق تام - أنهم يحاربون لمدة حدود المسيحية أو الذود عن حياضها . وعسانا نتصور أن « الشاعر تشوسر Chaucer » يرضى عن التوسع في استخدام هذا المصطلح ، وأن الفارس المذهب الكامل الذى تزين صورته رواق معارض التصوير ؛ والذى قدمه « تشوسر » في مقدمة « قصص كاتربرى » ، كان فى الحق جندياً متمرساً ؛ جديراً بأن يحارب فى شبابه فى معركتى كريسي Crécy وبواتييه Poitiers^(١) . لكن لم يخطر على بال من أبدع شخصيته ، أن يجعل له صلة بالمعارك المحلية التى دارت بين أعضاء أسرة الدول الغربية . بل على النقيض من ذلك ؛ عُنِيَ برسمه محارباً خاض كل معركة على

(١) من المواقع التى دارت بين المسيحية والإسلام فى أوروبا . (المترجم)

طول جهة الحدود الغربية للعالم المسيحي : من غرناطة غربا ، إلى روسيا وبروسيا وليتوانيا شرقاً . وإذا كان « تشوسر » ، لم يطلق على هذا الحارب لقب « الصليبي » فعلا ؛ فإنه من الواضح أنه يرى فيه محاربا كرس حياته لخوض حروب ذات طابع مسيحي متميز .

وقبل أن نغضى قدُما في تحليل تأثير المسيحية الغربية المعتدية على الحضارات الأخرى التي تلاقى معها ، سنحصر إهتمامنا هنا في تكوين فكرة عن المجرى العام لحروب التوسع التي جرت في القرون الوسطى :

إن إنطلاقة المجتمع الغربي الوسيط في القرن الحادى عشر الميلادى ، كانت حاسمة بشكل يدعو إلى الدهشة . مثلما كانت إنطلاقة المجتمع الغربي الحديث في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . كذلك فإن المغامرة الغربية إبان القرون الوسطى^(١) ، قد إنهارت بنفس السرعة التي أحرزت بها نجاحها الملحوظ في بداية الأمر .

ولو أن مراقبا أريبا من الصين - مثلا - اتخذ طريقه ، في أواسط القرن الثالث عشر الميلادى إلى الطرف الآخر من العالم القديم : لما كان يُحتمل أن يتكهّن بأن المعتدين كانوا على شفا الطرد من دار الإسلام ومن رومانيا (ويُقصد برومانيا ملك الكنيسة الأرثوذكسية في الإمبراطورية الرومانية الشرقية) . مثلما كان يستحيل عليه - إن وصل إلى مسرح الأحداث قبل ذلك بثلاثمائة سنة - أن يتكهّن بأن نفس العالمين (أى الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية) كانا على وشك أن تهاجمهما وتجتاحهما جمهرة من الوطنيين الغلاظ المتأخرين تأخرا ظاهرا ؛ ممن ينتسبون إلى الغرب القصى من هذا العالم المتحضر المأهول ، الذى ينتمى إليه هذا المراقب . ولكنه إذا ما أحاط بالفارق بين المجتمعين المسيحيين المتأثرين

(١) هى المغامرة التي تبلورت في الحروب الصليبية . (الترجم).

بأهلينية ، وبينهما وبين عالم سنوزى فى طريقه إلى اعتناق العقيدة الإسلامية ؛
تعلله بذكر أنه من بين المتنافسين الثلاثة للسيطرة على حوض المتوسط
والمناطق المناخمة له ؛ فإن للسيحية الأرثوذكسية أحسن الفرص ، بينما
للمسيحية الغربية أسوأها .

وحتى إذا إتخذت مختلف المستويات فى الثروة والتعليم والكفاية
الإدارية والتوفيق فى الحرب ، مقياسا ؛ لكان من المؤكد أن المسيحية
الأرثوذكسية تقفز إلى رأس القائمة التى يضعها هذا المراقب فى منتصف
القرن العاشر ، بينما تكون المسيحية الغربية فى الخضم .

إذ كانت البلاد التى يدين أهلها بالمسيحية الغربية وقتذاك ؛ مجتمعا
زراعيا ، كانت الحياة الحضرية غريبة عليه . وكان إستخدام النقد ظاهرة
نادرة فى التعامل . بينما شاع فى البلاد التى يعتنق أهلها المسيحية الأرثوذكسية ،
بإقتصاد نقدى مستند إلى تجارة وصناعة رائجتين . وكان التعليم فى نفس
الوقت فى بلاد المسيحية الغربية ، محصورا فى طبقة الأكليروس ، بينما كان
ثمة فى بلاد المسيحية الأرثوذكسية طبقة حاكمة علمانية متعلمة تعليما عاليا .
وبينما ارتدت المسيحية الغربية إلى الفوضى بعد إخفاق الإمبراطورية الرومانية
الجديدة التى أسسها شارلمان ، فلم تعيش طويلا ؛ كانت الإمبراطورية
الرومانية الجديدة التى أقامها « ليوسيروس » فى العالم المسيحى الأرثوذكسى
الشرقى إبان القرن الثامن الميلادى نفسه ؛ ما تزال مزدهرة ؛ وكانت قد
شرعت فى استرداد الأراضى التى استولى عليها المسلمون العرب فى القرن
السابع ، من الإمبراطورية الرومانية الأصلية .

ولإذا كانت موجة الفتح الإسلامى قد أخذت فى الانحسار برا ، فقد
استمرت بحرا فترة من الزمن . فإن كلا العالمين المسيحيين الشرقى والغربى ،

قد قاسى تماما على أيدي المغاربة^(١) فى القرن التاسع . على أن المسيحية الأرثوذكسية أجابت على تحدّى هؤلاء القرصان ، باسترداد كريت منهم .. فى حين لم تُبدِ المسيحية الغربية إستجابة مماثلة . وعلى العكس ؛ كان الغزاة المسلمون وقتذاك ، ما يزالون يندفعون برا من الريفيرا مغيرين على ممرات الألب .

على أن إلقاء نظرة أشد نفاذا على مسرح الأحداث — مما لا قبيلَ لمراقبنا الصينى به — قد يُظهر بلا ريب بضع حقائق كامنة . إن هذه النظرة قد تُفصح عن ضعف مميت يكمن وراءه المظاهر المهيبة التى يبدو بها العالم المسيحى الأرثوذكسى . وقد تُظهر أن العالم المسيحى الغربى الذى تبدّى بهذا المظهر الهزيل فى الأبيض المتوسط ؛ قد أبرز فى جهات أخرى ، روحا نضالية باسلة ، ضد المغيرين عليه من المتبريرين المجريين والاسكندناوين . بل لقد أخذت الحدود المسيحية الغربية قبالة المسلمين ، تتقدم ببطء فى طريقها الطويل فى شبه الجزيرة الإيبيرية . وكانت المسيحية الغربية إبان القرن العاشر الميلادى — خلافا لحضارتى منافسها — حضارة فى مرحلة النمو . وكانت الرهبانية ، هى قلعتها الروحية . وكانت حركة « كلونى »^(٢) الهادفة إلى إحياء طريق سان بندكت فى حياة الرهبة فى القرن العاشر ؛ قاعدة ونموذجا للإصلاحات الاجتماعية التى تلتها فى الغرب : من دينية ودنيوية .

على أن إمارات الحبوية هذه فى العالم المسيحى الغربى فى القرن العاشر ، لا تكاد تكفى لتعليل سؤرة الطاقة الغربية المدهشة التى انبعثت فى القرن .

(١) المغرب : دو الاسم الإسلامى للذراع الشمال الغربى من أفريقيا . ويتكون فى الوقت الحاضر من : تونس — الجزائر — مراکش . وإن « أفريقيا الصغرى » هذه ، هى — افتراضاً — جزيرة ، لأن الصحراء الكبرى تغزها عن أفريقيا الاستوائية أكثر مما يعزلها البحر الأبيض المتوسط عن أوروبا . (المؤلف)

(٢) كلونى : مدينة فرنسية ، تقع عند التقاء نهر الساوون بنهر اللوار . وفيها نشأت فى القرن العاشر حركة إصلاحية للرهبنة البندكتية (نسبة إلى القديس بندكت) . (المترجم)

الحادى عشر . وهى سَوْرَة تَضَمَّنَتْ - فِيمَا تَضَمَّنَتْ - شُيُوبَ عَدُوَانِ .
مُسَلَّحَ عَلَى الْمُجْتَمِعِينَ الْمُجَاوِرِينَ . وَهُوَ عَدُوَانِ كَانَ مِنْ أُنْعَمَ فُصُولِ هَذِهِ .
الْحَقِيقَةِ وَأَبْعَدَهَا عَنِ الْإِعْجَابِ . إِنْ الْمَسِيحِيِّينَ الْغَرِيبِينَ قَدْ نَشَرُوا الْمَسِيحِيَّةَ .
فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ السَّكَنْدَنَاوِيَّةِ فِي نَورْمَانْدَى Normandy وَدَانِيَاوِ Danilaw .
ثُمَّ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِبَسْطِ سُلْطَانِهِمْ عَلَى عَصَابَاتِ الْحَرْبِ الْإِسْكَندَنَاوِيَّةِ الْمَقِيْمَةِ .
فِي مَرَابِضِهَا ؛ وَكَذَلِكَ ، مَتَبَرِّرَى الْمَجْرُوبِ لِنَدَا .

وَأَدَّى إِصْلَاحَ « كَلُونِي » لِحَيَاةِ الرُّهْبَنَةِ ، إِلَى الْإِصْلَاحِ الَّذِي سَعَى
إِلَيْهِ هِيلْدِبِرَانْدُ Hildebrand لِلنَّظَامِ الْكَنِسَى بِأَسْرِهِ ؛ تَحْتَ زَعَامَةِ الْبَابَوِيَّةِ ؛
وَأَقْرَنَ التَّقْدِمَ الْمَسِيحِيَّ فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ أَيْبَرِيَا ، بِغَزْوِ أَمْلَاكِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ
الرُّومَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ فِي جَنُوبِ إِيطَالِيَا ، وَسَيْطَرَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَقْلِيَّةٍ وَتَهْدِيدِ
قَلْبِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ عِبْرَ الْأَدْرِيَاتِيكِ ؛ وَإِنْ ظَهَرَ - بَعْدَ
ذَلِكَ - عُنُقُ هَذَا التَّهْدِيدِ . وَبَلَغَتْ حَيَوِيَّةُ الْمَسِيحِيَّةِ الْغَرِيبَةِ أَوْجَهَا فِي
الْحَرْبِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى (١٠٩٥ - ٩) . وَهِيَ الْحَرْبُ الَّتِي أَقَامَتْ - عَلَى
حَسَابِ الْإِسْلَامِ - سِلْسَلَةً مِنَ الْإِمَارَاتِ الْمَسِيحِيَّةِ الْغَرِيبَةِ فِي سُورِيَا تَمْتَدُّ
مِنْ أَنْطَاكِيَّةٍ وَأُورُفَّةِ (وَرَاءَ نَهْرِ الْفَرَاتِ) حَتَّى بَيْتِ الْمَقْدَسِ وَالْعَقْبَةِ .
(عَلَى رَأْسِ خَلِيجِ الْعَقْبَةِ الَّذِي يُوْدِي إِلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ) .

وَمَا كَانَ الْإِتِهَارُ النَّهَائِي لِسَيْطَرَةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْغَرِيبَةِ عَلَى حَوْضِ الْمَتَوَسِّطِ
إِبَانِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، بِأَقْلَ إِثَارَةٍ أَعْجَبَ مُرَاقِبِنَا الصِّينِيِّ ؛ لَوْ قُيِّصَ .
لَهُ أَنْ يَسْتَعْرِضَ الْأَحْدَاثَ مَرَّةً أُخْرَى ، بَعْدَ مَضَى مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً عَلَى
نَهَايَةِ الْحَرْبِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى . إِذْ لَمْ يَأْتِ ذَلِكَ الْوَقْتُ ؛ حَتَّى كَانَ الْمُعْتَدُونَ .
الْغَرِيبُونَ قَدْ خَسَرُوا - عَمَلِيَا - جَمِيعَ مَرَاكِزِ حِرَاسَتِهِمُ الْمَكْشُوفَةِ فِي سُورِيَا .
وَلَكِنْ فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ أَيْبَرِيَا - مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى - تَقَلَّصَ مَلِكُ الْمُسْلِمِينَ ،
إِلَى مَجْرَدِ (جَيْبِ) حَوْلِ غَرْنَاطَةِ . وَرَاحَ الْغَرِيبُونَ يُوَاسُونَ أَنْفُسَهُمْ
عَلَى خَسَائِرِهِمْ فِي سُورِيَا ، بِمُهَاجَةِ أَمْلَاكِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ .

الشرقية ، واقتطاعها . إذ راح أحد أمراء الفرنجة يغتصب لنفسه مكان الإمبراطور الروماني ، في القسطنطينية ، واسمه (١) .

أما في الشرق البعيد ؛ فقد قامت إمبراطورية مغولية كبيرة . وداعب المسيحية الغربية أمل مهاجمة الإسلام في مؤخرته . وذلك ؛ بتحويل حكم هذه الدولة الجديدة الكبرى إلى القالب الغربي من الديانة المسيحية . وفي سبيل إدراك هذه الغاية ؛ قطع رسل البابا من المبشرين الرحلة الطويلة ؛ إلى قره قوروم (٢) . وتلاههم ماركو بول بعد ذلك بقليل ، وهو في طريقه إلى بلاط « قوبلاي خان » .

على أن شيئا من ذلك ، لم يتحقق . فما أن إنقضى ذلك التاريخ الذي حددناه لمراقبنا الصيني الذي تخيلناه ، حتى إنهار الصرح المزعزع للإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية عام ١٢٦١ ميلادية . وعادت الإمبراطورية اليونانية الأرثوذكسية ؛ وإن كان مستقبلها لم يعد مرتها باليونانيين ، ولكن بالأتراك العثمانيين .

وحينئذ وجهت المسيحية الغربية طاقاتها العدوانية إلى حدودها الشمالية الشرقية . فإن الفرسان التيوتون الذين نزحوا عن سوريا ، باتوا ينشدون مستقبلهم على ضفاف الفيستولا على حساب الوثنيين من البروسيين والليتوانيين والروس . واقتصر تقدم المسيحية - متواصلا - في ميادين شبه جزيرة أيبيريا وجنوب إيطاليا وصقلية . ذلك التقدم الذي بدأ في

(١) يشير الأستاذ المؤلف إلى الحملة الصليبية الرابعة (سنة ١٠٤٢) التي فتحت القسطنطينية واستمر حكم الفرنجة بها ١١٩ سنة . ثم استرد قياصرة بيزنطة عرشهم . (المترجم)

(٢) قره قوروم : كانت عاصمة الإمبراطورية المغولية في ذلك الوقت . أما الدولة المغولية الحالية - وعاصمتها أولان باتور - فتشمل ما كان يعرف في الإمبراطورية السابقة بـ « منغوليا الخارجية » ، أما منغوليا الداخلية فإنها الآن جزء من جمهورية الصين الشعبية . (المترجم)

مستهل العصور الوسطى ، وسار قُدُماً حتى نهايتها . وأخفق العالم
المسيحي الغربي الوسيط في محاولته مد حدوده صوب الجنوب والشرق ؛
ليضم بين ظهرانيه ، جميع الأراضي التي كانت تابعة - يوماً ما - للحضارة
الهلينية ، التي يمتد إليها هذا العالم المسيحي الغربي .

وصفوة القول ؛ لو اتخذ إنسان أساساً لتقديره ما يتمتع به العالم الغربي
الوسيط من موارد مادية في : الوفرة ، والسكان ، والذكاء ؛ لما كان من
المتوقع أن ينتهي الأمر به إلى نتيجة أخرى .

ثانياً - الغرب في العصور الوسطى ، والعالم السوري :

عندما شنّ مسيحو القرون الوسطى الغربيون هجومهم على العالم
السوري إبان القرن السادس عشر الميلادي ؛ ألفوا سكانه منقسمين في
ولائهم الطائفي ، بين الإسلام ومجموعة متباينة من المذاهب المسيحية
المنشقة مثل : المينوفيسية^(١) والنسطورية^(٢) وغيرهما . وهذه المذاهب هي

(١) المينوفيسية : يعتقد أتباعها مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام -
أي الطبيعة الإلهية . فالسيد المسيح - وفقاً لهذا المذهب - كان على الأرض إلهاً
كما هو في السماء إله . وهذا عكس المذاهب المسيحية الأخرى - عدا القليل -
التي تسلم بأن للسيد المسيح طبيعتين . إلهية ، بعد صعوده إلى السماء ؛ وبشرية ،
منذ وجوده على الأرض . ومن أتباع المسيحية المينوفيسية في الوقت الحاضر ، الأقباط
المصريون والمسيحيون الأحباش . (المترجم)

(٢) النسطورية : تؤمن بالطبيعة البشرية للسيد المسيح عليه السلام ، ونحدها .
فهو - طبقاً لهذا المذهب - كلمة الله ألقاها على مريم . ومن ثم تولد النسطورية
الكلمة - فقط - وتكرر إنكاراً باتاً اللقب الذي يصفه بقية المسيحيين على السيدة
« مريم » وهو « أم الإله » . إذ تقول النسطورية ، بأنها مجرد أم المسيح
البشرى ، وبذلك تنفي عنها صفة الألوهية التي تبغها عليها معظم المذاهب المسيحية
(عدا البروتستانتية) . ويدعى أتباع النسطورية الآن بالكلدانين وهم قلائد
ويوجدون في العراق وسوريا وإيران وروسيا وأمريكا . (المترجم)

محاولات بذلتها النفوس في سورية قبل ظهور الإسلام ، لتخليص المسيحية من التأثيرات الهلينية .

وقد غدا الإسلام ، إبان مرحلته الأولى بعد الفتح العربي ؛ الدين المميز لهؤلاء العرب الغير المتحضرين . على غرار ما كانت الآرية العقيدة الدينية لأغلبية الفاتحين التيوتون في مختلف أقاليم الإمبراطورية .

ولأسباب مختلفة ؛ شهدت هذه الحقبة الممتدة من الفتح الإسلامي في القرن الثامن حتى الحملة الصليبية الأولى في نهاية القرن الحادى عشر ؛ انسياقا متصلًا نحو الإسلام من جانب هذه الشعوب الخاضعة لسلطانه ، إلا أن إعتناقها الإسلام ؛ لم يكن قد استُكمل بعد ، عند انتهاء تلك الحقبة . وكان أثر الحروب الصليبية ، أنها عجّأت الانسحاق إلى خاتمته .

وهكذا ، انبعث المجتمعان الإسلاميان : العربى والإيرانى ؛ من بين حطام المجتمع السورى البائد .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن كلا من المسيحيين والمسلمين ؛ كان يعتبر الآخر - رسمياً - « كافراً » ، وأن أنصار هاتين العقيدتين السماويتين المتزمتتين كانوا فى حرب متصلة ؛ فلعلنا نعجب لهذه الدرجة من الاحترام المتبادل التى أصبح كل من المتحاربين من الفريقين يكتنّها للآخر . كما نعجب لهذا القدر من الزاد الثقافى الذى تشربّه مسيحيو الغرب الوسيط عن هذا الطريق السورى الذى نقل إليهم - إذ ذاك - روح الشعر العربى وأوضاعه ؛ كما تبدّت فى شعراء « التروبادور » فى إقليم بروفنس Provence^(١) الغنائيون . كذلك حل هذا المجرى السورى إليهم أفكار الفلسفة اليونانية باللغة العربية على أيدي العلماء المسلمين .

(١) بروفنس : إقليم فى جنوب فرنسا . (المترجم)

وفي مجال الحرب ؛ نشأ إنعطاف بين المتحاربين في كلا المعسكرين . حين اكتشف كل فريق في الآخر قرباً لم يكن يتوقعه . ومن ذلك أن المسلمين من أهل الأندلس والمثبربرين الأيبيريين المسيحيين الذين جاءوا من وراء الحدود ، كانوا - فوق أرض المعركة - يشعرون في بعض الأحيان بأن ثمة صلة قُربى تجمع بينهم ، أوثق من صلة القربى التي يشعر بها المسيحيون الأيبيريون تجاه إخوانهم في الدين القاطنين وراء جبال البرانس ؛ أو تلك التي كان يحس بها المسلمون الأيبيريون تجاه إخوانهم المسلمين في شمال أفريقيا . ومثل ذلك أيضاً ؛ ما حدث في ميادين القتال في سورية . فإن المثبربرين من الأتراك الذين اعتنقوا الإسلام في غمار اجتياحهم أملاك الخلافة ، لم يكونوا كارهين لخصومهم من الفرسان المسيحيين المعاصرين لهم . وهؤلاء الفرسان المسيحيون ليسوا أرفع حضارة من أجدادهم الذين تحولوا إلى المسيحية في غمار اجتياحهم الإمبراطورية الرومانية . وحقا ؛ إن النورمان - وهم رأس حربة الهجوم الفرنجي كانوا مُحدثين في التحول من البربرية إلى المسيحية ، بقدر ما كان السلاجقة في الإسلام .

وفي عالم القلم ؛ أصبحت فتوحات الصليبيين الموقوتة في سوريا ، وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس - على حساب دار الإسلام - محطات « إرسال » متعددة . أمكن عن طريقها ، نقل الكنوز الروحية للعالم السورى المختصر ، إلى العالم المسيحي الغربى في العصور الوسطى . إن الجو التنظيمى القائم على التسامح الدينى والتطلع الفكرى الذى أسَرَ - بعض الوقت - الباب فاتحى بالرمو وطليلة من مسيحي الغرب ، بمقارنته بروح التعصب التقليدية فيهم ؛ هذا الجو التنظيمى ، كان أصيلا في الإسلام في عهده الأول .

على أن الكنوز الثقافية التى تقبلتها العقول الغربية - في هذه البيئة السمحة - من أيدٍ إسلامية ويهودية خلال القرنين التالين ، ترجع إلى

أصول هيلينية وسورية . فلم يكن المجتمع السوري - إذن - هو المبدع لأعمال أرسطو - الصحيح منها أو المشكوك في نسبتها إليه - ولكن المجتمع السوري كان مجرد ناقل لهذه الأعمال ، التي وصلت إلى الدارسين الغربيين في القرن الثاني عشر بفضل ترجمتها من العربية إلى اللاتينية . وفي الرياضيات والفلك والطب ؛ لم يقتصر النساطرة المسيحيون - المتحدثون بالسريانية - تلامذة الهلنيين ، ولا المسلمون المتحدثون بالعربية تلامذة النساطرة ؛ لم يقتصروا جميعاً على الاحتفاظ بما أبدعه منها أسلافهم الهلينيون والتفوق فيها ، بل لقد تلقوا كذلك دروساً عن علماء الهند . ثم انطلقوا ببتكرونها علماً أصيلاً من عندياتهم ، يضيفون ما أبدعوه من ابتكارهم .

ففي هذه الميادين ؛ تلقى مسيحيو القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم علماء المسلمين ، نتائج البحث الإسلامي ؛ بالإضافة إلى ما دُعي بنظام العرب في الترقيم الرياضي الذي حصل عليه المسلمون من الهند . فإذا ما جاوزنا صعيد الثقافة إلى مجال الشعر ؛ وجدنا أن التراث الذي تلقاه الغرب من مسلمي الأندلس ، وهم يمثلون ثقافة سورية ؛ كان نتاجاً عربياً أصيلاً قدّر له أن يكون مصدر إلهام لكل ما أبدعته المدرسة الغربية في الشعر بعد ذلك ، حتى نهاية العصر الحديث للحضارة الغربية . وذلك إن صدق القول بأن آراء وأخيلة رواد المدرسة الغربية من شعراء « التروبادور » البروفنسيين - بالإضافة إلى نظمهم وإيقاعهم - يمكن إرجاعها إلى مصدر أندلسي إسلامي .

وإذا كان الغرب الحديث قد جاوز بكثير التراث الإسلامي في مجال العلوم ؛ فإن تأثير الحضارة السورية على الأخيلة الفنية سريعة التأثير عند مسيحيي الغرب الوسيط ؛ ظلت ماثلة في الأبنية ذات الطراز المدعوب « القوطي » . وهي على الرغم من القلب السخيف الذي تحمله - أي القوطي - الذي أطلقه عليها علماء الآثار في القرن الثامن عشر ، تحمل على صفحتها شهادة مسجلة

تُثبت إقتباسها من نماذج ما تزال باقية في أطلال الكنائس الأرمنية وخانات^(١) السلاجقة . وما انفك طراز الهندسة الروماني ، نتيجة لثورة في هندسة البناء انبثقت في غرب أوروبا إبان القرون الوسطى بتأثير طرز العمارة الشائعة في العالم السورى .

ثالثا - الغرب الوسيط والمسيحية الأرثوذكسية اليونانية :

أدرك هذان العلمان المسيحيان أن التفاهم بينهما ، أشقّ من تفاهمهما مع حيرانهما المسلمين .

وكان الشقاق بينهما نتيجة لحقيقة تاريخية ؛ وهى أن الحضارة الهلينية قد أنجبت مجتمعين شقيقتين . فلقد انبعث المجتمعان معا في أواخر القرن السابع الميلادى ، وانفصمت علاقتهما نهائيا ، بعد ذلك بحوالى الخمسمائة سنة ؛ وعلى وجه التحديد خلال أعوام ١١٨٢ - ١٢٠٤ التى حفلت بالمآسى^(٢) ، وغداة إنبعاثهما ؛ باعد بينهما - فعلا - إختلاف المزاج ، وتضارب المصالح . وظهر هذا التضارب في المصالح ، أثناء الصراع على السيطرة على أوروبا الجنوبية الشرقية وجنوب إيطاليا . وزاد الصراع حرارة ؛ نتيجة تنافس كل من الفريقين على إعتبار نفسه الوارث الشرعى للأوحد لكنيسة مسيحية جامعة ولإمبراطورية رومانية ؛ ولحضارة هيلينية .

(١) الخانات : جمع خان ، وهى النُزُل أو فنادق القوافل . (المترجم)

(٢) تجلت تلك المآسى في ثلاثة أفعال بشعة ، جمعت من المستحيل رأب الصدع بين

الكنيستين المسيحيتين .

الأول - مذبحه المستوطنين الفرنجة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام ١١٨٢ .

الثانى - استباحة حملة عسكرية نورماندية مدينة سالونيك في عام ١١٨٥ انتقاماً

لضحايا المذبحة الأولى .

الثالث - قيام حملة عسكرية فرنسية بندقية مشتركة بانتهاب مدينة القسطنطينية

عام ١٢٠٤ (الحملة الصليبية الرابعة) . (الموافق)

وكان النزاع السياسى قينا بأن يتوارى خلف أساليب المجادلات الكنسية .
ومن قبيل المثال :

أولا - فى القرن الثامن ؛ ثار النزاع فى الإمبراطورية الشرقية المسيحية الأرثوذكسية حول عبادة الإيقونات . فكان أن أيد بابا روما هذه العبادة . فوقف بذلك موقفا ناهض سياسة الحكومة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التى نزعت إلى تحريم عبادة الإيقونات . وما كان موقف البابا مُسيراً بالعامل الدينى ؛ وإنما كان يُعلن قراراً سياسياً ، باسم أهالى المناطق الباقية من أملاك الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى إيطاليا الوسطى ؛ يدعوهم به إلى أن يتوجهوا بأبصارهم إلى ما وراء الألب - إلى الجند الأعلى - وبالتالى إلى شرلمان ؛ ليجدوا عنده العون العسكرى على اللومباردين . ذلك العون الذى لم يجدوه فى القسطنطينية .

ثانيا - فى خلال القرن الحادى عشر ، تصادمت جهود روما والقسطنطينية لتحقيق تجانس فى الطقوس الدينية . فأدّى ذلك إلى الإنشقاق الدينى فى عام ١٠٥٤ . وكان هذا الإنشقاق - فى نفس الوقت نزاعاً سياسياً ؛ إذ حرصت البابوية على كسب الولاء الدينى من أتباعها فى جنوب إيطاليا ؛ بينما كانوا رعايا سياسيين للإمبراطورية الرومانية الشرقية .

على أنه فى كلتا الحالتين ، لم يكن الصدع بين المجتمعين مما يصعب رأبه :
فى زمن الحملة الصليبية الأولى - بعد مضى أربعين سنة على آخر هذين النزاعين الدينين السياسيين - كان الإمبراطور الكيسوس كومنينوس Alexius comnenus يحكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية . عهده ؛ أحدث مرور الجنود الصليبيين بأملأكه (فى طريقهم لقتل المسلمين) اضطراباً سياسياً فائقاً وسخطاً شخصياً . وقد أشادت أخته المؤرخة « حنة كومنيننا » بأنفته وتحرّجه من التصريح بلجته بسفك دماء إخوانهم المسيحيين .

ومن بين الدوافع التي عزتها حنة لأخيتها الكيسوس لتقريره إيفاد القوات الرومانية الشرقية لحراسة الصليبيين عبر الأناضول ؛ اهتمامه بإنقاذهم من تقطيع الأتراك لهم إربا . إن ما أبداه الكيسوس (حكم ١٠٨١ - ١١١٨) من إحمال للصليبيين ؛ قد تحول في عهد حفيده الإمبراطور عمانويل Manuel (حكم ١١٤٥ - ٨٠) إلى عاصفة إيجابية نحو الفرنجة ، وولع بعاداتهم . وقام من بين الفريقين أساقفة ؛ كما وُجد في الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، سياسيون علمانيون ؛ عُنوا بتجنب إحداث صدع بين العالمين المسيحيين .

فكيف تأتي إذن - بعد هذا كله - حدوث صدع بين العالمين المسيحيين خلال السنوات بين ١١٨٢ و ١٢٠٤ . ثم اتساع هوة الخلاف بينهما بعد ذلك ؛ إلى درجة دفعت المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين ؛ إلى إثارة الخضوع السياسي للأتراك ، على قبول السياسة الكهنوتية لبابا الكنيسة الغربية ؟

لا شبهة في أن إشتراطات روما في تلك المناسبة ، كانت قاسية . ولكن قد يكون العامل النهائي لهذه الكارثة ؛ إزدياد التباين بين هاتين الثقافتين المسيحيتين . وهو تباين ظهر قبل نشوء التصدع السياسي والديني في علاقتهما بسبعائة سنة ، وربما قبله بألف سنة . ثم حدث ظرف زاد الخلاف حدة ؛ هو الانعكاس - المثير الفجائي غير المتوقع خلال القرن الحادى عشر - في ميزان القوة وتطلعات المستقبل ، في هذين المجتمعين المسيحيين . وهذا ما سبق أن لفتنا إليه الأنظار في القسم السابق من هذا الفصل .

ومن نتاج إنعكاس الأقدار السياسية والاقتصادية لهذين المجتمعين ؛ ظهور كل فريق - منذ ذلك الوقت - بمظهر لا يطبق رؤيته . فكان الفرنجة - في نظر المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين - حديثي نعمة ، أوغادا يستغلون قوة

بهيمة أتاحها لهم نزوة من نزوات الحظ . وكان البيزنطيون - في نظر الفرنجة - شخصيات مضحكة تافهة ؛ ليس لادعاءاتها المتغطرسة مبرر ، ولا تسندها قوة . كان اللاتين - في نظر اليونان - برابرة ؛ وكان اليونان في عرف اللاتين ، في طريقهم ليصبحوا « مشاركة »^(١) .

ومن تلك المصنفات اليونانية واللاتينية الموفورة التي تفسر الكره المتبادل بين الفرنجة والبيزنطيين ؛ يتعين علينا الاكتفاء بذكر بضع عبارات موضحة ، لمحدث يمثل كلا من الفريقين . ونسوق هنا بيّنة على تحامل الفرنجة على البيزنطيين ؛ إقتباسا من تقرير الأسقف اللومباردى ليتوبراند الكرموني Liutprand of Cremona عن رحلته إلى البلاط الرومانى الشرقى ، التى قام بها خلال الفترة ٩٦٨ - ٩٩ م باسم الإمبراطور الرومانى الغربى أوتو الثانى . وكبيّنة على تحامل البيزنطيين على الفرنجة ، عسانا نقتبس كلمات للأميرة المؤرخة حنة كومنيننا ، التى خبرت - كارهة - الفرنجة تماما ؛ قبل الحملة الصليبية وأثناءها .

وزاد من حدة المتاعب السياسية التى أحاطت بمهمة « ليتوبراند » الدبلوماسية الدقيقة التى اضطلع بها ؛ تقززه من جميع تفاصيل الحياة التى عرضت له فى بلاد المسيحية الأرثوذكسية الشرقية ، فى تلك الأيام . فالقصر المخصص لإقامته ؛ إما على الدوام ، بارد للغاية أو حار للغاية . وتحفظ رجال الأمن فى هذه الحجرات الكريمة ؛ على شخصه وحاشيته ، بحيث أصبحوا فى عزلة . والتجار يغشّونه ، والنبيذ لا يشرب ، والطعام لا يؤكل ، والأساقفة اليونانيون من الفقر بحيث عزفوا عن إكرامه ، والفراس صلب كالخجر خال من الحشايا والوسائد . فلما ازمع الرحيل ؛ أخذ بثأره من مضيفيه ، كما يفعل تلاميذ المدارس . فكتب على جده ان

(١) كان تعبير « مشاركة Levantines » يطلق على سكان الساحل الشرقى للبحر المتوسط - وعلى الأخص مسيحيى سوريا ولبنان . (المترجم)

القصر ومائدته قصيدة هجاء من شعر لاتيني سداسى الوزن ، سجل فيها ابتهاجه بانتهاء إقامته فى مدينة كانت « وقتنا ما مدينة موسرة مزدهرة ، فأصبحت الآن مصابة بالجذب ، حائثة لقسميها ، كاذبة ؛ مخادعة ، طماعة ، شحيحة ، حمقاء » .

اتسمت محادثات لينوبراند مع الإمبراطور نقفور Nikiphoros ووزرائه بالنكات اللاذعة الى تخللتها . وأعظم رمية مدوية وجهها إليهم فى حديثه ، قوله « إن اليونانيين هم الذين استولدوا البدع الدينية ، وإن الغربيين هم الذين قضوا عليها » . وهذا حق لا ريب فيه . إذ كان اليونانيون قوما متقين أمضوا قرونا يعنصرون عقولهم فى استنباط التفاصيل والتخريجات اللاهوتية الدقيقة ؛ مما أسفر عن نتائج مدمرة . بينما كان اللاتين أهل قانون ، لاطاقة لهم بهذا النوع من اللغو . وفى أثناء حفل رسمى أقيم فى ٧ يونيه سنة ٩٦٨ ؛ نفخت كلمة « الرومانيين » الملهية التى كانت تدعيها لنفسها كلتا الإمبراطوريتين ؛ نفخت فى رماد الحقد الأبدى بين مندوبى العالمين المسيحيين ؛ فأخلته إلى ضرام .

قال الأسقف اللاتينى :

« رفض نقفور أن يتيح لى فرصة الرد عليه وأضاف ساباً « أنتم لستم رومانين ، إنكم لومبارديون » . وأراد الاسترسال ، وأشار إلى بالصمت . ولكنى لم أتمالك نفسى فانتصبت قائلاً : إنها لحقيقة تاريخية شائعة ، أن روميلوس Romulus الذى ينتسب إليه الرومانيون ، كان قاتلاً لأخيه وابن عاهرة ، وأنه أنشأ ملجأ لإيواء الخارجين على القانون كالمذنبين الممتنعين عن تسديد ديونهم ، والأرقاء الآبقين والقتلة ومقرفى الذنوب الفادحة الأخرى . إنه آوى هؤلاء المجرمين وجمع منهم حشداً من الطعام أسماه الرومانيين . هذه هى الارستقراطية الرفيعة التى منها انحدر أباطرتكم . ولكن نحن — وأعنى اللومبارديين والساكسونيين والفرنسيين واللورينيين

«السوابين والبورجنديين - نردري الرومانين حقا ؛ إلى درجة أنه عندما يستبد بنا الغضب على أعدائنا ، لا نجد ما ننعمهم به سوى كلمة « روماني » . ذلك لأن هذا النقد السيئ في تعبيرنا ، يضم وحده كل مقومات الضعة من : الجبن والانهلال والغدر . وجميع النقائص الأخرى » (١) .

إن الإمبراطور بإثارته ليتوبراند ، قد وخز ضيفه اللاتيني إلى حد جعله يفقد أعصابه ، فاندفع ضيفه اللاتيني - في نفور عام من جميع « الرومانين » - إلى إعلان روح التضامن التي تربطه برفاقه الغربيين المتحدثين باللغات التوتونية . وقد استخدم نفقور في حديث تال أكثر ودأ ؛ كلمة « فرنجة » بحيث تشمل : اللاتين والتوتون على السواء . وإن ما أبداه ليتوبراند في سورة غضبه ، لتبرر استخدام هذا التعبير . ورغم أن ليتوبراند كان لاتينياً عريقاً في ثقافته ، متمكناً في الترجمات اللاتينية للآداب الهلينية القديمة ، إلا أن ذلك الأساس الثقافي الهليني المشترك ، لم يولد في قلبه شعوراً بالتعاطف مع اليونانيين المعاصرين له ، وهم ورثة نفس الثقافة . لقد قامت فعلا بين هذا الإيطالي الذي عاش في القرن العاشر نفسه ؛ هوة واسعة . بينما لم تنشأ مثل هذه الهوة بين ليتوبراند وساداته من الساكسونيين .

ومن المسلم به : أن جميع ما ذكرناه ، كاف ليُلقي من الضوء على شخصية ليتوبراند ، بقدر ما يُلقيه على أي شيء أكثر أهمية . فإن الصورة الهزلية الفجة التي صور بها الإمبراطور - إن حق الاستشهاد بها - لتُلقي مزيداً من الضوء . كان الأسقف اللومباردي رجلاً غليظ الطبع ؛ ولو أن «اللاتي» البيزنطية التي ألقيت أمامه كانت زائفة - على حد قوله - لكان

بذلك قد وسم نفسه دون شك ، بأنه خنزير أصيل^(١) . إن قياس تفوق المجتمع البيزنطي على معاصريه من الفرنجة ؛ يبدو في التباين بين وصف ليتوبراند لرحلته « Relatio » ، والصورة الموضوعية الفاحصة التي رسمتها « حنة كومنينيا » للمغامر النورمندي « بوهيمند Bohemund » . وكان هذا المغامر « وحشاً أشقر »^(٢) ؛ جلب طموحه وشراسته وغدره لوالدها الإمبراطور ، متاعب أشق بكثير من تلك التي سببها الإمبراطور نفقور للأسقف ليتوبراند ومخدوميه من ملوك الساكسون . وإن حنة تبدأ وصفها الدقيق للتركيب الجثامي لهذا الطراز الرائع من الإنسان الشمالي Nordic ، الذي أعاد تركيبه إلى الأذهان النسب التي قررها بوليكليتوس Polycleitus^(٣) . وتبدأ حنة وصفها ، هذا بالإطراء التالي :

« إن نظيره لم يُرفى جميع أنحاء رومانيا »^(٤) . ليس ثمة متبربر أو هلينى يمكن أن يُقاس به . لم يكن أعجوبة فحسب ، بل كان شخصية أسطورية ؛ مجرد وصفها يأخذ بلبك » .

على أن لسعة هذا التفجير بفصاحة الأثني ، كامن في نهاية العبارة التالية :

« إن الطبيعة قد زودته بمنفذ بين تضاعيف خيشوميه الجسيمين ، انتهى ، متنفساً لروحة الجبارة المتسعرة بين جنبيه . ذلك لأنه لا يسعنا إلا أن نعترف بأن ثمة ما يأسر في ملامح الرجل . وإن كان ذلك يحد من

(١) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى عبارة مأثورة تقرر بأن الخنزير لا يفرق بين اللؤلؤ وطعامه العادي بمعنى عجزه عن التمييز لغايته . وبالتالي فإن الأسقف اللومباردى المشار إليه في هذا البحث ، مثله مثل الخنزير في العجز عن تمييز جوهر الأشياء . (المترجم)

(٢) تعبير صكه الفيلسوف الألماني فينتشه للدلالة على الجنس النوردى . ثم استخدمته السياسة الألمانية في العهد النازى للإشادة بتفوق الجنس الشمالى ، وهذا ما يبعث الأستاذ المؤلف على السخرية من التعبير لإيمانه بالمساواة بين أجناس البشر . (المترجم)

(٣) بوليكليتوس من أرجوس : مثال يونانى (حوالى ٤٤٠ ق . م) . (المترجم)

(٤) يقصد برومانيا هنا : الإمبراطورية الرومانية الشرقية . (المترجم)

تأثيره ، الأثر الرهيب الذى تبعته هيبته بأسرها . إن صورة الوحش الذى خلا قلبه من الرحمة بادية على كيان الرجل كله . إن ثمة فى ناظره ما يَم عن ذلك . . . كما يَم عن ذلك أيضاً ضحكته التى تصك آذان الناس كزئير الأسد . إن ملامحه الروحية والبدنية ؛ تبدو كما لو أن الشراسة والزوة كانتا تتملكانه أبداً . هاتان العاطفتان كلتاهما ، تنشدان منطلقاً فى الحرب على الدوام » .

وهذا الوصف الجذاب لواحد من رؤساء الفرنجة فى عصر « حنة » لا يكاد يدانيه فى حيويته ، إلا وصف قداس للفرنجة قدمته حنة وجعلته فاتحة لسردها لنزول الحملة الصليبية الأولى على العالم المسيحى الأرثوذكسى :

« إن نبأ اقتراب جيوش الفرنجة التى لا يحصى عددها ؛ قد أشاع قلقاً بالغاً فى نفس الإمبراطور الكسيوس . فإنه وحده ، كان محيطاً بما عليه الفرنجة من تهور لا يكبح جماحه ، وتقلب فى الرأى ، وقابلية للأخذ والرد ، وبالخصائص الأخرى للمتبريرين الغربيين المتأصلة فيهم ؛ الأساسية منها والثانوية . وكان (أى الإمبراطور) يدرك جيداً ما عليه هؤلاء البرابرة من جشع لا يهدأ ؛ حتى أصبحوا مثلاً للخنفة فى التماس المعاذير لتمزيق المعاهدات ، حتى غدا هذا علماً على الفرنجة عززته تماماً أفعالهم . بل إن الحقيقة كانت دائماً أروع وأقوى من الواقع . وكانت النتيجة أن أهل الغرب بأسرهم — بما فى ذلك جميع القبائل المتبربرة القاطنة بين ساحل الأديرياتيك الغربى وبوغاز جبل طارق — قد شرعوا فى هجرة جماعية جادين فى السير بقضيتهم وقضيتهم إلى آسيا عبر بلاد أوربا التى تقع بين هاتين المنطقتين » .

وكانت أشقّ الحن التى كابدها الإمبراطور الكسيوس من عبور الحملة الصليبية الأولى ، ذلك العبء الغير المحدود الذى ألقاه هؤلاء الزائرون الأجلاف الذين لا يأبهون لشئ ، على الإدارة البيزنطية المرهقة بالعمل ::

« كان من عادة الكسيوس ، منذ بزوغ الفجر أو على الأقل منذ شروق الشمس ؛ الجلوس على العرش الإمبراطورى . وكان يعلن بأن أى متبربر غربى - يود مقابلته - يُسمح له بذلك من غير قيد ، يومياً طوال الأسبوع ؛ وقد دفعه إلى ذلك ، رغبته المباشرة فى أن يمنح المتبربرين فرصة التقدم بمطالبهم . أما الدافع البعيد ، فهو رغبته فى انتهاز كل فرصة يتيحها له التحدث إليهم للتأثير عليهم للتمشى مع سياسته . وكان فى هؤلاء البارونات المتبربرين شىء من الخصائص القومية الخرقاء من : وقاحة ، وطمع ، وعجز عن ضبط النفس عن الانغماس فى أية نزوة تستبد بهم ، وأخيراً وليس آخراً الثثرة ؛ ولهم فى هذه الخصائص ، السبق على العالم . وقد أظهروا فى إساءة استخدام حقهم فى الدخول على الإمبراطور ، إفتقاراً إلى النظام لايجارى . كان كل بارون يقفوا أثر سابقة فى صف متصل . وأسوأ من ذلك ، أنهم إذا ما شغلوا الردهة ؛ لا يعيّنون لأنفسهم زمناً محدداً لحدّثهم ، مثلما كان يفعل خطباء آتيكا^(١) . وكان كل من هب ودب من المتبربرين يأخذ ما يحلو له للتحدث مع الإمبراطور . فهم على ما كانوا ، يواصلون الحديث دون توقف ويقدمون مطالب لا نهاية لها .

« إن ما عرف به حديث المتبربر الغربى من ترسل واستهداف الكسب والفخامة ، أمر مشهور بالطبع لدى جميع الباحثين فى الخصائص القومية عند الشعوب . أما من قادهم سوء الحظ إلى مشاهدة هذه المناسبات عن كثب ، فقد تزودوا بمعرفة أدق وأشمل لطبائع الغربيين . فعندما كان الظلام يخيم على قاعة الاجتماعات ، كان الإمبراطور المسكين - الذى استمر يعمل اليوم بطوله دون أن يجد الفرصة لسد روقه - ينهض من فوق عرشه ويبدى حركة فى اتجاه جناحه الحاص . لكن حتى هذه الإشارة الصريحة ، ما كانت لتعفيه من إعتراض المتبربرين له . إنهم كانوا يواصلون خداع

(١) آتيكا : أقلم فى اليونان القديمة ، كانت أثينا عاصمته . (المترجم)

بعضهم بعضاً ، حتى يسبق أحدهم الآخر . بل إن هذا الخداع لا يقتصر على من بقى فى الصف ؛ فإن هؤلاء الذين قابلوا الإمبراطور طوال النهار - مثلاً - يحرصون على العودة متذرعين بسبب أو بآخر للتحدث إلى الإمبراطور مرة أخرى ، بينما يظل الرجل المسكين واقفاً على قدميه . وكان عليه أن يتحمل هذا الهراء الصادر عن حشد البرابرة المزدحمين من حوله . وكان من المناظر الجديرة بالمشاهدة ، قدرة هذا الرجل (الضحية) على مواصلة إظهار البشاشة فى الرد على استيضاحات هؤلاء الرعاع ، والهراء من حوله لا ينقطع . وعندما كان أحد رجال البلاط يحاول إسكات المتبريرين ، كان الإمبراطور - على العكس - يوقفه . ! إذ كان الإمبراطور على علم باستعداد الفرجة السريع لفقد أعصابهم . وكان يتجنب إحداث أى نوع من الإثارة التافهة ، تؤدى إلى انفجار قد يتلى الإمبراطورية الرومانية بشر مستطير .

فلا بدع والحالة هذه ؛ أن نفوراً متبادلاً يمثل هذه الشدة ، يحول دون وجود أية تأثيرات ثقافية تبادلية . ورغمما عن ذلك ؛ فقد أثرت الحروب الصليبية بعض الثمار المتبادلة بين الفرنجة والبيزنطيين ، وبينهم وبين المسلمين .

فإن مسيحيي الغرب فى القرون الوسطى - بعد أن استحوذوا على زُبدة فلسفية وعلمية مما تُرجم إلى اللغة العربية من مصنفات اليونان - استكملوا مكتبتهم الهلينية بأن نقاوا إلى لغاتهم الأصلية ، جميع « التراث » الهليني الذى أمكنت صيانتة . وعلى هذا : فإن الدين الثقاق الذى يدين به الغرب للشرق ، كان من نوع أسمى من أن يتوقعه أحد .

وإن فرجة القرن الثالث عشر الذين فتحوا القسطنطينية والموورة ؛ قد أسدوا لضحاياهم اليونانيين نفس الخدمة الأدبية البارزة - الغير المقصودة - التى قدمها للصينيين ؛ فاتحو الصين من المغول ، معاصرو الفرنجة . ففى الصين

ترتب على نزول الأدبيات الكونفوشيوسية عن عرشها - وقتياً - أن تهيات فرصة لأن يخرج - ببطء - إلى سطح الحياة الاجتماعية للصينيين أدب شعبي مغمور في لغة دارجة متداولة . وما كان ليتيسر لهذا الأدب الشعبي أن يبرز - على هذا النحو المدوّى في ظل الحكم الثقافي القائم على القمع لموظفي الدولة ذوى العقليّة الكونفوشيوسية ؛ ممن ختمت الآداب الصينية القديمة على عقولهم ، فاستعصت على العلاج .

وفي العالم المسيحي الأرثوذكسي الذي اجتاحه المتبريرون ؛ أنتجت نفس العلة ، الأثر نفسه ؛ لكن على مقياس أصغر . وتمثل الأثر في ازدهار شعر غنائي ، وشعر ملاحم شعبي . ويطالعنا في هذا الشأن ؛ مؤلف فرنجي من المورة ، ألف « حوليات المورة » ، وعبر فيها عن أحاسيسه في شعر يوناني وطني متحرر تماماً من القيود الموروثة . وكان هذا الشعر ، إلهاماً بالشعر اليوناني الحديث في أوائل القرن التاسع عشر .

وأعظم الثمرات التي تبادها العالمان المسيحيان في القرون الوسطى في الغرب . وفي الشرق : النظام السياسي للدولة المطلقة السلطان ؛ كما تبدى في الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ثم انتقل إلى الغرب ، فأصبح أساس الحكم الجارى العمل به في الدولة الغربية التي اقتطعتها أسياف النورمنديين في القرن الحادى عشر من الأملاك السابقة للإمبراطورية الرومانية الشرقية في أبوليا^(١) وصقلية . فكان أن غدا نظام الحكم هذا ، محط أنظار جميع الغربيين : سواء من نظر إليه نظرة إعجاب أو نظرة نفور . وذلك ؛ حين تجسّد هذا النظام في شخص الإمبراطور فردريك الثانى « من أسرة هوهنشتوفن . Hohenstufen . ذلك لأن هذا الملك المندفع ؛ إلى جانب ما ورثه عن والدته .

(١) أبوليا Apulia منطقة في جنوب إيطاليا . (المترجم)

«النورمندية من مُلك صقلية ، كان كذلك إمبراطوراً رومانيا غربيا ، وفوق ذلك ، كان عبقريا .»

أما التطورات التي أُلِّت بعد ذلك بنظام الحكم المطلق ، حتى اتخذ مظهره الجماعية في القرن العشرين الميلادي ، فقد سبق أن تتبعناها في مكان سابق من هذه الدراسة :

(ج) تلاقى حضارات الجيلين الأولين

أولا - تلاقى مع الحضارة الهيلينية في مرحلتها التالية لعصر الإسكندر :

كان الباحثون في التاريخ الهليني - من أهل العصر التالي لحكم الإسكندر - ينظرون إلى جبل الإسكندر على أنه يؤرخ خروجاً على الماضي ، وإشراق عصر جديد . وهذه النظرة لا تقل في دقتها ، عن تلك النظرة التي نظر بها الغربيون إلى تاريخهم الحديث . فالانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، قد تميّز بعدة اتجاهات جديدة صارخة ؛ إنبعثت في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين .

وفي كلا هذين العصرين الحديثين من التاريخ ؛ كان أوضح العوامل آثاراً في التقليل من شأن الماضي - إذا قورن بالحاضر - هو الشعور بالزيادة المفاجئة في السلطان على البشر . كما يبدو كذلك في الفتوحات العسكرية ، والسلطان على الطبيعة المادية ، كما يبدو في الكشوف الجغرافية والعلمية .

إن فتح المقدونيين الإمبراطورية الأخيمينية ؛ كان لا يقل إثارة عن فتح الأسبان إمبراطورية الإنكا (في أميركا الوسطى) .

ولم يكن هذا كل شيء !!!

فلو أن يونانيا من أهل القرن الثالث قبل الميلاد ، أو غربيا من أهل

القرن السادس عشر بعد الميلاد ؛ قد طُلب إليه وصف الأحاسيس التي طرأت على شعوره بحلول عصر جديد ، لكان من المحتمل أن يجعل لإحساسه يتضمن القوة المادية التي حققها مجتمعه ، وزنا أقل من إحساسه باتساع الأفق الفكري لمجتمعه .

فلقد كانت الهند أسطورة ، حتى شق المقدونيون الطريق إليها وسط آسيا ؛ كما شق البرتغاليون الطريق إليها ببسط سيطرتهم على المحيط . وفي عمار النشوة التي تولدت عن حركة الكشف عن الهند ؛ كان الإحساس بالسلطان ، قد كَيْفَه وضخّمه - في كلتا الحالتين - الاندخال من تكشف عالم أجنبي عجيب . وفي عمار النشوة التي أبرزتها في العالم الهليني الكشف العلمية لأرسطو وخلفائه ، وتلك التي أبرزتها في العالم الغربي حركة بعث «الثقافة الهلينية» ؛ تكيف الإحساس بالقوة الناشئ عن التوصل إلى معارف جديدة ؛ في إحساس بالقصور ، يعنى تذكير الإنسان بجهله النسبي . فإن كل إضافة لمعرفة الإنسان للعالم ، كفيّة بأن تذكره بجهله .

ويتيسر الانتقال بالمشابهة بين الحقيقتين ، أبعد من ذلك . فإننا نعلم أن تأثير الغرب الحديث ، قد بات عالمي الطابع . وعسانا نذهب - دون تفكير - إلى أن انتشار الحضارة الهلينية فيما بعد عصر الإسكندر ، قد اتخذ شكلا هزيلا ، إذا قورن - بحق - بانتشار التأثير الغربي . فإن الحضارة الهلينية في عصر ما بعد الإسكندر ، تلاقت مع المجتمعات : السورية ، الحثية ، المصرية ، البابلية ، السندية ، الصينية . بل إنها قد تلاقت مع كل مجتمع آخذ بأسباب التحضر ، لا يزال قائما في تلك الأيام .

لكن لا نفوتنا الآن نقطة اختلاف هامة :

فإننا حين ندرس تأثير الغرب الحديث على المجتمعات المعاصرة له ؛ علينا أن نميز بين عصر حديث مبكر ؛ كان الغرب خلاله يشع ثقافته ، كاملة - بما في ذلك الدينية - وعصر حديث متأخر ؛ دأب الغرب خلاله

عل إشعاع زُبدة علمانية من ثقافته : أى بعد أن استبعد منها عنصر الدين .. وليس ثمة وجود لمثل هذا التقسيم فى تاريخ إشعاع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر . ذلك لأن الهلينية كانت ، إذا قورنت بالغرب — من الناحية الثقافية — أبدر نضوجا . إلا أنها بدأت فقيرة فى مجال الدين .. ولم تنبعث هذه الحضارة من بفعها الدينية ، إلا قبل بداية عصر الإسكندر بقرن كامل .

وفى أزمة التحرر الروحى هذه التى شهدها الهليونون ، انبعث فى نفوسهم تقزز من التحلل الخلقى الطائش الذى أثر عن مجمع آلهة الأوليمب البربرية . كما شاعت فيهم نكسة شديدة ضد نوع آخر من الحياة الدينية أعمق وأحلك ، عُرِف باسم « عقائد العالم السفلى » ؛ مع ما صاحبها من طقوس الدماء والتراب .

وسرعان ما أحس الناس بجوع شديد وحاجة ملحة إلى غذاء روحى لم يجدوا إليه سبيلا . حتى إذا حملتهم فتوحهم العسكرية والثقافية فى عصر ما بعد الإسكندر ، احتكوا بديانات غير هلىنية مكتملة النمو . وكان الانفعال الذى بعثته هذه التجربة فى القلوب الهلىنية ، ينطوى على الحسد — المشوب بالاهتمام الكبير — لمن خصتهم العناية بامتلاك مثل هذه العطية الغالية ؛ أكثر من أن ينطوى على ازدراء للألعاب الكهنة وحيلهم . وغدا العالم الهلىنى مدركا للحقيقة الواضحة ، وهى أنه يعانى فراغا فى حياته الدينية ؛ وإن كان هذا الإدراك قد سبب له قلقا .

وهذا الموقف الذى وقفه الهليونون الفاتحون فى عصر ما بعد الإسكندر ، إزاء تقبل ديانات المجتمعات التى وقعت فى أسر الهلىنية على الصعيدين الثقافى والعسكرى ؛ كان هذا الموقف أحد العوامل التى أحدثت النتائج الدينية الخطيرة التى ترتبت على التأثير الهلىنى العدوانى على ستة مجتمعات أخرى ..

ويتعين علينا أن نقيس مد الهلينية وجزرها خلال العصر التالى للإسكندر ،
فى إطارها التاريخى ؛ إن أردنا معرفة نتائجها الدينية .

كان الغرض الأول للغزاة المقدونيين والرومانيين ، إستغلال ضحاياهم
إقتصاديا . على أن اعترفهم بالغاية الأنبل لفتوحاتهم وهو نشر الثقافة
الهلينية ؛ كان لا يخلو من الإخلاص ، مصداقا لما ثبت من المدى الذى ذهب
إليه الهليونون فى ترجمة جهودهم هذه من أقوال إلى أفعال . وكانت الأداة
السياسية التى اصطنعها الفاتحون الهليونون لتحقيق الوعد الذى أعلنوه بمشاركة
الشعوب فى الثروة الروحية للثقافة الهلينية ؛ هو تشييد نواة من المستوطنين
الهلينيين ، بحيث يكونون مصدر إشعاع للحضارة الهلينية . وكان الإسكندر
نفسه هو الذى بدأ هذه السياسة ، على نطاق واسع . واقتنى أثره بعد ذلك
— طوال أربعة قرون ونصف قرن — خلفاؤه المقدونيون والرومانيون ،
حتى الإمبراطور هادريان .

على أن نشر الفاتحين الهلينيين الثقافة الهلينية فى صورة سمحة — فى قليل
أو كثير — لا يشتر من العجب ؛ قدر ما تثيره محاكاة غير الهلينيين لتلك
الثقافة الهلينية ، محاكاة تلقائية . إلى درجة أن الثقافة الهلينية إبان العصر التالى
للإسكندر قد انتشرت — دون حرب — فى أرض لم تحتلها الجيوش الهلينية
قط ؛ أو اختلتها ثم جات عنها سريعا ، فى الفترة التى انحسرت فيها موجة
فتوح الإسكندر عقب وفاته .

من ذلك :

أولا — غرس الفن الهلنى فى دولة كوشان . وهى إحدى الدول
التي خلفت الإمبراطورية اليونانية فى باكترىا ، على جانبي الهندوكوش ؛
إبان القرن الأخير قبل الميلاد والقرن الأول للميلاد .

ثانيا — غرس العلم والفلسفة الهلينيين فى الدولتين الساسانية والعباسية
اللتين خلفتا الإمبراطورية السلوكية اليونانية .

على أن هذا الغراس إحتاج - إلى أن أثمر - إلى بعض الوقت حتى
مرت عليه تجربة الفتح العسكرى اليونانى ، ثم رحيله .

ثالثا - وبالمثل ؛ لم يشرع العالم السورى فى إظهار اهتمامه التلقائى بالعلم
والفلسفة الهلنيتين ، إلا بعد ما بدأ يتحرر من السيطرة الهلينية . تحرر تبلور فى
إصطناعه مذاهب خاصة له من المسيحية تجلّت فى مذهبين منشقين هما :
النسطورية والمينوفيسية . وكذلك إتخاذه أداة أدبية خاصة ، هى اللغة
السريانية .

إن التغلغل السلمى للثقافة الهلينية فى مناطق لم يطأها قط غزاة هليونيون ؛
يلقّن نفس الدرس الذى لفته من قبل ، إنتصارات الهلينية الفنية والثقافية
بعد انحسار السيطرة العسكرية . وهذا الدرس الهليني ، يُنير السبيل فى
الدراسة العامة للتلاقى بين الحضارات المتعاصرة . وهذا الضياء واضح لدارسى
التاريخ فى جيل كاتب هذه الدراسة . ذلك لأن هؤلاء الدارسين ؛ تأتى
لهم أن يقفوا على القصة بكاملها . على عكس ما يعرفونه عن التلاقى الذى
يجرى الآن مع الغرب الحديث . فإن هذا الفيض الغزير من المعلومات
المفصلة ؛ لا تقاس به بأية حال من الأحوال ، تلك السجلات الهزيلة
الباقية من التاريخ الهليني . هذا الفيض الغزير ؛ قد أوقفه فجأة فى منتصف
القصة ، ذلك الستار الحديدى المائل فى جهل الإنسان بالمستقبل .

وسواء أصبح لعامل القوة أهميته فى مجال التبادل الثقافى بين المتعاصرين
فى التاريخ الغربى - كما كانت له أهميته فى العصر التالى للإسكندر من
التاريخ الهليني - فإن هذا ما يزال حتى عام ١٩٥٢ ، طيّ الغيب . وإن
علامة الاستفهام هذه ؛ لتفيد فى تذكير الباحث بأن تلك الأحداث التاريخية
التي هى بالنسبة إليه أقل بعدا وأوفر وثائق وأقرب إلى تناوله ؛ هى كذلك ،
أضعف هادٍ له فى تفصيله لتطور البشرية وخصائصها . أما تاريخ التلاقى
بالمجتمع الهليني - على بعده وفقر ووثاقه - فإنه يكفل زيادة معرفة الباحث

هذا التلاقى ؛ وخاصة فيما يتعلق بنتائج التلاقى بين الحضارات على الصعيد الدينى .

وكان واضحاً للمؤرخ الغربى فى القرن العشرين - حتى زمانه - أن التقبّل التلقائى للفن الهلنى فى عالم الصين فى القرن الخامس ، وللعلم والفلسفة الهلنيين فى العالم السورى فى القرن التاسع ؛ هذا التقبّل قد سلك نفس الطريق . فإن المبادلات الفنية والعقلية - كالمبادلات العسكرية والسياسية - بين الحضارة الهلنية فى عصر ما بعد الإسكندر والمجتمعات المعاصرة لها ، كانت قد دخلت فى ذمة التاريخ .

ومن الناحية الأخرى ؛ نجد التأثير المتصل الحلقات لنتائج التلاقى هذه ، على حياة البشرية فى القرن العشرين ؛ يُفصح عنه ولاء أغلبية الجيل الحالى الساحقة ، لأحد الأديان الأربعة : المسيحية - الإسلام - المهايانا - الهندوسية . وفى الاستطاعة تتبع التجليات التاريخية لهذه الأديان فى الماضى ، إلى أحداث - اندرست - تلاقى فيها الحضارة الهلنية مع حضارات شرقية بائدة . وإذا كان مستقبل البشرية قد يُظهر أن هذه الديانات العالمية أقدر من الحضارات فى معاونة البشر على بلوغ الهدف الذى تصبو إليه جاهدة ؛ إذا كان الأمر كذلك ، فإن التلاقى مع الحضارة الهلنية فى عصر ما بعد الإسكندر ، يكون قد ألقى من الضوء على المبحث الرئيسى لأى دراسة شاملة للتاريخ ، أكثر مما ألقاه التلاقى مع الغرب الحديث .

ثانياً - التلاقى مع الحضارة الهلنية لعصر ما قبل الإسكندر :

إن الرواية التى قام فيها المجتمع الهلنى - فى عصر ما قبل الإسكندر - بدور الزعامة ، قد مثّلت على حوض البحر المتوسط . وهذا هو المسرح نفسه الذى شهد بعد انقضاء ألف وثمانمائة سنة ، مشهداً لرواية قام فيها بالدور الرئيسى ؛ العالم المسيحى فى المغرب الوسيط . وفى كلتا التمثيلتين ؛

أدّى الأدوار ، ثلاثة ممثلون : الحضارة الهلينية (في مرحلتها السابقة لعصر الإسكندر) ومنافسان لها ، هما :

الأول - المجتمع السورى . ويمت إلى المجتمع الهليني بصلة الأخوة .
 الثانى - فضلة متحجرة من المجتمع الحيثى ، الذى تحلل قبل الأوان .
 وقد تسقى للبقية الباقية من ذلك المجتمع أن تحتفظ بكيانها ، بالانزواء بعيداً فى معازل جبال طوروس .

وفى غمار تنافس هذه الأطراف على السيادة على حوض البحر المتوسط ؛ قام الفينيقيون يمثلون المجتمع السورى ، وجوابو البحار عند المجتمع الحيثى . وجوابو البحار هؤلاء ؛ هم من عُرِفوا عند منافسهم الهلنيين فى البلاد التى نزلوا فيها فيما وراء البحار باسم التيرانيين Tyrrhenians (باليونانية) وبـ « الأتروورين Etruscans (باللاتينية)^(١) .

وكان التنافس فى هذه المباراة الثلاثية - التى بدأت فى القرن الثامن قبل الميلاد - يدور على السيطرة على المناطق الآتية :

١ - غربى البحر المتوسط ؛ حيث لم يكن السكان - على ما هم عليه من تأخر - نداءً لأى مجتمع من هذه المجتمعات الثلاثة المتنافسة الدخيلة على تلك المنطقة .

٢ - شواطئ البحر الأسود المطلة على المفازة الغربية الكبرى للسهوب الأوراسية ، وهى التى تتيح - بدورها - منفذاً إلى منطقة الأرض السوداء الزراعية ، الواقعة على طول أطراف السهوب الشمالية الغربية .

٣ - أرض مصر التى ظلت آماداً طويلة تُزرع زراعة كثيفة . وكانت

(١) أتروريا : هى موطن الأتروورين . وكانت تقع غرب جبال الأبنين ونهر التير . ويرجع العهد بهجرة الأتروورين من جنوب آسيا الصغرى إلى هذه المنطقة حوالى عام ١٠٤٤ ق . م (المترجم)

حضارة مصر - حينذاك - قد بلغت مرحلة العجز ، فلم تعد قادرة على صد عدوان أى جار غريب ، إلا بالاستعانة بقوى جار آخر .

وكان الهلينيون فى الصراع على هذه المناطق يتمتعون بميزات عدة ؛ رجّحت كفتهم على منافسيّهم :

فكان الموقع الجغرافى أوضح ميزات الهلنيين . فإن قاعدة العمليات الهلينية فى بحر إيجه ، كانت أقرب إلى البحر المتوسط وأدنى إلى البحر الأسود ، من القواعد الأتروورية والفينيقية الواقعة أقصى الطرف الشرقى من البحر المتوسط . وبذلك كانت القواعد الهلينية أقرب إلى كل من الأهداف السالفة الذكر .

ثم أن الهلنيين قد حظوا بميزة أخرى تجلّت فى عدد السكان . إذ طفق سكان اليونان يتكاثرون بفعل إنتصار سكان السهول على سكان الجبال أثناء العصر السابق من التاريخ الهلنى . واستتبع ذلك ؛ ضغط السكان على وسائل المعيشة فى بلاد اليونان ؛ مما زوّد التوسّع الهلنى بقوة متفجرة حفزتهم على أن يتبعوا تشييد المراكز التجارية فيما وراء البحار ، بالعمل على جعل هذا العالم الجديد « يونان عظمى »^(١) عن طريق توطين سريع - وكثيف - لمستعمرين يونانيين . والدلائل اليسيرة التى فى حوزتنا ، توحى بأنه : لا الأترووريون ولا الفينيقيون ؛ كان تحت تصرفهم - فى هذا العهد - مثل هذا القدر من القوة البشرية . وما كان فى وسع أى منهم - على أية حال - مجارة اليونان فيما حققوه من تشييد العالم الجديد ؛ وقصر ملكيته عليهم .

والميزة الثالثة لليونان - كالميزة الأولى - ناشئة عن الموقع الجغرافى لبلادهم . فقد اتفق أن بداية المنافسة على السيادة على البحر المتوسط ؛

جاءت معاصرة لابتداء آخر وأسوأ جولة من جولات العسكرية الأشورية ؛
التي تعرض لها الفينيقيون والأثوريون داخل القارة الآسيوية . في حين
نعم الهلينيون بالعيش بعيدين عنها ؛ بعداً كافياً ، عصمهم من غائلة
العدوان الأشورى (١) .

فإن أخذت هذه العوائق بعين الاعتبار ؛ يصبح توفيق الفينيقيين
والأثوريين في إنجاز ما أنجزوه من أعمال ، مثاراً للدهشة والعجب .
ففي السباق على السيطرة على البحر الأسود ؛ لقوا جميعاً - كما كان
متوقفاً - هزيمة تامة ، وأصبح البحر الأسود بحيرة هلينية . وخلال
فترة هدوء الأحوال في السهوب عقب فوران البدو السيميريين (٢)
والأسقوديين (٣) ؛ دخل الهلينيون اليونان - وقد أصبحوا أصحاب السيادة
على البحر الأسود ، والأسقوديون أصحاب المفازة الغربية الكبرى للسهول
الأوراسية ؛ دخل الفريقان في مشاركة تجارية مربحة تضمنت : تصدير
محاصيل الغلال التي يزرعها رعايا الأسقوديين من فلاحى الأرض السوداء ،
إلى اليونان لإطعام سكانها الحضريين في حوض بحر إيجه ، في مقابل السلع
الترفية التي أخذ اليونان يضمنونها لتوافق ذوق أمراء الأسقوديين .

(١) بالمثل : تمتع الإنجليز في جزيرتهم خلال القرن السابع عشر بميزة على الهولنديين
المقيمين داخل القارة ، وهم منافسهم على تجارة المحيطات . و مرجع ذلك ؛ إلى أن الهولنديين
قد تعرضوا إلى ما لم يتعرض له الإنجليز ؛ تعرضوا للهجمات العسكرية التي شنها بناء
الإمبراطوريات من آل هابسبرج وآل بوربون . (المؤلف)

(٢) السيميري *Cimmerii* : اسم شعب من شعوب غرب أوروبا الأقصى . كان الشاعر
هوميروس أول من أشار إليه (الأوديسة - الجزء الحادى عشر / فصل ١٤) . كما أشار إليه
المؤرخ هيرودوتس . وحوالى عام ٦٥٠ ق . م غزت القبائل السيميرية مملكة ليديا ودمرت
طائفة من مدنها . لكن ملك ليديا « ماجنيسيا *Magnesia* » عاد فهزم السيميريين خلال الفترة
٦٠٥ - ٥٥٦ ق . م . (المترجم)

(٣) الأسقوديون : من كلمة *Ecythia* أشار إليهم هيرودوتس في الجزء الرابع من
تاريخه . وكانوا يقطنون بين نهري الدانوب والدون . وكان هذا الشعب ينتمى من الناحية
المنصرية إلى الآرية . (المترجم)

أما في غربى البحر المتوسط ؛ فقد لبث الصراع أمداً أطول ، واجتاز تطورات عدة . إلا أنه انتهى كذلك بنصر اليونان .

وحتى في السباق الأقصر مدى في سبيل الفوز بمصر - حيث لم يكن عامل القرب الجغرافى إلى جانب اليونان - شاهد القرن السابع (قبل الميلاد) . اليونانيون مرة أخرى ، يحرزون قصب السبق . وتم ذلك ؛ بفضل تزويدهم الحكومة المصرية للفرعون المحرر بسماتيك الأول بمن كانوا يدعون « رجال البحر النحاسيين » من « الأيونيين والكاريين » . وقد جندهم فرعون لطردهم الحاميات الآشورية من وادى النيل الأدنى ، خلال السنوات ٦٥٨ - ٦٥١ ق . م .

وقبل منتصف القرن السادس قبل الميلاد ؛ بدا كما لو أن الهلنيين لم يفوزوا فحسب في المنافسة على السيطرة البحرية على حوض البحر المتوسط ، لكنهم كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً نحو وراثة الإمبراطورية الآشورية في القارة ؛ أى أجزائها الواقعة في جنوب غرب آسيا .

وقبلما يتمكن جنود بسماتيك المرتزقة من اليونان من طرد الآشوريين من مصر بنصف قرن ، كان سنحريب قد أوغرت صدره ، فتنة جريئة قام بها - في أملاكه على ساحل كيليكيا^(١) ، أولئك الدجلاء - رجال البحر النحاسيين . فبدا كما لو أن الدولة البابلية الجديدة التى خلفت الإمبراطورية الآشورية ، توشك هى الأخرى أن تقتدى بمصر في استئجار الجنود المرتزقة من اليونان . هذا إذا افترضنا أن جنودا هلينيين من طلاب المال قد خدموا بالفعل في حرس يختنصر إلى جانب « لسيان آنتيميديداس

(١) كيليكيا Cilicia : مقاطعة على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى . وكانت تضم قديماً مهل أطنه وطرسوس . وكان يحدها الأبيض المتوسط جنوباً وجبال طوروس شمالاً . وظلت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية ، إلى أن غزاها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق . م . وبعد وفاته أصبحت من نصيب بطليموس مصر . وهى الآن جزء من ولاية أطنه التركية . (المترجم)

« Lespian Antimennidas » الذى أمكن المحافظة على اسمه وأفعاله من طي
« النسيان ، بفضل كونه أستاذاً للشاعر » آلكايوس Alcaius ^(١) .

. [١] على أن غزو الإسكندر للإمبراطورية الأخيمنية ، قد سبقه وأرهض
به ؛ إستعانة الأخيمينيين أنفسهم - على نطاق واسع - بجنود مرتزقة من
اليونان . ولعه بدا احتمال ظهور رجل من طراز الإسكندر على مسرح
التاريخ قبل ظهر الإسكندر نفسه بقرنين . ولكن حقا ؛ لقد أعد المسرح ،
لا ليظهر عليه شبح للإسكندر ، ولكن ليظهر عليه « كورش » فعلى .

على أن مستقبل يوناني القرن السادس قبل الميلاد فى مصر وجنوب
غرب آسيا ، ما لبث أن أظلم خلال العشرين سنة - أو نحوها - التى
انقضت بين فتح كورش للإمبراطورية الليديّة ^(٢) (حوالى عام ٥٤٧ ق . م)
وغزو خليفته قبيز مصر (حوالى عام ٥٢٥ ق . م) فإن غزو كورش
لليديا كان أشدّ الضربتين قسوة ومباغته . وقد مكّنه هذا الغزو من إحلال
سلطان فارسى على دول المتمدن الهلينية الواقعة على طول الساحل الغربى
للأناضول ، محل السيادة المألوفة التى كانت لمملكة ليديا عليها . ولكن
الضربة الأخرى التى وجهها قبيز ؛ كانت ضربة أخرى مزدوجة . إذ ترتب
عليها ؛ الخطّ من الاعتبار العسكرى لرجال البحر « النحاسيين » - من
ناحية - ووضع المصالح التجارية اليونانية فى مصر تحت رحمة الفرس ، من
الناحية الأخرى .

(١) آلكايوس (حوالى ٦٠٠ ق . م) : كان أحد شعراء اليونان الغنائيين .
واشتهر فى التاريخ اليونانى بمعارضته الديكتاتورية ودفاعه عن الحريات ، رغما عن انتباهه نفسه
إلى عائلة أرسقراطية . (المترجم)

(٢) ليديا : قطر كان يقع فى آسيا الصغرى بين بحر إيجه وميسيا . وقد أصبحت ليديا
فى عهد ملكها فارون إمبراطورية تحكم آسيا الصغرى بأسرها . وبعد انقضاء خمسة عشر عاما من
حكمه : استولى كورش إمبراطورية فارس على ليديا فأصبحت جزءا من إمبراطوريته . ثم
ألت الإمبراطوريات : الرومانية والبيزنطية والعثمانية على التوالى - وهى الآن جزء من
الجمهورية التركية . (المترجم)

وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ استفحلت وحدة هذه النكسات التي حلت باليونانيين . بما أسبغته الفرس بناة الإمبراطورية ، على الفينيقين السوريين من مزايا هامة عاجلة :

فقد طبق الأخيمينيون نفس السياسة في معاملتهم لليهود ؛ وقتما سمحوا لهم بالعودة من أسرهم البابلي ، وبإعادة إنشاء معبدهم وإقامة دولة عديمة الأهمية السياسية حول أورشليم مدينة أسلافهم . فنجحوا الحكم الذاتي للمدن الفينيقية السورية الواقعة على طول الشاطئ . بل خولوا لهذه المدن سلطانا على الجماعات السورية الأخرى ؛ مع اعترافها بالسيادة الفارسية . وبهذه السياسة ؛ أصبحت المدن الفينيقية تقف على قدم المساواة — على الأقل — مع أقوى دول المدن في العالم الهليني . بل إن نجاح تلك المدن الفينيقية اقتصاديا ، ومكاسبها ؛ كان أبعد على العجب . فلقد ألقت نفسها شريكة في مجموعة مترابطة من الدول (كومونولث) في داخل القارة ، بعيدا عن الشاطئ السوري للبحر المتوسط ، حتى أبعد مواطن الزراعة في المنطقة « الأسطورية » الشمالية الشرقية ، الواقعة على الشاطئ « الصغدي »^(١) الخاف من السهب الأوراسي العظيم .

وفي غمار ذلك كله ؛ انبعثت في غرب البحر المتوسط مستعمرة فينيقية ، فاقت في القوة والثراء ، المدينة السورية التي انبثقت عنها . تماما . مثلما فاقت في القرن العشرين الميلادي أهم « مستعمرة » للغرب الحديث . فيما وراء الأطلسي ؛ فاقت الدول الأوروبية التي منها هاجر مواطنو هذه المستعمرة . إن قرطاجنة قد أمسكت بزمام القيادة في الهجوم الفينيقي المضاد الذي يمكن أن يدعى — وفقا لوجهة النظر اليونانية — بالحرب البونية

(١) الصغدي : نسبة إلى الصغد . وهو الاسم القديم الذي كان يطلق على منطقة محيط بمدينة سمرقند . وتكون الآن جانبا من جمهورية ازبكستان السوفيتية . (المترجم)

الأولى ؛ لو لم ترتبط هذه التسمية بحرب أخرى^(١) ، جاءت متأخرة في نفس الرواية التي طالت فصولها .

ولم تكن النتيجة حاسمة ه ولكن يمكن أن يقال إن توسع العالم الهليني قد أوقف في جميع الجهات بفعل تآلف أعضاء المجتمعات المتنافسة التي كان يهددها اليونان ، وتنافسهم . ولعله كان يتوقع بعد هذا ؛ أن تثبت الحدود الشرقية والغربية الواقعة بين العالمين السورى والهلينى ، بعد أن كانت متأرجحة حتى ذلك الوقت .

لكن لم يكد يبدأ القرن الخامس قبل الميلاد ، حتى انقلب هذا التوازن .. فقد أصبحنا نقف على عتبة حرب من أشهر حروب التاريخ . فكيف يتسنى للمؤرخ أن يعلل هذا التحول المباغت المشنوم ؟

لعل باحثاً يونانياً في شؤون البشر ، يجد سبب هذه الكارثة في اختلاط جنسه بأجناس أخرى منحطة ، أو في الشعور بالخطر قبل السقطة الأخيرة ، أو بالجنون الذى تنزله الآلهة بمن يودون إهلاكهم . أما الباحث الغربى ؛ فلعله يصدف عن إقحام نفسه في خضم هذه التفسيرات غير الطبيعية . ويؤثر أن يذهب في بحثه إلى مدى أبعد من ذلك : على صعيد بشرى بحث .

وكان الدافع البشرى لتجدد الصدام ؛ خطأ ارتكبه السياسة الأخيمينية . وجاء هذا الخطأ نتيجة لسوء التقدير مما يتعرض له بُناة الإمبراطوريات . وقما يوفّقون في فتوحات مثيرة في اتساعها وسرعتها ، على سكان أثبتوا أنهم صيد سهل ، بعدما تحطمت روحهم المعنوية نتيجة للمحن المؤلمة التي توالى عليهم . ففي ظل هذه الظروف ؛ ينزع بناء الإمبراطوريات إلى

(١) يشير المؤلف هنا إلى الحرب البونية الأولى بين قرطاجنة وروما التي دارت خلال السنوات ٢٢١ - ٢٣٦ ق . م . (المترجم)

نسبة ته فيقهم كله إلى جراتهم هم . دون أن يعترفوا بما يدبنون به لأولئك الغزاة الذين سبقوهم ومهدوا لهم الأرض ؛ قبل أن يصل بناء الإمبراطورية في الوقت المناسب ؛ ليجنوا ثمرها الداني . وهذه الثقة المفرطة التي غذّاها هذا الاعتقاد الخاطئ في أنهم قوم لا يُقهرُونَ ؛ هذه الثقة ، سرعان ما تدفعهم إلى الكارثة ، حين يهاجمون قوماً لم تُحطّم قوتهم بعد . فيفجئون بروحهم العالية وقدرتهم على المقاومة .

تلك هى قصة الكارثة التي نزلت بالبريطانيين في أفغانستان في ١٨٣٨ — ١٨٤٥ م . فإنهم بعد أن غزوا ملك المغول المنهار في الهند ، توسموا في خفة ونزق ؛ أن سكان الحضبة الإيرانية سيسلمون لهم طوعاً ، كما سلّم لهم من قبل ، سكان شبه القارة الذين حطمتهم الحن التي توالى عليهم طوال خمسمائة عام من السيطرة الأجنبية ، فصرعهم وأوهنت عزائمهم . وتوّج هذا كله ؛ بما أصابهم من أهوال الفوضى ، التي كابدوها طوال قرن من الزمان .

ومن المحتمل أن كورش قد توهّم بأنه قد ورث خلفاءه حدوداً شمالية غربية ثابتة . وذلك حين أتم فتح أملاك ليديا ، بإخضاعه الجماعات اليونانية الآسيوية التي كانت تعترف قبلاً بسيادة ليديا . وإن إنذار أبولو Abollo «لِقارون Croesus»^(١) مدن ليديا بأنه لو عبر نهر «خالص Halys» فإن دولة كبرى ستتحطم ؛ لعله — أى الإنذار — موجّه إلى كورش نفسه ،

(١) قارون : (٥٤٠ ق . م) هو أحد ملوك ليديا . امتدت إمبراطوريته من الشواطئ الجنوبية الشمالية الغربية لآسيا الصغرى على نهر «خالص Halys» شرقاً ، وجبال طوروس جنوباً . وما انفك اسمه حتى الآن مضرب الأمثال في الثراء الفاحش . وقد أم قارون معبد أبولو في دلى لاستشارته في مسألة تحالفه مع البابليين ضد الفرس . فأنبأه بأنه لوهاجم الفرس ، ستزال إمبراطورية كبرى من الوجود . ولم يعرف قارون أية إمبراطورية تعنىها النبوة . ثم تبين فيما بعد أنها إمبراطوريته هو . فكان أن هُزم هزيمة منكرة في موقعة سارديس Sardis عام ٥٤٦ ق . م ؛ وأخذ أسيراً . (المترجم)

دون أن تذهب نبوءته بما تخبئه الأيام إلى مدى أبعد . لأن كورش بغزوه .
 إمبراطورية ليديا ، قد ورث خلفاءه - عن غير قصد - مشكلة مع
 العالم الهليني ، ساقط في نهاية الأمر ، الإمبراطورية الأخمينية إلى حتفها .
 إن كورش بفتحته أراضي ليديا حتى ساحل الأناضول ، قد تخلص
 من الحدّ النهرى (نهر خالص) الذى كان بينه وبين ليديا ، وكان يضيق
 به ذرعاً . أما دارا ؛ فقد ضاق بهذا الحد البحرى ، بينه وبين البقية الباقية
 من أراضي هيلاس « المستقلة » . فدبر للتخلص من هذا الحد ؛ باجتياح
 هيلاس كلها ، وإخضاعها لسيادته ، فكانت العاقبة : سلسلة من الهزائم
 التاريخية في « ماراتون » ، « سلاميس » ، « ميغالى » ؛ ما برح ورثة اليونان
 الغربيون يذكرونها في القرن العشرين كانتصارات تاريخية .

إن « دارا » بإجابتته على ثورة رعاياه اليونانيين في آسيا ، بالتصميم على
 غزو بنى قرياهم وما لهم من أملاك في أوروبا ؛ قد أحال سبع سنوات
 من التمرد ، إلى حرب ضروس استغرقت واحداً وخمسين عاماً (٤٩٩ -
 ٤٤٩ ق . م) واضطر الأخمينيون بعد أن وضعت الحرب أوزارها ،
 أن يوطنوا النفس على فقدان مملكتهم على الساحل الغربى من الأناضول .

وفي غضون تلك الحقبة نفسها ؛ مُنيت حملة قرطاجنة على الهلنيين
 في صقلية ، بكارثة أشد وقعاً على المعتدى . وتلا هذا النصر الذى أحرزه
 الهلينيون فى البر فى غرب المتوسط ، بنصر آخر أحرزوه فى البحر ، حين
 هاجم الأثوريون النقطة الأممية للعالم الهليني فى كرماني فى مقاطعة « كامبانيا »
 على شاطئ إيطاليا الغربى ، إلى الغرب من نابلى بقليل .

ووقف الأمر عند هذا الحد حتى عام ٤٣١ ق . م ؛ وهو التاريخ
 المنحوس الذى شاهد اندلاع صراع الأخوة بين الهليني والهليني ، فى الحرب
 الأثينية البلوبونيزية . ومن ثم ؛ فإن الحرب التى دارت داخل أحشاء المجتمع
 الهليني نفسه ؛ كانت نذيراً بانهيائه . ذلك لأنها - ظلت قائمة - باستثناء

فترات هدنة قصيرة — إلى أن أملى فيليب ملك مقدونيا تسوية عام ٣٣٨ ق . م .

وظاهر أن الحرب الأهلية قد لوّحت للقرطاجنيين والأخيمينيين بإغراء — لا يُدفع — للإفادة من هذا الجنون الانتحارى الذى أقدم عليه خصومهم اليونانيون . أما القرطاجنيون فلم ينجحوا من استسلامهم لعامل الإغراء سوى القليل . لكن الفرس أصابوا نجاحاً ملحوظاً ؛ وإن لم يفقدوا نجاحهم طويلاً . ذلك لأنه كان من بين نتائج صراع الإخوة فى هيلاس ، أن تمرّس الهلينيون فى فنون الحرب . فما أن شرع قواد الجيوش من المقدونيين والرومانيين الأسلحة الهلينية الجديدة على الأعداء التقليديين للعالم الهلنى ، حتى انهارت الإمبراطوريتان الأخمينية والقرطاجنية ، وتم اكتساحهما . وعلى هذا ؛ دخل العدوان السياسى الذى شنه المجتمع الهلبنى على جيرانه ، مجالا أرحب ؛ استعرضناه فى الفصل السابق . لكن ثمة كذلك ميدان على الصعيد الثقافى ، أنجزت فيه الحضارة الهلينية قبل جبل الإسكندر . وبعده ، فتوحات ظلت باقية .

فإن أهالى صقلية الذين بذلوا ما وسعهم من الجهد لمقاومة الغزو اليونانى بقوة السلاح ؛ اصطنعوا طواعية — فى نفس الوقت — لغة المعتدين اليونانيين وديانهم وفنهم . بل إنه حتى فى « المنطقة الممنوعة » الواقعة وراء « الستار الخشبى » الذى أقامه القرطاجنيون — حيث كان يُحال بين أى تاجر هلبنى والتوغّل داخلها — دأب القرطاجنيون على استيراد المستجبات اليونانية التى كانت تفتنهم بما لا تفتنهم به أية سلعة ينتجونها هم . على غرار ما فعلته حكومة نابليون الفرنسية — بعد قيامها بمسرحية تحريم التجارة البريطانية بمقتضى مراسيم برلين — من الاحتياى على استيراد الأحذية والمعاطف البريطانية لاستعمال الجيوش النابليونية ؛

لقد بدأت عملية نشر الثقافة الهلينية بين المقاطعات الغربية من

الإمبراطورية الأخمينية ، قبل ظهور هذه الإمبراطورية إلى عالم الوجود بزمان طويل . وتم ذلك بفضل إشعاع الثقافة الهلينية من المدن اليونانية في آسيا عبر مملكة ليديا . ومصادقاً لذلك ؛ صوّر هيرودوت الملك قارون على أنه من مريدى الثقافة الهلينية المتحمسين لها . بيد أن أنجح الفتوحات الثقافية للحضارة اليونانية في عهد ما قبل الإسكندر ، تمت بين الأترويين والشعوب الأخرى النير الهلينية المقيمة على طول ساحل إيطاليا الغربى . فإن الأترويين قد استحالوا — بالتبنى — إلى هليين ، قبلما يطوهم تحت سلطانهم ، بناة الإمبراطورية من الرومان الذين راحوا — بدورهم — يقتبسون الكثير من مقومات الحضارة الهلينية ، عن طريق غير مباشر — وهو طريق جيرانهم الأترويين .

وطبيعى أن يكون إصطناع روما للحضارة الهلينية ؛ أهم الفتوحات الثقافية التى حققها الهليون فى أية مرحلة من مراحل تاريخهم . ذلك لأن الرومان — أيا ما يكون أصلهم — قد اضطلّعوا بعمل ثبت أنه كان أبعد عن قدرة المستوطنين الأترويين على الشاطئ الإيطالى الغربى شمال روما ؛ وفوق متناول المستوطنين اليونانيين جنوبيهم على الشاطئ الإيطالى الغربى . كما لا يقدر عليه رواد الهلينية من الماسيليين القاطنين قرب دلتا نهر الرون . وبعد أن انهازت المستعمرات اليونانية فى إيطاليا ، نتيجة للهجمات المضادة التى شنّها الأوسكانيون^(١) ، وبعد أن انهار الأترويون نتيجة للهجمات الوحشية المضادة التى شنّها عليهم الكلت ؛ راح الرومان يحملون الحضارة الهلينية — بعد صبغها بصبغة لاتينية — عبر جبال الابنين ونهر البو وجبال الألب . ثم غرسوها داخل القارة الأوربية فيما وراء حوض البحر المتوسط : من دلتا الدانوب ، حتى مصاب نهر الراين ، وعبر بوغاز دوفر إلى بريطانيا .

(١) الاسكانيون : شعب استوطن إيطاليا قديماً (المترجم)

ثالثاً - شيلم^(١) وقمبح :

أدركنا من استعراضنا لمظاهر التلاقى ، أن النتائج المثمرة الوحيدة لمظاهر التلاقى هذه ؛ تتجلى فى صناعات السلم . كما تبين لنا - بمزيد الأسى - أن هذه المبادلات السلمية المبدعة ، نادرة حقاً ؛ إذا قورنت بالمنازعات الحمقاء المدمرة التى تنشأ عادة عند ما تلتحم ثقافتان - أو أكثر - فى صراع ، إحداهما مع الأخرى .

فإذا ما أنعمنا النظر فى ميدان البحث مرة أخرى ؛ لاحظنا أن الاتصال المتبادل بين الحضارتين السندية والصينية ، قد أنتج تبادلاً سلمياً بدا مشمراً بقدر ما بدا - للوهلة الأولى - خالياً من آفة القوة . فلقد انتقلت بوذية الماهايانا من العالم السندى إلى العالم الصينى من غير إندلاع حرب بينهما . وكانت البعثات التبشيرية البوذية تنتقل من الهند إلى الصين ، كما يسافر الحجاج البوذيين من الصين إلى الهند سواء عن طريق البحر عبر بوغاز ملقا أو بطريق البر عبر نهر تاريم ؛ وذلك فى الحقبة الممتدة منذ القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادى . وكانت حركة التنقل هذه ، إعلاناً عن الاتصال السلمى الذى أنتج هذا الأثر التاريخى . على أننا إذا بحثنا أمر الطريق البرى الذى كان أكثر الطرق استخداماً ؛ لانبجس أن الصينيين ولا الهنود - وهم أهل سلام - هم الذين فتحوه ، ولكن فتحه هليونيون - من بختياري - كانوا رواداً لمجتمع هلىنى دخيل على الحضارتين السندية والصينية ، كما شقّه خلفاؤهم المتبربرون الكوشانيون . ورجال الحرب أولئك الذين فتحوا هذا الطريق ؛ فتحوه لأغراض تتصل بالعدوان العسكرى . فالليونانيون شقّوه لقتال

(١) شيلم : الاسم العلمى *Vicasativa* ويعرف عادة بـ « الدحريج » . (المترجم)

إمبراطورية «موريا» السندية ، والكوشانيون لقتال إمبراطورية «الهان» الصينية .

أما إذا كنا بسبيل البحث عن مثال التلاقى المثمر بين المتعاصرين ؛ ثمرأ روحياً خالياً من أية صلة بنزاع حربي ، تعين علينا أن نكرر البصر عائدتين إلى الماضي : إلى تاريخ أبعد من عصر الحضارات من الجيل الثاني ؛ إلى وقت سبق إنبعث الحضارة المصرية في ثوب جديد نتيجة لصدمة الغزو الهكسوسى : وهو إنبعث مد في عمرها - بشكل خارق - بعد أن كانت قد أتمت فعلاً دورة حياتها . ففي ذلك العصر المتقدم - الذى يمتد من نهاية القرن الثانى والعشرين وبداية القرن الواحد والعشرين حتى نهاية الثامن عشر وبداية السابع عشر قبل الميلاد ؛ عاشت جنباً إلى جنب ، دولة عالمية مصرية باسم الدولة الوسطى ، ودولة سومرية عالمية باسم دولة سومر وأكّاد . عاشت الدولتان تبادلاً للسيطرة على سوريا - وهى الجسر البرى الواقع بينهما - دون أن يقع بينهما ، على حد معرفتنا : صدام مسلّح . على أن هذا الاتصال السلمى اليبين ، كان كذلك مجدياً إيجابياً واضحاً . وهذا ما يحتم علينا أن نذهب إلى وراء ذلك ، لنعثر على ما نبحت عنه . بيد أنه فى دراسة مثل هذا العصر المبكر من تاريخ الحضارات ، لا تزال المعلومات التى تتجمع من الحفائر الغربية الحديثة ، تترك مؤرخ القرن العشرين يتخبط فى دياجير ظلام التاريخ : ومع هذا التحفظ ؛ عسانا نستعيد إلى الذهن كشفنا - الذى لا يعدو أن يكون محاولة - وهو أن عبادة إيزيس وأوزيريس التى طفقت تؤدى دوراً حيوياً فى الحياة الروحية عند المصريين ؛ كانت هيبةً جاءت من العالم السومرى فى طور إنحلاله . فإن الشخصيتين اللتين تبعثان الأسى فى القلوب ، وتبثان الغراء فيها كذلك : شخصية الزوجة (أو الأم الحزينة) وشخصية زوجها (أو ابنها المعذب) ؛ ظهرتنا أول ما ظهرتنا باسم : عشتار وتمّوز . وإذا كان حقاً أن هذه

العبادة التي كانت بشيرا لجميع الأديان الأخرى العالمية ، قد انتقلت من المجتمع الذي ظهرت فيه لأول مرة إلى أبناء حضارة معاصرة ، دون صراع أو إراقة دماء . فقد حدث ، ما لطخ التلاقى الذي حدث بعد ذلك بين الحضارات المتعاصرة .

إذا كان هذا حقاً ؛ فعسانا نرى فيه بارقة من الضياء تشق الضباب الذي ينجيم على تاريخ تلك الاتصالات التي قامت بين الحضارات ؛ وقد أخذ كل طرف منها بتلاييب الآخر .

الفصل الثاني والثلاثون

مأساة التلاقي بين المتصادمين

(١) تسلسل التلاقي

كان هيرودوتس ، هو الذى كشف خلال القرن الخامس قبل الميلاد ؛ عن أن التلاقى بين المجتمعات المتعاصرة لا يتم على إنفراد ، ولكن فى حلقات متسلسلة مترابطة . بمعنى أنه يترتب على الحدث ، حدث آخر . . وهكذا فى سلسلة متتابعة من الأحداث يقفوا بعضها بعضا . وقد توصل إلى كشفه هذا ؛ حين أخذ على نفسه أن يقصّ خبر الصراع الذى نُشِب حديثاً بين الإمبراطورية الأخمينية ودول المدن الهلينية المستقلة فى بلاد اليونان فى أوروبا . وارتأى هيرودوتس — لكى يجعل روايته مفهومة — أن يضعها فى مكانها بين السوابق التاريخية . حتى إذا نُظِر إليها من هذه الزاوية ؛ أدرك أن الصراع اليونانى الفارسى ، هو آخر الأحداث فى سلسلة المصادمات من نفس النوع .

فإن ضحية العدوان ؛ لن يقنع بالتزام جانب الدفاع وحده . فإذا أصاب التوفيق دفاعه ، راح ينتقل من الدفاع إلى الهجوم المضاد . ولا ريب أن الفصول الأولى من الرواية التى أوردها هيرودوتس ، تبدو للقارئ الحديث المعقّد ؛ أبعث على التسلية ، منها على الدلالة . ذلك لأن حبكة تلك الفصول ، تدور حول سلسلة متعاقبة من أفعال الاغتصاب لشابات من ذوات الفتنة الطاغية . وقد بدأ الفينيقيون النزاع (وهوما ينتظره المرء من

مصدر هيليني) باغتصابهم « إيو Io »^(١) الهلينية ، فيأخذ الهلينيون بثأرهم باغتصاب « يوربا Europa »^(٢) الفينيقية : واغتصب الهلينيون بعد ذلك « ميديا »^(٣) أخت ملك « كولتشييس » . واغتصب أهل طروادة هيلين اليونانية ، فثار الهلينيون لكرامتهم وحاصروا طروادة .

إن هذا كله مُحمق في حق . « فن الواضح أن هؤلاء النسوة ما كنَّ لِيُغْتَصَبْنَ لو لم تكن لديهن الرغبة في ذلك » ؛ ولا بد أن باريس^(٤) قد أخفق في إعادة هيلين إلى وطنها . وظاهر كذلك أن الطرواديين كانوا يوثرون تسليمها ، لو كانوا في مركز يتيح لهم ذلك ؛ على أن يكابدوا حصارا دام عشر سنوات . وعلى أية حال ؛ فإنه لما أضرم اليونانيون حرب طروادة ، أخذ آريس^(٥) مكان إفروديت ربة الحب والجمال ، بوصفها طليعة الآلهة . فهكذا على الأقل ؛ تنبعث الأساطير من التحقيق المنطقي الجاف الذي هو أحد خصائص هيرودوت . ومهما يكن مبلغ شكنا في سلسلة هذه

(١) إيو Io : في الأساطير اليونانية - كاهنة الربة « هيرا » زوجة زيوس كبير أرباب الأولمب . أحبها زيوس ، فكان أن حقدت عليها زوجته وطاردتها مطاردة عنيفة ، انتهت بها إلى اللجوء إلى مصر . (المترجم)

(٢) يوربا Europa . في الأساطير اليونانية أخت فونيكس ملك فينيقيا . أحبها زيوس فتقمص في شكل ثور وحملها بعيدا إلى كريت حيث حملت منه بيمينوس أول ملوك حضارة كريت المينوية . (المترجم)

(٣) ميديا : في الأساطير اليونانية كانت أخت ملك كولتشييس (ملكة من ممالك القوقاز القديمة) هربت مع « ياسون » اليوناني وقت قدومه إل القوقاز بحثا عن كنز ، وقتلت أحد إخوتها . ثم قتلت زوجها بعد ذلك بدافع الغيرة ، وعادت إلى بلادها حيث أعادت أباه إلى عرشه الذي كان قد اغتصبه منه أحد أبنائه . (المترجم)

(٤) باريس : في الأساطير اليونانية - ابن ملك طروادة وهو الذي اختطف هيلين . (المترجم)

(٥) آريس : في الأساطير اليونانية - رب الحرب وكان ابن زيوس كبير أرباب آلهة الأولمب من زوجته هيرا . أحب أفروديت إلهة الحب والجمال وتزوجها . وقد مُجرح في حرب طروادة وأخذ أسيرا . (المترجم)

الاغتصابات ، فلا جدال في أن هيرودوتس قد أظهر إدراكا عميقا ، حين اعتبر التلاقي بين اليونان والفينيقيين فصلا مبكرا في السلسلة التي تضمنت الحرب بين اليونان والفرس .

ولسنا بحاجة هنا إلى أن نستعيد هذا التسلسل حتى إندلاع الحروب الفارسية ؛ بل سنمضي قُدُما في تتبع سلسلة الهجمات - والهجمات المضادة - طوال العصور التالية لعصر هيرودوتس ؛ وننظر إلى أين تقودنا هذه السلسلة .

لم تكن الهزيمة المثيرة التي لقيتها الغزوات الفارسية لبلاد اليونان ، إلا الحلقة الأولى من الجزاء الذي أنزله هذا العمل العدواني على رؤوس مرتكبيه . وتمثلت النقمة النهائية في قرار فيليب المقدوني القاضي بغزو الإمبراطورية الأخيمنية نفسها ؛ وكان الإسكندر الأكبر هو الذي افتتح الفصل الأول من هذه الرواية الجديدة . وبقدر ما وفق الإسكندر توفيقاً مثيراً في تنفيذ وصية والده السياسية ؛ فشل إجزرسييس Xerxes فشلا مريعا في تنفيذ وصية والده دارا Darius .

وعلى أنقاض الإمبراطورية الأخيمنية التي دمرها الإسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد ، ومُلك قرطاجنة الذي دمرته روما في القرن الثالث قبل الميلاد ؛ شيد المجتمع الهليني ساطعاً له على جيرانه ، تجاوز إلى حد بعيد ، أقصى أحلام الطموح التي راودت المغامرين الهلنيين الذين أبحروا تجاراً إلى طرسوس ، أو جنوداً مرتزقة في مصر أو بابل . لكن العدوان الهليني ، اندفع بعد وفاة الإسكندر اندفاعاً يُنذر بالشر ؛ فاستثار رد فعل من جانب ضحاياه الشرقيين ؛ وعلى مَرِّ الأيام ؛ وفق رد الفعل هذا في نهاية المطاف في إسترجاع توازن ، كان قد طال أمدُه في جانب الهلنيين . حدث هذا التوازن ؛ وقتما وفق العرب المسلمون البدائيون في نقض ما أنجزه الإسكندر بعد انقضاء ألف سنة من عبوره الدردنيل . إن العرب بفضل سلسلة حملات خاطفة كالبرق ، قد حرروا الأراضي التي كانت جزءاً من

العالم السورى وقتا ما ؛ وتمتد من سورية حتى أسبانيا . وكانت تلك الأراضى حتى بداية القرن السابع الميلادى ، ما تزال تحت حكم الإمبراطورية الرومانية أو خليفاتها دولة القوط الغربيين .

ولعل لإعادة تشييد دولة عالمية سورية فى شكل خلافة عربية ، انتظمت الأملاك السابقة لكل من الإمبراطوريتين الأخمينية والقرطاجية ؛ كان بشيراً بإنهاء هذه السلسلة من التلاقى . على أن من سوء الطالع ؛ أن العرب الذين أخذوا بثأر المجتمع السورى الذى كان وقتا ما ضحية العدوان الهلنى ، لم يقنعوا بتجريد المعتدى من الأراضى التى إنتهكت حرمتها . لأن العرب ارتكبوا نفس الخطأ الذى ارتكبه دارا . حين تحولوا إلى الهجوم المضاد ، دون أن يجدوا لأنفسهم عذرا فى الوقوف عند حدود لا يمكن الدفاع عنها ؛ فيصبح لا مناص فى تخطيطها ، إذا لم يتيسر الارتداد عنها . فحقا ؛ عبر العرب الحدود الطبيعية عند جبال طوروس فى طريقهم لحصار القسطنطينية فى ٦٧٣/٧ ، ثم فى عام ٧١٧ م ، وعبروا الحدود الطبيعية عند جبال البرانس عام ٧٣٢ م لغزو فرنسا . كما اقتحموا فى القرن التالى : الحدود البحرية الطبيعية ، وتقدموا لغزو كريت وصقلية وآيوليا ، وإقامة رؤوس جسور على ساحل البحر المتوسط تبدأ من نهر الرون حتى نهر « جاريانو » "Garigliano"^(١) . إن هذه الاعتداءات البخسورة ، قد تعرضت للنقمة فى الوقت المناسب .

إذ ألهمت إعتداءات المسلمين خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ؛ الطاقات المنفجرة لمسيحية الغرب فى القرون الوسطى . وعبرت هذه الطاقات عن نفسها فى الحروب الصليبية . وهذه بدورها قد استثارت ماكان متوقعا من رد فعل مضاد من جانب ضحاياها . فإن جهود صلاح الدين وغيره

(١) نهر جاريانو : نهر فى جنوب إيطاليا ، يصب فى البحر الأبيض المتوسط . (المترجم)

من أبطال الإسلام - من قبل ومن بعد - قد طردت الفرنجة الصليبيين من سورية . وأتم العثمانيون ما عجز عن إتمامه المسيحيون الأرثوذكس من طرد الفرنجة الصليبيين من « رومانيا »^(١) ، بالمثل . وعندما أنجز الإمبراطور العثماني محمد الثاني الفاتح (حكم ١٤٥١ - ١٤٨١) صنيع عمره وهو تزويد العالم اليوناني الأرثوذكسي المتحلل بدولة عالمية في صورة إسلامية ؛ أتاح عمله هذا فرصة أخرى لوضع حد للصراع ، عند نقطة يتوافر عندها التوازن . لكن العثمانيين ، أعرضوا عنها .

وكما اعتدى العرب المسلمون - بلا مبرر - على بلاد المسيحية الغربية في فرنسا وإيطاليا وغيرهما ، خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين (فاستثاروا بذلك في العصر الوسيط هجوما غربيا مضادا اتخذ شكل حملات صليبية ، وإن كان قد أخفق في النهاية ؛ كذلك اقتحم الانتراك المسلمون - بلا مبرر - بلاد المسيحية الغربية مندفعين على طول الدانوب إلى معاقل الغرب . وفي هذه المرة ؛ اتخذ رد الفعل الغربي ، شكلا أكثر أصالة وأوخم عاقبة .

وحقاً ؛ كان طي العالم المسيحي الغربي بين طرفي الهلال العثماني ، قد بلغ من التوفيق حداً دفع الغربيين إلى تعويض خسائبرهم في البحر المتوسط الذي أقفل في وجوعهم بتسخير طاقاتهم مرة أخرى في الإقلاع لغزو المحيط ؛ الأمر الذي جعل منهم بعد ذلك سادة على العالم . وإن إستجابة الغرب الناجحة هذه - لكن نجاحاً غير ثابت - تبدو لمراقب يقف عند منتصف القرن العشرين وهي تحمل بين طياتها رد فعل مضاد ؛ أو ربما ، جملة من ردود الفعل المضادة .

(١) يقصد بها الأستان؛ المؤلف : أراخي الدولة الرومانية الشرقية وكانت عاصمتها القسطنطينية . (المترجم)

لقد جئنا عن طريق طويل بدأ باغتصاب «إيو ١٥» و «يورپا Europa» ؛ ولم تلح النهاية في الأفق بعد .

(٢) تباين الاستجابات

إن عرضنا للتلاقى - أو بعبارة أوضح - لسلسلة التلاقى التي اتخذناها تفسيراً لهذا النوع من السياق ؛ يوحى بأنه فى كل تلاقى لا محيص عن وجود معتد فى ناحية ؛ يقابله فى الناحية الأخرى ، ضحية للعدوان . على أنه لما كانت هذه المصطلحات تنطوى على حكم أخلاقى ؛ يكون من الأفضل أن نستخدم مصطلحين محايدين معنويين : الفاعل والراكس^(١) . أو باستخدام مصطلحين ألفئهما فى مستهل هذه الدراسة : الجانب الذى يتحدى ، والجانب الذى يستجيب للتحدى . وإن غابتنا الآن أن ننظر فى أنواع رد الفعل - أو الاستجابة - التى استثيرت فى مجتمعات واجهت التحدى ، وأن نبوّب هذه الأنواع .

ومن المفهوم بالطبع ؛ أن العدوان الذى يقوم به الفاعل الأسمى ، قد يكون من العنف بحيث يترتب عليه إخضاع الطرف المعتدى عليه أو استئصاله ؛ دون أن يبذل أية مقاومة فعالة . هذا كان بلا شك مصير كثير من المجتمعات البدائية التى ساقها سوء طالعها إلى ملاقة الحضارات . إنها قد اندرست مثلاً اندرس طائر الـ «دودو dodo»^(٢) مع وصول الإنسان الغربى الحديث إلى جزائر موريس Mauritius . وتحاللت مجتمعات أخرى - أكثر أو أقل حظاً - على مد أجلها بشكل غير ملحوظ ؛ مما جعلها موضع اهتمام علماء الأنثروبولوجيا^(٣) .

(١) الراكس : ما يحدث رد فعل أو ركس . (المترجم)

(٢) دودو : طائر كبير اسمه العلمى didius ineptius . يشبه الحمام وبه آثار أجنحة مندرسة . كان يوجد فى جزائر موريس بالمحيط الهندى بأعداد وفيرة ، ثم انقرض . (المترجم)

(٣) علم دراسة الإنسان ، بأوسع المعانى . فهو يتناول دراسة الإنسان أو البشرية من نواحي : الجسم ، الذهن ، التطور ، العنصر : البيئة . (المترجم)

على أن الحضارات هي محور إهتمامنا . وقد رأينا فعلا ؛ ما يدعو إلى الارتياح فيما إذا كانت أية حضارة قد كابدت هذا المصير : حتى ولو كانت من الحضارات الهشة ، كحضارات أميركا الوسطى والآندية ، التي تحطمت ولن تستعاد كرة أخرى . فإنها بعد بقائها فترة طويلة — في حياة هي والعدم سواء — قد تنبعث كرة أخرى : كما انبعث المجتمع السوري واستأنف قصة حياته بعد ألف سنة من غمره تحت كابوس المجتمع الهليني . وباستعراضنا النماذج البديلة لرد فعل الحضارة ، معتدى عليها ؛ سنبدأ بتلك النماذج التي هي ردود من نفس النوع ، للفعل الذي أثارها . وتعتبر مقابلة القوة بالقوة بالتوة ؛ أوضح الأشكال للرد الذي يكون من نفس النوع . مثال ذلك ؛ أن الهنود والمسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا ضحايا عدوان العسكرية الإيرانية المسلمة ، قد ردوا على ذلك بأن استحالوا هم إلى مقاتلين . وكان هذا أيضاً ؛ الرد الذي رد به السيخ والمهاراتا على سلاطين المغول ؛ ورد الوطنيين من اليونانيين والعرب على العثمانيين . ويحفل التاريخ بأمثلة ردّ فيها فريق ضعيف لا حول له ولا قوة — ردّاً من نفس النوع — وذلك بإتقانه الأسلوب الحربي الفنى للفريق المعتدى عليه . وقد قيل إن القيصر الروسي بطرس الأكبر قد علّق عقب هزيمة شنيعة في موقعة نارفا Narva على يدى شارل الثانى عشر ملك السويد بقوله «إن هذا الرجل سيلقينا كيف نغلبه» وسواء أكان قد تفوّه حقاً بمثل هذه الكلمات أم لم يذكرها ، فليس هذا بالأمر المهم . إذ تتحدث الوقائع عن نفسها ، فتقرر بأن شارل قد علّم وأن بطرس قد تعلّم ، وأن شارل قد هُزم .

وقد انطلق الشيوعيون خلفاء النظام القيصرى خطوة أبعد . فإنهم لم يقتنعوا بامتلاك ناصية الأساليب الفنية فى الصناعة والحرب لدول مثل ألمانيا التى كانت عدوة للروس قبل الحرب العالمية الثانية ، ولولايات المتحدة غريمها بعد هذه الحرب . بل إن الشيوعيين الروس قد ابتدعوا طرازاً جديداً من التّزال ، استعاضوا به عن أسلوب القتال القديم القائم على استخدام

القوة المادية ؛ بصراع روحى ، نصبح فيه الدعاية « الأيدلوجية » هى السلاح الرئيسى ، والحق إن الدعاية التى اصطنعتها الشيوعية كسلاح جديد فى حلبة السياسات الدولية ، لم يكن من صنعها تماما : فقد اصطنعه قبلها المبشرون بالأديان العليا ؛ ثم لاءمها مجتمع المال والأعمال فى الغرب الحديث ، لتفى بأغراض المعاملات التجارية .

وإذا لم يكن فى وسع الدعاية الشيوعية أن تدخل تحسينا ذا بال على أساليب الإعلان التجارية فى الغرب المعاصر ، ومجاراتها فى سخائها فى الانفاق على الدعاية التجارية ، وكدها الدائب بحثا عن الأسواق ؛ فقد استهدفت الدعاية الشيوعية وحقت بالفعل نتائج مختلفة عن أسلوب الدعاية التجارية ، وأعظم منها أهمية . ذلك لأنها أظهرت قدرتها على أن تبعث حماسة طال خمودها فى نفوس قوم من الغرب ، ظمئت أرواحهم ، فهفت إلى الغذاء الذى لا يستطيع المرء أن يحيا بدونه . فراحت — من ثم — تلتهم « الكلمة » التى قدمتها لها الشيوعية ، دون أن تستأنى للتساؤل عما إذا كانت هذه الكلمة هى كلمة الرب . أو كلمة « المسيح الدجال » . إن الشيوعية قد دعت الإنسان الحديث إلى أن يخلّص نفسه من حنين — تعتبره هى حنيننا طفوليا — إلى مدينة فاضلة خيالية — مُشِينه — تقوم فى العالم الآخر . وذلك — كما تقرر — بأن يحوّل الإنسان ولاءه ؛ من إله غير كائن ، إلى جنس بشرى قائم بالفعل ، يستطيع أن يكرّس له جهوده ؛ وذلك بالدأب على العمل لتحقيق فردوس على الأرض .

إن « الحرب الباردة » هى فى الواقع استجابة على الصعيد الدعائى لتحدٍ على صعيد الأسلحة المادية . بيد أنها لم تكن أول استجابة غير عسكرية أثارها التحدى العسكرى ذى الطراز القديم .

إن الاستجابة الروحية لروسيا الشيوعية ، أصبحت أقل تأثيرا روحانيا على رجل الغرب ، إذا ما ذكّر نفسه — إن احتاج إلى مُذكّر — بأن

هذه الدعاية الأيدلوجية لم تكن إلا أحد أسلحة فعالة من مستودع سلاح متملكه دولة إمبريالية ، تسلحت بالفعل من إخص قدمها حتى رأسها ، بأسلحة من القوة المادية .

وننتقل إلى حالات استبهدت فيها تماما مقابلة القوة بالقوة :

ومن الخطأ رد هذا الإجراء أيضا إلى تسامٍ معنوى . ففي مثل هذه الحالات ؛ غالبا ما يُنسب العدول عن مواجهة القوة بالقوة ، إلى عجز أحد الطرفين عن إستخدام قدر معادل من القوة ؛ أو إلى أنه قد استخدم القوة فعلا ، ولكنه أخفق .

وثمة مثال صارخ لاستجابة سلمية لتحدي عسكري ؛ نجده في تطويق المجتمع السورى للعالم البابلي خلال العصر الأخيمني . وجاء هذا التطويق نتيجة للتحوّل الثقافى للمتبهربرين الإيرانيين الذين غدوا حكاما لدولة عالمية . فإن المبشرين بالثقافة السورية الذين تغلبوا على غزاتهم البابليين فى خلب ألباب الإيرانيين ؛ لم يكونوا مغامرين عسكريين ، ولا تجارا مقامرين . بل كانوا مجرد « أشخاص مُبغدين ؛ رحلهم القواد الأشوريون أو البابليون ليحولوا بينهم وبين إستعادة القوة السياسية والعسكرية لدولتهم سواء فى « إسرائيل » أو « اليهودية » . وقد ثبت نجاح الغزاة الأشوريين والبابليين فى تقديرهم هذا . ولكن أمكن ضحاياهم — مع ذلك — أن يتزغوا المبادأة فى نهاية المطاف من أيدي مضطهديهم . وكانت غفلة الطغاة تامة ؛ إلى درجة أنه لم يدر فى خلداهم إحتمال أن يثار المغلوبون فى الميدان الثقافى لما أصابهم . بل لإنهم لم يُدركوا أنهم بأيديهم هم ، قد جعلوا من ضحايا عدوانهم دُعاة ثقافة ؛ وهو ميدان ماكان ليتأتى لهؤلاء المشردين بأية حال من الأحوال ، أن يرتادوه ، لو لم يُوطّنوا فيه رغما عن أنوفهم .

وإذا كانت الجماعة السورية المشتتة قد بذلت طاقاتها لتطبع تأثيرها

الثقافى فى أذهان الشعوب الأجنبية التى انتشرت بين ظهرانيها ، فقد كان يدفعها لذلك ، الحرص على الاحتفاظ بكيانها كجماعة قائمة بذاتها . وفى تاريخ اليهود وغيرهم من الأقوام الذين إقتلِعوا من ديارهم ؛ انجبه هذا الحرص على البقاء ناحية مختلفة تماماً ، وهى الاعتزال بأنفسهم .

ويعتبر الانعزال الذاتى ، ضرباً من ردّ الفعل الذى يسلك طريقاً على صعيد يختلف عن الفعل الذى أثار ردّ الفعل . وتبدى سياسة « الاعتزال » هذه فى أبسط صورها حين يمارسها مجتمع يقطن أرضاً بعيدة المنال . فعلى هذا النحو ؛ كان رد الفعل الذى قام به المجتمع اليابانى الجزرى على الدخلاء البرتغاليين ، خلال تلاقيه الأول مع الغرب ؛ قبل أن يدخل مرحلة التصنيع . وفى ذلك العصر أيضاً ؛ نجح الأحباش فى إصطناع نفس الاستجابة لتحدى هؤلاء الدخلاء البرتغاليين أنفسهم . وكذلك هيأت هضبة التيب معقل لا يكاد يبلغه أحد ، تحصنت فيه عقيدة دينية ماهايانية فى أسلوبها التانتارى Tantara^(١) ؛ وهى بقية متحجرة من مجتمع سندي بائد^(٢) .

وما كان لأى نجاح حققه هذا الاعتزال المادى — الذى عاونته عوامل جغرافية معينة — أن يعدل من ناحية الأهمية التاريخية « الاعتزال السيكولوجى » الذى ردّت به الجماعات المشتتة على نفس التهديد الذى

(١) الماهايانية : مذهب بوذى تعتنقه بلاد شمال شرق آسيا . والتانتارى من كلمة تانارا Tantara وتعنى بالسانسكريتية « الحيط » . وهى عبارة عن مراجع دينية تبحث فى قوى البحر الخفية . وهذه المراجع دى أساس المذهب الماهايانى فى الصورة التى يعتنقها أهالى التيب . (المترجم)

(٢) استولت قوات الجمهورية الصينية الشعبية أخيراً على التيب فأصبحت جزءاً منها . وترتب على ذلك زوال عزله هضبة التيب السياسية والاقتصادية والثقافية . (المترجم)

تعرض له بقاؤها . ذلك لأن الجماعة المشتتة ، كان عليها أن تواجه هذا التهديد ، في ظروف جغرافية ؛ أبعد من أن تكون عوناً لهذه الجماعة المشتتة . بل كانت تضعها تحت رحمة جيرانها .

والاعتزال على هذا النحو ، لإجراء سلبى محض : وحيثما قُبِضَ له أى قدر من النجاح ؛ يكون عادة مصحوباً بردود فعل أخرى ، ذات طابع أكثر إيجابية . ففي حياة الجماعة المشتتة ، يبدو الاعتزال السيكولوجى أمراً مستحيلاً ، ما لم يعتمد من يمارسونه إلى أن يبرزوا في الوقت نفسه — على الصعيد الاقتصادى — كفاية خاصة في استغلال الفرص الاقتصادية التى تُترك مباحة لهم . وتلجأ الجماعة المشتتة إلى تدبيرين رئيسيين هما : قدرة شيطانية في التخصّص الاقتصادى ، والتزام دقيق لكل ما جاءت به شرائعهم التقليدية . وهذان الأمران تصطنعهما الجماعة المشتتة كبديلين لشئيين لا سبيل إليهما وهما ؛ حدود منيعة أو جرأة عسكرية .

أما الرد على القوة بدفعها على صعيد ثقافى ؛ فقد لجأت إليه أيضاً مجتمعات كابدت ضغط قوة أصيلة ، ولكنها تماسكت فلم تتحول إلى شعب مشرد . مثال ذلك أن رعية العثمانيين من المسيحيين الأرثوذكس ، ورعية السلطان المغولى من الهنود ؛ قد وُفّقوا في التغلب على « السيف » بضربة مضادة من « القلم » ؛ واستنام المسلمون غزاة الهند وبلاد المسيحية الأرثوذكسية ، لسراب انتصاراتهم العسكرية الماضية ؛ فعميت عيونهم عن رؤية حقائق الفصل التالى من تاريخهم حين انقسمت مملكتهم وتوزعت بين أيدي الفرنجة . أما الرعية ؛ فقد حزرت انتصارات الغرب القادمة ؛ وكيّفت نفسها للنظام الجديد .

بيد أن جميع هذه الاستجابات السلمية لتحدى البطش التى عرضنا لها ؛ لا تُقاس بطبيعة الحال إلى جانب الاستجابة السلمية الإيجابية الرائعة ، وهى

إقامة دين سام : فإن ضغط المجتمع الهليني على المجتمعات الشرقية المعاصرة له ؛ أنبعثت عنه إجابة من ذلك النوع ، تبلورت في ظهور عقائد : سيبيل Cybele (١) وإيزيس (٢) وميترا (٣) والمسيحية وبوذية المهايانا . كما ترتب على الضغط العسكري الذى قام به المجتمع البابلي على المجتمع السورى ؛ ظهور اليهودية ، والزرادشتية .

على أن هذا الطراز من الاستجابة ذات الصيغة الدينية ، يتجاوز حدود بحثنا الحالى ، إلى مجال البحث فى الطرائق المختلفة التى قد تستخدمها حضارة ما فى الاستجابة لتحديد تقوم به حضارة أخرى . ذلك لأنه إذا ما هيا التلاقى بين حضارتين ، فرصة الظهور لدين من الأديان العليا ، فإن دخول هذا العامل الجديد على مسرح الأحداث ؛ يعنى بداية مسرحية جديدة بممثلين آخرين وحبكة أخرى :

(١) سيبيل Cybele : كانت عبادتها شائعة فى كثير من أنحاء آسيا الغربية . وهى فى الأساطير اليونانية أم طائفة من الأرباب : زيوس ، بوسيدون ، هيدس . ولذلك كانت تعبد على أنها أم الآلهة . وكانت تعتبر فى آسيا الصغرى إلهة الطبيعة أو أم العالم . وكانت عبادتها مصحوبة بطقوس وحشية . ودخلت عبادة سيبيل عام ٢٠٤ ق . م حيث توحدت مع الربة اليونانية أوبس Ops (الوفرة) والدة جوبيتر . (المترجم)

(٢) إيزيس : ربة الحصب والنماء عند قدماء المصريين . زوجة أوزيريس والدة حوريس . وتعتبر قصة وفاتها لزوجها من أجل وأبدع مآسى الأساطير القديمة . وقد دخلت أسطورتها - فى شكل أو فى آخر - فى كثير من العقائد الدينية . (المترجم)

(٣) ميترا : رب الضياء عند الآريين . وقد جعلت منه العقيدة الزرادشتية إبان ظهورها حاميا لـ «أهورمازدا» إله الخير فى صراعه الأبدى ضد «أهريمان» إله الخير . وقد اتحدت عبادة ميترا فى عهد متأخر مع عبادة الشمس . ودخلت عبادته روما عام ٦٨ ق . م وانتشرت بين الرومانيين على نطاق واسع . وأخيرا اندرست عبادة ميترا فى القرن الرابع الميلادى بفعل انتشار المسيحية . (المترجم)

الفصل الثالث والثلاثون

نتائج التلاقى بين المتعاصرين

(١) أعقاب الاعتداءات الفاشلة

إن التلاقى بين حضارتين متعاصرتين ؛ كفيفيل بأن يحدث إزعاجا لهما جميعاً ، حتى ولو حدث هذا التلاقى فى أكثر الظروف ملائمة . كما يحدث حين توفق حضارة ما - فى طور إكمالها - فى درء عدوان شنته عليها حضارة أخرى . والمثال التقليدى لهذه الحال ؛ هو التأثير الذى أحدثته فى المجتمع الهلنى ، نجاح ذلك المجتمع فى صدّ هجوم الإمبراطورية الأخيمنية عليه .

وأول نتيجة اجتماعية ملموسة لهذا الانتصار بالإبداع العسكرى ، تزويد الحضارة الهلنية بحافز استجابة له . فكان أن تفجّرت طاقات الإبداع فى شتى ميادين النشاط . بيد أنه لم تمضِ خمسون سنة على ذلك ، حتى بلغت العواقب السياسية لهذه الاستجابة نفسها ، ذروتها فى شكل كارثة نزلت باليونان وأخفقت فى تجنبها فى بداية الأمر ؛ ثم عجزت عن استجماع نشاطها السابق . إلا أن أصول تلك الكارثة السياسية التى نزلت باليونان فى الحقبة التالية لمعركة سلاميس Salamis^(١) ؛ كانت هى بالذات حوافز حركة البعث الباهرة التى شهدتها أثينا ؛ والتى تفجّرت منها فى العصر التالى لهذه المعركة روائع الثقافة الهلنية .

(١) سلاميس : جزيرة من جزائر اليونان القديمة مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً . وكانت تتبع دولة آتيكا (وعاصمتها أثينا) . (المترجم)

ولقد لاحظنا في مكان آخر من هذه الدراسة ، أن هيلاس (اليونان) قد حققت خلال العصر السابق لاندلاع الحرب الفارسية الكبرى ، ثورة اقتصادية استطاعت بفضلها أن تُقيم أود السكان الذين كان عددهم مطّرد الزيادة ، في نطاق أرض لم تعد قابلة للتوسع . وتم ذلك عن طريق إحلال نظام اقتصادي جديد يقوم على التخصص والتكافل ؛ محل نظام عتيق كانت فيه كل مدينة دولة هيلينية وحدة اقتصادية قائمة بذاتها . وانعقد لأثينا لواء الزعامة في هذه الثورة الاقتصادية ؛ فلعبت فيها دوراً حاسماً . ولكن ما كان لهذا النظام الاقتصادي الجديد أن يبقى ، إن لم تيسر صيانتُه داخل إطار من تنظيم سياسي جديد يتمشى وذلك التنظيم الاقتصادي المبتكر . وهكذا ما وافى القرن السادس قبل الميلاد على نهايته ؛ حتى غدا تحقيق شكل من أشكال الوحدة السياسية ، أمسّ حاجة عاجلة يواجهها العالم الهليني . ولاح في الأفق كما لو أن أسبرطه على عهد تشيلون (١) وكليومينيس (٢) Cleomenes ، هي القدرة على بلوغ الحل المنشودة ؛ وليست أثينا صولون (٣) Solon وبسيستراتوس (٤) Peisistratus .

لكن حدث - لسوء الحظ - أن أسبرطه تخلت لأثينا أمر مواجهة الأزمة التي واجهها اليونان على أثر القرار المدمر الذي اتخذته دارا ببسط الحكم الأخميني على أرض اليونان في أوروبا ، أسوة بأرضها في آسيا . فكان أن تزعمت أثينا الموقف وقامت بدور

(١) تشيلون : أحد الحكماء السبعة المشهورين في اليونان القديمة . عاش تقريباً خلال الفترة ٦٢٠ - ٥٥٠ ق م . ويمزى إليه القول المأثور « إعرف نفسك » . يقال إنه مات من شدة فرحه بفوز ولده بإحدى جوائز الألعاب الأولمبية . (المترجم)

(٢) كليومينيس الأول (٥٢٠ - ٣٩١) : ملك أسبرطه . (المترجم)

(٣) صولون : ٦٣٨ - ٥٥٨ ق م . مشرّع أثينا المشهور . وأهم نقطة في تشريعه ، تقسيمه للمواطنين وفقاً لمساحة ملكياتهم الزراعية . وكان يبتنى من وراء ذلك إيجاد طبقة أوليغاركية تحترف الحكم . وقد زار مصر وتأثر بمشاهداته ودراساته .

(٤) ببسيستراتوس (حوالي ٦١٢ - ٥٢٧) سياسي أثيني . (المترجم)

الفتى الأول على مسرح الأحداث : ونجم عن هذا أن هيلاس (اليونان) وهى تهفو إلى الخلاص من ضائقتها عن طريق الوحدة ؛ ابتليت بمنقذين اثنين متنافسين ، تكاد تتعادل قوتهما ؛ فكانت الحرب الأثينية البلوبونيزية ، حاصل التنافس بينهما وعُقبى ما تلاها من أحداث .

كذلك كان هذا التحوّل السياسى ، المصير الذى حلّ بالمسيحية الأرثوذكسية خليفة العالم الهلنى . وقد داهمها فى أعقاب انتصارها الأشد إثارة للعجب - وفى لحظة هذا الانتصار - على مجتمع سورى ؛ استعداد تكوينه . وتفسير ذلك ؛ أنه غداة انتصار المسيحية الأرثوذكسية على محاولة العرب الاستيلاء على القسطنطينية (٦٧٣ - ٧م) ، كانت المسيحية الأرثوذكسية على شفا الإقدام على الإنتحار . حدث هذا ؛ وقما هدد فيلقان عسكريان - أحدهما أناضولى والآخر أرمنى - بالاشتباك معا فى صراع على السلطان . ولم تنقذ الموقف سوى عبقرية الإمبراطورين ليو الثالث وولده قسطنطين الخامس اللذين استملا الفيلقين المتنافسين إلى تصفية نزاعهما على أساس الإندماج معا فى إمبراطورية رومانية شرقية موحّدة . ولم يستطع أحد من الفريقين المتنازعين أن يقاوم ولاءه لها ؛ حين قدّمت نفسها ، كما لو كانت روما بُعثت من الأجداد .

على أن هذا البعث لشبح ، ليس وسيلة تكفل الخلاص المنشود ؛ وسيلة تتحقق دون أن تنال جزاءها . ذلك لأن الإمبراطور سيروس ؛ بتحميله المجتمع المسيحى الأرثوذكسى الوليد الأعباء التى يفرضها حكم دولة مطلقة السلطان ، قد تسبب فى أن يتخذ التقدم السياسى لهذا المجتمع ، وجهة غير موفقة أردّته على طول المدى .

والآن ؛ إذا ما التقطنا أمثلة لما يحدث فى التاريخ فى أعقاب إعتداءات فاشلة ؛ سنجد أن الاستجابات اللاحقة تدل - بالأحرى - على شدة مراسها .

فلقد انتهى الأمر بالحيشين - مثلاً - إلى حالة من الضعف ميثوس من علاجها ؛ نتيجة لإنهاك قواهم خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد في محاولة فاشلة لفتح أملاك مصر في آسيا . ثم غمرتهم بعد ذلك موجة من هجرات الشعوب التي اندفعت بعد انهيار المجتمع المينوي . ومن ثم ؛ لم يستطع الحيشيون البقاء إلا في رُكام من الجماعات المتحجرة على جانبي جبال طوروس .

وانخذت عواقب العدوان العقيم الذي شنته يونانيو صقلية على منافسيهم الفينيقين والأنوريين ، مظهرًا أخف . إذ أصيبوا بشلل سياسي ، وإن لم يُعجزهم عن متابعة إبداعهم الفني والثقافي .

(٢) في أعقاب الإعتداءات الناجحة

(أ) تأثيرات تصيب الكيان الاجتماعي

لاحظنا في مكان سابق من هذه الدراسة ، أنه حين يحدث التلاقى بين دولتين متعاصرتين ، وينجم عن ضغط الدولة المعتدية تغلغل إشعاعاتها الثقافية في كيان الدولة المعتدى عليها ؛ يثبت - عادة - أن الفريقين المتلاقين كانا يمتازاه - فعلاً - مرحلة تحلل .

ولاحظنا كذلك ، أن أحد مقومات هذا التحلل ، هو إنشقاق الكيان الاجتماعي إلى :

- ١ - أقلية لا همّ لها إلا السيطرة ، لا الإبداع .
- ٢ - جماهير من الدهماء (بروليتاريا) تحولت عن الولاء لزعمائها السابقين ، بعد أن غدوا مجرد « سادة » .

وهذا الإنشقاق الاجتماعي ؛ غالباً ما يحدث فعلاً في الكيان الاجتماعي

لمجتمع يوفق في بث إشعاعاته الثقافية في الكيان الاجتماعي لأحد المجتمعات المجاورة له . والظاهرة الاجتماعية التي هي أبرز نتائج ذلك التوفيق المشؤم — غير المرغوب فيه غالباً — هي تضخم للمشكلة التي يثيرها نفور جماهير الدهماء (البروليتاريا) .

وما البروليتاريا الداخلية — في صميمها — إلا عنصراً مزعجاً في المجتمع ؛ حتى ولو كانت نتاجاً محلياً بحتاً . وتستفحل غلاظتها إذا ما تعززت قوتها العددية وتنوعت أنماطها الثقافية ، بفعل تسرب عنصر دخيل إلى حياتها . وبقدّم التاريخ أمثلة مذهلة لإمبراطوريات صدّفت عن تضخم مشكلاتها بالتوسّع في ضم بروليتاريات أجنبية إليها .

ومن ذلك :

أن أغسطس الإمبراطور الروماني ، رفض — عامداً — السماح لجيوشه بمحاولة مدّ حدوده إلى ما وراء الفرات .

وفي خلال القرن الثامن عشر وما بعده — أثناء الانتصارات الألمانية إبان النصف الأول من الحرب العالمية الأولى — أظهرت بالمثل ، إمبراطورية النمسا الهابسبرجية ؛ إحجاماً عن توسعة حدودها صوب الجنوب الشرقي . بما يتضمنه ذلك من زيادة نسبة العناصر السلافية في إمبراطورية كانت — فعلاً — بالغة التنوع في سكانها .

وكذلك حققت الولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء هذه الحرب ، نفس الغاية بوسائل جد مختلفة . فبمقتضى تشريعات صدرت عام ١٩٢١ و ١٩٢٤ اختُزل — بعنف — عدد الذين تسمح الحكومة لهم ، بالهجرة إلى أراضيها من وراء البحار . ففي القرن التاسع عشر ؛ انتهجت حكومة الولايات المتحدة مبدأ طابعه التفاؤل أطلق عليه الروائي اليهودي إسرائيل زانجويل

Israel Zangwill الاسم التّهكى « بوتقة الانصهار » . بمعنى أنه قد افترض أن جميع المهاجرين - أو على الأقل جميع المهاجرين من أوروبا - يمكن تحويلهم سريعاً إلى أمريكيين أقحاح متعلقين بوطنهم ، ومن ثم ؛ فما دامت أراضي الاتحاد الواسعة ، فقيرة في سكانها المشتغلين بالصناعة ؛ تحسن الجمهورية صنعا بالترحيب بالجميع على أساس مبدأ « الأزيد أبعث على البهجة » . بيد أنه بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، سادت وجهة نظر أكثر تشاؤما . إذ لمس الجميع أن « بوتقة الانصهار » باتت في خطر الإنهالك بسبب ، العمل الدائم .

أما إن استبعاد أفراد البروليتاريا الأجنبية يؤمن استبعاد الآراء البروليتارية الأجنبية - أو الآراء التقدمية - فقد كانت الفكرة الخطيرة - في تعبير اليابانيين - أمرا آخر بطبيعة الحال . وقد أثبتت الحوادث أن الإجابة عنه بالنفي .

إن الحضارة التي تنجح في عدوانها ، عليها أن تدفع الثمن الاجتماعي لنجاحها . ويتمثل هذا الثمن في تسرب ثقافة ضحاياها الأجنبية ، إلى مجرى حياة بروليتاريتها الداخلية (أى جماهير دهمائها) . ومن ثم ؛ تزداد إتساعاً ، الهوة المعنوية القائمة فعلا بين هؤلاء الدهماء الساخطين وبين الأقلية المتطلعة إلى السيطرة .

وهذا ما أدركه جوفينال Juvenal الكاتب الرومانى الساخر وعبر عنه في أوائل القرن الثانى الميلادى بقوله « إن نهر العاصى Orontes في سوريا أصبح يصبّ في نهر التيبر في إيطاليا !! »^(١)

(١) كناية عن التأثيرات السورية التى ألت بالمتجمع الرومانى الغربى وتجلت في ذلك الوقت - بصفة خاصة - في الإقبال العظيم على إعتناق المسيحية ، وهى عقيدة نشأت في سورية .
(المرحم)

أما في المجتمع الغربي الحديث الذى ما انفك يُشعّ تأثيره على الكون بأسره ؛ فإن نهر العاصى الصغير لم يعد وحده الذى يصبّ في نهر التبر ، بل أصبح نهر الجانج الهندى العظيم ونهر يانج تسى الصينى الكبير يصبّان في نهرى التيمس والهدسون . بينما عكس نهر الدانوب اتجاهه فأصبح يحمل في مجراه الأعلى « غربنا » ثقافيا يتألف من معتنقى الثقافات الغربية من أهل رومانيا والصرب واليونان^(١) ؛ إلى حيث يرسبهم في بوتقة إنصهار - طفح كيلها - مركزها فيينا .

والنتائج التى تتمخض عن عدوان - ناجح - على الكيان الاجتماعى لمجتمع معتدى عليه ، تكون أشدّ تعقيداً ، من غير أن تكون أقلّ تدميراً .

فسنجد - من ناحية - أن عنصراً ثقافياً كان عديم الضرر ، أو كانت له فائدته في الكيان الاجتماعى الذى هو وطنه ؛ سنجد أن هذا العنصر قمين بأن يحدث نتائج غريبة ومدمرة ، إن أُدخل في جسم آخر . وهذه شريعة يوجزها المثل القائل « اللحم يتغذى به إنسان يكون سماً لآخر » .

ومن ناحية أخرى ؛ سنجد أنه عندما يوفق عنصر ثقافى - كان منزلاً في وقت من الأوقات ، في شق طريقه في حياة مجتمع مُعتدى عليه ؛ سنجد هذا العنصر ميّالاً إلى أن يجرّ وراءه عناصر أخرى من نفس المنبع .

ولقد صادفتنا بالفعل أمثلة لهذا التأثير المدمر الذى يقوم به عنصر ثقافى ترك ، موطنه واقتحم وسطاً اجتماعياً غريباً عليه : فلاحظنا - مثلاً - طائفة من الماسى التى أنزلها ضغط نظام سياسى معين من أنظمة الغرب ، على عدة مجتمعات غير غربية . إن الظاهرة الأساسية ، للأيدولوجية

(١) وهى شعوب تنسب ثقافياً إلى الحضارة الأرثوذكسية الشرقية لكنها تأثرت بالحضارة الغربية عن طريق فيينا عاصمة النمسا . (المترجم)

السياسية الغربية هي إصرار تلك الأيدلوجية على اعتبار المجاورة الجغرافية — وهي ظاهرة طبيعية عَرَضية — شرطاً أساسياً لمبدأ المشاركة السياسية .
 ففى بداية تكوين المجتمع المسيحى الغربى ؛ رأينا مصداقاً لهذا — هذا المثل الأعلى يظهر فى بلاد القوط الغربيين ؛ مما جعل الحياة غير محتملة لجماعة محلية من اليهود الذين شُنتوا . ومن ثم ؛ فإن هذا الاضطراب الذى اعتمل على هذا النحو فى بلاد القوط الغربيين ، قد بدأ يُصيب العالم خارج الغرب المسيحى . ذلك ؛ عندما حملت موجة قوية من التأثير الثقافى الغربى الجديد معها إلى أركان العالم — ركناً بعد آخر — هذه الأيدلوجية السياسية الخاصة بالغرب ، وقد قُدِّر لها فى أيامنا هذه أن تزداد تضخماً بتأثير الروح الديمقراطية الجديدة ، على النظم القديمة القائمة على السيادة الإقليمية ، كما تُمثِّلها الدول الإقليمية .

ولقد شاهدنا كيف أنه فى سياق المائة عام المنتهية عام ١٩١٨ ، استطاعت القومية القائمة على اللغة الواحدة ، أن تمزق إرباً ملكية الهابسبرج الدانوبية . وهذا التنقيح الثورى الذى طرأ على الخريطة السياسية لأوروبا قد أضفى بركة على التحرر السياسى المؤقت — وإن كانت هذه البركة موضع شك — على شعوب كانت مغمورة فى مملكة متحدة من بولندا وليتوانيا ، ثم قُسمت فى أواخر القرن الثامن عشر . بين إمبراطوريات أسر : هابسبرج ، وهوهنزولرن ، ورومانوف فبعد أن تداعت عام ١٩١٨ هذه الإمبراطوريات الثلاث التى تولت عملية التقسيم ، برز إلى الميدان طموح بولوفى مصاب بجنون العظمة ، رنا إلى إعادة تشييد الدول البولندية ، وفقاً لما كانت عليه عام ١٧٧٢ م ، واعتبارها أسواراً لأرض هى المجال الحيوى لأمة بولندية ممتازة^(١) .

(١) استعمل الأستاذ المؤلف هنا الكلمة الألمانية Lebensraum التى دأب الساسة الألمان على استخدامها إبان العهد النازى وتذرعوها بها لمهاجمة بولندا وروسيا خلال حرب ١٩٣٩ / ٤٥ . =

بيد أن هذا قد استثار مقاومة عارمة من الليتوانيين والأوكرانيين الذين كانوا شركاء البولنديين - لا رعاياهم - في الدولة الكبرى التي أنشئت فوق النوازع القومية عام ١٥٦٩ م . وقد هيأت المنازعات القتالة التي تردت فيها هذه القوميات الثلاث طوال السنوات التالية - وهي منازعات سيرتها روح شريرة من القومية اللغوية - هيأت الطريق لتقسيم بولندا من جديد بين الروس والألمان عام ١٩٣٩ ؛ ثم بعد محن مروعة ، مهّدت السبيل لسيطرة روسيا الشيوعية عليها .

على أن الاضطراب الذى نجم عن إدخال نظام غربى تقليدى مصفى فى بلاد شرق أوروبا التي تكوّن النغور الشرفية للعالم الغربى ؛ لم يكن بالخطورة التي ترتبت على إدخال « جرثومة » القومية فى الكيان السياسى للإمبراطورية العثمانية . فما كان فى الاستطاعة مقارنة التنظيم الفوضىى الغير العملى للدولة البولندية الليتوانية فى القرن الثامن عشر ، ولا بملكية هابسبرج المستنيرة ذات الطابع المتقلب ، لا تمكن مقارنة أى منهما بالنظام « الملى » (الطائفى) العثمانى من ناحية قيمته كحل بديل لمشكلة اشتركت فى مواجهتها هذه الدول الثلاث . مشكلة مدارها اصطناع نظام سياسى عملى ليجتمع كبير مركّب من جماعات ممتزجة جغرافيا ؛ وحياتها أكثر شهاً بالحرف والمهن ، منها بقوميات غربى أوروبا المنفصلة عن بعضها جغرافياً .

ولن نحتاج هنا إلى استعادة ما ذكرناه فى صفحة سابقة من هذا الجزء عن الوسائل العنيفة التي استخدمت لتقطيع أوصال التنظيمات الطائفية العثمانية وتحويلها بالقوة لتتخذ شكلاً غربياً عليها ؛ وهو شكل القومية المستقلة ذات السيادة . ونكتفى هنا بأن نلاحظ أعمال العنف التي صاحبت تقسيم

= ودلّوا بها على أحقية الشعب الألمانى فى مجال حيوى للتوسع فى أوروبا الشرقية . وكان الأستاذ المؤلف يشير إلى أن الدولة البولندية رنت فى بداية عهد قيامها وبعد تحررها من ربة محتليها ، إلى تنفيذ سياسة جائرة نفذتها عليها بعد ذلك دولة أقوى منها هي ألمانيا النازية . (المترجم)

الإمبراطورية الهندية البريطانية ، إلى دولتين قوميتين - الهند وباكستان -
تعادى إحداهما الأخرى ، وما صاحب تقسيم أرض فلسطين - التي كانت
تحت الانتداب البريطاني - إلى دولتين متعاديتين هما إسرائيل والأردن .
هذه الأعمال ومثيلاتها ؛ نماذج للنتائج المهلكة التي ترنبت على إدخال
أيدلوجية غربية هي « العصبية القومية » في بيئة اجتماعية عاشت فيها طوائف
عدة ممزجة فيما بينها جغرافياً ، وقد مُكِّنَت من العيش جنباً إلى جنب
بفضل تنظيمها الملّى (الطائفي) .

وبالمثل ؛ فإن الاحتمالات المهلكة التي نزرع العناصر الثقافية إلى إحداثها
وقمنا تنشقّ عن إطارها الأصل وتُنقل إلى وسط اجتماعي غريب عنها ؛
يمكن توضيحها بإيراد أمثلة على الصعيد الاقتصادي . من ذلك أنه في
جنوب شرق آسيا - بصفة خاصة - وضع العيان التأثير المعنوي الفاسد
الذي لُتَرَتَّبَ على استيراد أساليب التصنيع الغربي . فإن ثمة ثورة صناعية
عجلت بها المشروعات الاقتصادية الغربية ؛ فأحدثت - وهي تعمل
على جمع الوقود « البشري » لأفرائها الاقتصادية - مزيجاً جغرافياً من
أقوام أفجاج لم يتلقوا بعد أى تهذيب اجتماعي (١) .

« ما برحت القوة الاقتصادية في كل مكان من العالم الحديث ،
تُحدث توتراً في العلاقات بين رأس المال والعمل ، بين الصناعة والزراعة ،
بين المدينة والقربة . على أن الشرق الذي اصطنع الأساليب الأجنبية ،
ليس مجرد فاصل بين الأوروبي وأهالي البلاد (٢) ، ولكنه يقف كذلك

(١) تطورت أحوال التنمية الصناعية خاصة والاقتصادية بصفة عامة في معظم البلاد
الآسيوية والأفريقية . إذ أصبحت تسير وفقاً للتخطيط الاقتصادي على أساس التنظيم الاشتراكي
لشئون الإنتاج . (المترجم)

(٢) أهالي البلاد : يقصد بهذا الاصطلاح ، السكان الذين ينتسبون بحكم المولد إلى
مكان ما . فهم من أهاليه ، عكس الغرباء أو الأجانب عن المكان بمولدهم وإحساساتهم -
وهي ترجمة كلمة الإنجليزية natives . (المترجم)

عائفا بين أهالى البلاد والعالم الحديث . إن عبارة « الكفاية » لم تفعل إلا أن أقامت هيكلا ضخماً من ناطحات السحاب على أرض شرقية ، وأسكنت أهالى البلاد فى الطابق السفلى (البديروم) . إن الجميع يسكنون نفس البناء ، لكن البناء نفسه ينتمى إلى عالم آخر ، هو العالم الحديث الذى لا مجال فيه لأهالى البلاد . وفى هذا الاقتصاد المتعدد المظاهر ؛ نجد التنافس بين الناس أشد هولاً مما هو فى العالم الغربى . وفى هذه البلاد ؛ نلقى النزعات المادية والعقلية والفردية ، ونزعة التركيز على الغايات الاقتصادية ؛ نلقاها فى صورة أكمل وأتم بكثير مما هى عليه فى البلاد الغربية المتجانسة . فى بلاد الشرق هذه . نلقى تنافساً قاسياً فى عمليات السوق والتبادل ، نلقى عالماً رأسمالياً قوامه المصلحة المالية الذاتية ، عالماً يمثل الرأسمالية بأشد مما يمكن للمرء تصوره فيما يدعى بالبلاد الرأسمالية ؛ وهى بلاد تمت ببطء من أعطاف الماضى ولكنها لاتزال تربطها به مئآت الجذور»^(١) . . . ومن ثم ؛ فعلى الرغم من أن هذه المنشآت التابعة قد أعيد تنظيمها طبقاً للأساليب الغربية ، إلا أنه تنظم شكلي . وهكذا يتبدى لنا كما لو أن دولة من العصور الوسطى قد استحوالت فجأة إلى مصنع حديث^(٢) و^(٣) .

(١) صفحة ٧٨١ . Boeke, Dr. J.H. De Economische Theorie der Dualistische Samenlewing in de Economist, 1935.

(٢) صفحات ٤٢ - ٤٤ : Furnivall, J. S. : Progress and welfare in Southeast Asia, New York 1941. Secretariat, Institute of Pacific Relations . وقد بسط المؤلف تفصيلات وجهة النظر التى اقتبسناها فى صفحات ٦١ - ٦٣ .

(٣) إن الصورة التى رسمها المؤلف الأول يرجع العهد بها إلى عام ١٩٣٥ : والمؤلف الثانى فى عام ١٩٤١ . وقد تغيرت تماماً : ففى الصين مثلاً . اختفى دور رؤوس الأموال الأجنبية تماماً من حياة البلاد الاقتصادية . وأصبحت البلاد الآسيوية الأخرى - عدا قلة - هى التى تهتم على التنظيمات الاقتصادية وفقاً للمذهب الاشتراكى ؛ وإن كانت هذه الهيمنة تختلف من ناحية السطوة والشمول من بلد إلى آخر . وحقاً كان لابد للتخلص من المتناقضات التى ترزح تحتها البلاد الشرقية - وهى ما بينها المؤلف - من حل واحد هو التخلص من الاستثمار أولاً ، ثم لإرساء الاشتراكية فى جوانب الحياة المختلفة وبخاصة الاقتصادية منها . (المترجم)

و « القانون » الثانى الذى نصطنعه لدراسة الإرسال الثقافى والاستقبال الثقافى ؛ مداره اتجاه أنموذج ثقافى توطد فى كيان اجتماعى مُرسِل ؛ إتجاهه لتوكيد شخصيته فى كيان اجتماعى مُستَقْبِل . ويتم هذا عن طريق إعادة تجميع وتأليف العناصر الثقافية التى يتألف منها هذا النموذج الثقافى ؛ والتى انفصل بعضها عن بعض أثناء عملية الإرسال . ولا بدّ أن يصطدم هذا الاتجاه باتجاه آخر ، يعترضه ويقاومه ؛ من جانب المجتمع المعتقدى عليه . ولكن مثل هذه المقاومة ؛ لا تنجح عادة ، إلا فى إبطاء خُطى هذه العملية .

وعندما نراقب هذه العملية الشاقة (أى عملية التسرّب) وهى تمضى قُدُماً حتى غايَها الصعوبة المئال ، حين تغلب فى آخر الشوط على جميع العوائق ؛ نجد أن العناصر الثقافية المقتحمة ليست على هذه الدرجة من الانفصال ؛ كما قد يترأى للبعض . فحتماً ؛ « إن حدوث شىء يقود إلى حدوث شىء آخر » .

وفى الواقع ؛ إن المجتمعات التى تواجه العدوان على هذا النحو ؛ ليست بغافلة دائماً عن النتائج التى يُنتظر أن تعقب السماح بدخول عنصر ثقافى غريب ؛ مهما يكن من ضآلته الظاهرة وضعفه البادى عن إلحاق أى أذى . وقد سبق أن طالعنا فى التاريخ ؛ طائفة من مظاهر التلاقى ، وُفِّقَ فيها مجتمع معتدى عليه فى درء هجوم معتدٍ عليه ، دون أن يهين له فرصة البقاء ولو وقتياً .

وكذلك مرّت بنا حالات أخرى لمجتمعات تمسّكت بالعزلة لاتريم عنها . وقد كسبت انتصارات نادرة ، ولكنها انتهت بالفشل . ودعونا هذه السياسة بـ « المعزلة »^(١) . وهو اسم كان يُطلق على حزب يهودى

عمل على نبذ أو إقصاء الثقافة الهلينية - كلية - من « الأرض المقدسة »^(١). ويتميز المجتمع المعتزل بعاطفته وحده للأمر؛ وإن كان من الممكن تحقيق سياسة الإعتزال على أسس عقلية - صرفة خالية من العاطفة. وأمامنا مثال تقليدي لتلك الحالة الأخيرة؛ في قطع العلاقات بين اليابان والعالم الغربي. تلك السياسة التي نفذها - بعد روية دقيقة - هيدويشي Hideyoshi وخلفاؤه من أسرة توكوجاوا Tokugawa خلال الواحد والخمسين عاما المنتهية عام ١٦٣٨ م. وأكثر من ذلك إثارة للعجب؛ أن نجد هذا الإدراك لكون جميع العناصر المختلفة في أنموذج ثقافي دخيل معتمد بعضها على البعض الآخر؛ نجد هذا الإدراك يودي - بنفس خطوات التفكير - إلى نتيجة مماثلة في ذهن حاكم رجعي لبلد عربي منعزل ومتأخر.

إن عقلية المعتزل من هذا النوع تنضح بشكل لاذع؛ في حديث جرى في العشرينات من هذا القرن بين الإمام يحيى الزيدى إمام صنعاء، وبين مبعوث بريطاني عٌهدت إليه مهمة إقناع الإمام بأن يُعيد - دون نزاع - قطعة أرض تابعة لحماية عدن، سبق أن احتلها خلال الحرب العالمية ١٩١٤/١٨. ففي خلال المقابلة الأجرة - بعد أن وضح أن البعثة لن تبلغ غايتها - أراد المبعوث البريطاني أن يحول المحادثات إلى اتجاه آخر، فأزجى المديح للإمام على مظهر القوة الذي يبدو على جيشه الحديث. فلما شاهد أن مديحه قد وقع من الإمام موقعا حسنا مضى يقول:

وأظن أنكم ستطبقون نَظْماً غريبة أخرى كذلك؟

فأجاب الإمام مبتسماً: لا أعتقد.

حقاً؛ هذا يُثير اهتمامي. وهل أجروا على السؤال عن أسباب ذلك؟

فقال الإمام : لا أظننى ألزم بحج نظم غربية أخرى ،

صحيح ؟ وأية نظم مثلاً ؟

فقال الإمام : هناك النظم البرلمانية . إننى أحب أن أكون أنا الحكومة شخصياً . قد أجد البرلمان مُزعجاً :

فقال الإنجليزى : أما بالنسبة لهذا ، فى وسعى أن أوكد لكم أن الحكومة المسئولة أمام البرلمان ليست بالضرورة جهازاً من حضارتنا الغربية . أنظر إلى إيطاليا ، إنها قد استغنت عنها ، وهى إحدى كبريات الدول الغربية .

فقال الإمام : حسناً ! هناك الخمر : إننى لا أود أن أراها تدخل بلادى حيث هى تكاد تكون مجهولة تماماً لحسن الحظ ؟

فقال الإنجليزى : هذا طبيعى جداً . لكن إن كان الأمر كذلك ، فى وسعى أن أوكد لكم أن الخمر ليست كذلك ملحقاً لا غنى عنه للحضارة الغربية . أنظر إلى أميركا ، إنها تحرم الخمر ، وأميركا كذلك إحدى كبريات الدول الغربية .

فقال الإمام بابتسامة أخرى تعنى انتهاء المحادثة : حسناً ؛ لا أحب النظم البرلمانية ولا الخمر « وما شابه ذلك من أشياء » !

والعبرة من القصة ؛ أن الإمام فى إظهاره حِذق فراسته ، قد اتهم مرماه - ضمناً - بالقصور . فإنه باصطناعه مبادئ التكنولوجيا الغربية بلحيشه ، قد غرز - فعلاً - الطرف الرفيع من الإسفين ؛ ذلك لأنه قد بدأ ثورة ثقافية لن تترك اليمنيين فى النهاية إلا أمام بديل واحد هو « تغطية عُريهم بملابس جاهزة من المصنوعات الغربية » . أى المضى قُدماً حتى النهاية فى إصطناع الأنظمة الغربية .

ولو قُيِّض للإمام أن يلتقى بالمهاجرات غاندى - معاصره الهندى لسمع

هذا الرأى السياسى الهندى القديس . فإن غاندى بمنشدته قومه العودة إلى غزل ونسج قطنهم بأيديهم ؛ كان - حقا - يرشدهم إلى طريقة تسخيرهم أحابيل من الاقتصاد الغربى . على أن سياسة غاندى كانت تستند على افتراضين ، كان لا مناص من تبريرهما كليهما فى النهاية ؛ لو قُبِضَ لسياسته أن تحقق غايتها : ،

الافتراض الأول : أن هبأ الهنود لبذل التضحيات الاقتصادية التى يستلزمها تطبيق سياسة غاندى . وهو أمر لم يحدث بالطبع .

ولكن حتى لو لم يُصب غاندى بنجية الأمل نتيجة لعزوف مواطنيه عن الاهتمام بسياسته الاقتصادية ؛ كان مقضياً على سياسته بالإخفاق . وذلك نتيجة لفساد الافتراض الثانى الذى قامت عليه سياسته ، وهو خطأه فى تقدير القيمة الروحية للثقافة الدخيلة .

فإن غاندى قد أجاز لنفسه أن لا يرى فى الحضارة الغربية - فى طورها الأخير - إلا بناءها الاجتماعى الدنيوى الذى حلت فيه التكنولوجيا محل الدين . وواضح أنه لم يطرأ على باله قط أن حذقه فى استخدام الطرائق المعاصرة للتنظيم السياسى والإعلام والدعاية ، لا يقل « غربية » عن مصانع القطن التى وجهه إليها مطاعنه . لكن على المرء أن يخطو أبعد من ذلك فيقرر أن غاندى نفسه ليس إلا نتاجاً لإشعاع ثقافى ورَدَ إلى الهند من الغرب ؛ فإن الحدث الروحى الذى حرّر « طاقة غاندى النفسية » وأطلق لها العنان ، كان هو التلاقى على هيكل النفس بين روح الهند ، وروح « البشارة المسيحية » كما تضمنتها حياة « جمعية الأصدقاء » (١) .

(١) جمعية الأصدقاء : عرفت باسم « الكويكوز Quakers » . أنشأها جورج فوكس (١٦٢٤ - ٩١) لمقاومة التحلل الخلقي الذى انتشر فى إنجلترا بعد الحرب الأهلية . واستندت دعوته على تعاليم الإنجيل . فائلاً بأن ضياء الرب يمكن فى قلوب الناس جميعاً بلا تفرقة ، وأن على الناس لبلوغ الغفران (الخلاص) إطاعة هذا الضياء والعمل على إظهاره إلى العيان عن طريق المحبة والتجاوز عن الإساءة ومقاولة الشر بالخير . ويتفرع عن هذه المبادئ =

وبعد ، فإن المهاتما القديس والإمام يحيى المحارب قد جمعتهما فكرة واحدة !

ويحدث عادة عند تلاقى مجتمعين ، ويعجز المجتمع المعتدى عليه عن الحيلولة بين طلائع المجتمع المعتدى - أو على الأقل إحداها - وإيجاد مكان لها في بنائه الاجتماعى ؛ فإن فرصته الوحيدة في البقاء تكمن في اصطناع ثورة سيكولوجية . فلعل هذه الثورة (في المجتمع المعتدى عليه) تمكّنه من إنقاذ نفسه بالتخلّى عن موقف الاعتزال واصطناع أسلوب مضاد يقوم على إتقان محاربة المعتدى ، بأسلحته هو نفسه .

فإذا اقتبسنا مثالا من تلاقى « العثمانيين » مع الغرب الحديث في مرحلته الأخيرة ، يطالعنا فشل السلطان عبد الحميد الثانى في تطبيق سياسته الخاقدة القائمة على الاقتباس من الغرب في أضيق الحدود . في حين هدف مصطفى كمال أتاتورك إلى الاقتباس من كل قلبه من الغرب ، إلى أقصى الحدود ؛ ملتصقا بذلك طريقاً للنجاة .

وبالأحرى ؛ إن من العبث القول بأن في وسع مجتمع إقامة جيشه على النمط الغربى ، وترك جوانب حياته الأخرى تجري على ما كانت عليه . وقد سبق لنا - بالفعل - إيراد أمثلة فساد مثل هذا الافتراض : في حالة : روسيا القيصرية ؛ وتركيا إبّان القرن التاسع عشر ؛ ومصر خلال حكم محمد على . فإن الأمر لا يقتصر على جيش يُقام على النمط الغربى ويدعمه العلم والصناعة والتعليم المقتبس من الغرب . ذلك لأن ضباط هذا الجيش

= تقرير جمعية الأصدقاء عدم مشروعية الحرب مهما تكن الأسباب والدوافع . ذلك لأن الحرب شر يخالف طبيعة الرب . لأن الله حبة . ويجب عدم إطاعة الشر بل القضاء عليه عن طريق تعريضه لضياء الرب في القلوب ، أى بوساطة التسامح . وعند ما كان البوليس يهاجم اجتماعات هذه الجمعية ويعتدى الجند على أفرادها ، كانوا نساء ورحالا يمتنعون عن إبداء أية مقاومة . ومن هنا جاء قول الأستاذ المؤلف بأن غاندى قد تأثر في دعوته بمبادئ جمعية الأصدقاء .

(المترجم)

أنفسهم يحصلون على أفكار لا تمت بصلة إلى مهارتهم في فنهم ، سيما إذا ما ابتعثوا إلى الخارج ليحذقوا مهنتهم . ويوضح تاريخ هذه البلاد الثلاثة جميعاً ، ظاهرة عجيبة هي قيام جماعات من ضباط الجيش بتزعم « ثورات تحررية » :

فهذا هو المشهد الذى تعرضه : ثورة الديسمبريين العقيمة فى روسيا التى أجهضت عام ١٨٢٥ م ؛ والثورة المصرية بقيادة عرابى باشا التى قُتلت فى مهبها عام ١٨٨١ م ؛ وثورة جمعية الاتحاد والترقى عام ١٩٠٨ م التى لم تكن حقاً عقيمة ، ولكنها انتهت بكارثة بعد مرور عشر سنوات على بدايتها .

(ب) استجابات النفس

أولاً - تجريد من صفات الإنسانية

حتى إذا ما تحوّل اهتمامنا عن النتائج الاجتماعية التى يسفر عنها التلاقى بين مجتمعين متعاصرين إلى النتائج السيكولوجية ؛ سنجد من المناسب - مرة أخرى - بذل اعتبار خاص لتأثير كل من المجتمعين على الآخر وهما يؤديان الدورين المتقابلين : دورى « الفاعل » و « الرّاكس »^(١) ، أو « المعتدى » و « المعتدى عليه » وسيكون من الأفضل أن نبدأ بدراسة التأثير على الفاعل ؛ ما دام أنه هو الذى استحوذ على المبادرة فى التلاقى .

وإن حضارة ذات نشاط إشعاعى عدوانى وفقت فى اختراق جسم

(١) الرّاكس : ما يحدث ردّ فعل . (المترجم)

اجتماعى غريب عنها ، نجد نماذجها عرضة للاستسلام لأخطا الفاريسين^(١) الذين يشكرون الله لأنه تعالى ليس كبقية الناس^(٢) !!

فإن ثمة أقلية مسيطرة تنزع عادة إلى إزدراء الجماهير التى ألحقها ببروليتاريتها الداخلية ، بعد إذ كانت تنتمى إلى كيان اجتماعى خضع لهذه الأقلية المسيطرة . وهذه الأقلية المسيطرة ، تعتبر تلك الجماهير التى أخضعها لها ؛ عناصر دون البشر ، وأقل من الكلاب . وإن النعمة التى تصاحب هذه الفكرة الدنيئة ، تُثير سخرية من نوع خاص . ذلك لأن معاملة فرد من الناس لمخلوق بشرى كتب عليه أن يخضع - وقتياً - لرحمته ، معاملة تقلّ عن معاملته للكلاب ، هذه المعاملة تعود فتثبت - لاشعورياً - حقيقة يُنكرها هذا الفرد المتحكم . حقيقة تقرر بأن جميع النفوس تتساوى أمام خالقها ، وأن الفرد البشرى الذى يسعى إلى تجريد رفاقه من بشريتهم ، لا يجنى من وراء فعله سوى تجريد ذاته - هى الأخرى - من بشريتها . وعلى كل ؛ لا تتعادل جميع المظاهر المنافية للإنسانية فى شناعتها :

فأقل أشكال المنافاة للإنسانية جوراً ، ما يُظهره ممثلو حضارة ما نجحت فى عدوانها ، ويكون الدين فيها العامل المسيطر والموجه فى حياتها الثقافية . فى مجتمع مثل هذا ؛ يتخذ إنكار بشرية القوم الذين أخضعوا ، شكل توكيد بطلان دينهم . فالمسيحية الغالبة ، تصم مثل هؤلاء القوم ، بأنهم وثنيون ، لم يُعمّدوا . والإسلام يدعوهم كفرّة ؛ لم يُختتنوا . هذا ؛ وتُسام العقيدتان فى الوقت نفسه ، بإمكان علاج الإنحطاط الاجتماعى لـهؤلاء الأفراد المجردين من آدميتهم ؛ بهدأتهم إلى الدين الحق .

(١) انظر تمليق (٢) النوارد بصفحة ٢١٤ من هذا الجزء من الدراسة .

(الترجم)

(٢) يقصد الأستاذ المؤلف ، تعرض الحضارة لتأثيرات المترمتين . ويشير هنا إلى إنكار الفريسيين رسالة السيد المسيح بخلّة وتفصيلاً ومحاولتهم الإيقاع به . (الترجم)

(٢٧ - ج ٣)

وفى كثير من الحالات ؛ راح هؤلاء السادة المسيطرون يطبقون هذا العلاج الشافى ؛ ، وربما جاء هذا فى غير مصلحتهم ، أحياناً .

ولقد استعانت مسيحية القرون الوسطى - لإظهار طابع العالمية فيها - بالفن المرئى . من ذلك ما اصطاح عليه من رسم أحد المجوس الثلاثة (١) فى صورة زنجى : ولما فرضت المسيحية الغربية - فى عصرها الحديث - وجودها على جميع للمجتمعات البشرية الأخرى القائمة بفضل تمكّنها من الملاحقة فى المحيطات ؛ أبانت عن صدق إحساسها بعالميتها ، فى إستعداد الغزاة الإسبانيين والبرتغاليين إلى الذهاب إلى أبعد مدى فى العلاقات الاجتماعية ؛ بما فى ذلك الزواج ممن اهتدين إلى المسيحية الرومانية الغربية كما حددها مجمع ترنت « دون نظر إلى اختلاف اللون » . وكانت حماسة الغزاة الإسبانيين فى بيرو والفلبين لنشر دينهم ؛ أشد من حماسهم فى نشر لغتهم ؛ إلى حد أنهم زوّدوا اللغات الوطنية للشعوب المغزوة بوسائل مكّنتها من مقاومة لغة « قشتالة » . وذلك بتطوير هذه اللغات الوطنية ، لتصلح أداة لنقل الطقوس والآداب الكاثوليكية .

لكن المسلمين قد سبقوا ببناء الإمبراطورية من الإسبانيين والبرتغاليين فى إظهار إخلاصهم لمعتقداتهم الدينية . فإن المسلمين قد تزاجوا منذ البداية مع من تولوا هدايتهم إلى دينهم ؛ دون اعتبار لاختلافات الجنس . بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك . فإن المجتمع الإسلامى قد ورث عن نص وارد فى القرآن ، إقراراً بطائفة من الأديان « عدا الإسلام » هى - رغم ما بها من قصور - أديان سماوية أصيلة ، نزل بها الوحي ؛ وهذا الإقرار ؛ أسبغ على اليهود والمسيحيين أولاً ، ثم اتسع فشمل بعد ذلك الزرادشتيين والهندوس . بيد أن المسلمين قد أخفقوا بجلاء

(١) المجوس الثلاثة هم الذين زاروا السيد المسيح بعد ولادته . (المترجم)

فى الإرتفاع إلى هذا المستوى النسبى من الاستنارة ، وقما جابهم داخل نطاق جماعتهم الدينية ، اختلافات مذهبية بين السُّنة والشِعة . هنا أظهروا بمظهر لا يقل سوءاً عن المسيحيين فى مناسبات مماثلة ؛ سواء فى عهد « الكنيسة الأولى » أو فى « فترة الإصلاح » .

والشكل الثانى من أخف أشكال إنكار السادة المسيطرين ، بشرية من وقع تحت رحمتهم من البشر ؛ هو القطع ببطلان ثقافتهم . وتشيع هذه الفكرة فى مجتمع إنفصم عن تقاليده الدينية وعمد إلى ترجمة قيمها إلى تعبيرات دنيوية . وكان هذا هو قوام التمييز بين الهلينيّين و « المتبربرين » إبان تاريخ العدوان الثقافى لحضارات الجليل الثانى . وترى هذا الفصل الثقافى بين البشر : فى علاقات الفرنسيين بهنود أميركا الشمالية خلال القرن الثامن عشر ، وفى علاقاتهم مع المغاربة والفيثناميين خلال القرن التاسع عشر ، ومع الزنوج الإفريقيّين جنوب الصحراء خلال القرن العشرين من ميلاد المسيح . ووقف الهولنديون نفس الموقف فى علاقاتهم مع الشعوب الملاوية فى إندونيسيا . وعمل سيسيل رودس Cecil Rhodes على إضرام هذا المثل الثقافى الأعلى نفسه فى قلوب سكان جنوبى أفريقيا المتكلمين بالإنجليزية والهولندية ، فصاغ شِعاره « حقوق متساوية لكل إنسان متحضّر جنوب نهر الزمبىزى » .

ولكن هذا القبس من المثالية ؛ أحمِدَ فى أفريقيا الجنوبية ، عقب إنشاء الإتحاد عام ١٩١٠م . وأخذه تفجّر إحساس الهولنديّين الإفريقيّين بقوميتهم ، إحساسا عارما ضيق الأفق . وعمل هذا الإحساس على تأكيد سيادتهم على مواطنهم من سكان جنوب إفريقيا من أصول البانتو والاندونيسيين والهنود ؛ وهى سيادة لا تقوم على تفوق ثقافى أو دينى ، وإنما تقوم على تفوق عنصرى . على أن الفرنسيّين — من الناحية الأخرى — قطعوا شوطا مثيرا فى إضفاءهم طابعا سياسيا على أنماطهم الثقافية . وفى

الجزائر - مثلاً - فُتِحَ باب اكتساب الرعوية الفرنسية الكاملة على مصراعيه منذ عام ١٨٦٥ لجميع الرعايا الجزائريين المسلمين من أهالى البلاد ، على شريطة تقبلهم الخضوع للتشريع الفرنسى المدنى . بما فيه من الجانب الدقيق المعروف بالأحوال الشخصية : وهو ما تفرضه الرعوية الفرنسية الكاملة على متقبلها ، آلياً^(١) .

وقد أخلص الفرنسيون فى تطبيق مثلهم الأعلى بفتح جميع الأبواب السياسية والاجتماعية أمام كل فرد تمارس فى الأسلوب الفرنسى من الثقافة الغربية الحديثة . وظهر إخلاصهم هذا فى حادث كان له - إلى جانب أهميته فى النضال عن شرف فرنسا - تأثير جوهري فى مجريات الحرب العالمية الثانية . فبعد ما سقطت فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ ، تردد سؤال خطير فيما إذا كانت حكومة فيشى أو حركة المقاومة الفرنسية ؛ أيهما سينجح فى تجميع ممتلكات الإمبراطورية الفرنسية فى إفريقيا خلف قضيته . وفى خلال هذه الأزمة ، كان حاكم إقليم تشاد التابع لإفريقيا الفرنسية الاستوائية مواطناً فرنسياً من العنصر الزنجى الإفريقى . وقد نهض هذا الزنجى - الفرنسى الثقافة - بمسؤولياته فى الوقت المناسب ، فانحاز إلى جانب حركة فرنسا الحرة . وبهذا أقام لهذه الحركة أول موضع لقدمها فى الإمبراطورية الفرنسية ، بعد أن كانت - حتى ذلك الوقت - تستند على لندن ، أساساً .

على أن المقوم الثقافى - شأنه فى ذلك شأن المقوم الدينى - فى فصله بين طائفتى السادة المتعالين والأتباع المشبوزين - مهما تعرض للنقد - لا يُقيم هوة - لاسبيل إلى إجتيازها - بين هذين الفريقين اللذين توزع بينهما بنو آدم . ذلك لأن فى وسع « الوثنى » أن يجتاز الخط

(١) لم يفعل الفرنسيون ذلك رغبة منهم فى « رفع » الجزائريين إلى مستواهم الثقافى ، ولكنهم فعلوه « لتفريب » الكيان الجزائرى توكيداً لنظامهم الاستعمارى فى حكم الجزائر الذى يقوم على أن الجزائر جزء من فرنسا . (المترجم)

الذى يفصله عن فريق السادة ، باعتناقه عقيدتهم . والمثل يقال عن المتبربر ؛ ففي وسعه أن ينتقل إلى مكان السادة ، باجتيازه امتحانا . أما الدرك الأسفل الذى يصل إليه السيد المتعالى ، فهو أن يصم المرء ، لا بأنه « وثنى » ، ولكن يصممه بأنه من « أهالى البلاد »^(١) . وهذا السيد المتعالى إذ يصم أعضاء مجتمع أجنبي عنه فى صميم بلادهم بأنهم « أهالى » ينكر عليهم آدميتهم ، إذ يؤكد أنهم - من حيث الكيان السياسى والاقتصادى - ليسوا شيئا يذكر . وهذا السيد المتعالى حين يخصهم بتعبير « أهالى البلاد » يشاكلهم بغير الإنسان من الحيوان والنبات فى أرض عذراء ظلت فى إنتظار مكتشفها من بنى آدم ليدخلوها ويضعوا أيديهم عليها . ووفقاً لهذا القياس ؛ لعل حيوان ونبات تلك المناطق ، يعاملان : إما كحشرات وحشائش ، أجدد أن تستأصل ؛ أو كوارد طبيعية تستبقى وتستغل .

ولقد عثرنا فى سياق أحاديث سابقة ، على مثل قديم لقوم زاولوا هذه الفلسفة البغيضة . وهم تلك العشائر من البدو الأوراسيين الرحل ، التى وفقت عند ما واتها الظروف فى توطيد حكمها وإخضاع أقوام مستقرين . وإن بُناة الإمبراطورية العثمانية بمعاملتهم رفاقهم من البشر كما لو كانوا حيوان صيد أو ماشية ؛ كانوا لا يقلون عنفاً ومنطقاً ، عن بُناة الإمبراطورية الفرنسية فى معاملتهم رعاياهم كمتبربرين . وإذا كان حقاً أن الرعايا الفرنسيين غير المحررين ، أفضل بكثير من « الرعية العثمانية » ؛ فإن من الحق أيضاً أن « الحيوان » الآدمى المستأنس الذى دربه الراعى العثمانى ليغدو كلب حراسة ؛ قد وجد أمامه مجالاً لمواهبه ، أرجب وأبهى مما كان ينتظر الإفريقى « المتطور » ؛ إذا وفق فى أن يصبح موظفاً أو أديباً فرنسياً^(٢) .

(١) أهال البلاد هى ترجمة كلمة natives وكان يستخدمها المستعمرون - سيما الإنجليز - للتحقير والازدراء . (المترجم)

(٢) انظر تفصيل تحليل الأستاذ المؤلف للتنظيم العثمانى للإمبراطورية العثمانية فى صفحات ٢٨٧ - ٢٩٨ من الجزء الأول من هذه الدراسة . (المترجم) .

وشرّ الآثمين في العصر الحديث ؛ الرواد البروتستانت المتحدثون بالإنجليزية ، الذين ذهبوا في طليعة توسّع المجتمع الغربي فيما وراء البحار . فارتكبوا خطيئة بُناة الإمبراطورية من البدو ، بمعاملتهم نفوسا بشرية معاملة « أهالي » البلاد . حقا ؛ لقد كرر هؤلاء الرواد البروتستانت ، نفس الجريمة القديمة . وتمثلت أفظع مظاهرها ؛ في تردّيهم في الهاوية ، خطوة لم يسبق للعثمانيين الإنحدار إليها . فلأنهم في سبيل تأكيد أن « أهالي البلاد » من حيث الكيان لا شيء ، وصمّوهم بأنهم نسل « أجناس منحطة » !!

ومن بين الوصمات الأربع التي ألصقها الفريق المتعالى بالفريق الذى جرّده من آدميته ؛ كانت وصمة الانحطاط العنصرى . أشدّها سوءاً ؛ للأسباب التالية .

أولاً - هى تأكيد لتجريد فريق من آدميته . فهم - فى عُرْف هذا الفريق - لا شيء ، وهم لا يصلحون لشيء . فى حين أن نعت المرء بـ « الوثنى » أو « المتبربر » أو « البلدى » - مهما يكن مؤذيا - فإنه لا يعدو إنكار هذه الصفة أو تلك من صفات البشر على هذا المزمع وحرمانه أى حق - يقابل هذه الصفة - من حقوق البشر .

ثانياً - أن إنقسام الجنس البشرى بسبب العنصر ؛ يخلف عن إنقسامه بسبب الدين أو الثقافة أو السياسة أو الإقتصاد ؛ من ناحية كونه يُقيم هوة بين الجانبين المنقسمين لا يمكن اجتيازها .

ثالثاً - تختلف وصمة الانحطاط العنصرى عن وصمة انحطاط الدين أو الثقافة (وإن لم تختلف فى هذا الصدد عن وصمة الانحطاط السياسى الاقتصادى) من ناحية أنها اتخذت مقومها ، أشد مظاهر الطبيعة البشرية سطحية وتفاهة وحقارة : لون البشرة ، أو شكل الأنف !!

ثانياً - نزعة التزمّت^(١) ، ونزعة المسايرة^(٢) :

إذا ما اتجهنا إلى بحث الاستجابة التي يُبديها الجانب المعتدى عليه ؛ يلوح لنا أن أمامه أن يختار أحد أسلوبين متضادين سبق أن اهتمدنا إليهما فيما مضى ، واستخدمناهما في أجزاء مختلفة من هذه الدراسة . وهما إسمان وردا في أقاصيص العهد الجديد (الإنجيل) .

ففي ذلك العهد ؛ كانت الحضارة الهلينية تضغط على اليهودية بقوة ، على جميع مستويات النشاط الاجتماعي . فما كان في وسع أي يهودي يتجاهل أو يهرب من مواجهة سؤال مداره : هل يغدو هلينيا ، أو لا يغدو هلينيا . فأما عَصبة المزمّتين ؛ فقد تألفت من أناس انحصرت سيّورتهم الفكرية في دفع المعتدى والإرتداد إلى حصن روحي مُشيد مما ورثوه عن تقاليدهم اليهودية الخاصة . وكانت تحركهم عقيدة تقوم على إعتناقهم بأنهم إذا ما تشبّثوا بتقاليد أجدادهم والتزموا بحذافيرها - ولا شيء غير هذا - فإنهم سيستمدون من نبع حياتهم الروحية - الذي استماتوا في الحفاظ عليه - قوة خارقة تعينهم على رد غائلة المعتدى .

وأما عَصبة المسايرين - في الناحية الأخرى - فقد تألفت من أتباع سياسي انتهزى - هيرود Herod^(٣) - نشأ في منطقة

(١) في الأصل Zealotism : طائفة يهودية ، إعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها والتزمّت في معتقداتها الفكرية . (المترجم)

(٢) في الأصل - الهيرودية Herodiamim : شيعة يهودية يضرب بها المثل في الرياء واصطناع الأساليب الانتهازية والطرق المسالمة لبلوغ الأهداف . انظر إنجيل متى ، إصحاح ٢٢ آية ١٦ . (المترجم)

(٣) هيرود (٧٣ - ٤ ق . م) عينه يوليوس قيصر عام ٤٧ ق . م حاكماً على الجليل . ثم عينه أنطونيوس عام ٤٠ ق . م ملكاً على إقليم اليهودية . ثم استولى على أورشليم بعد حصار طويل . أعاد إنشاء المعبد في مظهر فخيم . لكن اليهود المزمّتين لم يفتفروا له تشييد مسرح =

أدوم^(١)، وكان يقطنها عنصر غير يهودى وضمت فى زمن متأخر إلى مملكة المكابيين . فكان أن تحالف أصله مع عبقرته ليسلك إزاء المشكلة اتجاهاً يتسم بالاعتدال . ومناط سياسة « هيرود الكبير » ؛ دعوة قومه إلى أن يتعلموا من الحضارة الهلينية ، كل ما يثبت أن تحصيله أمر ضرورى لليهود فى الأغراض القضائية والعملية ، للانتفاع به فى المحافظة على كيانهم ؛ وليقودهم إلى حياة رغيدة - إلى حد ما - فى عالم اصطبح بأسباب الحضارة الهلينية . وهذا العالم ، هو يبيتهم الاجتماعية التى لا فكاك منها .

بيد أن نزعة المسائرة بين اليهود ؛ كانت قائمة قبل ظهور هيرود بوقت طويل . وفى وسعنا أن نتبع بداية إصطباغ اليهود - عن طوعية واختيار - بالصبغة الهلينية ، إلى أيام استقرار طائفة المهاجرين من اليهود بالإسكندرية ، حين كانت هذه المدينة - التى ستغدو بوتقة إنصهار بين العناصر المختلفة - لا تزال تحبو . بل إنه حتى فى مملكة اليهودية Judaea - ذلك القطر الجبلى - كان الكاهن الأكبر يوشع بن ياسون - ويعتبر الأنموذج الأول للمدرسة الهيرودية فى الحنكة السياسية - كان قبل عام ١٦٠ ق . م . منهمكاً فى عمله الشيطاني (من وجهة نظر المتزمين) فى استمالة إخوانه الأحدث سناً لتعريض أبدانهم تعريضاً معيياً فى ميادين المصارعة الهلينية ، بالإضافة إلى حجب رؤوسهم - فى ابتدال - تحت قبعات هيلينية عريضة الحافة .

= وحلقة للألعاب الرياضية فى أورشلیم واعتبروا هذا خروجاً على الدين . خلفه بعد موته ابنه انتيباس وهو الذى قتل يوحنا المعمدان لأن القديس شهر به لزواجه من زوجة أخيه .

(المترجم)

(١) أدوم : منطقة كانت تمتد جنوب فلسطين من البحر الميت حتى خليج العقبة (وموقعها صحراء النقب الحالية) . حارب سكانها اليهود حرباً متصلة ، لكنهم خضعوا لهم فى عهدى داوود وسليمان ثم ناروا عليهم وحصلوا على حريتهم . (المترجم)

(٢) المكابيون : (١٧٥ - ١٦٤ ق . م : عائلة يهودية شهرت بالدلاح ضد محاولات أنطيوخس إبيفانس لإحلال الهلينية محل اليهودية فى إقليم اليهودية Judaea فى فلسطين .

(المترجم)

وقد استثار هذا الاستفزاز ، رد فعل من جانب المتزمّنين المعاصرين له ، على نحو ما سجله كتابا المكابيين في العهد القديم (التوراة) .

كذلك لم تُستأصل نزعة التزمّت بين اليهود بعد كارثة تدمير روما مدينة أورشليم عام ٧٠ ميلادية ؛ ولا بعد تدميرها تماماً عام ١٣٥ ميلادية . ذلك لأن الحاخام يوحنا بن زكاي قد استجاب لهذا التحدي بأن قدّم لليهود إطار نظام صارم ، ومجموعة من الخصال السيكلوجية ، السلبية العنيدة . الأمر الذي مكّن اليهود من الحفاظ على حياتهم الطائفية المميزة لهم في غمرة تشتتهم ؛ حينما أصيبوا بالعجز السياسي وغدوا في مهب الرياح .

ومهما يكن من شيء ، فإن اليهود لم يكونوا الطائفة السورية الوحيدة . كما لم يكن المجتمع السوري ؛ الحضارة الشرقية الوحيدة ، التي انقسمت تحت تأثير تحدى الحضارة الهلينية إلى معسكر تسوده نزعة المسايرة ؛ ومعسكر تتغلب عليه نزعة التزمّت . فإن إنتفاضات العبيد في المزارع السورية في صقلية خلال القرن الثامن قبل الميلاد — واتسمت بالطابع المتزمّت — قد قابلها في روما خلال عصر الإمبراطورية التالي ؛ تيار متدفق متسم بروح المسايرة من جانب السوريين المحررين الذين أخذوا بأسباب التحضر الهليني . واعتنقت طبقة من المجتمع السوري أكثر ثراء ونفاقاً ، نزعة المسايرة ؛ حتى أن الأقلية الهلينية المسيطرة ، قد أبدت استعداداً لاتخاذها شريكاً لها في الحياة الاجتماعية . لكن نزعة المسايرة هذه ، قد قابلتها نزعة تزمّت ، تجلّت في تعبئة الأديان السورية العليا — عدا اليهودية — لتحقيق الانفصال الروحي عن المجتمع الهليني ؛ واستخدام تلك الأديان كأدوات لشن حرب دينوية ثقافية . وحقاً ؛ إن الزرادشتية والنسطورية والمينوفيسية والإسلام ، قد اقتفت — جميعاً — خطى اليهودية في هذا الانحراف الروحي عن السبيل

المستقيم الذى يحض الدين عليه^(١) . لكن الحركات الثلاث الأخيرة ، خففت — بعد ذلك — من نزعتها المترمّة ، باصطناع روح المسائرة ؛ بأن ترجمت إلى لغاتها المقدسة ، روائع الفلسفة والعلم اليونانيين .

فإذا انتقلنا إلى إلقاء نظرة إلى ردود الفعل السيكولوجية التى أبدتها المجتمعات التى تلاقى مع مسيحية الغرب الوسيط ؛ فسنلتقى بأكمل أنموذج فى التاريخ لنزعة المسائرة ، عند الغزاة الإسكندناويين فى سالف أيام بربريتهم ووثنياتهم . فإنهم قد استحالوا — نتيجة لأحد الانتصارات الكبرى التى أحرزتها ثقافة الغرب — إلى شرّاح وناشرين لأسلوب الحياة فى الغرب المسيحي ؛ تحت اسم النورمان . فلقد مضى النورمان قُدماً ، لا فى اعتناق العقيدة المسيحية وحسب ، بل فى اصطناع لغة وشعر الأهالى الذين يتكلمون الرومانية فى دولة اقتطعوها لأنفسهم فى قلب بلاد الغال من الإمبراطورية الكارولنجية

ومصادقاً لهذا ؛ فإنه عندما رفع العازف النورماندى الفرنسى الاسم « تايليفر Taillefer » عقبرته بالغناء ليبحث الحاسة فى رفاقه الفرسان وهم فى ركضهم إلى معركة هاستينجس Hastings^(٢) ، لم يكن ينشد لهم أبياتاً من الساجّة الشعبية^(٣) بلغة الشمال ؛ لكنه كان ينشد لهم أغنية رولان بالفرنسية . وقبلما يشرع وليم النورماندى فاتح إنجلترا — وهو مطلق اليدين — فى غرس الحصار الغربية الوليدة فى ذلك الإقليم المتأخر المنعزل الذى ناله بحدّ

(١) يشير المؤلف إلى أن الدين — أى دين — يحض على المسائرة ، لا على التزمّت .
(المترجم)

(٢) هاستينجس : اسم مدينة بإنجلترا على بعد ٦٢ ميلاً من جنوب شرق لندن . جرت بالقرب منها ١٠٦٦ عام موقعة هزم فيها وليم الفاتح دوق نورماندية الإنجليز بقيادة هارولد .
(المترجم)

(٣) الساجّة : قصة شاعت فى القرون الوسطى تحكى مغامرات بطل إيسلاندى .
(المترجم)

السيف ؛ كان مغامرون نورمانديون آخرون ، قد راحوا يعملون في مدّ حدود العالم المسيحي الغربي في الناحية الأخرى المقابلة ، على حساب كل من المسيحية الأرثوذكسية ودار الإسلام في : أبوليا ، كالابريا ، صقلية . وأعجب من ذلك ، نزعة المسايرة التي أبدّاها الإسكندنافيون الذين بقوا في أوطانهم ، بتقبّلهم الثقافة المسيحية الغربية .

وهذا الموقف الذي وقفه أهل الشمال بتقبّلهم ثقافات غريبة عنهم ، لم يكن مقصوراً على ثقافة الغرب المسيحي وحدها . إذ نلمس هنا الموقف المسايير في تأثير النورماندين في صقلية بالفن والنظم البيزنطية والإسلامية . كما نجده في اقتباس سكان أيرلندا والمستوطنين الشماليين في الجزائر الغربية ، من الثقافة الكلتية المسيحية في أقصى الغرب من أوروبا . كذلك نرى تأثير النورماندين بالثقافات الأجنبية في تقبّل الإسكندنافيين الروس غزاة البرابرة السلاف في حوض الدنيبر Dnieper ونيفا Neva للثقافة المسيحية الأرثوذكسية . وفي المجتمعات الأخرى التي تلاقت مع مسيحية القرون الوسطى الغربية ، نجد نزعتي « المسايرة » و « التزمّت » ، في وضع أكثر توازناً . فمثلاً نرى أن رد الفعل المترمّت الذي وقفته دار الإسلام إزاء الحروب ، قد وازنه — إلى حد ما — نزعة المسايرة — على النموذج النورماندى — التي أبدّاها الأرمن في كيليكيا ، الذين يعتقدون المذهب المونوفيسى ؛ إزاء أسلوب الحياة في الغرب المسيحي .

وفي الإمكان تتبع هاتين الاستجابتين السيكلوجيتين في تاريخ تلاقى كل من الأرثوذكسية والعالم الهندى ، بالحضارة الإيرانية الإسلامية المعتدية . ففي الكتلة الرئيسية من العالم المسيحي الأرثوذكسى الواقع تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية ؛ تشبّثت أغلبية السكان بعقيدة أجدادهم ؛ وآثروا الاحتفاظ باستقلالهم بكنيستهم ، مقابل خضوعهم لنظام سياسى أجنبى . على أن هذه النزعة المترزمة ، قد عادلتها — إلى حد ما — حتى على

الصعيد الدينى - أقلية تحولت إلى الإسلام بدافع من الطموح السياسى أو الاجتماعى . وانساق عدد أكبر بكثير ، وراء نزعة إنتهازية مسابرة ، تجلّت فى مظاهر طفيفة ، لكن لها مغزاها . ومدارها إقبال هذا العدد الكبير من المسيحيين على تعلم لغة سادتهم واصطناع لباسهم . واتخذ رد الفعل من جانب الهندوس تجاه السلطان المغولى نفس الاتجاه إلى حد كبير ؛ مع فارق أن التحوّل إلى ديانة الفاتحين فى الهند كان على نطاق أوسع بكثير ، وبصفة خاصة بين الطبقات البائسة فى المجتمع فى شرق البنغال . وكانت هذه الطبقات قد اعتنقت الديانة الهندوسية ، ولكنها كانت قريبة العهد بالوثنية ؛ وذراى هذه الطبقات ، هم الذين كوّنوا - فى القرن العشرين الميلادى - الإقليم الشرقى الذى انفصل عن الهند وألحق بباكستان .

وفى فصل سابق من الجزء الحالى من هذه الدراسة ؛ وصفنا - بإيجاز - مظاهر تلاقى المجتمعات المعاصرة للغرب الحديث . فإن اقتضائنا الأمر إعادة درس تلك المدونات - ونحن فى مرقبنا السيكلوجى الحالى - سنجد أن هذا تلاقى ؛ تصحبه هاتان النزعتان ! نزعتا التزمّت والمسابرة ؛ إما واحدة بعد أخرى ، أو متصادمتين معاً .

وقد تُنتقى حالة مجتمع الشرق الأقصى فى اليابان كمثال محدد تحديداً واضحاً . فإن اليابانيين - بعد أن مروا بتجربة المسابرة - دخلوا مرحلة من التشتت العنيف الناجح ، بنزعة التزمّت . وكان ذلك وقماً فصّمْ حُكم توكوجاوا علاقات اليابان بالغرب . على أن أقلية يابانية ضئيلة أصرّت على تمسكها بنزعة المسابرة . أولئك هم اليابانيون الذين آمنوا بالمسيحية فى الخفاء وظلّوا أكثر من مائتى عام على ولائهم السرى لعقيدتهم الأجنبية الحرّمة . ولم يستطيعوا المجاهرة بعقيدتهم مرة أخرى ،

إلا بعد ثورة مييجي^(١) عام ١٨٦٨ . على أنه حدث قبل ذلك التاريخ بوقت قصير ؛ أن تعزز موقف المسيحيين اليابانيين بحركة أخرى ، سادتها هي كذلك نزعة المسايرة ، وإن اختلفت في منحائها . كان مناظ هذه الحركة ، لإقبال طائفة من المسيحيين اليابانيين - في الحفاء وبمعمونة الهولنديين - على دراسة علوم الغرب الحديث في صورته الدنيوية المتأخرة . فلما اندلعت ثورة « مييجي » ، سيطرت هذه النزعة المسايرة في صورتها الجديدة على سياسة اليابان . وحقت نتائج أذهلت العالم أجمع .

ولكن هل سادت هذه المرحلة الأخيرة نزعة المسايرة وحدها ؟
هنا نواصل بحثنا حيث يتوافر في أحد الاصطلاحين المختارين - ولربما فيهما معا - شيء من صفة « تكافؤ الضدين » .

فبالنسبة لنزعة التزمّت ، الغاية واضحة . إنها تهدف إلى الإعراض عن الأنعم الأجنبية^(٢) التي تروّعها . وتتسلسل الوسائل المتنوعة لصدها من الوسيلة الإيجابية القائمة على شن حرب علنية بأسلوب « المكايين » ، إلى الوسيلة السلبية القائمة على الاعتزال بالنفس . ويتم هذا الاعتزال سواء عن طريق إجراء تتخذه الحكومة بإغلاق الحدود - كما حدث في اليابان - أو بإجراء يتولاه الأفراد باستمساكهم بخصائص طائفتهم - كل في مجاله الخاص - على غرار ما يفعله اليهود في غمار تشتتهم .

أما روح المسايرة - من الناحية الأخرى - فإن وسائلها واضحة .

(١) الإمبراطور مييجي جد الإمبراطور الحالي هيروهيتو . وفي عهد الإمبراطور مييجي ، عادت اليابان إلى الاتصال بالحضارة الغربية . (المترجم)

(٢) في الأصل « الأنعم اليونانية » . ويعنى الأستاذ المؤلف في الواقع « الأجنبية » . ذلك نظراً لانتباسه اصطلاحاً : التزمّت Zealotism والمسايرة Herodianism من التوراة ويمثلان كفاح اليهود بأسلوبين مختلفين ضد محاولة إغراق كيانهما في خضم مؤثرات الحضارة الميلينية . (المترجم)

فإنها تقوم على تقبّل عطايا الأجانب بأذرع مفتوحة . سواء تجلت في عقائد دينية ، أو في أدوات آلية .

ولكن ماذا عن الغاية ؟

إن أصحاب نزعة المُسايرة الكاملة — مثل السكندناويين والنورمانديين والشمالين — كانت غايتهم التي سعوا إليها جميعاً — ربما دون وعى وإن كانوا قد بلغوها في نهاية المطاف — هي الاندماج الكامل في الحضارة التي تلاقوا معها . ومن الشائع في تاريخ الغرب الوسيط ، أن النورمانديين قد اجتازوا في سرعة مذهلة ، مراحل : التحوّل إلى المسيحية ، والزراعة ، والزوال . ولقد اقتبسنا في موضع سابق من هذه الدراسة سطرين خطهما مراقب عاصر ذلك العهد : وهو وليم الآبولى :

لأنهم حوّلوا إلى عاداتهم ولغتهم أولئك الذين ينضوون تحت لوأهم .

فكانت النتيجة — من ثم — اندمجا عنصريا :

لكن هل هذه هي دائماً الغاية التي تسعى إليها نزعة المُسايرة ؟

إذا كنّا قد فسّرنا تفسيراً صحيحاً سياسة هيرود الكبير : فإن هذا البطل الذي أطلق اسمه على نزعة المُسايرة ، وقد اعتقد — عن خطأ كما سبق أن نوّهنا بذلك لدى فحص حالات أخرى — بأن إعطاء جرعات شافية صغيرة من الحضارة الهلينية هو أفضل الوسائل التي تضمن للطائفة اليهودية حياتها . ولا مرأى في أن نزعة المُسايرة التي اتبعتها اليابان ؛ كانت أقرب إلى السياسة التي عُزيت إلى هيرود ، من تلك التي مارسها النورمان .

فقد آمن ساسة اليابان المحدثون بأن لا سبيل لليابان لتغدو دولة كبرى على النمط الغربي ، إلا بإحداث ثورة تكنولوجية تُمكن المجتمع الياباني من المحافظة على خصائصه الذاتية . وتعني هذه السياسة ؛ السعي إلى تحقيق الغاية من نزعة التزمّت بالوسائل التي تصطنعها نزعة المُسايرة . ويؤكد

تشخيصنا هذا ؛ ما ورد بالمرسوم الصادر عام ١٨٨٢ م ، وبمقتضاه قامت الحكومة اليابانية - وهى الحكومة التى أخذت بأسباب التكنولوجيا الغربية الحديثة - قامت بتنظيم دين للدولة ؛ اختارته من مجموعة طقوس الشينتو Shinto^(١) . وبذلك استُعِيدت وثنية رسخت فى اليابان قبل أن تدخلها البوذية ، لتُستخدم أداة لتأليه الشعب والمجتمع اليابانيين ، والدولة اليابانية القائمة . وأمكن الحكومة التحايل على تنفيذ غايتها هذه ؛ بإحياء رمز عبادة الأسرة المالكة من قديم الزمن ، وقد اشتهرت بأنها ترجع بنسبها إلى آلهة الشمس ، مما جعلها فى موضع التقديس . وقد احتفظت هذه العقيدة بقداستها الاجتماعية المتوارثة فى شكل عبادة إله يتجسد فى شخص الإمبراطور الحاكم .

وإن الصعوبات التى تلازم تطبيق هذين الاصطلاحين البديلين - التزمّت والمسايرة - اللذين بدا لأول وهلة أنهما يمثلان مجرد انقسام فى وجهة النظر ؛ هذه الصعوبات أصبحت تترأى أمام أعيننا كلما ولينا وجهنا أى اتجاه .

(١) لا تعتبر الشينتية عقيدة دينية بالمعنى المفهوم . لكنها مجموعة طقوس تتجه جميعها إلى عبادة روح الطبيعة القادرة فى جميع مظاهرها سواء فى الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجهاد . فالأباطرة العظام لهم معابد تعبد فيها أرواحهم . وكذلك أبطال اليابان . كما توجد معابد تعبد فيها السيوف التى خاض بها أمحايها معارك انتصروا فيها ، على اعتبار أن للسيوف روحاً مكنت صاحبه من الانتصار . وهناك معابد للجبال ذات الشكل الخاص أو القداسة التى أحاطتها بها الأساطير مثل جبل فوجى . وثمة أشجار مقدسة وملابس . . الخ . وتعتبر المرأة شيئاً مقدساً لأنها تعكس الشمس جدة العائلة الإمبراطورية ، وعلى الرغم من تقدم اليابانيين التكنولوجى العظيم فإنهم لا يزالون مصرين على الاستمسك بطقوسهم الوطنية . ولما احتل الأمريكيون البلاد ألغوا مسألة العقيدة الرسمية ومنحوا حرية العقيدة للجميع . وتنتشر البوذية فى أرجاء البلاد لكن أتباعها لا يجاوزون ٤٠٪ من عدد السكان ، بالإضافة إلى أنها مختلطة بالعقائد الشينتية اختلاطاً معتدلاً . وعلى الرغم من الجهود الضخمة والأموال الطائلة والدعايات العريضة التى تبذلها أحيثات التبشيرية المسيحية ، فلا يجاوز عدد المسيحيين الأربعمائة ألف بل إن هؤلاء المسيحيين تختلط عقيدتهم الجديدة بطقوس آبائهم الشينتية . أما المسلمين فلا يجاوز عددهم المائة .

(المترجم)

فأين نضع - مثلاً - الحركة الصهيونية ؟

واضح أن الحركة الصهيونية قد جلبت على نفسها سخط اليهود المتزمين في إخلاصهم لتقاليد عقيدتهم . فالصهيانية - في نظرهم - موصومون بالزندقة بإقدامهم على تنفيذ العودة المادية إلى أرض الميعاد بإرادتهم وباستخدام القوة ؛ في حين أن هذه العودة ، حق لله وحده يُنجزه في الوقت الذي يراه مناسباً . على أن الصهيانية قد جلبوا على أنفسهم كذلك استنكار طائفة المسابيرين من أتباع فكرة إندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها ؛ وتمصّهم الفكرة التي يرونها مجافية للعقل التي تقول بأن اليهود شعب ليس كمثال أحد . وقد ذهب هذا الفريق إلى أبعاد شتى في إعنتاقه النظرية العصرية المتحررة التي تنادى بأن العتيدة اليهودية - كغيرها من العقائد - بفعلة (١) استنفدت أغراضها .

وأمامنا شخصيتان من أعظم شخصيات القرن العشرين - لينين وغاندى - يبدوان لنا كلاهما ، لغزاً محيراً . إذ يلوح أنهما يواجهان الطريق في نفس الوقت . فأنت قارئ في كتاباتهما نقداً رتيباً للغرب وأفعاله . لكن تعاليمهما مع ذلك مشبعة بعناصر من تراث الغرب . فتعاليم لينين مشبعة بالتفكير المادى الذى انحدر إليه من كارل ماركس ؛ وتعاليم غاندى مشبعة بالتقاليد المسيحية كما انحدرت إليه على أيدى أتباع جورج فوكس George Fox (٢) . فإن غاندى في شجبه نظام الطبقات في الهند ، ما كان إلا مبشراً بمبادئ من تراث الغرب في ميدان لم يحسن استقبالها :

(١) اليفعة الدينية وفقاً لآراء المؤلف ، قد انبثقت عنها المجتمعات . وبالتالي فإن ثمة خريقاً من اليهود المتحررين ينادى بأن الديانة اليهودية مثلها مثل الأديان الأخرى ، قد عاوت على إبراز المجتمعات وانتهت رسالتها عند هذا الحد ، ولم يعد لها تأثير على مجريات الأمور الدنيوية . (المترجم)

(٢) جورج فوكس : مؤسس جمعية الأصدقاء - كويكرز . (المترجم)

واعتبار نزعتي التزمّت والمسايرة خُطتين لا محيص للهيئات السياسية في المجتمعات المعتدى عليها أن تختار إحداهما ؛ إلا في حالات قليلة بسيطة — أو بولغ في تبسيطها أثناء هذه المناقشة — هذا الاعتبار ؛ يتضاءل حتى يغيب في ضباب من تناقض المرء مع نفسه . لكن علينا أن نذكر أننا لم نبدأ ببحث هاتين النزعتين كخطط اجتماعية / سياسية ، ولكن بدأنا ببحثهما كردود أفعال لنفوس أفراد . وعلى هذا الأساس ؛ يمكن اعتبار نزعتي التزمّت والمسايرة كثالين لردى الفعل المتبادلين اللذين دعوناهما بـ « السلفية » و « المستقبلية » . وقد سبقت لنا دراستهما في جزء سابق من هذه الدراسة^(١) : وقت بحثنا موضوع « الانشقاق في النفس البشرية » ؛ ذلك الانشقاق الذي يبين عن نفسه في الحضارات التي انهارت ، ثم مضت في طريق التحلل .

وفي هذا المجال ؛ عرفنا السلفية بأنها محاولة للارتداد إلى إحدى تلك الحالات السعيدة التي يتطلع إليها الناس في عصور الاضطرابات بحسرة ؛ وربما أخذوا عليها مثالية لا يبررها التاريخ . وكلما بَعُدَ العهد بها ، إشتد الحنين إليها . وواضح أن هذا التعريف ينصبّ على نزعة التزمّت . وفي نفس السياق ، وصفنا السلفية بما يأتي :

« إن ثمة شعوراً بالفشل ، أو — حيث لا يوجد فشل — شعور بالتفاهة ؛ يكتنف عملياً ، جميع أمثلة السلفية التي بحثناها . وليس السبب بالبعيد عن الإدراك . إذ تستنكر طبيعة السلفية ذاتها ، فعل صاحبها ؛ لإصراره على التوفيق بين الماضي والحاضر . . . فإذا حاول استعادة الماضي دون أن يأخذ الحاضر في اعتباره ، من شأن حافز الحياة الذي يتجه بطبعه صوب التقدم ، أن يحطّم بناءه الهش إلى شظايا . فإن ارتضى — من الناحية

(١) انظر مبحث السلفية في الجزء الثاني من هذه الترجمة : صفحات ٣٨٤ - ٤٠١ . ومبحث المستقبلية في نفس الجزء صفحات ٤٠١ - ٤٠٩ . (المترجم)

الأخرى - إخضاع نزوة خياله المتصلة بإحياء الماضي ، لإنجاز فعل يجعل من الحاضر شيئاً مفيداً ؛ عندئذ تبرهن سلفيته على تدليسها » .

وقد عُرِفَت المستقبلية في ذلك المجال بأنها محاولة للهروب من حاضر كربه ؛ وذلك بالقفز إلى مستقبل مجهول لا يعرفه أحد . على أن هذه الحركة جالبة للهلاك أيضاً . فهي - كما هو الحال في نزعة المسيرة - تقوم على محاكاة نُظُم مجتمعات أخرى وتقاليد الخلقية . وعلى أحسن فرض ؛ تكون هذه المحاكاة مَسْنَخاً للأصل ، لا يبعث على الإعجاب . في حين أنه على أسوأ فرض ؛ تنجيء مزيجاً متنافراً من عناصر شتى متنافرة .

ثالثاً - التبشير :

هل كل ما أصاب نزعتي « الزمت » و « المسيرة » من فشل متشابه ، هو الكلمة الفاصلة التي ألقاها وحي التاريخ ، إذا ما التمس عند تفسير النتائج الروحية لمظاهر التلاقي ؟

فإن كانت تلك حقاً هي الكلمة الفاصلة ، لتبدى طالع البشرية كريحاً ، ولا نتهينا إلى نتيجة مبتها أن الحضارة إنما تسعى اليوم إلى تحقيق محاولة غير عملية لصعود منزلق وعر .

ولعلنا نذكر ؛ أن هذا المسعى الجليل قد فتح بابه ، تحول جديد شعرت فيه طاقات الطبيعة البشرية بقوة خيالها وعزمها وقدرتها على التطور بأنها ندّ للمصاعب التي تقف عقبة في وجه التطور الذي تسعى إليه البشرية ، في هذا العصر الخطير من تاريخ الإنسان .

فهذا الإنسان الذي انقضى عليه حين من الدهر ، وقد اتجهت فيه - بسبب عدم تبصره وتفاهة تدبيره^(١) - ملكة المحاكاة عنده إلى الماضي .

(١) استخدم الأستاذ المؤلف تعبيراً يفصح عن عدم التدبير أو التفكير بعد فوات الوقت ، =

فَعَكَفَ عَلَى مَحَاكَاةِ شَبُوخِهِ وَأَسْلَافِهِ فِي حَيَاتِهِمُ الْبَدَائِيَّةِ^(١) . هَذَا الْبَدَائِيُّ قَدْ نَهَضَ الْيَوْمَ بِحَرَرِ جَذْوَةِ نَشَاطِهِ مِنْ إِسَارِهَا^(٢) ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يُوَجِّهَ هَذِهِ الْمَلَكَةَ الَّتِي لَا غَنَى عَنْهَا فِي حَيَاتِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ - وَهِيَ مَلَكَةُ الْمَحَاكَاةِ - يُوَجِّهَهَا نَحْوَ شَخْصِيَّاتٍ مُبْدَعَةٍ ؛ تَتَبَدَّى لَهُ رَوَّادُهَا يَرشُدُونَهُ سِوَاءِ السَّيْلِ .

وَقَيْنَ بِيَاثٍ يَعِيشُ فِي الْوَقْتِ أَنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ :

إِلَى أَى مَدَى يُمْكِنُ لَهُذِهِ الْحَرَكَةُ الْجَدِيدَةُ أَنْ تَحْمِلَ أَبْنَاءَ الثَّقَافَةِ الْبَدَائِيَّةِ الْأُولَى ؟

وَهَلْ يَجِدُونَ مَعِينًا مُدْتَحِرًا مِنَ النِّشَاطِ النَّفْسِيِّ ، يَغْتَرَفُونَ مِنْهُ ؛ وَعِنْدَهُ يَوَاصِلُونَ أَعْمَالَ الْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ .

فَإِذَا كَانَتْ الْإِجَابَةُ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ الْأَخِيرِ بِالنَّفْيِ ؛ لَكَانَ ذَلِكَ نَذِيرَ شَوْمٍ لِلْإِنْسَانِ ، وَهُوَ لَمَّا يَسْتَكْمِلُ نَضْجَهُ فِي عَمَلِيَّةِ التَّحَضُّرِ .

حَقًّا ؛ إِنْ صَاحِبُ النِّزَعَةِ الْمُتَزَمِّتَةِ ، إِنْسَانٌ يَنْتَظِعُ إِلَى الْمَاضِي . فِي حِينِ أَنْ صَاحِبُ نِزَعَةِ « الْمَسَايِرَةِ » ، يَخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَنْتَظِعُ إِلَى الْأَمَامِ ؛ وَلَكِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ يَنْتَظِعُ إِلَى جَانِبِيهِ ، مُحَاوِلًا أَنْ يَكُونَ نَسْخَةً طَبَقَ الْأَصْلِ مِنْ جِيرَانِهِ .

= اسم رب يوناني تردده الأساطير اليونانية رمزاً لعدم التدبير هو إبيميثوس Epimetheus . ذلك لأن أخاه (بروميثوس) نصحه أن لا يتقبل عطية الإله زيوس وكانت امرأة جميلة فاتنة اسمها باندورا . لكن إبيميثوس تقبل العطية مدفوعاً بحمال هذه المرأة وفتنتها ومنساقاً بتهوره . فكانت العطية وبالا على الجنس البشرى . (المترجم)

(١) وهذه ظاهرة دعاها الأستاذ المؤلف - بالسلفية - الجزء الثاني من هذه الترجمة -

صفحات ٣٨٤ - ٤٠١ .

(٢) عكس إبيميثوس المشهور ، كان أخوه بروميثوس Prometheus في الأساطير اليونانية عالماً على التدبير والبصر ، ولقد قاده حبه للبشرية إلى اختلاس المعرفة الإلهية - وفي طليعتها جذوة النار - وقدمها إلى الإنسان . (المترجم)

فهل هذه هى نهاية القصة ؟

لعل الإجابة الصحيحة أن هذه قد تكون نهاية القصة . إن كانت القصة بأكملها قد ضممتها تاريخ الحضارة بين دفتيه ، وكان جهد الإنسان للتحضر ليس إلا فعلا فى قصة التلاقى الدائم بين الإنسان وخالقه . ففى قصة الطوفان — كما وردت فى سفر التكوين — كانت عُنُقِي الجائحة التى كاد الخالق الغاضب أن يستأصل فيها ذرية آدم ؛ وعده تعالى لنوح وركاب سفينته الناجين « فلا تكون أيضا المياه لتهلك كل ذى جسد » (١) .

حقا ؛ لقد وفّقنا فعلا فى سياق إثباتنا فشل نزعى « السلفية » و « المستقبلية » ، إلى العثور على احتمال ثالث وتفسير ذلك :

إذا ما تحدّى الحياة ظهور قوة ديناميكية جديدة أو حركة خلاقة ، نبشقت من أحشاء الحياة نفسها ؛ فلن يُقضى على الفرد الحى — أو الجماعة القائمة — بأن يقف موقف الاختيار السقيم بين أمرين :

الأول — إنهار ؛ عن طريق استدامة ما دعوانه فى مكان سابق بالوضع الشاق السيئ ؛

الثانى — إنهار عن طريق تفجير ثورة .

فإن ثمة طريقاً وسطاً للخلاص . وذلك بإيجاد حالة من التوافق المتبادل بين الوضع القديم والاتجاه الجديد ؛ الأمر الذى يمكن من تحقيق حالة من الانسجام بينهما على مستوى عال . وهذه هى — فى الواقع — العملية التى قننا بتحليلها فى الجزء من هذه الدراسة الذى ناقشنا فيه « نمو الحضارات » (٢) .

وبالمثل ؛ عندما يتحدّى الحياة إنهار حدث فعلا ، فلن يُقضى على الجماعة — أو الفرد — التى تكدر لتستبقى من القدر قدرتها على الكفاح من أجل

(١) سفر التكوين : أسحاح ٩ آية ١٥ . (المترجم)

(٢) صفحات ٤٧٣ - ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

الحياة ؛ لن يقضى عليها بأن تقف موقفاً لا يقل سقماً عن الموقف السابق في اختيار أحد أمرين :

الأول — محاولة الوثوب الصريح من الحاضر إلى الماضي (نزعة السلفية) .

الثاني — محاولة القفز صراحة من الحاضر إلى مستقبل لا يُرام (نزعة المستقبلية) .

وهنا — كذلك — يتسع المجال لطريق انوسيط ؛ ومناظرة انسحاب المرء أو الجماعة بحركة انفصال تتلوها عودة تتبدى في شكل تجلّي^(١) (الحلول والتناسخ)^(٢) .

ولعلنا نستطيع لإضفاء طابع مادي على هذه المصطلحات المجردة :

إن عدنا كرامة أخرى إلى القرن الأول الميلادي : إلى ذلك الركن القائم^(٣) من الإمبراطورية الرومانية ، حيث راح كل فريق من أصحاب نزعتي « التزمّت » و « المسايرة » — اللذين أسبغنا على اسم فريق كل منهما مفهوماً أوسع — يبحث عن طريق للخلاص ، فلا يهتدى إلا إلى طريق مغلق لا منفذ له . وإن عدنا كذلك إلى تركيز اهتمامنا ؛ لا على أي من هاتين الطائفتين ، ولكن على طائفة أخرى معاصرة لهما :

فإن بولص قد نُشئ بمدينة طرسوس غير اليهودية^(٤) على أساس كونه فريسيّاً Pharisee (أى ذو منحنى ثقافى منعزل) ؛ وتلقّى هو نفسه وفي المدينة نفسها ، تعليماً يونانياً ، والى نفسه مواطناً رومانياً . فكان أن انفتح أمامه

(١) صفحات ٤٢٠ - ٤٢٧ من الجزء الثاني من هذه الترجمة .

(٢) أى تظهر في شكل آخر . (المترجم)

(٣) أى فلسطين . (المترجم)

(٤) أو الأمية Gentile في عرف اليهود ، وبالعبيرية « جويم » وتعنى غير اليهودى من عناصر البشر . (المترجم)

الطريقان : التزمت والمسايرة . ولما كان شاباً ، فقد آثر نزع التزمت . لكنه عندما شنّى من هذه النزعة المتزمتة العنيدة — بفضل الإلهام الذى نزل عليه وهو على طريق دمشق — لم يتحوّل إلى اعتناق نزع المسايرة . فلقد تكشف أمامه طريق بناء ، تسامى على هاتين النزعتين جميعاً . إذ راح يحتاز الإمبراطورية الرومانية مبشراً ؛ لا باليهودية ضد الهلينية^(١) ، ولا بالهلينية ضد اليهودية^(٢) ؛ ولكن مبشراً بمسلك جديد فى الحياة ، مستمد على السواء — دون حقد — من الثروة الروحية لهاتين الثقافتين المتنازعتين . وما كان فى وسع أى حدود ثقافية أن تقف فى وجه الدعوة الجديدة . فالكنيسة المسيحية ؛ لم تكن مجرد مجتمع جديد من نوع الحضارات التى عمدنا إلى بحث مظاهر تلاقيها مع بعضها بعضاً ؛ ولكنها كانت مجتمعاً من نوع آخر .

(١) وهذا من مظاهر التزمت Zealotism . (المترجم)

(٢) وهذا من مظاهر نزع المسايرة Herodianism . (المترجم)

حاشية

« آسيا » و « أوروبا » - حقائق وأوهام

أخذ هيرودوتس على عاتقه في المقدمة التي كتبها لتاريخه ؛ أن يستخدم
رأى أخرى تفسيرا فارسيا للباعث الذي ساق الأخيمينيين إلى اتخاذ موقف
المهجوم ضد الهلنيين . وفي تقديره ؛ أن الفرس اعتقدوا أنهم ورثوا ثأر دم ،
وأنهم مشدودون إلى واجب الانتقام من الهلنيين لحصارهم طروادة ونهبها .
وعلى هذا النحو ؛ كانت الحربان الكبيرتان - حرب طروادة والحرب
الفارسية - حادثين في صراع بين أوروبا وآسيا ، متصل الحلقات من الناحية
التاريخية .

ولا حاجة بنا أن نقرر بأن الفُرس كانوا - تاريخيا - جاهلين تماما
بمثل هذا الالتزام . وإذ كانوا لم يتعلموا على الشاعر هوميروس ؛ فن
الجلي أنهم لم يعرفوا شيئا عن حروب طروادة ؛ هذا إن فُرض وكانت
الحرب قد وقعت فعلا . ولا حاجة بنا إلى القول كذلك أن الصورة التي
رسمها هيرودوتس ، صورة خيالية من الوجهة التاريخية . فهي تفترض
أنه كان ثمة تضامن في المشاعر بين الطرواديين والفُرس ؛ باعتبارهم جميعاً
من أبناء آسيا . وتظهر سخافة فكرة هيرودوتس هذه ، إذا تصورنا صراعا
تاريخيا بين أوروبا وأميركا يشبه تمام المشابهة ذلك الصراع بين الفُرس
واليونان : يُمثّل فيه الرئيس واشنطنون في هيئة دارا وقد اندفع للانتقام
من أوروبا بسبب عدوان سابق قام به كورتيس^(١) - وهو في هذه المشابهة
أجاممنون^(٢) - على المكسيك !

(١) كورتس : هو القائد الأسباني الذي فتح المكسيك في القرن السادس عشر . (المترجم)

(٢) أجاممنون : من أبطال ملحمة هوميروس الشعرية - الإلياذة - وهو الذي قاد

المهجوم على طروادة (المترجم)

ورغمًا عن وضوح تفاهة رأى هيرودوتس ؛ فإن للرأى طرافته وأهميته من حيث أنه أذاع على الألسنة بأن إعتبار « أوروبا » و « آسيا » كخصمين ووحدين متعارضتين ، ما تزالان تظهران على خرائطنا ، تفصل بينهما حدود برية خُطَّت على طول السلسلة الطويلة لتلال قليلة الأهمية — نوعاً ما — تدعى جبال الأورال . وهيرودوتس لم يخترع هذه الفكرة ؛ لأن آسيا كانت بالفعل مترادفاً متداولاً للإمبراطورية الفارسية في كتاب ايشخيلوس^(٣) المعروف باسم « الفُرس Persae » والذي أُلّفه عام ٤٧٢ ق . م . ولكن « الصراع بين أوروبا وآسيا » كان المبحث السائد الذى يجمع بين عناصر مؤلف هيرودوتس . وإن مهارته فى معالجة الموضوع ، هى المسئولة — إلى حد كبير — عن الذبوع الذى قُدِّر لهذا الخيال الهليني ، الذى نشأ إبان القرن الخامس قبل الميلاد .

وقد استقر هذا الوهم وقما أحدثت عقلية هيلينية واسعة الخيال ، تغييراً ثورياً فى دلالة هذين الاسمين الجغرافيين التقليديين عند اليونان « أوروبا » و « آسيا » . وتم هذا التغيير عن طريق تحويل الاسمين من مصوِّرات الملاحين إلى الخرائط السياسية لكتاب الشئون السياسية ، وإلى الرسوم البيانية لعلماء الاجتماع فى دراستهم مواطن الثقافات . ولسوء الحظ ، نُفِخت الروح فى هذه المرأة الخيالية . فإن ما يعمد إليه الملاح من التمييز بين الشاطئين المتقابلين لسلسلة مسالك المياه الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأسود ، أمر طبيعى ومفيد له فى أغراضه . إلا أن هذه السلسلة من المسالك المائية ، لم تتمش قط مع أية حدود سياسية منذ فجر التاريخ البشرى حتى وقت كتابة هذه الدراسة ؛ اللهم إلا فى غضون الفترتين الوجيزتين : ٥٤٧ / ٥١٣ ق . م ؛ و ٣٨٦ / ٣٣٤ ق . م . أما عن مطابقة هاتين القارتين — فى تعبير

(٣) ايشخيلوس : يعتبر أعظم كتاب التراجيديات اليونانية . ويقول الرواة أنه كتب ما يقرب من تسعين قصة . ولكن لم يبق من مسرحياته سوى تسع . وتعتبر قصته « الفرس » من أروع ما كتب ، وهى تخليد لنصر أثينا فى -٤٨٠ عام قبل الميلاد . (المترجم)

ملاحين — لمواطني الثقافات المختلفة ؛ فإن المؤرخ لن يستطيع أن يضع أصبعه على أية فترة شهدت أى تنوع ثقافى ذى قيمة بين « الآسيويين » و « الأوربيين » . إذ لا فرق بينهم ، إلا أنهم يسكنون الضفتين المتلاصقتين المتقابلتين للبوسفور وبحر مرمرة . وما بين هاتين الضفتين ليس بأعرض مما بين ضفتى نهر الهلدسون ، ولا يكاد يبلغ ما بين ضفتى نهر الأمازون . إن تعبير « آسيا » عند أهل الملاحاة من اليونان للدلالة على القارة التى تعين الحد الشرقى الذى يقيّد حرية حركته فى بيئته فى بحر إيجه ، ويبدو أنه قد اشتق من الاسم الخلى المعاصر لمستنقع فى نهر كاستير Caijster^(١) . وقد أظهرت بعض الحفائر الحديثة أن لفظ « آسيا » قد ورد فى السجلات الأخيشية ، وكان يُطلق على ولاية من ولايات غرب الأناضول فى القرن الثالث عشر .

ويحتمل أن لا تكون كلمة « آسيا » هى الاسم الحقيقى الوحيد الذى وجد طريقه إلى اللغة اليونانية . إذ يُظن أن كلمة باسيلوس Basilus — وتعنى باليونانية الملك — كلمة غير يونانية ، اشتقت من اسم ملك حقيقى كان يدعى « بياسيليس Biyassilis » ؛ وكان مقر حكمه مدينة قرقيش Carchemish على الفرات . خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ويقترب هذا الزمن ؛ من العهد الذى كان فيه القرصان الآخيون يُنشئون أولى اتصالاتهم بشاطئ « بامفيليا Pamphylia »^(٢) . فإذا كان هذا الاشتقاق صحيحا ، فله يضع لفظ باسيلوس على نفس المستوى مع لفظ « قرال Kral » ويعنى الملك فى ضائفة من اللغات السلافية ؛ ومن المعروف أنه مشتق من اسم الإمبراطور شارلمان (أو شارل العظيم)^(٣) .

(١) كاستير : الاسم القديم لنهر كوتشوك ميندير Kuchuk Meinder فى آسيا الصغرى ويصب فى خليج على بعد ٣٥ ميلا من جنوب شرق أزمير . (المترجم)

(٢) قطر قديم كان يقع على الساحل الجنوبي للأناضول . (المترجم)

(٣) Karolous Magnus alias Charlemagne (٢)

أما أصل تعبير « أوروبا Europa » ، فإنه أكثر التباسا : فلعله تصحيف يوناني للكلمة الفينيقية « إرب » المتقابلة لكلمة « غرب » العربية ؛ وتعني الناحية المظلمة حيث تأفل الشمس في الغرب . أو إن لم يكن اللفظ تعبيراً فنياً مستعاراً من الملاحين الفينيقيين ، فلعله لفظ يوناني أصيل يعنى « الأرض العريضة »^(١) على النقيض من الجزائر . أو لعله إسم آلهة كانت « عريضة الوجه » ؛ لأنها تمت إلى فصيلة البقر . ومهما يكن من أمر : فإن الإسمين في اعتبار أهل الملاحة ، استخدما للتمفرقة بين أراضي القارة والجزائر . والملاح إذ كان يتحسس طريقة صوب الشمال على طول الشاطئ الأسبوى أو الشاطئ الأوروبي لأرض القارة ؛ كان يشق طريقه عبر ثلاثة مضائق متتابعة : الدردنيل والبوسفور وكيرش . ولكن عندما كان يقود سفينته في مضيق كيرش ويجتاز بحر آزوف ثم يصعد في نهر الدون إلى قمة الملاحة النهرية ؛ كان يلتقى نفسه وقد وصل إلى نقطة فقدت عندها القارتان المتقابلتان ذاتيهما المنفصلتين . أما بالنسبة لسكان الأراضي الواقعة شمالا — سواء كانوا من بلدو السهوب الأوراسية أو الفلاحين الأوراسيين زراع حزام « الأرض السوداء » الذى يمتد من المنحدرات الشرقية لجبال الكربات حتى المنحدرات الغربية لجبال التاي — لم يكن للتمفرقة بين أوروبا وآسيا أى معنى مفهوماً ، ولكنه كان من أفلقها جدوى . ولم يكن ثمة — دائماً — معنى لما كان يُلقى في الفصول المدرسية من التفرقة بين « روسيا في أوروبا » و « روسيا في آسيا » ؛ لكن لعل هذه التفرقة ما كانت لتضير أحداً . وعلى غرارها كانت التفرقة بين « تركيا في أوروبا » و « تركيا في آسيا » ؛ لكنها كانت مصدر قدر كبير من تشويش الذهن .

إن الحدود الحقيقية بين مواطن الحضارات ، لاعلاقة لها بمثل هذه
الأوهام العتيقة : إن ثمة حقيقة جغرافية لاجدال فيها ؛ ندعوها
« أوراسيا » . وإنما لتبلغ من الضخامة واعوجاج الشكل بحيث نقتطع
منها - للوفاء بأغراضنا الدراسية - بضعة من أشباه القارات . والهند
أوضحها تحديدا بفضل جبال همالايا التي تكوّن حدودها البرية . وأوروبا
شبه قارة أخرى ، لاريب في ذلك . إلا أن حدودها البرية - عكس
الهند - ما برحت أشبه بعتبة منها بتمخوم . وهى - بالتأكيد - تقع بعيدا
عن غرب جبال الأورال .

سياق الاستدلال

الباب السادس

الدول العالمية

الفصل الثالث والعشرون - غايات أم ذرائع

لخص المؤلف نهج الكتاب حتى النقطة الحالية ، ثم يورد الدوافع التي دعت إلى المضي في البحث - في أجزاء متتابعة - في موضوع الدول العالمية ، والأديان العالمية ، وعصابات الحرب من المتبررين .

فهل يُنظر إلى الدول العالمية على أنها ليست سوى المراحل النهائية للحضارات ، أم على أنها مقدمات لمراحل ارتقاء تالية ؟

الفصل الرابع والعشرون - سراب الخلود

إن المواطنين في دول عالمية لا يرحّبون - في معظم الأحيان - بإقامتها . فحسب ، ولكنهم يؤمنون بخلود هذه الدول . ويظلون عاكفين على اعتقادهم هذا ، ليس فقط حين يتضح أن الدول العالمية تُشرف على الانهيار ؛ بل إنه ليستمر حتى بعد زوالها . ويترتب على هذا ؛ عودة نظام الدولة العالمية إلى الظهور كـ « شبح » للدولة العالمية الأصلية . وبطالنا - من قبيل المثال - ظهور الدولة الرمانية المقدسة في المجتمع الذي تبنته المسيحية الغربية ، شبحاً للإمبراطورية الرومانية في العالم اليوناني - الروماني .

وقد نجد تفسيراً لذلك في الحقيقة القائلة بأن الدولة العالمية تقف داعية للتجمّع بعد فترة من الاضطرابات .

الفصل الخامس والعشرون - وهكذا تكذّب لغيرك

تُمنّى نظم الدولة العالمية بالفشل - على طول المدى - في الاحتفاظ ببقائها . لكنها - في الوقت نفسه - تخدم أغراض نظم أخرى ، وبصفة خاصة ما اتصل منها بالأديان العليا للبروليتاريات الداخلية .

١ - قدرة الدول العالمية على التوصيل :

تُتيح الدول العالمية - بفضل فرضها النظام والتجانس - وسيلة للتوصيل الجيد ؛ ليس فقط من الناحية الجغرافية بين الأجزاء التي كانت فيما مضى دولا إقليمية منفصلة ولكن - من الناحية الاجتماعية - بين طبقات المجتمع المختلفة .

٢ - سيكلوجية السلام :

إن التسامح الذي براه حكام الدول العالمية أمراً لازماً للمحافظة على كيانهم ، يشجع على انتشار الأديان العليا . وهذا ما تُصوّره الفكرة الشائعة (التي عبر عنها ملتون في أنشودته عن عيد الميلاد) القائلة بأن الإمبراطورية الرومانية قد أرسلتها العناية الإلهية لصالح الكنيسة المسيحية .

على أن مثل هذا التسامح ليس عالمياً أو مطلقاً . وفضلاً عن ذلك فإن هذا التسامح نفسه - في صورة نزعة مناهضة للعسكرية - سيثبت أنه في صالح المعتدين الدخلاء سواء أكانوا برابرة أو أصحاب حضارات مجاورة .

٣ - صلاحية النظم الإمبراطورية للعمل :

(١) المواصلات :

تخدم الطرق البرية والمسالك البحرية وصيانتها بانتظام ؛ الناس ، خدمتها لأغراض الحكومة . مثال ذلك أن القديس بولص قد استخدم الطرق الرومانية في أداء رسالته .

فهل ستستفيد الأديان العليا في الوقت الحاضر من نظام المواصلات العالمى الواسع النطاق الذى يهيئه الأسلوب التكنولوجى الحديث ؟

إن تم ذلك ؛ فإن الأديان العليا ستجابه مشكلات يمكن توضيحها من خلال استعراض تاريخ البعثات المسيحية التبشيرية في العوالم الغير المسيحية ، في عصور سابقة .

(ب) الحاميات العسكرية والمستعمرات :

تخدم غايات الحضارة مثلما تخدم غايات الحكومة . بل إنها تساهم كذلك في التحول البروليتارى الذى يميز المجتمعات المتحللة .

ومن الواضح أن عصابات الحرب من المتبربرين هم أكثر المستفيدين من ذلك . ولكن الديانات العليا ، تستفيد هي الأخرى . ويسوق المؤلف أمثلة لتعزيز رأيه من انتشار الإسلام . كما انتشرت عبادة ميترا ؛ من حامية إلى أخرى على طول حدود الإمبراطورية الرومانية . وانتشرت المسيحية من مستعمرة إلى أخرى . ومن قبيل المثال ، أهمية مستعمرتى كورنث وليون — وكلتاها أنشأتهما الحكومة الرومانية — في تاريخ الكنيسة المسيحية في عصورها الأولى .

(ج) الأقاليم :

يستخرج المؤلف سياسات متناقضة من تاريخ الدولة العالمية الصينية : كما يستخلص من انتشار العقيدة المسيحية أمثلة لحدوى استخدام الديانات العليا للتنظيم الإقليمى .

(د) الأمصار :

تؤثر عوامل مختلفة في تحديد موقعها . وقد يثبت أن العاصمة الأصلية التى أقامها الغزاة الذين أنشأوا الدولة العالمية ، غير صالحة دوماً للغاية من إنشائها .

ويسوق المؤلف عرضاً للعواصم وانتقالاتها : وتظل بعض العواصم التي فقدت أهميتها السياسية ، محتفظة بذكرها كمراكز للديانات .

(هـ) اللغات الرسمية والكتابات الخطية :

يبين المؤلف المشكلات التي تواجه حكام الدول العالمية في اختيار اللغات الرسمية ، ومختلف الحلول التي يوفقون إليها . ويذكر أن تداول بعض اللغات — مثل الآرامية واللاتينية — قد جاوز كثيراً في الزمان والمكان ، اتساعاً أبعد مدى ؛ من حدود الإمبراطوريات التي انتشرت فيها أولاً .

(و) القانون :

هنا كذلك يختلف حكام الدول العالمية كثيراً — أحدهما عن الآخر — في المدى الذي ذهبوا إليه في فرض نظمهم الخاصة على رعاياهم . وقد طبقت أنظمة قانونية لدول ، على طوائف لم تُشرع لها هذه الأنظمة . مثال ذلك ؛ استخدام المسلمين القانون الروماني ، وانتفاع الكنيسة المسيحية به ، واقتباس مؤلفي شريعة موسى من قوانين حمورابي .

(ز) التقويم والموازين والمقاييس والنقود :

يُبين المؤلف مشكلات تعيين التقويم ، والارتباط الشديد بين التقويم والدين . ويذكر أن الطرائق المستخدمة في الوقت الحاضر لحساب الزمن ، ما يزال بعضها من مخلّقات الرومان أو السومريين . ثم يُقرر أن الثورة الفرنسية قد فشلت في الاستغناء عنها .

ويوضح المؤلف بالنسبة للموازين والمقاييس ، المعركة بين النظام العشري والاثني عشري . ويبين بالنسبة للنقود ؛ أهميتها وأساسها في المدن اليونانية ، ثم انتشارها بفضل دخول هذه المدن في نطاق الإمبراطوريتين الليدية والأخيمينية . ثم يتناول ، بالبحث النقود الورقية في العالم الصيني .

(ح) الجيش القائمة :

يعتبر المؤلف الجيش الروماني ، مصدر إلهام للكنيسة المسيحية .

(ط) الإدارات الحكومية :

يوضح المؤلف مشكلات الإدارة الحكومية ؛ بعقد مقارنة بين سياسة كل من أغسطس وبطرس الأكبر ، والحكم البريطاني في الهند ؛ ثم يوضح طابع الإدارة الحكومية في كل من الصين ، والهند تحت الحكم البريطاني . ثم يذكر مدى تأثير الإدارة الرومانية الحكومية في إعداد ثلاثة من كبار مؤسسي المسيحية الغربية .

(ي) المواطنة :

يعتبر توسيع حقوق المواطنين ميزة يُضفيها حكام الدول العالمية على رعاياهم . وتعاون على خلق جو من المساواة ، تزدهر في ظله الأديان العليا .

الباب السابع

الأديان العليا

الفصل السادس والعشرون - أفكار بديلة للعلاقات

بين الأديان العالمية والحضارات

١ - الأديان باعتبارها سرطانات :

طالما أن العقائد الدينية تنمو في الكيانات الاجتماعية المتداعية للدول العالمية ، فطبيعي أن يُنظر إليها كسرطانات ؛ سواء من جانب المعارضين لها من المعاصرين ، أو من جانب مدرسة من المؤرخين المحدثين .

ويسوق المؤلف أدلة على خطئ هذا الرأي . ومن رأيه أن الأديان

نميل إلى إنعاش الشعور بالواجب الاجتماعى فى مريدبها أكثر من اتجاهاها إلى حطمه .

٢ - الأدبان باعتبارها يفعات :

إن لكل من حضارات الجليل الثالث التى ماتزال قائمة فى الوقت الحاضر ؛ عقيدة دينية تعتبر قوام تلك الحضارة . وعن طريق الدين ؛ تتصل الحضارة بصلة النسب ، بحضارة أخرى من حضارات الجليل الثانى ، ويحلل المؤلف ما تدين به الحضارة الغربية الحديثة للعقيدة المسيحية . وعلى العكس من ذلك ؛ تنتسب حضارات الجليل الثانى إلى الحضارات السابقة عليها ، بروابط أخرى ؛ ويرى المؤلف أن هذه الحقيقة تُوحى بإعادة النظر فى الخطوة التى سلم بها فى سياق التاريخ ، حتى الآن :

٣ - الأدبان باعتبارها أنواعا سامية من المجتمع :

(١) تصنيف جديد :

يقرن المؤلف قيام الحضارات وسقوطها ، بدورات عجلة دولاب ، تدفع عربة الدين إلى الأمام . ويعرض المؤلف خطوات التقدم الدينى ماثلة فى أسماء : إبراهيم وموسى والأنبياء العبرانيين والمسيح . ويُعتبر كل منهم - على التوالى - ثمرة لتحلل المجتمعات : السومرية والمصرية والبابلية والهلينية :

فهل يتيح توحيد عالم اليوم ؛ الأمل فى تقدم أسمى ؟

فإن كان الأمر كذلك ، تعين على الأدبان العليا أن تتعلم

دروسا صعبة .

(ب) مغزى ماضى الأديان :

يسلم المؤلف بأن تاريخ الأديان العليا - حتى اليوم - يلوح أنه لا يبيها للدور الذى يرسمه المؤلف فى دراسته .

(ج) الصراع بين القلب والعقل :

إن ضغط العلم الحديث على الدين ، لم يكن الصراع الأول من نوعه . فإن الصراع بين المسيحية الأولى والفلسفة الهلينية ؛ قد انتهى بإيجاد حل وسط يوفق بينهما . وارتضى الفلاسفة بمقتضاه « حقيقة » الوحي المسيحى ، على شريطة أن يسربل ذلك الوحي نفسه بلغة الفلاسفة . ولقد أصبحت هذه السرابيل الهلينية البالية - منذ أمد طويل - مصدرا للحيرة ؛ بتحملها الكنيسة المسيحية وزر إخفاق عدد من القضايا الغير الدينية التى لا تتصل بالمسيحية بسبب .

وبين المؤلف أن الدين يجب أن يسلم للعلم فى جميع مبادئ المعرفة الثقافية التى يستطيع العلم أن يقيم لنفسه فيها مجالا . وعنده أن الدين والعلم يعنيان بضربين مختلفين من الحقيقة ، وأن دراسة اللاشعور فى علم النفس الحديث ؛ تلقى ضوءاً عميقاً على طبيعة الاختلاف .

(د) بشائر مستقبل الأديان :

إن السمة المميزة للأديان ؛ إجماعها على الإيمان بإله واحد حق . وهذا ما يفرقها عن جميع أنواع المجتمعات الأخرى . ويُقصص المؤلف عن نتائج هذا الاختلاف .

الفصل السابع والعشرون - دور الحضارات

فى حياة الأديان

١ - الحضارات باعتبارها إفتتاحيات :

يبعث المؤلف معجم الإصطلاحات التكنولوجية التى استعارتها الكنيسة

المسيحية من الحضارة الهلينية ، ثم حولتها إلى استعمالات جديدة . ويعتبر ذلك مثالا لما يدعوه بظاهرة « الأثرية » (أى التسامى) .
ومن رأيه أن الحضارة الهلينية قد أدت دور الافتتاحية للعقيدة المسيحية .

٢ - الحضارات باعتبارها نكوصا :

يبين المؤلف ما يتلو ذلك من انحطاط لهذه المصطلحات التكنولوجية عند ما يستخدمها المجتمع الغربى فى مجالاته الديوية ، هذا المجتمع الذى انبعث عن الكنيسة المسيحية ، ثم تحرر من سلطانها .

الفصل الثامن والعشرون - نشر الدعوة الدينية فى العالم

إن خروج الحضارة المنتمية إلى دين على هذا الدين ، يرجع إلى خطوات خاطئة ارتكبتها العقيدة الدينية : هذه الخطوات نتيجة حتمية لتضمين روح الدين فى نظام كهنوتى يهدف إلى بث الدعوة إلى العقيدة الدينية فى أنحاء العالم .
ويسجل المؤلف أربعة نماذج لخطوة الخاطئة :

(أ) سيطرة سياسية تهيب سبباً معقولا للمساس بالسلطات الديوية ، بحسبانته تدخلا فى قيامها على أداء واجباتها المنوطة بها .

(ب) النجاح الاقتصادى الذى لا بد وأن يلأزم أداء الواجبات الاقتصادية « بجرارة » كما لو كانت تؤدى للخالق ، لا للإنسان .

(ج) تحويل الكنيسة مجموع ذاتها إلى إله يُعبد .

فهل يعجز الدين عن الوعد بـ « عصر ذهبي » يترأى فى نهاية المطاف ؟
ربما يتيسر ذلك فى « العالم الآخر » . لكنه لن يقع فى عالمنا هذا . فإن الخطيئة الأزلية تقف عقبة كأداء . و « هذا العالم » لإقليم فى ملكوت الرب ؛ لكنه إقليم متمرّد ؛ ومن طبيعة الأشياء أن يبقى كذلك .

الباب الثامن

عصور البطولة

الفصل التاسع والعشرون - سياق المأساة

١ - حاجز اجتماعي :

عصر البطولة ، نتيجة اجتماعية وسيكلوجية لتبلور الثغور - أو التخوم الحربية - القائمة بين الدولة العالمية لحضارة متحللة ، والمتبربرين القاطنين وراء هذه التخوم . ويمثل بحاجز أو سد مقام على وادٍ ؛ فيوجد - بذلك - خزاناً عليه .

ويورد المؤلف في هذا المبحث وفي غيره من مباحث الفصل التالية ، ما يتضمنه هذا التشبيه .

٢ - تراكم الضغط :

يتزايد الضغط على الثغور - أو السد - كلما تعلم المتبربرون القاطنون خلف التخوم ؛ الأساليب التكنولوجية الحربية للحضارة التي يقفون إزاءها بالمرصاد . ويجد حراس الحضارة أنفسهم مضطرين إلى استخدام المتبربرين أنفسهم . ثم ينقلب هؤلاء الجنود المرتزقة على ساداتهم ، ويوجهون ضربتهم إلى قلب الإمبراطورية .

٣ - الاجتياح ونتائجه :

لا مناص من أن يتطور نجاح البرابرة المنتصرين ، إلى أداة لهزيمتهم . فإلهم - إجمالاً - غير أكفاء لمجابهة الأزمة التي أوجدوها بأنفسهم . ومع ذلك فإن البرابرة يقومون خلال محنتهم ؛ ببطولات أسطورية ومثّل عليها للسلوك ؛ مثل تلك التي وردت فيما كتبه هوميروس عن آلهة النعمة ،

وما ورد في فضيلة « الحلم » عند الأمويين . وينتهي المطاف بعصر البطولة المشوش - فجأة - في صورة مذهلة . ويتلوه « عصر مظلم » تعود في خلاله قوى القانون والنظام تؤكد وجودها بالتدرج . وهكذا تنتهى « فترة الفراغ » لتنبعث حضارة جديدة .

٤ - الخيال والحقيقة :

يُشير المؤلف إلى تصنيف « هسيود » الغريب للعصور ؛ إذ يجعلها وفقاً للمعادن : الذهب ، الفضة ، البرونز ، الحديد . وأن ثمة عصرًا هو « عصر الأبطال » يُدرج بين عصرى البرونز والحديد .

و « عصر الأبطال » هو في الواقع عصر البرونز ، ويُضنى عليه هومروس من الخيال ما يجاوز الحقيقة . وعند المؤلف أن فتنة شعر البطولة الذى أنتجته البربرية الظافرة ، هى التى خدعت « هسيود » وشاعر العصر المظلم التالى . ولقد خدع شعر البطولة التالى هذا أيضاً ، أتباع الرايح الثالث الذين مجدّوا « الوحوش الشقراء » للبربرية « النوردية » . على أن البرابرة كانوا حلقة اتصال ارتبطت عن طريقها حضارات الجليل الثانى - التى أنتجت الأديان العليا - بحضارات الجليل الأول .

حاشية - كتيبة الجند من النساء الشيطانات

يسوق المؤلف تفسيراً لما قامت به النساء الشيطانات من دور بارز في مآسى عصور البطولة . ليس فقط في الأسطورة ، وإنما في الواقع كذلك :

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات في المكان

الفصل الثلاثون - امتداد ميدان الدراسة

إن الحضارات التى يمكن دراستها دراسة وافية ، كل منها على حدة ،

في مراحل نشوئها ونموها واستطالتها وانهارها : إن هذه الحضارات تصبح دراستها غير مفهومة في مرحلة تحللها النهائي .

ومن ثم يرى المؤلف ضرورة دراسة اتصالاتها ، وهي في هذه المرحلة الأخيرة . ويذكر أن طائفة من المناطق الجغرافية مثل ، سوريا وحوض نهري سيحون وجيحون ، كانت معالم بارزة في تاريخ هذه الاتصالات : وليس من قبيل المصادفة ، أن هذه المناطق نفسها والأجزاء المجاورة لها مباشرة ، قد ضمت المواطن التي شهدت مولد الأديان العليا .

الفصل الحادى والثلاثون

عرض للتلاقى بين الحضارات المعاصرة

١ - منهاج العمل :

نقترح البدء ببحث التلاقى بين الغرب الحديث وجميع الحضارات المعاصرة له : ويمكن تأريخ بداية العصر الحديث من تاريخ المجتمع الغربى بحدثين :

وقع الحادث الأول مباشرة قبل نهاية القرن الخامس عشر .

ووقع الثانى مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر .

والحدث الأول هو إمتلاك ناصية فنون الملاحة في المحيطات . والحدث

الثانى هو تفكك عرى وحدة العالم المسيحى : تلك الوحدة الى أقامتها البابوية وحافظت عليها :

وكان « الإصلاح » البروتستانتى - بالطبع - مرحلة في عملية طويلة من التطور بدأت في القرن الثالث عشر ، ولم تستكمل حتى القرن السابع عشر . بيد أن « الإصلاح » نفسه ، قد باغت نفس الجيل الذى شهد رحلات كولومبوس وجاما : وبعد هذا ؛ نخطو في التاريخ خطوة إلى الوراء وندرس صلات الغرب في مرحلة تاريخه الوسيط ، مع المجتمعين المنافسين له ، اللذين

تتلاقى بهما . ثم ندرس بعد ذلك صلات المجتمع الهليني . ونختتم البحث بإلقاء نظرة على صلات أسبق من نفس النوع .

وإذ نعالج موضوع صلات العالم الغربي الحديث ؛ سنرى أن هذه الفصول من التاريخ - ولو أنها معروفة لنا بالتفصيل حتى الوقت الحاضر - غير مستكملة كلها أو ربما أكثرها ، ولا تزال تحمل علامة إستفهام .

٢ - العمليات وفقا للمهاج :

(١) التلاقى بالحضارة الحديثة :

أولاً - الغرب الحديث وروسيا :

كابعد الموطن الأصيل للمسيحية الأرثوذكسية الروسية ؛ الشيء الكثير من إغارات وغزوات قامت بها دولة بولندا - ليتوانيا وهى إحدى الدول الغربية الإقليمية ، منذ القرن الرابع عشر وما بعده . ومنيت بخسائر لم تستطع استردادها كلها إلا فى عام ١٩٤٥ ميلادية . ولقد تلقى بطرس الأكبر إشعاع الثقافة الغربية باستجابة تتسم بالمسايرة والترحيب . بيد أنه بعد أن مرّ قرنان على خِطط الاقتباس من الغرب طبقا لخطوط وافق عليها الغرب نفسه ، وجد أن نظام بطرس الأكبر بعد أن وُضِعَ موضع التجربة ، تبينت أغلاطه وأخطاؤه ، وقتما صدمته حمة الحرب العظمى الأولى . فكان أن اقتلعه وحل محله نظام غربى الأصل ، مرتدّ من المبادئ الغربية ، هو ؛ الشيوعية .

ثانياً - الغرب الحديث والكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية :

تغلغلت الثقافة الغربية فى هذا المجتمع الذى ضُمَّت أجزاءه بعضها إلى بعض تحت حكم دولة عالمية دخيلة عليه هى الإمبراطورية العثمانية . ولقد تغلغلت هذه الثقافة ، بادئة بالطبقات الدنيا إلى العليا ، على عكس ما حدث فى روسيا . وحدث ذلك ابتداء من القرن السابع عشر وما بعده ؛

وكان من المحتمل أن يؤدّي ذلك إلى غلبة التأثير الغربي على إمبراطورية البادشاه بتأثير اليونانيين الفناريين . بيد أن الحركات الوطنية قد تغلبت لسوء الحظ ، فأدت إلى حطيم الإمبراطورية إلى دول إقليمية . وأخفقت روسيا في أن تكفل لنفسها زعامة هذه الشعوب : سواء وفقا لأسس جامعة أرثوذكسية ، أو جامعة سلافية . وإن كان قد فُرض على بعضها أخيراً نظام جامعة شيوعية روسية .

ثالثاً - الغرب الحديث والعالم الهندى :

فرض الغرب هنا نفسه فى شكل دولة عالمية دخيلة ، حلت محل دولة عالمية دخيلة أخرى ، هى الإمبراطورية الإسلامية المغولية التى كان قد أصابها التفكك . ولقد استخدم الحاكم البريطانى صفوة من الهنود ، مثلما استخدم البادشاه العثمانى صفوة من المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين . وجاء الوقت الذى نجحت فيه هذه الصفوة الهندية - فى حين عجز الفناريون - فى تغليب العنصر الهندى فى إدارة الأملاك البريطانية السابقة ، مع الاحتفاظ به سليماً ، ما خلا الاستثناء الضخم المتصل بانفصال باكستان .

وناقش المؤلف النقاط القوية والضعيفة فى الإدارة البريطانية الهندية : وأبدي أن مشكلة السكان هى السحابة التى تخيم فى أفق مستقبل الهند .

رابعاً - الغرب الحديث والعالم الإسلامى :

فى مطلع العصر الحديث من تاريخ الغرب ؛ كان المجتمعان الإسلاميان الشقيقان « الإبرانى » و « العربى » ، يتفان سداً فى وجه جميع المسالك البرية التى تصل ممتلكات المجتمعين الغربى والروسى بسائر أنحاء العالم . بيد أنه تلا ذلك مباشرة ، إنقلاب مثير لمصير العالم الإسلامى وفى غير مصلحته . وترتب على ذلك الإنقلاب فى ميزان القوى أن عدداً من

«حكام الدول الإسلامية قد راحوا يطبقون سياسة بطرس الأكبر القائمة على «مسيرة الغرب» ، بدرجات متفاوتة في التوفيق .

ويضم العالم الإسلامي مواطن ثلاثة من الحضارات الأربع الرئيسية . ولقد تعززت الثروات الزراعية الطبيعية لهذه المناطق ، بفضل الكشف عن ثرواتها المكنونة من النفط . ونتيجة لذلك ، أصبحت المناطق الإسلامية بمثابة بستان الكرم لعالم القرن العشرين الذي تتصارع فيه روسيا والغرب .

خامسا - الغرب الحديث واليهود :

لم تتلاءم فكرة «التشتت اليهودي» مع النظام الغربي القائم على دول إقليمية متجانسة ، وفي استعراض تاريخي يبدأ ، لا من مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربي ، ولكن من بداية المجتمع المسيحي الغربي نفسه ؛ تمكن ملاحظة ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (أى في تاريخ القوط الغربيين) - استبانة خلالها فائدة اليهود رغمًا عن كراهية الجاهل لهم ، وسوء معاملتهم إياهم . إذ كان المسيحيون الغربيون (كما قال سيسيل رودس عن الرؤساء المتخرجين من أكسفورد) «أطفالا في الشؤون المالية» .

المرحلة الثانية - تعلم فيها المسيحيون الغربيون أن يكونوا لأنفسهم يهودا منهم . فكان أن طُرد اليهود (ويطالعا في هذا الصدد طرد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩١) .

المرحلة الثالثة - كان فيها المجتمع الغربي قد أصاب من الكفاءة ما جعله يسمح لليهود بالعودة إليه مرة أخرى (مثال ذلك عودتهم إلى إنجلترا عام ١٦٥٥) : والترحيب بخبرتهم في عالم المال والتجارة ؛ بيد أن العصر الذي اتسم بتحرره والذي تلا ذلك ، لم يُثبت أنه آخر القصة ؛

ويختتم هذا القسم بدراسات للنزعة المناهضة للسامية ، وللصهيونية ؛

سادساً - الغرب الحديث وحضارتي الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية

الأصيلة :

لم يكن لهذه سابق اتصال بالغرب قبل أن يدخل الغرب في مرحلته الحديثة . وقد بدا للعيان أن جميع الحضارات الأمريكية قد زالت من الوجود ؛ ولو أن هذه الفكرة قد تكون مضللة . ومن عجب أن تسير جنبا إلى جنب ؛ قصص ضغط الغرب الحديث على الصين واليابان . ففي كلتا الحالتين ؛ لقيت الثقافة الغربية ترحيبا في شكلها اللينى المبكر الحديث . لكن تلا الترحيب ، إعراض عنها . ثم جاء بعد ذلك تأثير الأسلوب التكنولوجي الغربي . ويعزى - إلى حد كبير - الاختلاف بين تاريخي البلدين إلى حقيقة مبناها أن الصين إمبراطورية واسعة مفتوحة الأبواب ، في حين أن اليابان جماعة جزرية محكمة . ولكن المجتمعان في حالة خسوف وقت كتابة هذه السطور : فالصين رزحت تحت السيطرة الشيوعية ووقعت اليابان تحت السيطرة الأمريكية . وكان المجتمعان كلاهما - كالهند - يواجهان مشكلة تضخم السكان .

سابعاً - خصائص التلاقى بين الغرب الحديث والمجتمعات المعاصرة له :

إن الحضارة الغربية الحديثة ، هي حضارة « طبقة متوسطة » . ولقد رحبت المجتمعات الغير الغربية التي نمت طبقتها المتوسطة فيها ؛ بالطابع الغربى الحديث . فإن رغب حاكم حضارة غير غربية لايضم مجتمعه طبقة متوسطة وطنية أن يصنع بلاده بالصيغة الغربية ؛ فإن عليه أن يصطنع تحقيقا لغرضه ، طبقة متوسطة في شكل طبقة مثقفة . وهذه الطبقات المثقفة ؛ تنقلب في النهاية على سادتها .

(ب) التلاقى مع مسيحية الغرب الوسيط :

أولا - مد الحروب الصليبية وجزرها :

دخلت المسيحية الغربية فى القرون الوسطى ، حقبة من التوسع فى القرن الحادى عشر . وتلتها فترة من الأفول ثم الارتداد على بعض الحدود دون أخرى ، بعد ذلك بقرنين :

ويحلل المؤلف عوامل هذا الامتداد ؛ وما تلاه من إرتداد :

ثانيا - الغرب الوسيط والعالم السورى :

كان ثمة أوجه شبه مشتركة بين كثرة الصليبيين وخصوصهم المسلمين . فلقد كان « الفرنج » النورمانيون والسلاجقة الأتراك - كلاهما - فى سالف عهدهما برابرة اعتنقوا حديثا الدين الأسمى للمجتمع الذى انخرطوا فيه والذى سيطروا عليه من عدة وجوه . ولقد أثر إشعاع الحضارة السورية فى المجتمع المسيحى الغربى الأقل تقدما . وبدا ذلك فى الشعر والعمارة ، وفى الفلسفة والعلوم :

ثالثا - الغرب الوسيط والمسيحية اليونانية الأرثوذكسية :

قام بين هذين المجتمعين المسيحيين ؛ نفور أشد مما كان بين أى مجتمع منهما وبين جيرانه المسلمين . ويظهر هذا النفور المتبادل فى اقتباسات من تقرير ليوتبراند الأسقف للمباردى عن مهمته إلى القسطنطينية ، كما يظهر أيضا فى الصورة التى رسمتها حنا كومنينيا فى تاريخها للصليبيين .

(ج) التلاقى بين حضارات الجيلين الأولين :

أولاً - التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما بعد الإسكندر :

تلاقى الحضارة الهلينية فى هذه الحقبة مع كل حضارة معاصرة لها فى العالم القديم . ولكن النتائج التى ترتبت على الإشعاع الهلنى الذى أعقب هذا التلاقى ؛ لم تثمر ثمرتها ، ولم تستكمل فاعليتها ؛ إلا بعد انقضاء بضعة قرون من تحلل المجتمع الهلنى نفسه . ولقد جاوز إنتشار الثقافة الهلينية فتوحات الجيوش الهلينية كثيراً . مثال ذلك ، انتشارها فى العالم الصينى . ويتميز عهد الإسكندر فى التاريخ الهلنى ؛ بتوسع تمكن مقارنته بشق المحيطات فى تاريخ المسيحية الغربية . بيد أنه بينما كان الغرب - فى طوره الحديث - يحرر نفسه من عقيدته الدينية اليفعة (أى المسيحية) ؛ لم يكن لدى الحضارة الهلينية مثل هذه اليفعة ؛ ومن ثم كان توفيقها للدين ، يعظم ويشدد .

ثانياً - التلاقى مع الحضارة الهلينية فى عصر ما قبل الإسكندر :

كان ثمة صراع بين ثلاثة متنازعين فى سبيل السيطرة على حوض البحر المتوسط وهم : المجتمع الهلنى فى عصر ما قبل الإسكندر ، والمجتمع السورى ، وبقية متحجرة من المجتمع الحيثى تتكون من الآترويين . ولقد تبدى المجتمع السورى على السواء : فى قوة الفينيقيين البحرية ، وفى الأمبراطورية الأخمينية ؛ فى المراحل التالية من القصة . وقد ثبت أن أهم الفتوحات الثقافية هى صنع روما بالصبغة الهلينية ؛ وقد تم هذا بطريق غير مباشر هو تحوّل الآترويين أولاً إلى الثقافة الهلينية .

ثالثا - الشليم والقمح :

إن النتائج الوحيدة المثمرة للتلاقى بين الحضارات ، هي ما يتم إنجازه في ظل السلام . وأورد المؤلف أمثلة لهذا من التلاقى بين الحضارات : السندية والصينية والمصرية والسومرية .

الفصل الثانى والثلاثون - مأساة التلاقى بين المتعاصرين

١ - ترابط التلاقى :

إن تحدّياً من جانب واحد ، يقود - على الصعيد الحربى - إلى إحداث تحدّ من الجانب الآخر . ويواصل التحدّى الأخير سيره ليصبح عدواناً ؛ يثير بدوره دفعا .

ويتبع المؤلف سلسلة من مظاهر التلاقى بين « الشرق » و « الغرب » إبتداء من عدوان الإمبراطورية الأخمينية على اليونان ، حتى ردود فعل الشعوب الغير الغربية خلال القرن العشرين ضد الاستعمار الغربى :

٢ - إختلافات الاستجابات :

ليست الاستجابة الحربية ، بالاستجابة الوحيدة المتاحة . ومصدقا لذلك ، تعزز روسيا الشيوعية أسلحتها بالحرب الايدلوجية . وحينما تتعذر الاستجابة الحربية أو تفشل تجربتها ، تُحدث الشعوب المغزوة رد فعل بوساطة الاحتفاظ بذاتيتها لجماعات . ويتم ذلك عن طريق إستنبات دينها استنباتا كثيفا . ويطالعا المثال التقليدى عن تلك الاستجابة المتمثلة في اليهود منذ تشتتهم .

وتتمثل الاستجابة الساءية ؛ في إيجاد دين أعظم سموأ يأسر إليه آسريه ، على طول المدى .

الفصل الثالث والثلاثون - نتائج التلاقى بين المتعاصرين

١ - أعقاب الاعتداءات الفاشلة :

قد يترتب عن النجاح فى ضد العدوان ، إشاعة النزعة الحربية فى المنتصر ؛ بما يتلو ذلك فى النهاية من نتائج جاثمة .

ومصادقا لذلك ؛ قاد انتصار اليونانيين على المعتدى الأخيمني ، إلى إنهيار الحضارة الهلينية فى خلال خمسين سنة .

٢ - فى أعقاب الاعتداءات الناجحة :

(أ) تأثيرات تصيب الكيان الإجتماعى :

يتمثل الثمن الإجتماعى الذى يقتضى الحضارة التى وفقت فى عدوانها ، ادائه ، فى تسرب ثقافة ضحاياها الغرباء إلى مجرى حياتها ذاته . ويشابه ذلك فى تأثيره على ضحايا العدوان ؛ وإمكن مع زيادة فى التعقيد . ويطالعا فى هذا الشأن أن إدخال المثل والنظم الغربية على المجتمعات الغير الغربية ، غالبا ما يُنتج نتائج محيرة . ذلك لأن ما هو طعام لشخص ، قد يكون سماً لآخر . والواقع أن الفشل هو مصير محاولة إدخال عنصر من عناصر ثقافة أجنبية ، مع استبعاد بقية العناصر .

(ب) استجابات النفس :

أولاً - تجريد من صفات الإنسانية :

يستسلم الغير إلى الكبرياء المتعجرفة ، فيعتبر الشعوب المغرورة « كلابا خاسرة » . وهكذا يتنكر لمبدأ أخوة الإنسان للإنسان . وعند ما يُعتبر « الكلب الخاسر » كافرا ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية بفضل « الهداية » . وعند ما يُنظر إليه على أنه « متبربر » ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية

عن طريق إجتيازه امتحانا . بيد أنه عندما يُنظر إليه وفقا للاصطلاح الشائع عند المستعمرين « وطنى » ، عندئذ يفقد الأمل ؛ إذ يغدو عاجزا عن خلع سيده أو هدايته إلى عقيدته .

ثانيا - التزمّت والمسايرة :

يتضمن الاصطلاحان تمييزا قريب المنال ، بين الإعراض عن طباع الفاتح وقبولها . بيد أن القيام بفحص أشد قُرْبًا ؛ يوحى إلى الدهن بأن التمييز ليس قريب المنال بالدرجة التى تظن فى بداية الأمر .
ويفسّر المؤلف هذه النقطة بدراسة اليابان الحديثة وبدراسة سيرتى غاندى ولينين .

ثالثا - التبشير :

يذكر المؤلف أن الانهزام الذاتى للمتمزمتين والمسايرين الأصليين ، قد وقف حائلا ضد عمل القديس بولص الفذ .

حاشية - آسيا وأوروبا - حقائق وأوهام

تولدت آسيا وأوروبا ؛ إسمين للسواحل البرية المقابلة التى تواجه الملاحين اليونانيين فى رحلاتهم بين بحر إيجه والبحر الأسود . ولم يُسفر لإضفاء مغزى سياسى أو ثقافى على الاصطلاحين عن شىء سوى البلبلة .
إذ تعتبر أوروبا ، شبه قارة من قارة أوراسيا محددة تحديد سيثا .

تصويب

صفحة	سطر	خطاً	صواب	صفحة	سطر	خطاً	صواب
٣	١٩	سيطرة	مسيطرة	٢٢١	١٦	جافز	حافز
١٧	١١	لطور	لطر د	٢٢٥	١٦	شأنه	شأن
١٧	١٦	إستملكها	إستمساكها	٢٣٨	١٧	- إلى حد ما -	تعتبر - إلى حد ما
٢٠	١١	الذين	اللذين	٢٣٨	١٩	بتقديمه	بتقديمها
٢٤	١٩	بلى	بلى	٢٤٠	١٤	الغلظ	الغليظ
٢٤	الأخير	الإراديين	الإداريين	٢٤٠	١٨	مستخدماً	مستخدمة
٣٨	٢٣	تنظما	تنظيما	٢٧١	١١	ينبني	ينبنى
٤٥	٩	الحزيت	الجزويت	٢٨٠	٢٩	١٩٥٣	١٤٥٣
٤٥	١٠	للعالم	العالم	٣٢٢	١٤	الموحلة	المرحلة
٤٦	٨	السائد	السائدة	٣٢٩	٤	العدوى	العددى
٦٥	٨	نستعد	نستعيد	٣٥٣	٥	ما يتمتع	ما يتمتع
٧٥	٨	امت	اتسع	٣٧٨	٥	ولعه	ولعه
٨٧	٣	الخلافة	الخلافة	٣٨١	١٧	مدن	ملك
٩٤	١٨	يبالغ	يلبغ	٣٨٨	٣	التصادمين	المتعاصرين
٩٨	١٥	علاقتها	علاقتها	٣٩٩	٢١	إله الخير	إله الشر
١١٣	٧	مملكة	ملككة	٤٠٠	١٠	بالإبداع	(تشطب)
١٥٣	١١	عقائد	إلا عقائد	٤٠٠	١٦	طاقات الإبداع	طاقاتها بالإبداع
١٧٨	١	يتأق	يتأق	٤٠٣	١٥	يحتازاه	يحتازان
١٨٢	٣	طرقه	طريقه	٤٠٧	٢٠	الدول	الدولة
١٨٢	١٥	قإن	فإن	٤٠٨	٩	الشرقية	الشرقية
١٨٢	٢٠	نخلص	تخلص	٤١٤	٣	أحابيل	من أجايل
١٨٥	٩	أحد	إحدى	٤٢٨	١٨	التشتت	التشتت
١٩٢	٨	الطبيعية	الطبيعية	٤٣٦	٤	فملا	فصلا
١٩٦	٦	إليها	لمن	٤٤١	١٩	فله	فونه
١٩٨	١١	بمكس	يعكس				

فهرس

الجزء الثالث من « مختصر دراسة للتاريخ »

الموضوع	صفحة
تقديم	٥
الباب السادس	
الدول العالمية	٣
الفصل الثالث والعشرون - غايات أم ذرائع	٣
الفصل الرابع والعشرون - سراب الخلود	٧
الفصل الخامس والعشرون - وهكذا تكذب لغبرك	١٩
١ - قدرة الدول العالمية على التوصيل	٢٠
٢ - سيكلوجية السلام	٢٥
٣ - صلاحية النظم الامبراطورية للتطبيق العملي	٣٧
(أ) وسائط الاتصال	٣٧
(ب) الحمايات والمستعمرات	٤٧
(ج) الأقاليم	٦٠
(د) كراسى الملك من الأمصار	٦٧
(هـ) اللغات الرسمية وحروف الكتابة	٨١
(و) القانون	٩٢
(ز) التقاويم والأوزان والمقاييس	١٠٠
أولا - التقاويم	١٠١
ثانيا - الأوزان والمقاييس	١٠٨
ثالثا - النقود	١١١
(ح) الجيوش العاملة	١١٧
(ط) الوظائف العاملة	١٢٣
(ى) حقوق المواطنين	١٣٤

الباب السابع

الأديان العالمية

الفصل السادس والعشرون — آراء بديلة للعلاقة بين الأديان العالمية

والحضارات ١٤١

١ - الأديان سرطانات ١٤١

٢ - الأديان باعتبارها يفعات ١٥١

٣ - العقائد باعتبارها نوعاً أرق من المجتمع ١٦١

(أ) تصنيف جديد ١٦١

(ب) مغزى ماضى العقائد الدينية ١٧٠

(ج) صراع القلب والعقل ١٨٧

٤ - بشأن مستقبل الأديان ١٨٧

الفصل السابع والعشرون — دور الحضارات فى حياة العقائد الدينية ١٩٧

١ - الحضارات افتتاحيات ١٩٧

٢ - الحضارات تكوص ٢٠١

الفصل الثامن والعشرون — تحدى الفطرة الحربية على الأرض ٢٠٧

الباب الثامن

عصور البطولة

الفصل التاسع والعشرون — سياق المأساة ٢١٩

١ - حاجز اجتماعى ٢١٩

٢ - تجمع الضغط ٢٢٥

٣ - الجائحة وعقبها ٢٣٧

ملاحظة - كتيبة النساء المريفة

الباب التاسع

الاتصال بين الحضارات فى المكان

الفصل الثلاثون — إمتداد ميدان الدراسة ٢٦٥

الفصل الحادى والثلاثون - عرض للمصادمات بين الحضارات المتعاصرة ٢٧١

- ١ - خطة العمل ٢٧١
- ٢ - عمليات وفقاً لمنهج ٢٧٨
- (أ) - تلاقى مع الحضارة الغربية ٢٧٨
 - أولاً - الغرب الحديث وروسيا ٢٧٨
 - ثانياً - الغرب الحديث والكتلة الرئيسية من العالم المسيحى الأرثوذكسى ٢٨٣
 - ثالثاً - الغرب الحديث والعالم الهندى ٢٩٥
 - رابعاً - الغرب الحديث والعالم الإسلامى ٣٠٧
 - خامساً - الغرب الحديث واليهود ٣١٥
 - سادساً - الغرب الحديث وحضارتنا الشرق الأقصى والحضارات
الأمويكية البدنية الأصلية ٣٣٠
 - سابعاً - خصائص التلاقى بين الغرب الحديث ومعاصريه ٣٤٠
- (ب) التلاقى مع مسيحية القرون الوسطى الغربية ٣٤٠
 - أولاً - مذ الحروب الصليبية وجزرها ٣٤٧
 - ثانياً - الغرب فى العصور الوسطى ، والعالم السورى ٣٥٣
 - ثالثاً - الغرب الوسيط والمسيحية الأرثوذكسية اليونانية ٣٥٧
- (ج) تلاقى حضارات الجيلين الأولين ٣٦٨
 - أولاً - تلاقى مع الحضارة الهلينية فى مرحلتها التالية لعصر الإسكندر ٣٦٨
 - ثانياً - التلاقى مع الحضارة الهلينية لعصر ما قبل الإسكندر ٣٧٣
 - ثالثاً - شيلم وقمح ٣٨٥

الفصل الثانى والثلاثون - مأساة التلاقى بين المتعاصرين ٣٨٨

- ١ - تسلسل التلاقى ٣٨٨
- ٢ - تباين الاستجابات ٣٩٣

الفصل الثالث والثلاثون - نتائج التلاقى بين المتعاصرين ٤٠٠

- ١ - أعقاب الاعتداءات الفاشلة ٤٠٠
- ٢ - فى أعقاب الاعتداءات الناجحة ٤٠٣
- (أ) تأثيرات تصيب الكيان الاجتماعى ٤٠٣

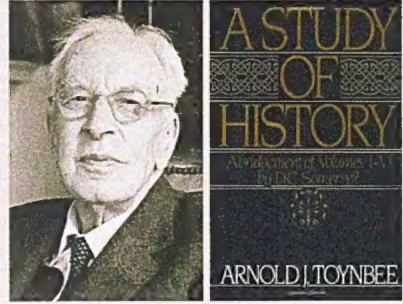
الموضوع	صفحة
(ب) استجابات النفس	٤١٦
أولاً - تجريد من صفات الإنسانية	٤١٦
ثانياً - نزعة التزمت ونزعة المسايرة	٤٢٣
ثالثاً - التبشير	٤٣٤
حاشية - آسيا وأوروبا - حقائق وأوهام	٤٣٩
سياق الاستدلال	٤٤٥
أخطاء مطبعية	٤٦٧
الفهرس	٤٦٩

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنى : حسن كامل

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



يذهب توينبي في هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية. يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهايار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبي يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرد به بصنع الحضارة، فالأعراق - فى معظمها - ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة. ويرى توينبي أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية - على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.